خزانة الأدب

وغاية الأرب

تأليف

العالم الأديب الشيخ تقي الدين أبي بكر علي

المعروف بابن حجة الحموي

رحمه الله

شرح

عصام شعيتو

دار البحار
بيروت

دار ومكتبة الهلال
بيروت

خزانة الأدب
وغاية الأرب
١

الطبعة الأخيرة

2004م

تطلب منشوراتنا في الولايات المتحدة الامريكية وأوروبا
على العنوان التالي:

P.o.Box:3266
Fallschurch.
Virginia usa . 22043

خزانة الأدب
وغاية الأرب

تأليف العالم الأديب

الشيخ تقي الدين أبي بكر علي
المعروف بابن حجة الحموي
رحمه الله

شرح

الأستاذ عصام شعيتو

المجلد الأول

الطبعة الأخيرة

المتعهد الوحيد لتوزيع منشوراتنا:

دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر

جادة هادي نصرالله - بناية برج الضاحية - ملك دار ومكتبة الهلال
تلفون: 00 961 1 540891 فاكس: 00 961 1 540892 خليوي: 00 961 3 336767
ص.ب. 15/5003 الرمز البريدي 2010 - 1101 المصيطبة - بيروت لبنان
http:\\www.darelhilal.com E-mail: info@darelhilal.com

تمهيد وتقديم

بسم الله الرحمن الرحيم، رب اليراع والرقيم، والحمد لله رب العالمين الذي لا ننفك نستهدي به ونستعين، حمداً يبلغ غاية رضاه، ويعجز الكل عن إدراك كنهه ومداه. والصلاة والسلام على هادي الأدباء ومعلم الفصحاء والبلغاء، محمد ﷺ رسول الله وخاتم الأنبياء، وعلى آله المطهرين النجباء، كلما سال مداد على طرس، وأشرقت على بني الغبراء شمس، وبعد.

إعلم، هداك الله، أن أهم العلوم على مدار الزمان، باعتراف علماء أهل الملل والأديان، هو ذلك العلم الذي يسعى إلى اكتشاف هذا الكون وفهمه وتفسيره، ومن ثم تسخيره في سبيل سعادة الإنسانية وخيرها، والسير بها في مدارج الكمال. وأن كل ما عدا ذلك وانحرف عن هذا الهدف من العلوم، إنما هو سفسطة ومضيعة للوقت، ومجلبة للزهو والعجب، بل هو حجر عثرة في طريق تقدم بني البشر وسعادتهم ورقيهم.

ورأس العلوم ما يوصل إلى معرفة خالق هذا الكون، عن طريق تعلم القرآن وفهمه، لأنه كتاب الله المعجز الذي يدل على مبدعه، ويوقف المرء على نواهيه وأوامره، إذ هو الخبير بما يصلح مخلوقاته ويسعدهم في رحلتهم الدنيوية، وينجيهم من العذابات الأخروية.

واعلم أن هذا العلم هو علم البلاغة التي تبدأ بمعرفة الفصاحة، أو معرفة اللغة والتبحر فيها، إذ هي لغة القرآن ووعاء الفكر، ومن ثم معرفة الأساليب التي يعبر بها أصحاب هذه اللغة عن أفكارهم وما تنطوي عليه صدورهم.

والفصاحة والبلاغة، في نظرنا وفي نظر الكثيرين، هي أَوْلى العلوم بالتعلم، وأحقها

بالتحفظ، إذ لا يجوز الإخلال بها ما دام الهدف الذي تسعى إليه هو غاية الغايات، فليس بعد معرفة الله سبحانه وتعالى حكمة.

كما أن للفصاحة والبلاغة فضائل أخرى مشهورة، ومناقب لا تخفى معروفة، ومنها كما يذكر أبو هلال العسكري[1]: أن من لا يتقنها لا يمكنه التفريق بين جيد الكلام ورديئه، أو بين حسن اللفظ وقبيحه، ولا بين نادر الشعر وبارده، فيظهر بذلك جهله ونقصه.

«فإذا أراد أن يصنع قصيدة أو ينشيء رسالة ـ وقد فاته هذا العلم ـ مزج الصفو بالكدر، وخلط الغرر بالعرر[2]، واستعمل الوحشي العكر، فجعل نفسه مهزأة للجاهل.

«وإذا أراد أيضاً تصنيف كلام منثور، أو تأليف شعر منظوم، وتخطى هذا العلم، ساء اختياره له، وقبحت آثاره فيه، فأخذ الرديء المرذول، وترك الجيد المقبول... وقد قيل: اختيار الرجل وافد عقله»[3].

تطور علم البديع حتى عصر ابن حجة:

كان علم البديع في بداياته، سليقة لدى الكتاب والأدباء العرب، ولم يكونوا يعرفونه بهذا الإسم، وإنما كانوا يطبقونه في ما ينشئونه أيام جاهليتهم. أيام كانوا يجتمعون في الأسواق والأندية الأدبية، أمثال المربد وعكاظ وغيرهما، يتناشدون الأشعار أمام زهير والنابغة الذبياني ليحكما على جودتها أو رداءتها، حسب رؤيتهما لها بمنظار هذا العلم، وإن لم يكونوا قد عرفاه بعد، كعلم مستقل له حدوده ومصطلحاته الخاصة به.

وظل علم البديع، كغيره من العلوم، يتطور ويتوضح، حتى صار علماً قائماً بذاته، يعرف اليوم بعلم البلاغة التي تشمل ما نعرفه اليوم من علم المعاني وعلمي البديع والبيان.

ولا يفوتنا أن نذكر أن علوم البلاغة هذه، مرّت قبل أن تتوضح حدودها وتقر مصطلحاتها، بمرحلة كانت فيها تعرف بما سمي «علم البديع»، الذي هو أحدها، وأن أصولها تضرب ـ كما قلنا ـ إلى العصر الجاهلي، وأن أول من حاول وضع مصطلحات

---

(١) أبو هلال العسكري، من كتاب الصناعتين، نقلاً عن الدكتور عبد العزيز عتيق: علم البديع، ط ١ بيروت، دار النهضة ١٩٧٤ م.

(٢) الغرر: أول الكلام وأحسنه. والعرر: سقط الكلام ورديئه.

(٣) وافد عقلة: دليل على عقله.

بديعية هو الشاعر العباسي مسلم بن الوليد، المعروف بصريع الغواني، الذي «وضع مصطلحات لبعض الصور البيانية والمحسنات اللفظية والمعنوية، من مثل الجناس والطباق».

ونذكر أن أبا عثمان عمرو بن بحر الجاحظ توسع قليلاً في ذكر البديع، دون أن يضع، في كتابه «البيان والتبيين» تعريفات أو مصطلحات، بل بقي البديع عنده يعني الصور والمحسنات اللفظية والمعنوية معاً.

وتبدأ علوم البلاغة بالاستقلال، بعضها عن البعض الآخر، أيام الخليفة ابن المعتز الذي ألّف «كتاب البديع» فكان، بحق، مؤسساً لما يعرف اليوم بهذا الإسم.

وجاء بعده قدامة بن جعفر، في كتابه «نقد الشعر» ليزيد علم البديع توضيحاً، وليضيف إلى مصطلحاته وفنونه جديداً، فيلتقي مع ابن المعتز في خمسة محسنات بديعية، كان هذا الأخير قد عرّفها، مع اختلافٍ في التسمية، ويزيد قدامة إليها تسعة محسنات جديدة لم يذكرها ابن المعتز.

وبعد قدامة، نلتقي بأبي هلال العسكري، في كتابه «الصناعتين» (الشعر والنثر) الذي عقد فيه باباً خاصاً «لشرح البديع والإبانة عن وجوهه وحصر أبوابه وفنونه».

وإذا كان ابن المعتز قد توصّل إلى معرفة ثمانية عشر نوعاً من أنواع البديع، زاد عليها قدامة تسعة أنواع، فإن أبا هلال العسكري قد بلغ بها واحداً وأربعين نوعاً، أي بزيادة أربعة عشر نوعاً على ما كان عرف قبله.

وفي القرن الخامس الهجري، تزداد علوم البلاغة استقلالاً وتحديداً، إذ يبدو، من خلال بعض المؤلفات في هذا القرن، أنه بدأ يستقر في الأذهان أن البيان شيء، والبديع شيء آخر.

فقد أورد ابن رشيق القيرواني، في كتابه الشهير «العمدة» أبواباً خاصة لمباحث علم البيان، وأخرى تهتم بدراسة علم البديع. وقد ذكر فيه تسعة وعشرين نوعاً من أنواع البديع، منها تسعة أبواب لم يسبقه إليها غيره ممن تقدموه في هذا المضمار. وبذلك يصبح عدد الأنواع البديعية المعروفة إلى أيامه، خمسين نوعاً.

ويعتبر عبد القاهر الجرجاني، في هذا القرن (الخامس الهجري) واضع علم المعاني، في كتابه «دلائل الإعجاز». كما أنه يعد منظر علم البيان، في كتابه «أسرار البلاغة» دون أن يحاول وضع نظرية لعلم البديع؛ وإن كان قد تكلم عن أنواع منه، بقدر اتصالها بعلم البيان فقط.

أما في القرن السادس الهجري، فنلتقي بالزمخشري والوطواط وبأسامة بن منقذ.

فقد أكمل الزمخشري، في تفسيره «الكشاف» ما بدأه الجرجاني، بإضافات جديدة بثها في ثنايا كتابه.

أما الوطواط فقد حاول تطبيق قواعد البلاغة العربية على الأدب الفارسي، في حين ألف ابن منقذ كتاب «البديع في نقد الشعر».

ويحمل الراية، بعد هؤلاء، نفر من علماء القرن السابع الهجري الأفذاذ، منهم: الرازي والسكاكي وضياء الدين ابن الأثير والتيفاشي المغربي وزكي الدين بن أبي الأصبع المصري وعلي بن عثمان الأربلي وبدر الدين بن مالك.

وقد أولى هؤلاء علم البديع عناية خاصة، في ما ألفوه من كتب وتصانيف.

وإذا ما انتقلنا إلى القرنين الثامن والتاسع الهجريين، نجد أنهما قد امتازا بإيلاء العلماء والشعراء والأدباء علم البديع عناية ما بعدها عناية، إن لم نقل إنهم تفرغوا له، وجفت قرائحهم إلا منه.

وتميز بعض الشعراء والأدباء، في هذين القرنين، بنظم «البديعيات» التي تعتبر، بحق، دراسات في هذا المجال تكاد لا تعدوه. ومن هؤلاء: يحيى بن حمزة العلوي، صاحب كتاب «الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز»، والتنوخي، محمد ابن عمرو، صاحب كتاب «الأقصى القريب في علم البيان»، وابن قيم الجوزية صاحب كتاب «الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن وعلوم البيان»، وصفي الدين الحلي الشاعر المشهور، صاحب البديعية الشهيرة التي تبلغ ماية وخمسة وأربعين بيتاً من الشعر، قالها الحلي في مدح النبي محمد ﷺ ومطلعها:

إن جئت سُلعاً فسل عن جيرة العلم ... وأقر السلام على عُربٍ بذي سلم

ثم ابن جابر الأندلسي الضرير، صاحب البديعية المسماة «الحلة السيرا في مدح خير الورى»، وهي في ماية وسبعة وعشرين بيتاً بدأها بقوله:

بطيبة انزل ويمّم سيد الأمم ... وانثر له المدح وانشر طيب الكلم

وقد سرد فيها ابن جابر المحسنات البديعية حسب ما أورده الخطيب القزويني.

ونلتقي قبل أن نصل إلى القرن التاسع الهجري، بعز الدين، علي بن الحسين الموصلي، صاحب البديعية التي عارض فيها بديعية الصفي الحلي، وزاد عليه فيها، بأن ذكر في كل بيت منها لفظة تدل على اسم النوع البديعي الذي استخدمه فيه.

وقد نظم الموصلي بديعيته في مدح النبي محمد ﷺ في ماية وأربعين بيتاً استهلها بقوله:

بـراعـة تستهـل الـدمـع في العلم عبــارة عن نــداء المفــرد الـعلم

وإذا ما وصلنا إلى القرن التاسع الهجري، يطالعنا أديبنا البارع ابن حِجة، صاحب هذا الكتاب الذي بين أيدينا، والذي نظم بديعية في مدح الرسول الكريم، وعدَّ فيها من أنواع البديع ماية واثنين وأربعين نوعاً، استهلها ببراعة الاستهلال قائلاً:

لي في ابتدا مدحكم يا عُربَ ذي سلم بـراعـة تستهـل الـدمـع في العلم

التعريف بخزانة الأدب وعملنا فيه:

«خزانة الأدب» في الأصل، وكما يذكر صاحبه في مقدمته له، هو شرح لبديعيته الأنفة الذكر، والتي أنشأها كما يذكر هو «برسم من محمد بن البارزي الجهني الشافعي» صاحب ديوان الإنشاء بالممالك الإسلامية، وقد حذا فيها حذو «طرز البردة» بعد أن وقف محمد بن البارزي على بديعية الشيخ عز الدين الموصلي التي التزم فيها تسمية النوع البديعي، وورّى فيها من جنس الغزل، ليتميز بذلك على الشيخ صفي الدين الحلي، الذي لم يلتزم ذلك في بديعيته.

وقد سمى ابن حِجة بديعيته تلك «تقديم أبي بكر» وحاول فيها أن ينسج على منوال عز الدين الموصلي، في تضمين الأبيات ألفاظاً يشير بها إلى الأنواع البديعية التي بلغ بها ماية واثنين وأربعين نوعاً، دون تمييز بين البديع وغيره من علوم البلاغة، محاولاً أيضاً أن يجاري صفي الدين الحلي في رقة الشعر وجمال النظم والسلاسة.

ثم إنه، أعني ابن حجة، وضع هذا الشرح المطوّل لبديعيته، وأسماه «خزانة الأدب وغاية الأرب» فكان أكثر أهمية وفائدة من البديعية ذاتها، إذ جاء كما يدل عليه اسمه، خزانة للأدب مليئة بدرر علومه وجواهر معارفه، وغاية ما يحتاجه المتأدب.

و«خزانة الأدب» أشبه بالموسوعات الأدبية التي تجمع فنون الأدب المختلفة: من اللغة والبلاغة والنقد والتاريخ والتراجم، ومنثور الكلام ومنظومه، حتى المواليا[1] والأزجال، لكثرة ما يورده صاحبه فيه من الشواهد والأمثلة والاستطرادات، وأحياناً النكت

---

(١) المواليا: نوع من النظم العامي من البحر البسيط إشتهر في العصر العباسي.

والمساجلات الأدبية. ولا نبالغ إذا قلنا إنه مرجع أدبي خاص، للعصرين: المملوكي والأيوبي، بل هو مرجع أدبي عام.

لذلك رأينا أن نوليه ما يستحقه من الاهتمام، تسهيلاً للاستفادة منه، فقمنا بشرحه والتعليق عليه، وتخريج الآيات القرآنية الواردة فيه، وتحريره بضبطه، وتعيين بداية الفقرات ووضع النقاط والفواصل، وترجمنا لصاحبه ومن ثم أشرفنا على طباعته، وقمنا بتصحيحه، حتى خرج بهذه الحلة، والله ولي التوفيق.

ملاحظات حول الكتاب:

من شروط البديعيات التي كان متعارفاً عليها، أن يلتزم ناظموها بأن يكون كل بيت منها شاهداً على نوعه بمجرده، ليس له تعلق بما قبله ولا بما بعده. ومن هذه الزاوية وبناءً لهذا الشرط، ولغيره من الشروط البديعية والبيانية، يقارن ابن حجة بين بديعيته وبديعية صفي الدين الحلي، وبديعية عز الدين الموصلي، وبديعية العميان فيقول: «أما براعة بديعيتي. . . فإني جمعت فيها بين براعة الاستهلال وحسن الابتداء، بالشرط المقرر لكل منهما، وأبرزت تسمية نوعها البديعي في أحسن قوالب التورية، وشنفت[1] بأقراط غزلها الأسماع، مع حشمة الألفاظ وعذوبتها، وعدم تجافي جنوبها عن مضاجع الرقة. وبديعية صفي الدين الحلي، غزلها لا يُنكر، غير أنه لم يلتزم فيها بتسمية النوع البديعي. . . ولو التزمه لتجافت عليه تلك الرقة. وأما الشيخ عز الدين الموصلي، فإنه لما التزم ذلك نحت من الجبال بيوتاً».

وإذا نحن نظرنا إلى الكتاب من هذه الزاوية، فإننا نلاحظ فعلاً، شدة مراعاة ابن حجة لهذا الشرط، وعدِّه عدم الأخذ به عيباً وقع فيه البعض ممن نظموا البديعيات غيره.

وأول ما يمكن أن نلاحظه على ابن حجة في «خزانة الأدب» أنه لم يتورّع عن ذكر الأشعار التي فيها الكثير من الفحش، الذي يجدر بأرباب الأدب أن يربأوا بأنفسهم عن ذكره أو التلفظ به. خاصة وأنه كان باستطاعة ابن حجة الابتعاد عن مثل هذا الشعر الفاحش، لأنه إنما أورده في مجال التمثيل على الأنواع البديعية. وكان يمكن أن يوجد له عذر في إيراده، لولا أن بعض أمثلته، وهو قصيدة لابن الفارض، بلغ أربعة وستين بيتاً، مما لا يعقل معه أن يسمى مثلاً؛ أما وقد ظهر تعمده في إيراد فاحش الشعر، فلا عذر له عندنا.

---

(١) شنّف: حلىّ وزيّن.

ومما يلفت النظر في «الخزانة» أيضاً ما نراه من الإطالة في الشرح. والتي قد تصل إلى حد الملل أحياناً، وإن كان ابن حجة أيضاً يتحاشى الوقوع فيها فيقول: «ولولا الإطالة لأفعمت الأذواق من هذا السكر النباتي». وإن كان يبرر تطويله بمثل قوله: «فإن الشرح قد طال، ولم أطله إلا ليزداد الطالب إيضاحاً، ويداوي علل فهمه بحِكَم المتقدمين، ويتنزه في رياض الأدب على النبات الغض من نظم المتأخرين».

فإذا عرفنا أن الكتاب يحتوي ماية واثنين وأربعين نوعاً من أنواع البديع، وأن شرحه لنوع واحد، هو التورية، استغرق أكثر من ربع الكتاب، عرفنا مدى ما وصلت إليه الإطالة والاستطراد عند ابن حجة في «خزانته».

بعد الإطالة والاستطراد، يطالعنا ابن حجة في كتابه بالتكرار، فنراه يكرر البيت أو الأبيات أكثر من مرة، ربما حسب ما يقتضيه الاستشهاد على النوع البديعي بأبيات يمكن الاستشهاد بها على أنواع أخرى. وأكثر ما يبرز هذا التكرار في إيراده لما أخذه جمال الدين بن نباتة عن علاء الدين الوداعي.

ورغم أن ابن حجة يبدو من خلال «خزانة الأدب» واسع الاطلاع، مع ما تقتضيه هذه الصفة من صقل ملكة النقد الأدبي عنده، فإنه يبدو ناقداً تعوزه الدقة ووضوح المقياس النقدي.

فقد نراه، في أحيان كثيرة، يطلق أحكاماً تنقصها الدقة والصوابية، أو دون تعليل في كثير من الأحايين، وإن كانت له في أحيان أخرى، أحكام نقدية معللة لا تجانب الصواب؛ فإن له أيضاً أحكاماً خاطئة، وأخرى يتابع فيها غيره، دون روية أو إعمال فكر.

فهو في معرض تعليقه على استهلال محيي الدين بن عبد الظاهر، كاتب الملك الظاهر إلى الأمير سنقر الفارقاني، يقول: «الله أكبر! إن من البلاغة لسحراً، والله ما أظن هذا الاتفاق الغريب اتفق لناثر». دون أن يذكر ابن حجة سبب إعجابه وهيامه بهذا الاستهلال.

وكذلك نراه يفعل عندما يستحسن قول آخر. إذ يقول: «سبحان المانح! هذا الأديب الذي لم ينسج الأوائل على منواله. ولا تتعلق الأفاضل من المتأخرين بغبار أذياله».

أو نراه يقول: «سبحان المانح! والله من لا يتعلم الأدب من هنا فهو من المحجوبين عن إدراكه». لماذا؟ وما هو المقياس؟ فإن ابن حجة لا يفصح عن شيء من ذلك.

ولكن ابن حجة في معرض انتقاده لابن رشيق القيرواني، والحاتمي في كلامهما على الجناس الملفق، نراه يعلل نقده ذاك فيقول: «ولعمري لو سموا الملفق مركباً، والمركب ملفقاً، لكان أقرب إلى المطابقة في التسمية، لأن الملفق مركب في الركنين، والمركب ركن واحد، كلمة مقررة، والثاني مركب من كلمتين، وهذا هو التلفيق».

كما أننا نراه، في معرض نقده لبيتين أخذهما الشيخ صلاح الدين الصفدي عن ابن نباتة، يقول معللاً: «وما أظن الشيخ صلاح الدين، غفر الله له، لما سمع ما قاله الشيخ جمال الدين، ونظم بعده هذين البيتين، كان في حيز الاعتدال. وأين انجذاب القوس إلى الحاجب، من انجذاب الدم إلى الخد»؟

وقد يستلطف ابن حجة في «خزانته» ما لا سبيل إلى استلطافه، فيذكر أن «من لطائف» مجون ابن تميم قوله:

غطت محاسن وجهها عن ناظري هيفـاء لم أر في البريـة شبهها
وغـدت تمـانعني فقمـت مبـادراً وكشفت من بعـد التمنـع وجههـا

ترى! أي لطافة في هذين البيتين؟ إذا كانت اللطافة الأدبية تعني نكتة بديعية تعشقها الآذان، أو صورة بيانية تهيم بها النفوس؛ اللهم إلا أن يكون المجون مدعاة للاستلطاف! أو يكون أحد استلطف هذا المجون لانحراف في ذوقه الأدبي، فتابعه ابن حجة «مستلطفاً» على عادته، دون تدبر ولا روية أو إعمال فكر، كما فعل غير مرة حيث يبدو ذلك من قوله: «وعدوا من البديع قول فلان. . . وعدوا من الحسن قول فلان. . . وعدوا من اللطيف قول فلان» إلى آخر هذه المعزوفة، دون إبداء رأيه الشخصي.

ليس هذا فحسب، بل إن ابن حجة يخطىء حين يذكر أنه «تقرر وتكرر أن تشبيه المحسوس بالمحسوس هو المقدم في باب التشبيه» إذا عرفنا أن المقرر: أن أبلغ التشبيه هو تشبيه المعقول بالمحسوس، أو إخراج ما لا يحس إلى ما يدرك بالحواس.

وأخيراً وليس آخراً. فإننا نأخذ على الشيخ ابن حجة انحيازه في الحكم أثناء تحكيمه بين الشيخين، صفي الدين الحلي وجمال الدين ابن نباتة، إذ يقول:

تصفحت ديوان الصفيّ فلم أجد لـديه من السحـر الحـلال مرامي
فقلت لقلبي دونـك ابن نبـاتـة ولا تتبـع الـحليّ فهـو حـرامي

وكذلك نأخذ عليه تحامله على المتنبي الشاعر، وجوره عليه وغمطه حقه، خاصة وأنه هو نفسه، أعني ابن حجة، أخذ على الشيخ صلاح الدين الصفدي وعجب منه

«كيف أخل، في كتابه المسمى بفض الختام عن التورية والاستخدام، بذكر علاء الدين ابن المظفر الكندي الشهير بالوداعي، وهو أشهر من «قفا نبك»، في نظم التورية، بل هو امرؤ قيسها وكنديها».

ولو كان ابن حجة، قد أخل بذكر المتنبي في كتابه هذا، لما كان لنا عليه مأخذ، وإنما نأخذ عليه ذكره له والتجني عليه، مع محاولته الخبيثة في إيهام القارىء بأنه هو، أي ابن حجة، من أنصاره ومريديه، بينما يبدو لنا أنه يغمطه حقه ويجور عليه في الحكم، حين نراه يتجاهل سبقه إذ يقول: في معرض حديثه عنه وعن الطغرائي: «أنظر إلى محاسن هذين الفحلين إلى الغاية التي تمثلا بها. . . وتأخر سوابق الأفهام عن معرفة السابق منهما إلى الغاية».

كما أننا نرى أن ابن حجة يحاول، في مكان آخر، التغطية والتعمّية على القارىء، بإخفاء بغضه، وربما حسده، للمتنبي، مع الغمز الخفي من قناته فيقول: «وقد عنّ لي أن أجمع هنا ما حلا بذوقي من أمثال أبي الطيب المتنبي، وإن كان فيها ما ولّده من شعر أبي تمام».

فإن في هذا الكلام ما يفهم منه أن المتنبي كان عيالاً على غيره من الشعراء، وفي هذا ما فيه من غمز من قناة هذا الشاعر الفحل، مع أن هذا لم يقل به غير ابن حجة، إذ المعروف بين الباحثين والنقاد أن الكثيرين من الشعراء هم عيال على المتنبي ويقصر الكثيرون منهم عن التحليق في سمائه.

ومهما يكن من أمر صاحب «الخزانة» فإننا لا يمكن أن نغمطه حقه وجهده في كتابه الموسوعي «خزانة الأدب» إذ إنه يبقى خزانة حقيقية للأدب. لا غنى عنها للباحث الأديب والمتأدب، بل تكاد تكون فريدة في عصرها، وفي غزارة مادتها وتنوعها.

بيروت في ٨/ ٦/ ١٩٨٦ م.

عصام شعيتو

التعريف بالكاتب(1)

حياته وعمله:

هو الشيخ تقي الدين أبو بكر علي بن عبد الله الحموي الأزراري، المعروف بابن حجة، وضبطه بكسر المهملة. وقد غلط الدكتور عبد العزيز عتيق، حين ضبطه بفتحها(2).

ولد في حماه سنة سبع وستين وسبعماية للهجرة، وقيل: سنة سبع وسبعين وسبعماية للهجرة(3). والمرجح لدينا أن تكون ولادته سنة ثمانية وستين وسبعماية، لقوله، عام ثمانية عشر وثمانماية للهجرة:

إن جاء نظمي قاصراً عن وصفه　　عذراً فهذي نشطة الخمسين

كان من أعلام القرن التاسع الهجري، وذكر أنه كان رئيس الأدباء وإمام أهل الأدب في عصره. فقد سئل الحافظ ابن حجر: من شاعر العصر؟ فقال: الشيخ تقي الدين ابن حجة.

وهو زجّال، وشاعر جيد الإنشاء، طويل النفس في النظم والنثر، حسن الأخلاق والمروءة، فيه شيء من الزهو والإعجاب.

عانى، في صباه، عمل الحرير وعقد الأزرار صناعة له، فنسب إليها.

تتلمذ في صباه، على العلامة الشيخ شمس الدين الهيتي الحسني النجوي، وعلى قاضي القضاة في حماة، تقي الدين بن الحسني الحنفي، كما تتلمذ على قاضي القضاة، علاء الدين بن القضامي.

عاش في العصر المملوكي، وعاصر الناصري محمد بن البارزي الجهني الشافعي،

---

(1) أنظر ترجمته في: كشف الظنون لملا جلبي، والضوء اللامع للسخاوي، وشذرات الذهب لابن عماد الحنبلي. وإعجام الأعلام لمحمود مصطفى، والأعلام للزركلي، وفي النجوم الزاهرة.

(2) د عبد العزيز عتيق، علم البيان، بيروت، دار النهضة، ط ا ١٩٧٤، ص ٥٦.

(3) شذرات الذهب، ولم يذكر هذا التاريخ غيره ممن أرخ للمؤلف.

واتصل بخدمة المحمودي، أمير دمشق، ثم قدم بصحبته هاربا من طرابلس الشام، إلى القاهرة، بعد أن عضته حرب الثغور بأنيابها، ووصل إليها سنة اثنتين وثمانماية للهجرة، وبقي فيها حتى توفي الملك المؤيد، حيث تسلط عليه، بعده، جماعة من شعراء عصره، لأنه كان ظنيناً بنفسه وبشعره، مزرياً بغيره من الشعراء، فراحوا يقذعون في هجائه، حتى أن أحدهم قال فيه:

زاد ابن حجة بالإسهال من فمه   وصار يسلح منثوراً ومنظوما
وظن أن قد تنبا في ترسله   لو صح ذلك قطعاً كان معصوما

وما زالوا به يضايقونه، حتى خرج من مصر، عائداً إلى مسقط رأسه حماة، حيث مات فيها سنة سبع وثلاثين وثمانماية للهجرة، ودفن في تربة باب الجسر.

مؤلفاته:

لابن حجة مجموعة لا بأس بها من المؤلفات، إن دلت على شيء فإنما تدل على سعة اطلاعه وغزارة إنتاجه، وعلى طول باعه في النظم والتأليف.

وقد عدّ له صاحب الأعلام الكثير من المؤلفات، منها ما هو مطبوع ومنها ما هو مخطوط، نذكر منها:

ـ خزانة الأدب وغاية الأرب، وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا، وهو عبارة عن شرح المؤلف للبديعية التي كان أنشأها في مدح الرسول الكريم، معارضاً فيها كلاً من الشيخ صفي الدين الحلي والشيخ عز الدين الموصلي، ملتزماً فيها بذكر النوع البديعي، وقد طبع طبعة أولى وهذه هي طبعته الثانية.

ـ ثمرات الأوراق، وهو عبارة عن مجموعة محاضرات، (مطبوع).
ـ كشف اللثام عن التورية والاستخدام.
ـ حديقة زهير (مطبوع).
ـ قهوة الإنشاء، في مجلدين ضخمين (مخطوط).
ـ بروق الغيث أو شرح لامية العجم.
ـ بلوغ المرام من سيرة ابن هشام (مخطوط).
ـ بلوغ المراد من الحيوان والنبات والجماد.
ـ الثمرات الشهية من الفواكه الحموية، وهو من النظم (مخطوط).
ـ تأهيل الغريب (مطبوع).
ـ أمان الخائفين من أمة سيد المرسلين.
ـ كما وله ديوان شعر بديع.

مقدمة الكاتب

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله البديع الرفيع، الذي أحسن ابتداء خلقنا بصنعته، وأولانا جميل الصنيع فاستهلت الأصوات ببراعة توحيده وهو البصير السميع، أدّب نبينا محمداً ﷺ فأحسن تأديبه حتي أرشدنا، جزاه الله عنا خيراً إلى سلوك الأدب وأوضح لنا بديعه وغريبه. نحمده حمداً يحسن به التخلص من غزل الشهوة إلى حسن الختام، ونشكره شكر من شعر ببديع صفاته فأحسن النظم، وأعوذ بالله من قوم لا يشعرون بهذا النظام، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة شاعر بأنه الواحد، وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله، المبعوث من بيت عربي، فصاحته على الأعراب والإعراب أعظم شاهد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، الذين هم نظام هذا البيت الشريف ودوائر بحره وأنواع بديعه وديباج صدره، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد: فهذه البديعية التي نسجتها بمدحه ﷺ، على منوال طرز البردة، [و] كان مولانا المقر الأشرف العالي المولوي القاضوي المخدومي الناصري، سيدي محمد بن البارزي الجهني الشافعي، صاحب ديوان الإنشاء، الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة، جمل الله الوجود بوجوده، هو الذي ثقف لي هذه الصعدة وحلب لي ضرعها الحافل، لحصول هذه الزبدة. وما ذاك إلا أنه وقف بدمشق المحروسة على قصيدة بديعية للشيخ عز الدين الموصلي رحمه الله تعالى، التزم فيها بتسمية النوع البديعي، وورى بها من جنس الغزل، ليتميز بذلك على الشيخ صفي الدين الحلي تغمده الله تعالى برحمته، لأنه ما التزم في بديعيته بحمل هذا العبء الثقيل غير أن الشيخ عز الدين ما أعرب عن بناء بيوت أذن الله أن ترفع، ولا طالت يده لإبهام العقادة إلى شيء من إشارات ابن أبي

الأصبع، وربما رضي، في الغالب، بتسمية النوع ولم يعرب عن المسمى، ونثر شمل الألفاظ والمعاني، لشدة ما عقده نظماً.

فيا دارها بالخيف إنْ مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

فاستخار الله مولانا الناصري، المشار إليه، ورسم لي بنظم قصيدة أطرز حلتها ببديع هذا الالتزام، وأجازي الحلي برقة السحر الحلال، الذي ينفث في عقد الأقلام، فصرت أشيد البيت فيرسم لي بهدمه.

وخراب البيوت، في هذا البناء صعب على الناس، ويقول: بيت الصفي أصفى مورداً، وأنور اقتباساً. فأسن كل ما حده الفكر؛ وأراجعه ببيت له على المناظرة طاقة، فيحكم لي بالسبق وينقلني إلى غيره، وقد صار لي فكرة إلى الغايات سباقة. فجاءت بديعية هدمت بها ما نحته الموصلي، في بيوته من الجبال، وجاريت الصفي[1] مقيداً بتسمية النوع، وهو من ذلك محلول العقال، وسميتها: تقديم أبي بكر، عالماً أنه لا يسمع من الحلي والموصلي في هذا التقديم مقال.

وكان المشار إليه، عظم الله شأنه، هو الذي مشى أمامي وأشار إلى هذا السلوك وأرشد، فاقتديتُ برأيه، وهل يقتدي أبو بكر بغير محمد؟

---

(١) يقصد صفي الدين الحلي.

في حسن الابتداء وبراعة الاستهلال

حسن الابتداء عند المتقدمين:

لي في ابتدا مدحكم يا عرب ذي سلم براعة تستهل الدمع في العلم

اعلم أنه اتفق علماء البديع، على أن براعة المطلع عبارة عن طلوع أهلة[1] المعاني واضحة في استهلالها، وأن لا يتجافى بجنوب الألفاظ عن مضاجع الرقة، وأن يكون التشبيب بنسيبها مرقصاً عند السماع، وطرق السهولة متكفلة لها بالسلامة من تجشم الحزن[2] ومطلعها، مع اجتناب الحشو، ليس له تعلق بما بعده. وشرطوا أن يجتهد الناظم في تناسب قسميه، بحيث لا يكون شطره الأول أجنبياً من شطره الثاني.

وقد سمى ابن المعتز براعة الاستهلال، حسن الابتداء، وفي هذه التسمية تنبيه على تحسين المطالع، وإن أخل الناظم بهذه الشروط لم يأت بشيء من حسن الابتداء، وأورد في هذا الباب قول النابغة:

كليني لهمٍ يا أميمة ناصب وليل أقاسيه بطيء الكواكب[3]

قال زكي الدين بن أبي الأصبع: لعمري لقد أحسن ابن المعتز الاختيار، فإني أظنه نظر بين هذا الابتداء وبين ابتداء امرىء القيس، حيث قال:

قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل[4]

(١) أهلة المعاني: بداياتها.

(٢) الحزن: من الأرض الوعر، ومن الكلام الغريب المعقد.

(٣) ناصب: متعب.

(٤) سقط اللوى الدخول وحومل: أسماء أماكن في الصحراء.

فرأى ابتداء امرىء القيس، على تقدّمه وكثرة معانيه، متفاوت القسمين جداً لأن صدر البيت جمع بين عذوبة اللفظ وسهولة السبك وكثرة المعاني، وليس في الشطر الثاني شيء من ذلك. وعلى هذا التقدير مطلع النابغة أفضل، من جهة ملايمة ألفاظه وتناسب قسميه، وإن كان مطلع امرىء القيس أكثر معاني، وما عظّم ابتداء امرىء القيس في النفوس، إلا الاقتصار على سماع صدر البيت؛ فإنه وقف واستوقف وبكى واستبكى وذكر الحبيب والمنزل في شطر بيت، وإذا تأمل الناقد البيت بكماله، ظهر له تفاوت القسمين. وقال، أعني ابن أبي الأصبع: إذا وصلت إلى قول البحتري، من هذا الباب، وصلت إلى غاية لا تدرك، وهو قوله:

بـودّي لو يهـوى العـذول ويعشقُ ... ليعلم أسبـاب الهوى كيف تعلق

انتهى كلام زكي الدين بن أبي الأصبع.

ولقد أحسن أبو الطيب المتنبي حيث قال:

أتـراهـا لـكـثـرة الـعـشـاق ... تحسب الدمع خلقة في المآقي

ومثله قوله، (أي قول حبيب):

حشـاشة نفس ودّعت يوم ودعوا ... فلم أدرِ أي الـظاعنين أشيـع[١]

وما ألطف قول أبي تمام في هذا الباب:

لا أنت أنت ولا الـديـار ديـار ... خف الهـوى وتقضت الأوطـار[٢]

ومثله قول أبي العلاء المعري:

يا ساهر البرق أيقظ راقـد السمر ... لعل بالجزع أعوانـا على السهر

وقد خلب القلوب ابن المعتز في تناسب القسمين بقوله:

أخــذتْ مــن شـبـابــيَ الأيــام ... وتـولى الصبـا عليـه الســلام

---

(١) حشاشة النفس: بقيتها ـ الظاعنين الراحلين.

(٢) الأوطار: مفردها وطر وهي الحاجة.

وما أحلى ما ناسب ابن هانىء، قسمي مطلعه بالاستعارات الفائقة، حيث قال:

بسم الصباح لأعين الندماء ... وانشق جيب غلالة الظلماء[١]

وقال الشريف أبو جعفر البياضي، يشير إلىٰ الرفق بالإبل عند السرى[٢]، وتلطف ما شاء في تناسب القسمين، حيث قال:

رفقاً بهن فما خلقن حديدا ... أو ما تراها أعظماً وجلودا

وهذه القصيدة، طريقها الغريب، لم يسلكها غيره، فإنه نسجها جميعها على هذا المنوال ومنها:

يفلين ناصية الفلا بمناسم ... وسم الوجا بدمائهن البيدا[٣]
فكأنهن نثرن دراً بالخطا ... ونظمن منه بسيرهن عقودا

ومما يعذب في الذوق من هذا الباب قول ابن قاضي ميلة:

يزيد الهوى دمعي وقلبي المعنفُ ... ويحيي جفوني الوجدُ وهو المكلف

وقد نبه مشايخ البديع على يقظة الناظم في حسن الابتداء، فإنه أوّل شيء يقرع الأسماع ويتعين على ناظمه النظر في أحوال المخاطبين والممدوحين، وتفقد ما يكرهون سماعه ويتطيرون منه، ليتجنب ذكره، ويختار لأوقات المدح ما يناسبها. وخطاب الملوك في حسن الابتداء هو العمدة في حسن الأدب. حكي أن أبا النجم الشاعر، دخل على هشام بن عبد الملك في مجلسه، فأنشده من نظمه:

صفراء قد كادت ولما تفعل ... كأنها في الأفق عين الأحول[٤]

وهشام بن عبد الملك أحول، فأخرجه وأمر بحبسه.

وكذلك اتفق لجرير مع أبيه عبد الملك، فإنه دخل عليه وقد مدحه بقصيدة حائية أولها: «أتصحو أم فؤادك غير صاح». فقال له عبد الملك: بل فؤادك يا ابن الفاعلة.

---

(١) الجيب: من الثوب مكان إدخال الرأس منه ـ الغلالة: الثوب والستر.
(٢) السرى: السير ليلاً.
(٣) يفلين: يثلمن ـ الناصية: غرة الشيء وأوله وناصية الأرض وجهها ـ الفلا: الفلاة: وهي الأرض الواسعة ـ المناسم: مفردها منسم وهو للإبل بمثابة القدم للإنسان ـ وسم: علّم ـ الوجا: نوع من السير الذي يشقق المناسم.
(٤) هذا البيت في مدح هشام بن عبد الملك الأحول وهو في صفة الشمس قبيل الغروب.

ومن هذه الجهة بعينها عابوا على أبي الطيب المتنبي خطابه لممدوحه، في مطلع قصيدة حيث قال:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

ومن مستقبحات الابتداء، قول البحتري وقد أنشد يوسف بن محمد قصيدته التي أولها: «لك الويل من ليل تقاصر آخره» فقال: بل لك الويل والخزي، وأما قصة إسحق ابن إبراهيم الموصلي، في هذا الباب، فإني أنفعل وأخجل عند سماعها، وما ذاك إلا أنه دخل على المعتصم وقد فرغ من بناء قصره بالميدان، فشرع في إنشاء قصيدة نزل بمطلعها إلى الحضيض، وكان هو وحكاية الحال في طرفي نقيض، وهو:

يا دار غيرك البلا ومحاك يا ليت شعري ما الذي أبلاك

فتطير المعتصم من قبح هذا المطلع، وأمر بهدم القصر على الفور، فنعوذ بالله من آفة الغفلة، هذا مع يقظة إسحق وسير الركبان بحسن محاضرته ومنادمته للخلفاء، ولكنه قد يخبو الزناد وقد يكبو الجواد، مع أنه قيل: إن أحسن ابتداء ابتدأ به مولد، قول إسحق الموصلي حيث قال:

هل إلى أن تنام عيني سبيل إن عهدي بالنوم عهد طويل

فانظر إلى هذا الأديب الحاذق المتيقظ، كيف استطردت به خيول السهو إلى أن خاطب المعتصم، في قصر رياحين تشييده غضة[1] بخطاب الأطلال البالية، وانظر إلى حشمة أبي نواس كيف خاطب الدمن بخطاب تود القصور العالية أن تتحلى بشعاره، مع بلوغه في تناسب القسمين الطرف الأقصى، حيث قال:

لمن دمن تزداد حسن رسوم على طول ما أقوت وطيب نسيم[2]

وقصة ذي الرمة مع عبد الملك تقارب قصة إسحق مع المعتصم، فإنه دخل عليه يوماً فأمره بإنشاد شيء من شعره فأنشد قوله: «ما بال عينك منها الماء ينسكب». وكان بعين عبد الملك رمش فهي تدمع أبداً، فتوهم أنه خاطبه وعرّض به، فقال له: ما سؤالك عن هذا يا ابن الفاعلة. فمقته وأمر بإخراجه.

---

(١) حديث البناء.

(٢) دمن: جمع مفرده دمنه، وهي آثار الناس وما سودوا ـ رسوم: جمع مفرده رسم وهو الأثر ـ أقوتْ: خربت.

حسن الابتداء عند المحدثين:

انتهى ما أوردته في حسن الابتداء للعرب والمولدين وفحول الشعراء، ونبهت على حسنه وقبيحه، ولكن جذبتني يا أخا العرب نسبة المتأخرين إلى أن أثبت، في هذا المحل، تشبيبها ونسيبها وأظهر، في شرح هذه البديعية الآهلة، بديعها وغريبها ليعلم من تنزه في هذه الحدائق الزاهرة، ان ما ربيع الآخر من ربيع الأول ببعيد، وأن لكل زمان بديعاً تمتع بلذة الجديد، وهنا بحث لطيف وهو أن الاستشهاد بكلام المولدين وغيرهم من المتأخرين ليس فيه نقص، لأن البديع أحد علوم الأدب الستة، وذلك أنك إذا نظرت في الكلام العربي، إما أن تبحث عن المعنى الذي وضع له اللفظ، وهو علم اللغة، وإما أن تبحث عن ذات اللفظ بحسب ما يعتريه، وهو علم التصريف، وإما أن تبحث عن المعنى الذي يفهم من الكلام المركب بحسب اختلاف أواخر الكلم، وهو علم العربية، وإما أن تبحث عن مطابقة الكلام لمقتضى الحال بحسب الوضع اللغوي، وهو علم المعاني، وإما أن تبحث عن طرق دلالة الكلام إيضاحاً وخفاء بحسب الدلالة العقلية، وهو علم البيان، وإما أن تبحث عن وجوه تحسين الكلام، وهو علم البديع. فالعلوم الثلاثة الأول، يستشهد عليها بكلام العرب، نظماً ونثراً، لأن المعتبر فيها ضبط ألفاظهم والعلوم الثلاثة الأخيرة يستشهد عليها بكلام العرب وغيرهم، لأنها راجعة إلى المعاني، ولا فرق في ذلك بين العرب وغيرهم، إذا كان الرجوع إلى العقل.

وقال أبو الفتح عثمان بن جني: المولدون يستشهد بهم في المعاني، كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ. قال ابن رشيق في العمدة: الذي ذكره أبو الفتح صحيح بيّن لأن المعاني اتسعت باتساع الناس في الدنيا وانتشار العرب بالإسلام في أقطار الأرض، فإنهم حضروا الحواضر، وتفننوا في المطاعم والملابس، وعرفوا بالعيان ما دلتهم عليه بداهة عقولهم، من فضل التشبيه ونحوه، ومن هنا يحكى عن ابن الرومي أن لائماً لامه وقال له: لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز، وأنت أشعر منه؟ فقال له: أنشدني شيئاً من قوله أعجز عن مثله، فأنشده في صفة الهلال:

فانظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له ابن الرومي: زدني، فأنشده:

كأن آذريونها ... والشمس فيه كاليه[1]
مداهن من ذهب ... فيها بقايا غاليه

---

(١) الأذريون: نبات زهره أصفر أو أحمر ذهبي في وسطه خمل أسود ـ كاليه: مصفرّة.

فقال: واغوثاه لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ذاك إنما يصف ماعون[1] بيته لأنه ابن الخلفاء، وأنا مشغول بالتصرف في الشعر وطلب الرزق به، أمدح هذا مرة وأهجو هذا كرة وأعاتب هذا تارة وأستعطف هذا طوراً. انتهى كلام ابن رشيق.

ورأيت الشيخ شمس الدين بن الصائغ، رحمه الله تعالى، قد استشهد في شرح البردة، الذي سماه بالرقم، بغالب أهل عصره، في ما عرض له من أنواع البديع، حتى أورد لهم شيئاً من محاسن الزجل.

رجع إلى ما كنا فيه، من حسن الابتداء وتناسب القسمين، وإيراد ما وعدنا به من كلام المتأخرين. قال قاضي هذه الصناعة وفاضلها والمتأخر الذي لم يتقدم عليه بغير الزمان أوائلها:

زار الصباح فكيف حالك يا دجى ... قم فاستَذِمَّ بفرعه أو فالنجا

أنظر إلى حسن هذا الابتداء، كيف جمع، مع اجتناب الحشو، بين رقة النسيب وطرب التشبيب وتناسب القسمين وغرابة المعنى. ومثله قوله يخاطب العاذل:

أخرج حديثك من سمعي فما دخلا ... لا ترم بالقول سهماً ربما قتلا

وما ألطف ما قال بعده:

وما يخف على قلبي حديثك لي ... لا والذي خلق الإنسان والجبلا

ومثله قوله:

سمعتك والقلب لم يسمع ... فكم ذا تقول وكم لا أعي

وما ألطف ما قال بعده:

يقول وما عنده أنني ... بغير فؤاد ولا أضلع
أما مع هذا الفتى قلبه ... فقلت نعم يا فتى ما معي

وأما مطلع قصيدة ابن النبيه، فإن الأذواق السليمة تنتبه به إلى فتح هذا الباب، وهو:

يا ساكني السفح كم عين بكم سفحت ... نزحتم فهي بعد الباب ما نزحت

---

(1) ماعون: إسم جامع لمنافع البيت مما جرت العادة بإعارته.

والقصيدة كلها تحف وطرف، وعارضها ابن نباتة، فما حلا معها مكرر نباته، وأجرى الصفي معها ينابيع فكره، فما صفا له معها مورد، وجاراها الصفدي فتصفدت[١] سوابق قوافيه عن لحاقها، ومنها:

وروضة وجنات الورد قد خجلت ... فيها ضحى وعيون النرجس انفتحت[٢]
تشاجر الطير في أفنانها سحراً ... ومالت القضب للتعنيق فاصطلحت[٣]
والقطر قد رش نوب الدوح حين رأى ... مجامر الزهر في أذياله نفحت[٤]

ومما يحسن نظامه في هذا السلك قوله:

رنا وانثنى كالسيف والصعدة السمرا ... فما أكثر القتلى وما أرخص الأسرى[٥]

ومما اختاره الشيخ جمال الدين بن نباته، رحمه الله، من ديوان أبي الفتوح نصر الله ابن قلاقس، وهو حسن في هذا الباب، قوله:

كم مقلة للشقيق الغض رمداء ... إنسانها سابح في بحر أنداء[٦]

وقوله: قِفا واسألا مني زفيراً وأدمعا ... أكانا لهم إلا مصيفاً ومربعا

وهو من الغايات التي اختارها الشيخ جمال الدين بن نباتة، من شعر ابن قلاقس، فإنه قال: طالعت ديوان الأديب البارع، أبي الفتوح نصر الله بن قلاقس، فطالعت الفن الغريب وفتح عليّ بتأمل ألفاظه فتلوت: نصر من الله وفتح قريب. بيد أني وجدت له حسنات تبهر العقول فضلا وسيئات يكاد بذكرها ابن قلاقس يقلى[٧]. انتهى كلام الشيخ جمال الدين بن نباتة.

ومما وقع في تناسب القسمين إلى الغاية، قول الشيخ ظهير الدين بن البارزي رحمه الله، وهو:

---

(١) تصفّدت: كُبّلت بالأصفاد والقيود.
(٢) وجنات: جمع مفرده وجنة وهي كرسي الخد.
(٣) أفنان: جمع مفرده فنن وهو الغصن - سحراً: أي وقت السحر قبيل الفجر.
(٤) مجامر: جمع مفرده مجمرة وهي وعاء يوضع فيه البخور.
(٥) رنا: نظر - انثنى: عاد ورجع - الصعدة: القناة المستوية التي لا تحتاج إلى تثقيف.
(٦) الشقيق: الأزهار المعروفة بشقائق النعمان، لونها أحمر قانٍ. والغض: الطري - رمداء: أصابها الرمد وهو مرض يصيب العيون. إنسانها: إنسان العين: البؤبؤ.
(٧) يقلى: يُبغض ويُهجَر.

يذكرني وجدي الحمام إذا غنى لأنا كلانا في الهوى يعشق الغصنا(١)

ذكر الصلاح الكتبي، في كتابه فوات الوفيات، أن الشيخ أثير الدين أبا حيان قال: رأيت الشيخ المذكور صوفيا بحماة المحروسة، وأنشدني لنفسه هذه القصيدة وعدة مقاطيع منها:

أراك فأستحيي فأُطرِقُ هيبة وأُخفي الذي بي من هواك وأكتمُ
وهيهات أن يخفى وأنت جعلتني جميعي لساناً في الهوى يتكلمُ

وتوفي بعد الثمانين والستمائة، وأما مطلع الشيخ شمس الدين بن العفيف في هذا الباب، فظرافته لا تنكر، لأنه كان ينعت بالشاب الظريف، قال في شطره الأوّل:

« أعز الله أنصار العيون »

وفي الثاني:

«وخلد ملك هاتيك الجفون»

وما أظرف ما قال بعده:

وضاعف بالفتور لها اقتداراً وجدد نعمة الحسن المصون

وما أحسن ابتداءات الشيخ عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماة، فجميعها نسجت على هذا المنوال، منها قوله:

حروف غرامي كلها حرف إغراء على أن سقمي بعض أفعال أسماء

وقوله: ويلاه من نومي المشرد أواه من شملي المبدد
وقوله: أهلاً بطيفكم وسهلا لو كنت للإغفاء أهلا

وما أحلى ما قال بعده:

لكنه وافى وقد حلف السهاد عليّ أن لا

وقد توارد هو وابن عنين في هذا المعنى، وكل كساه ديباجة تأخذ بمجامع القلوب، ومطلع ابن عنين قوله:

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو سامحوني بالكرى(٢)

---

(١) وجدي: شدة شوقي.
(٢) الكرى: الإغفاء دون النوم.

وقول مهيار الديلمي، في هذا الباب، مشهور والذي أقوله: إن الشيخ جمال الدين ابن نباتة نبات هذا البستان، وقلادة هذا العقيان، ومن مطالعه التي هي أبهج من مطالع الشمس قوله في هذا الباب:

في الريق سكرٌ وفي الأصداغ تجعيدُ ... هذا المدامُ وهاتيك العناقيد

وقوله: بدا ورنت لواحظه دَلالا ... فما أبهى الغزالة والغزالا

وقوله: سلبت عقلي بأحداق وأقداح ... يا ساجيَ الطرف بل يا ساقي الراح[1]

وما ألطف ما قال بعده:

سكران من مقلة الساقي وقهوته ... فاترك ملامك في السكرين يا صاح

وقوله: إنسان عيني بتعجيل السهاد بلي ... عمريَ لقد خلق الإنسان من عجلِ

وقوله: قام يرنو بمقلة كحلاء ... علمتني الجنون بالسوداء

وقوله: نفس عن الحب ما حادت وما غفلت ... بأي ذنب وقاك الله قد قتلت

وقد تقدم شروط، لا بدّ من اجتنابها في حسن الابتداء، منها الحشو، ولكن وقاك الله حشو اللوزينج[2].

وقوله: لامُ العذار أطالت فيك تسهيدي ... كأنها لغرامي لام توكيد

ولولا الإطالة لأفعمت الأذواق من هذا السكر النباتي.

ورأيت للشيخ صفي الدين الحلي في «الأرتقيات» قصيدة قافية مطلعها في هذا الباب غاية، وهو قوله:

قفي ودعينا قبل وشك التفرق ... فما أنا من يحيا إلى حين نلتقي

وأنشدني من لفظه، الشيخ عز الدين الموصلي قصيدة نونية، نظمها بحماة، ومطلعها في حسن الابتداء حسن:

سمعنا حمام الدوح في روضة غنا ... فأذكرنا ربع الحبائب والمغنى

ولقد سهوت عن مطلع الشيخ علاء الدين علي بن المظفر الكندي، الشهير بالوداعي، فإنه ليس له في تناسب القسمين قسيم وهو:

بدر إذا ما بدا محياه ... أقول ربي وربك الله

---

(١) أحداق: مفرده حدقة وهو السواد المستدير في العين ـ ساجي: فاتر وساكن، والطرف: العين.

(٢) اللوزينج: من الحلوى، شبيه القطايف يؤدم بدهن اللوز.

وعارضه الشيخ جمال الدين ابن نباته، في هذه القصيدة بعينها، وترقى إلى مطلع بدره وزاحمه في حسنه فمطلع الشيخ جمال الدين:

لـه إذا غـازلـتـك عـيـنـاه	سـهـام لـحظ أجـارك الله

ومن مطالعي، التي حصل لي فيها الفتوح في هذا الباب، قولي:

طلعتم بـدوراً في أعـز المـطالـع	فبشـرني قلبي بسعـد طـوالعي [1]
وقولي: إغراء لحظك ما لي منه تحذير	ولا لتعـريف وجدي فيـك تنكير
وقولي: في عروض الجفا بحـور دموعي	مـا أفادت قلبي سـوى التقـطيـع
وقولي: لله قـوم لنظم الـوصل قـد نثروا	شعرت في حبهم يا ليتهم شعروا
وقولي: جردت سيف اللحظ عند تهددي	يـا قـاتلي فـلـيتني بمنجـرد [2]
وقولي: هـواي بسفح القـاسمية والجسـر	إذا هبَّ ذاك الريح فهو الهوى العذري

وكأني بمنتقد تـألم قلبه على المتقدمين، بكثرة النقـد، ومالت نفسـه إليّ مع المتأخرين ليستوفي الشروط الأدبية في مباشرة هذا العقد. وقولي:

قد مال غصن النقا عن صبه هيفاً	يا ليته بنسيم العتب لو عطفـا [3]

فأقول وبالله المستعان إن جماعة من المخاديم بدمشق رسموا أن أعارض شيئاً من نظم الشيخ جمال الدين بن نباته وتخيروا لي خمس قصائد منها قصيدته الكافية التي مطلعها:

تصـرمت الأيـام دون وصــالـكِ	فمن شافعي في الحب يا ابنة مالكِ [4]

فلما انتهيت إلى معارضتها وجدت، بين الشطر الثاني من المطلع وبين الشطر الأول، مباينة، كما تقدم في مطلع امرىء القيس من الكلام على أن في شطره الأول ما ليس في الثاني.

وقد اتفق علماء البديع على أن عدم تناسب القسمين نقص في حسن الابتداء، وقد تقدم قول زكي الدين بن أبي الأصبع: إن مطلع النابغة أفضل من مطلع امرىء القيس، لتناسب القسمين، وإن كان مطلع امرىء القيس أكثر معاني. انتهى ولو قال الشيخ جمال الدين في مطلعه:

---

(١) طوالعي: مفردها طالع وهو الحظ.

(٢) جرّد السيف: أعده للمعركه ـ المنجرد: الذي تعرى من ثوبه.

(٣) هيفاً: طولاً واستقامة. النقا: الكثيب من الرمل.

(٤) تصرمت: انقضت ـ الوصال: اللقاء.

تمذهبت في هجري بطول مطالِكِ		فمن شافعي في الحب يا ابنة مالك[1]

لجمع بين تناسب القسمين.

ومطلعي الذي عارضت به الشيخ جمال الدين:

رضيع الهوى يشكو فطام وصالك		فداوي بني الحب يا ابنة مالك

وكذلك من مطلع الشيخ صفي الدين الحلي، في قصيدته الجيمية التي هي من جملة القصائد الأرتقيات التي امتدح بها الملك المنصور صاحب ماردين:

جاءت لتنظر ما أبقت من المهجِ		فعطرت سائر الأرجاء بالأرج[2]

فالشطر الثاني ليس من جنس الشطر الأول، فإن الشطر الأول في الطريق الغرامية ليس له مثيل ومن أنكر هذا النقد، ينتظر في مطلع الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض قدس الله سره، فإنه في هذا الباب طرفة، وهو:

ما بين معترك الأحداق والمهج		أنا القتيل بلا إثم ولا حرجِ

وهنا نكتة لطيفة تؤيد هذا النقد.

اتفق أن الشيخ نور الدين علي بن سعيد الأندلسي الأديب المشهور الذي من نظمه قوله:

وا طول شوقي إلى ثغور		ملأى من الشهد الرحيق
عنها أخذت الذي تراه		يعذب من شعري الرقيق

لما ورد إلى هذه البلاد، اجتمع بالصاحب بهاء الدين زهير، وتطفل على موائد طريقته الغرامية، وسأله الإرشاد إلى سلوكها، فقال له: طالع ديوان الحاجري والتلعفري وأكثر المطالعة فيهما وراجعني بعد ذلك، فغاب عنه مدة وأكثر من مطالعة الديوانين، إلى أن حفظ غالبهما، ثم اجتمع به بعد ذلك وتذاكرا في الغراميات فأنشده الصاحب، بهاء الدين زهير، في غضون المحاضرة: «يا بان وادي الأجرع»، وقال: أشتهي أن يكمل لي هذا المطلع فافتكر قليلاً وقال: «سقيت غيث الأدمع»، فقال: والله حسن لكن الأقرب إلى الطريق الغرامي أن تقول: «هل ملت من طرب معي»، وما ألطف مطلع الحاجري في هذا الطريق:

(١) مطالك: إخلافك الوعد.

(٢) الأرج: الرائحة الطيبة.

لـك أن تشـوّقني إلى الأوطـان وعليّ أن أبكـي بـدمـع قـانِ

والآراء على هذا النوع، تستحسن هنا مطلع ناصر الدين بن النقيب، فإنه أعدل شاهد مقبول، والتشبيب بنفسه الطيب يغني، في هذه الحضرة، عن الموصول، وهو:

قلدت يـوم البين جيـد مـودّعي درراً نـظمت عقودهـا من أدمعي

وبالنسبة إلى حسن الابتداءات، مطلع الشيخ برهان الدين القيراطي مع حسنه وبهجته، فيه نقص وهو:

قسمـاً بـروضـة خـدّهـا ونبـاتهـا وبآسها المخضـل في جنباتهـا[1]

فإنه لم يأت بجواب القسم، ولا مَا يحسن السكوت على مطلعه، ولا تتم الفائدة إلا به. ومشايخ البديع قرروا أن لا يكون المطلع متعلقاً بما بعده، في حسن الابتداء.

وقد آن أن أحبس عنان القلم، فإن الشرح قد طال، ولم أطله إلا ليزداد الطالب إيضاحاً ويداوي علل فهمه بحكم المتقدمين، ويتنزه في رياض الأدب على النبات الغض من نظم المتأخرين.

براعة الاستهلال في النظم

انتهى ما أوردته في حسن الابتداء وقد فرع المتأخرون منه براعة الاستهلال، في النظم والنثر، وفيها زيادة على حسن الابتداء، فإنهم شرطوا في براعة الاستهلال، أن يكون مطلع القصيدة دالاً على ما بنيت عليه، مشعراً بغرض الناظم، من غير تصريح بل بإشارة لطيفة تعذب حلاوتها في الذوق السليم، ويستدل بها على قصده، من عتب أو عذر أو تنصل أو تهنئة أو مدح أو هجو، وكذلك في النثر، فإذا جمع الناظم بين حسن الابتداء وبراعة الاستهلال كان من فرسـان هذا الميـدان، وإن لم يحصل لـه براعـة الاستهلال فليجتهد في سلوك ما يقوله في حسن الابتداء.

وما سمي هذا النوع براعة الاستهلال إلا لأن المتكلم يفهم غرضه من كلامه، عند ابتداء رفع صوته به، ورفع الصوت في اللغة هو الاستهلال، يقال استهل المولود صارخاً، إذا رفع صوته عند الولادة. وأهل الحجيج، إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية، وسمي الهلال هلالاً، لأن الناس يرفعون أصواتهم عند رؤيته. ومما وقع من براعات الاستهلال التي

---

(١) الآس: شجر دائم الخضرة، بيضي الورق أبيض الزهر عطريه ـ المخضل: النـدي.

تشعر بغرض الناظم وقصده في قصيده، براعة قصيدة الفقيه نجم الدين عمارة اليمني حيث قال:

إذا لم يسالمك الزمان فحارب   وباعد إذا لم تنتفع بالأقارب

فإشارات العتب والشكوى لا تخفى على أهل الذوق في هذه البراعة، ويفهم منها أن بقية القصيدة تعرب عن ذلك، فإن زكي الدين بن أبي الإصبع قال: براعة الاستهلال هي ابتداء المتكلم بمعنى ما يريد تكميله، وهذه القصيدة، في حكمها وتحشمها وتسيير أمثالها، نهاية، والموجب لنظمها على هذا النمط، أنه كان بينه وبين الكامل بن شارر صحبة أكيدة، قبل وزارة أبيه، فلما وزر استحال عليه فكتب إليه هذه القصيدة التي من جملتها:

ولا تحتقر كيداً صغيراً فربما   تموت الأفاعي من سموم العقارب

ومنها: إذا كان رأس المال عمرك فاحترز   عليه من الإنفاق في غير واجب

فبين اختلاف الليل والصبح معرك   يكرّ علينا جيشه بالعجائب

ومنها: وما راعني غدر الشباب لأنني   ألفتِ لهذا الخلق من كل صاحب

ومنها: إذا كان هذا الدر معدنه فمي   فصونوه عن تقبيل راحة واهب(١)

رأيت رجالاً حالهم في مآدب   لديكم وحالي عندكم في نوادب(٢)

تأخرتُ لما قدمتكم علاكم   عليّ وتأبى الأسد سبق الثعالب

ترى أين كانوا في مواطني التي   غدوت لكم فيهن أكرم خاطب(٣)

ليالي أتلو ذكركم في مجالس   حديث الورى فيها بغمز الحواجب(٤)

ومن ألطف البراعات وأحشمها، براعة مهيار الديلمي، فإنه بلغه أنه وشي به إلى ممدوحه فتنصل من ذلك، بألطف عذر وأبرزه في معرض التغزل والنسيب، فقال:

أما وهواها حلفة وتنصلا   لقد نقل الواشي إليك فأمحلا(٥)

وما أحلى ما قال بعده:

سعى جهده لكن تجاوز حدّه   وكثر فارتابت ولو شاء قللا

(١) الراحة: باطن الكف أو جمعه. الواهب: المعطي الهبات.

(٢) مآدب: في فرح ـ نوادب: أي في حُزن.

(٣) خاطب: طالب القرب.

(٤) الورى: الناس. وغمز الحواجب: تحريكها.

(٥) التنصل: التخلص والإنكار. الواشي: ناقل الأخبار ـ أمحلا: أي لم ينقل الحقيقة، كذب.

وأذكرني مهيار، بحسن براعته، ما كتبت به إلى سيدنا ومولانا قاضي القضاة، صدر الدين ملك المتأدبين، أبي الحسن علي بن الآدمي الحنفي، الناظر في الحكم العزيز بالديار المصرية والممالك الإسلامية، جمل الله الوجود بوجوده، من حماة المحروسة إلى أبوابه العالية بدمشق المحروسة، ورياحين الشبيبة غضة، وكانت مطالعاتي قد تأخرت عن أبوابه العالية لعارض حجب الفكر عن هذا الفن، وهي رسالة مشتملة على نظم ونثر، فصدرت الجواب بقصيدة ترفل في حلل النسيب، على طريق مهيار، وكلها براعة استهلال أوّلها:

وصلت ولكن بعد طول تشوّقي ... ودنت وقد رقت لقلبي الشيق

وما أحلى ما قلت بعده:

فثملت من طرب برجع حديثها ... فكأنما قد نادمت بمعتق[1]

وجميعها على هذا الطريق البديعي ومثله.

إن المقر المخدومي الأميني الحمصي، لما انتقل من توقيع حمص المحروسة إلى صحابة ديوان الإنشاء بدمشق، قصد نقلتي من حماة المحروسة إلى أبوابه العالية، وحب حماه يفتر العزم عن ذلك، وهذا يفهم من قولي في بعض قصائدي فيها:

يلذ عناق الفقر لي بفنائها ... وفي غيرها لم أرض بالملك والرهط[2]

ولكنه قطع أسئلته العالية، بعد أن كانت كؤوس الإنشاء دائرة بيننا، فكتبت إليه بقصيدة تشعر بعتب لطيف، وبلابل الغزل تغرد في أفنانها، على طريقة مهيار الديلمي وطريق مولانا قاضي القضاة صدر الدين عظم الله تعالى شأنه، وبراعة استهلالها:

من بأسياف هجرهم كلمونا ... ما عليهم لو أنهم كلمونا[3]

ولم أعرب في نحو هذه القصيدة عن غير هذه الإشارات اللطيفة.

ومنها: غلقوا باب وصلهم فتح اللـ ... ـه لهم بالهناء فتحاً مبينا

وصلوا هجرنا وعيش هواهم ... لم نحل عنهم ولو قطعونا[4]

ملكوا رقنا فصرنا عبيداً ... ليتهم بعد رقنا كاتبونا[5]

---

(1) معتق: من الخمرة أجودها.

(2) الرهط: الجماعة. والحاشية.

(3) كلمونا: الأولى من الكَلْم وهو الجرح. والثانية من الكلام.

(4) نحل: من حال عن الشيء إذا حاد عنه.

(5) المكاتبة: ما يتم بين العبد وسيده من اتفاق على عتقه مقابل مبلغ معين المال.

ولم أزل أغازل عيون هذه المعاني إلى المخلص فقلت:

حبكم فرضنا وسيف جفاكم قد غدا في بعادنا مسنونا
والحشا لم يخن عهود وفاكم فاسألوا من غدا عليها أمينا

ومما يشعر بالتهنئة والنصر على الأعداء، براعة العلامة لسان الدين بن الخطيب وهي:

الحق يعلو والأباطل تسفل والحق عن أحكامه لا يُسأل

فإنه قال: نظمت للسلطان أسعده الله، وأنا بمدينة سلا، لما انفصل طالباً حقه بالأندلس، قصيدة كان صنع الله مطابقاً لاستهلالها، ووجهت بها إلى رندة قبل الفتح، ثم لما قدمت أنشدتها بين يديه بعد الفتح وفاء بنذري، وسميتها الفتح الغريب في الفتح القريب، منها:

فإذا استحالت حالة وتبدلت فالله عز وجل لا يتبدل
واليسر بعد العسر موعود به والصبر بالفرج القريب موكل
والمستعد بما يؤمل ظافر وكفاك شاهد قيدوا وتوكلوا[١]

ومنها: محمد والحمد منك سجية بحليها بين الورى يتجمل[٢]
أما سعودك فهو دون منازع عقد بأحكام القضاء يسجل[٣]
ولك السجايا الغر والشيم التي بغريبها يتمثل المتمثل[٤]
ولك الوقار إذا نزلت على الربا وهفت من الروع الهضاب المثل

ومنها: عوّذ كمالك ما استطعت فإنه قد تنقص الأشياء مما تكمل[٥]
تاب الزمان إليك مما قد جنى والله يأمر بالمتاب ويقبل
إن كان ماض من زمانك قد مضى بإساءة قد سرك المستقبل
هذا بذاك فشفع الثاني الذي أرضاك فيما قد جناه الأوّل
والله قد ولاك أمر عباده لما ارتضاك ولاية لا تعزل

---

(١) يؤمل: ينتظر حصول الأمر ـ ظافر: من ظفر بالشيء إذا ناله. شاهد قيدوا وتوكلوا: يقصد النبي محمد ﷺ لقوله: «اعقل وتوكل».

(٢) سجية: عادة.

(٣) السعود: الحظ. مفردها سعد.

(٤) الشيم: مفردها شيمة، وهي الخصلة الحميدة.

(٥) عوّذ: حماه بالتعاويذ وهي الطلاسم أو بالمعوذتين من القرآن الكريم.

وإذا تغمدك الإله بنصره ... وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل

ومنها:

وظعنت عن أوطان ملكك راكباً ... متن العباب فأيّ صبر يجمل[1]

والبحر قد خفقت عليك ضلوعه ... والريح تبتلع الزفير وترسل

ولك الجواري المنشآت قد اغتدت ... تختال في برد الشباب وترفل[2]

خرقاء يحملها ومن حملت به ... من يعلم الأنثى وماذا تحمل[3]

صبحتهم غرر الجياد كأنما ... سد الثنية عارض متهلل

من كل منجرد أغرّ محجل ... يرمي الجياد به أغرّ محجل

زجل الجناح إذا أجد لغاية ... وإذا تغنى للصهيل فبلبل[4]

جيد كما التفت الظليم وفوقه ... أذنٌ ممشقة وطرف أكحل[5]

ومنها:

وخليج هند راق حسن صفائه ... حتى يكاد به يقوم الصيقل[6]

غرقت بصفحته النمال وأوشكت ... تبغي النجاة فأوثقتها الأرجل

فالصرح منه ممرّد والصفح منـ ... ـه مورد والشط منه مهدل

وبكل أزرق إن شكت ألحاظه ... مره العيون فبالعجاجة يكحل[7]

متأوّد أعطافه في نشوة ... مما يعل من الدماء وينهل[8]

عجباً له إن النجيع بطرفه ... رمد ولا يخفى عليه مقتل[9]

لله موقفك الذي وثباته ... وثباته مثل به يتمثل[10]

والخيل خط والمجال صحيفة ... والسمر تنقط والصوارم تشكل[11]

والبيض قد كسرت حروف جفونها ... وعوامل الأسل المثقف تعمل[12]

---

(١) العباب: عباب البحر أمواجه. ومعظم مياهه.

(٢) الجواري المنشآت: السفن العظيمة.

(٣) الخرقاء: الريح الشديدة الهبوب.

(٤) زجل الجناح: أي لجناحه صوت ـ أجدّ: قصد.

(٥) الظليم: ذكر النعام.

(٦) الصيقل: الصقال الذي يجلو السيوف.

(٧) مره العيون: أبيض العيون ـ العجاجة: الغبار الكثيف.

(٨) متأود: معوج ـ أعطافه: جنباته ـ يعل وينهل: العلل الشربة الأولى والنهل الشربة الثانية.

(٩) النجيع: دم الجوف.

(١٠) وثباته: الأولى من الوثب وهو القفز، والثانية من الثبات.

(١١) الخيل خط: أي صف ـ والمجال صحيفة: أي سهل واسع ـ السمر: القنا ـ الصوارم السيوف ـ تشكل: تشتبك.

(١٢) البيض: ما يلبس على الرأس من عدة الحرب ـ الأسل: الرماح.

وهي طويلة وجميعها فرائد، ولم أكثر منها إلا لعلمي أن نظم الوزير لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى، غريب في هذه البلاد.

ومن البراعات التي يفهم من إشاراتها أنها تهنئة بمولود، قول أبي بكر بن الخازن رحمه الله تعالى:

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا ... وكوكب المجد في أفق العلا صعدا

ومما يشعر بقرينة الذوق، أن الناظم يريد الرثاء، قول التهامي:

حكم المنية في البرية جاري ... ما هذه الدنيا بدار قرار

وهذه القصيدة يرثي بها ولده، وهي نسيج وحدها وواسطة عقدها.

ومنها
ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار[1]
جبلت على كدر وأنت تريدها ... صفواً من الأقذاء والأقذار[2]
وإذا رجوت المستحيل فإنما ... تبني الرجاء على شفير هار[3]
فالعيش نوم والمنية يقظة ... والمرء بينهما خيال سارِ

وما أعلم أن أحداً استهل للمراثي بأحسنَ من هذه البراعات، ومنها يشير إلى ولده وهو من المعاني المستغربة:

جاورت أعدائي وجاور ربه ... شتان بين جواره وجواري

وأما قصيدة الشيخ جمال الدين بن نباتة، رحمه الله تعالى، في تهنئة السلطان الملك الأفضل بسلطنة حماة، وتعزيته بوفاة والده الملك المؤيد، سقى الله ثراه، فإنها من عجائب الدهر فإنه جمع فيها بين نقيضي[4] المدح والرثاء في كل بيت، وبراعتها:

هناء محاذاك العزاء المقدّما ... فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام في ثغور مدامع ... شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما
برد مجاري الدمع والبشر واضح ... كوابل غيث في ضحى الشمس قد همى[5]

---

(١) جذوة نار: قبس من نار.
(٢) الأقذاء: جمع مفرده قذى وهو الضيم، ومن الناس: السفلة.
(٣) شفير هار: الحرف الموشك على السقوط.
(٤) نقيضي: هكذا وردت في الأصل، والأصح: نقيضين (الشارح).
(٥) الوابل: الغزير من المطر - همى: هطل.

سبحان المانح والله من لا يتعلم الأدب من هنا فهو من المحجوبين عن إدراكه.

وكتب إليه الشيخ صلاح الدين الصفدي قصيدة ضمن فيها أعجاز معلقة امرىء القيس، وصرح في براعتها بغليظ العتب، ولم يأت في البراعة بإشارة لطيفة يفهم منها القصد، بل صرّح وقال:

أفي كل يوم منك عتب يسوءني كجلمود صخر حطه السيل من علِ

فأجابه الشيخ جمال الدين بقصيدة ضمن فيها الأعجاز المذكورة، وبراعة استهلالها:

فطمت ولائي ثم أقبلت عاتباً أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل(١)

والإشارة بقوله: أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل، لا يخفى على حذاق الأدب ما مراده منها، وفي هذا القدر كفاية، وما أحلى ما قال بعده، وهو مما قصده في تلك الإشارة:

فدونك عتب اللفظ ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل(٢)

وهنا بحث وهو إني وقفت على بديعية الشيخ شمس الدين، أبي عبد الله محمد بن جابر الأندلسي، الشهيرة «ببديعية العميان» فوجدته قد صرح في براعتها بمدح النبي ﷺ، وهي:

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم وانثر له المدح وانشر طيب الكلم(٣)

فهذه البراعة ليس فيها إشارة تشعر بغرض الناظم وقصده، بل أطلق التصريح ونثر المدح ونشر طيب الكلم، فإن قال قائل: إنها براعة استهلال، قلت: إن البديعية لا بد لها من براعة وحسن مخلص وحسن ختام، فإذا كان مطلع القصيدة مبنياً على تصريح المدح، لم يبق لحسن التخلص محل ولا موضع ونظم هذه القصيدة سافل، بالنسبة إلى طريق الجماعة، غير أن الشيخ الإمام العلامة شهاب الدين أبا جعفر الأندلسي، شرحها شرحاً مفيداً.

وهنا فائدة وهو أن الغزل، الذي يصدر به المديح النبوي، يتعين على الناظم أن يحتشم فيه ويتأدب ويتضاءل ويتشبب، مطرباً بذكر سلع ورامة وسفح العقيق والعذيب

---

(١) فطمت: قطعت ـ فاطم: ترخيم: فاطمة.

(٢) نصته: أظهرته وأبرزته ـ معطل: خالٍ من الحلي.

(٣) يمم: توجه صوب ـ سيد الأمم: النبي محمد ﷺ ـ الكلم: من الكلام أطيبه وأبلغه.

والغوير ولعلع وأكناف حاجر[١] ويطرح ذكر محاسن المرد [٢] والتغزل في ثقل الردف [٣] ودقة الخصر وبياض الساق وحمرة الخد وخضرة العذار [٤] وما أشبه ذلك، وقل من يسلك هذا الطريق من أهل الأدب وبراعة الشيخ صفي الدين الحلي، في هذا الباب، من أحسن البراعات وأحشمها، وهي:

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم   وأقر السلام على عرب بذي سلم

فقد شبب بذكر سلع، والسؤال عن جيرة العلم، والسلام على عرب بذي سلم. ولا يشكل[٥] على من عنده أدنى ذوق أن هذه البراعة صدرت لمديح نبوي، ومطلع البردة[٦] أيضاً في هذا الباب، من أحسن البراعات أيضاً وهو:

أمن تـذكـر جيـران بـذي سلم   مزجت دمعاً جرى من مقلةٍ بدم

فمزج دمعه بدمه، عند تذكر جيران بذي سلم، من ألطف الإشارات إلى أن القصيدة نبوية، وما أحلى ما قال بعده:

أم هبت الريح من تلقاء كاظمـة   وأومض البرق في الظلماء من أضم[٧]

وحشمة الشيخ جمال الدين بن نباتة في براعة قصيدته الرائية النبوية، يتعلم الأديب منها سلوك الأدب وهي:

صحـا القلب لولا نسمـة تتخـطر   ولمعـة بـرق بـالغضـا تتسعـر[٨]

وما أحشم قوله بعده:

وذكـر جبين المـالكيـة أن بـدا   هلال الدجى والشيء بالشيء يذكر
سقى الله أكناف الغضا سائل الحيا   وإن كنت أسقى أدمعـاً تتحدر[٩]

---

(١) أسماء أماكن.

(٢) المرد: جمع مفرده أمرد وهو الفتى لم تنبت له لحية.

(٢) الردف: المؤخرة.

(٤) العذار: ما سال من الشعر على جانبي الوجه.

(٥) يشكل: يلتبس ويختلط.

(٦) البردة: قصيدة مشهورة في مدح النبي. ومعنى البردة الكساء المخطط.

(٧) تلقاء: ناحية ـ كاظمة إسم مكان ـ أومض: لمع ـ أضم: إسم جبل.

(٨) تتسعر: تلتهب وتزداد لمعاناً.

(٩) الغضا والحيا: ترخيم الغضاء والحياة.

وأما قصيدتي النبوية، الموسومة بأمان الخائف، فإنها عزيب[1] هذا البارق وحلبة مجرى هذه السوابق، لأنني لم أخرج في تغزلها عن التباري والتشبيب بذكر المنازل المعهودة، وبراعتها:

شدت بكم العشاق لما ترنموا ... فغنوا وقد طاب المقام وزمزم[2]

وقلت بعده:

وضاع شذاكم بين سلع وحاجر ... فكان دليل الظاعنين إليكم[3]
وجزتم بواد الجزع فاخضر والتوى ... على خده بالنبت صدغ منمم[4]
ولما روى أخبار نشر ثغوركم ... أراك الحمى جاء الهوى يتنسم[5]

وما أليقه أن يكون صدراً للمدائح النبوية، ومنها:

فيا عرب الوادي المنيع حجابه ... وأعني به قلبي الذي فيه خيموا
رفعتم قباباً نصب عيني ونحوها ... تجر ذيول الشوق والقلب يجزم
ويا من أماتونا اشتياقاً وصيروا ... مدامعنا غسلاً لنا وتيمموا
منعتم تحيات السلام لموتنا ... غراماً وقد متنا فصلوا وسلموا
يقولون لي في الحيّ أين قبابهم ... ومن هم من السادات قلت هم هم
عريب لهم طرفي خباء مطنب ... بدمعي وقلبي نارهم حين تضرم[6]

ومن ألطف الإشارات إلى أن هذا التغزل صدر قصيدة نبوية قولي منها:

أوري بذكر البان والزند والنقا ... وسفح اللوى والجزع والقصد أنتم[7]

ولم أزل في براعة الاستهلال، استهل أهلة هذه المعاني، إلى أن وصلت إلى حسن التخلص فقلت:

---

(١) عزيب: بعيد، أي أبعدما يمكن أن يتوصل إليه في هذا الفن.
(٢) المقام: قبر النبي محمد ﷺ وزمزم: بئر ماء أخرجها الله لهاجر زوجة إبراهيم الخليل في وادي مكة.
(٣) ضاع: انتشر من ضاع يضوع - والشذا: الرائحة المعطرة.
(٤) صدغ منمم: أو منمنم، مجعد الشعر.
(٥) الأراك: شجر واحدته أراكة وهي نبتة شجيرة كثيرة الفروع، خوّارة العود، متقابلة الأوراق.
(٦) مطنب: ذو طنب وهي الحبال التي تشد بها أعمدة الخيام.
(٧) أوري: من التورية وهي ذكر مسمى وقصد غيره.

تقنعت في حبي لهم فتعصبوا   عليٌّ وهُمْ سادات من قد تلثموا
لهم حسب عاني ببطحاء مكة   لأن رسول الله في الأصل منهم[1]

ومن الأغزال التي لا تليق أن يكون غزلها لمديح قصيد نبوي، قصيد السري الرفاء، فإنه مدح بها الفاطميين وجدهم ﷺ، وجرح القلوب بندبة الحسين عليه السلام، فإنه قال منها:

مهلاً فما نقلوا آثار والده   وإنما نقضوا في قتله الدينا

وهذه القصيدة مشتملة على مدح النبي ﷺ وآل بيته، وندبة الحسين بن علي عليهما السلام، فما ينبغي أن تكون براعتها:

نطوي الليالي علماً ان ستطوينا   فشعشعيها بماء المزن واسقينا[2]

ما أحق هذه البراعة ليعدها من المديح بقول القائل:

تمنيتهم بالرقمتين ودارهم   بوادي الغضى يا بعد ما أتمناه

وما كفاه حتى قال بعد ذلك:

وتوجي بكؤوس الراح راحتنا   فإنما خلقت للراح أيدينا[3]
قامت تهز قواماً ناعماً سرقت   شمائل البان من أعطافه اللينا
تدير خمراً تلقاها المزاج لها   ألقيت فوق جنى الورد نسرينا[4]
فلست أدري أتسقينا وقد نفحت   روائح المسك منها أم تحيينا
وقد ملكنا زمان العيش صافية   لو فاتنا الملك راحت عنه تسلينا

أقول: غفر الله له هذا الغزل، فيه إساءة أدب على مماديحه، فإنه شبب بوصف القيان[5] وبذكر الخمر، وبينه وبين المديح مباينة عظيمة.

رجع إلى البراعات البارعة التي تشعر أنها صدر المديح النبوي، بالإشارات اللطيفة، منها براعة الشيخ برهان الدين القيراطي وهي قوله:

ذكر الملتقى على الصفراء   فبكاه بدمعة حمراء

(١) حسب عاني: حسب ظاهر ومعروف.
(٢) شعشعيها: من شعشع الخمرة بالماء إذا مزجها به ليزيد لونها صفاءً. والمزن: مفردها، مزنة وهي الغيمة الممطرة.
(٣) الراح: من أسماء الخمرة.
(٤) النسرين: نوع من الأزهار يعرف بزهرة الرب.
(٥) القيان: جمع مفرده قينة وهي المغنية.

وأما براعة بديعيتي فإنها، ببركة ممدوحها ﷺ، نور هذه المطالع وقبلة هذا الكلام الجامع؛ فإني جمعت فيها بين براعة الاستهلال وحسن الابتداء، بالشرط المقرر لكل منهما، وأبرزت تسمية نوعها البديعي في أحسن قوالب التورية، وشنفت[1] بأقراط غزلها الأسماع، مع حشمة الألفاظ وعذوبتها وعدم تجافي جنوبها عن مضاجع الرقة وبديعية صفي الدين غزلها لا ينكر، غير أنه لم يلتزم فيها تسمية النوع البديعي مورى به من جنس الغزل، ولو التزمه لتجافت عليه تلك الرقة. وأما الشيخ عز الدين الموصلي، فإنه لما التزم ذلك نحت من الجبال بيوتاً، وقد أشرت إلى ذلك في الخطبة بقولي: وهي البديعية التي هدمت بها ما نحته الموصلي في بيوته من الجبال، وجاريت الصفي مقيداً بتسمية النوع وهو من ذلك محلول العقال، وسميتها تقديم أبي بكر عالماً أنه لا يسمع من الحلي والموصلي في هذا التقديم مقال.

ومن أحسن إشارات براعتي التي تشعر أنها صدر مديح نبوي تشبيبي، بعرب ذي سلم، وخطابي لهم بأن لي في مدائحهم براعة تستهل الدمع، وكأنني وعدتهم بشيء لا بد من القيام به، وهذا حسبما أراده ابن أبي الاصبع بقوله: براعة الاستهلال هي ابتداء الناظم بمعنى ما يريد تكميله.

براعة الاستهلال في النثر

انتهى ما أوردته هنا من البراعات البارعة نظماً، وأما براعات النثر فإنها مثلها، إن لم تكن براعة الخطبة أو الرسالة أو صدر الكتاب المصنف دالة على غرض المنشيء، وإلا فليست ببراعة استهلال.

وقد رأيت غالب البديعيين قد اكتفوا عند استشهادهم على براعة الاستهلال في النثر، بقول الصاحب عمرو بن مسعدة، كاتب المأمون، فإنه امتحن أن يكتب للخليفة يخبره أن بقرة ولدت عجلاً وجهه كوجه الإنسان، فكتب: الحمد لله الذي خلق الأنام في بطون الأنعام. ورأيت الشيخ صفي الدين الحلي، في شرح بديعيته، قد ألقى عند الاستشهاد بها عصا التسيار، واحتجبت عنه في هذا الأفق الشموس والأقمار، أين هو من علو مقام القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، وقد كتب عن السلطان الملك الظاهر، إلى الأمير سنقر الفارقاني، جواباً عن مطالعته بفتح سوس من بلاد السودان، واستهل بقوله: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾[2] الله

---

(١) شنفت: امتعت.

(٢) الإسراء، ١٧/ ١٢.

أكبر، إن من البلاغة لسحراً، والله ما أظن هذا الاتفاق الغريب اتفق لناثر، ولإهلال كاتب المأمون في هذا الاستهلال بزاهر، وهذا المثال الشريف ليس له مثال، منه صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامي تثني على عزائمه التي دلت على كل أمر رشيد، وأتت على كل جبار عنيد، وحكمت بعدل السيف في كل عبد سوء ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ (١).

وبراعة الشيخ جمال الدين بن عبد الرزاق الأصفهاني، في رسالة القوس تجاري براعة القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في هذه الحلبة، وتساويها في علو هذه الرتبة، فإنه أتى فيها بالعجائب، وأصاب غرض البلاغة بسهم صائب، واستهلها بعد البسملة بقوله تعالى: ﴿ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا * إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً * فاتبع سبباً﴾ (٢) منها: شيطان تطلع شمس النصرة من بين قرنيه، مارد لا يصلح إلا بتعريك أذنيه، صورة مركبة ليس لها من تركيب النظم إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا (٣) أو ما اختلط بعظم.

وأما براعة الشيخ جمال الدين بن نباتة، في خطبة كتابه المسمى «بخبز الشعير» فإنها خاص الخاص ولا بد من مقدمة تكون هي النتيجة الموجبة لتسمية هذا الكتاب بخبز الشعير، فإنه مأكول مذموم، وما ذاك إلا إنه كان يخترع المعنى الذي لم يسبق إليه، ويسكنه بيتاً من أبياته العامرة بالمحاسن، فيأخذه الشيخ صلاح الدين الصفدي بلفظه، ولا يغير فيه غير البحر، وربما عام به في بحر طويل يفتقر إلى كثرة الحشو واستعمال ما لا يلائم، فلم يسع الشيخ جمال الدين إلا أنه جمعه، من نظمه ونظم الشيخ صلاح الدين، واستهل خطبته بقوله تعالى: ﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً﴾ (٤) ورتب كتابه المذكور على قوله: (قلت أنا) فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال. فمن ذلك قول الشيخ جمال الدين: قلت:

ومولع بفخاخ يمدها وشباك
قالت لي العين ماذا يصيد قلت كراكي (٥)

---

(١) فصّلت، ٤١/ ٤٦.

(٢) الكهف، ١٨/ ٨٣ - ٨٥.

(٣) الحوايا: الأمعاء وهي جمع مفرده حاوية وحاوياء.

(٤) نوح، ٧١/ ٢٨.

(٥) الكراكي: جمع مفرده كركيّ وهو طائر كبير، أغبر اللون، طويل العنق والرجلين، أبتر الذنب.

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

أغار على سرح الكرى عندما رمى الـــــــــكراكي غزال للبدور يحاكي[(١)]
فقلت ارجعي يا عين عن ورد حسنه ألم تنظريه كيف صاد كراكي

ومن ذلك، قال الشيخ جمال الدين قلت:

اسعد بها يا قمري برزة سعيدة الطالع والغارب
صرعت طيراً وسكنت الحشا فما تعديت عن الواجب

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال من البحر [نفسه]:

قلت له والطير من فوقه يصرعه بالبندق الصائب[(٢)]
سكنت في قلبي فحركته فقال لم أخرج عن الواجب

قال الشيخ جمال الدين: قلت:

وبمهجتي رشأ يميس قوامه فكأنه نشوان من شفتيه[(٣)]
شغف العذار بخده ورآه قد نعست لواحظه فدب عليه

فأخذه الصلاح وقال:

وأهيف كالغصن الرطيب إذا انثنى تميل حمامات الأراك إليه
له عارض لما رأى الطرف ناعساً أتى خده سراً فدب عليه

وأحسن ما وقع في هذا الباب للشيخ جمال الدين أنه قال:

بروحي عاطر الأنفاس ألمى مليّ الحسن خالي الوجنتين[(٤)]
له خالان في دينار خد تباع له القلوب بحبتين

فأخذه الصلاح وقال:

بروحي خده المحمر أضحت عليه شامة شرط المحبة
كأن الحسن يعشقه قديماً فنقطه بدينار وحبه

---

(١) يحاكي: يشبه.

(٢) البندق: كرة في حجم البندقة يرمى بها في القتال.

(٣) رشأ: غزال ـ يميس: يتمايل في مشيته ـ القوام: القد والقامة. نشوان: سكران.

(٤) المى: في شفتيه سُمرة.

فلما وقف الشيخ جمال الدين على هذين البيتين قال: لا إله إلا الله، الشيخ صلاح الدين سرق كما يقال من الحبتين حبة.

قال الشيخ جمال الدين: قلت:

يا غادراً بي ولم أغدر بصحبته ... وكان مني محل السمع والبصر
قد كنت من قلبك القاسي أخال جفا ... فجاء ما خلته نقشاً على حجر

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

ما زلت أشكو حين وفر لي الضنا ... فسما وأسلمني إلى البلوى وفر
حتى توفر من شكاية لوعتي ... لي قلبه فرأيت نقشاً في حجر

قال الشيخ جمال الدين: قلت:

يا عاذلي شمس النهار جميلة ... وجمال قاتلتي ألذ وأزين[1]
فانظر إلى حسنيهما متأملاً ... وادفع ملامك بالتي هي أحسن

فأخذه صلاح الدين مع البحر، بل أخذ الكل مع القافية وقال:

بأبي فتاة من كمال صفاتها ... وجمال بهجتها تحار الأعين
كم قد دفعت عواذلي عن وجهها ... لما تبدت بالتي هي أحسن

ومن ذلك: قال الشيخ جمال الدين وأجاد إلى الغاية:

فديتك أيها الرامي بقوس ... ولحظ يا ضنى قلبي عليه
لقوسك نحو حاجبك انجذاب ... وشبه الشيء منجذب إليه

فأخذه الشيخ صلاح الدين وقال:

تشرط من أحب فذبت وجداً ... فقال وقد رأى جزعي عليه[2]
عقيق دمي جرى فأصاب خدي ... وشبه الشيء منجذب إليه

وما أظن الشيخ صلاح الدين، غفر الله له، لما سمع ما قاله الشيخ جمال الدين ونظم بعده هذين البيتين، كان في حيز الاعتدال، وأين انجذاب القوس إلى الحاجب من

---

(١) عاذلي: لائمي.
(٢) تشرَّط: وضع الشروط.

انجذاب الدم إلى الخد، وليته في براعة استهلاله بقول الله تعالى: ﴿رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً﴾[1] قال بعدها: اللهم ومن دخل بيتي كافراً بفوائدي المنعمة وبيت شعري، سارقاً من ألفاظه ومعانيه المحكمة، فأخجله في سره وعلانيته، وعاقبه على قوله ونيته.

ومنها بلغني أن بعض أدباء عصرنا، ممن منحته ودي، وأنفقت على ذهنه الطالب ما عندي، وأقمته، وهو لا يدري الوزن، مقام من زكاه نقدي، وأودعته ذخائر فكري فأنفقها، وأعرته أوراقيْ العتيقة فلا والله ما ردُها ولا أعتقها، بل إنه غير الثناء بالهجاء والولاء بالجفاء، ونسبني إلى سرقة بيوت الأشعار مع الغناء عنها والغنى، فتغاضيت وقلت هماز مشاء، بنيم[2]، وغصة صديق أتجرعها ولو كانت من حميم، وأخليت من حديثه باب فمي ومجلس صدري، وصرفت ذكره عن فكري.

وليكن، وقفت له على تصانيف وضعها في علم الأدب، والعلم عند الله تعالى، ووشحها بشعره وشعري المغصوب المنهوب، يقول: يا صاحبي ألا لا. وما يتوضح من جيد تلك الأشعار لمعة إلا ومن لفظي مشكاتها[3] ولا تتضوع زهرة إلا ومني في الحقيقة نباتها، فضحكت والله من ذهنه الذاهل وذكرت على زعمه قول القائل:

وفتى يقول الشعر إلا أنه فيما علمنا يسرق المسروقا

وعجبت له كيف رضيْ لنفسه هذا الأمر منكراً، وكيف حلا لذوقه اللطيف هذا الحرام مكرّراً، وقد أوردت الآن، في هذا الكتاب، قدراً كافياً ووزناً من الشعر وافياً، وسميته، خبز الشعير المأكول المذموم، وعرضته على معدلة مولانا، ليعلم أينا مع خليله مظلوم.

ولولا الإطالة لأوردت جميع أبيات الشيخ جمال الدين التي دخلها الشيخ صلاح الدين، بغير طريق، ليرتدع القاصر عن التطاول إلى معاني الغير.

ومن البراعات التي يستهل بها في هذا الأفق الذي مرآة سمائه صقيلة، براعة المقر المخدومي القضائي الفخري عبد الرحمن بن مكانس، مالك أزمة البلاغة، وملك المتأخرين، نظماً ونثراً، في رسالة كتبها إلى المقر المرحومي القضائي الزيني أبي بكر

---

(١) نوح، ٧١/ ٢٨.

(٢) الهماز: الموسوس ـ مشاء: الذي يمشي في الفتنة بين الناس ـ نميم: النمام الذي ينقل الكلام بين الناس.

(٣) المشكاة: ما يحمل عليه أو يوضع فيه القنديل.

ابن العجمي، عين كتاب الإنشاء الشريف بالأبواب الشريفة، وبقية الفضلاء الذين فضلوا بالطريق الفاضلية، بسبب عبد الله القيرواني الضرير. فإني نقلت من خط المشار إليه ما صورته: ورد علينا شخص من القيروان ضرير، يتعاطى نظم الشعر المقفى الموزون الخالي من المعاني، فتردّد إليّ في مجالس متفرقة، ثم بلغني بعد ذلك أنه وشى إلى صاحبي الشيخ زين الدين بن العجميّ، بأني اهتضمت من جانبه وانتقصته وغضضت منه، بالنسبة إلى الأدب وأنه يستعين بكلام الغير كثيراً، فتأذى بسبب ذلك وتأذيت من كذب الناقل، فكتبت إليه رقعة براعة استهلالها ﴿ليس على الأعمى حرج﴾[1].

أقول: إنه يستغنى بهذه البراعة عن الرسالة.

منها: وبلغ المملوك أنه رماه بعض الأصحاب برمية مثل هذه فاصمى[2] وتردد إليه مرة أخرى فعبس وتولى أن جاءه الأعمى. ولقد خسرت صفقته، إذ المملوك ما برح مخلصاً لمولانا في ولائه، ومبايعاً له على سلطنة البلاغة وأجل من تشرّف بحمل لوائه. ومولانا بحمد الله أولى من استفتى قلبه، واستدل على صفاء صدق محبته، بشواهد المحبة، والمسؤول من صدقاته أمران: أحدهما الجواب، فإنه يقوم عند المملوك مقام الفرج من هذه الشدة، والآخر ردّ كل فاسق عن هذا الباب العالي، فإن أبا بكر أولى من يصلب في الردّة. انتهى كلام القاضي فخر الدين.

ولقد كشف الشيخ جمال الدين بن نباتة عن هذا الوجه القناع، وأظهر من بهجته، في رسالة السيف والقلم، ما ليس لمطالع البدور عليه اطلاع، فإن الرسالة مبنية على المفاخرة بينهما، ولما انتصب القلم لمفاخرة السيف كانت براعته ﴿ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾[3] واستهل بعدها بقوله: الحمد لله الذي علم بالقلم وشرفه بالقسم. وبراعة استهلال السيف قوله تعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾[4] واستهل بعده بقوله: الحمد لله الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف، وشرع حدها في ذوي العصيان فأغصّتهم بماء الحتوف[5]، وما أظن أن أحداً من المتقدمين نسج على هذا المنوال، ولا نفث في عقد أقلامهم مثل هذا السحر الحلال.

---

(١) النور، ٢٤/ ٦١.

(٢) أصمى: لم يسمع له.

(٣) القلم، ٦٨/ ١ و ٢.

(٤) الحديد، ٥٧/ ٢٠.

(٥) الحتوف: المنايا مفردها حتف.

وممن طلع من العصريين في هذا الأفق الساطع فأبدر ورقي ببلاغته أعواد هذا المنبر، القاضي ناصر الدين بن البارزي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، فإنه اتفق له بحماة محنة، كان لطف الله تعالى متكفلاً له بالسلامة منها، ولم يضرم نارها إلا من غذي بلبان نعمته، قديماً وحديثاً، فالحمد لله الذي أسعف الإسلام والمسلمين بنجاته، وأمتع العلم الشريف والرياسة بطول حياته، ولما هاجر من حماة المحروسة إلى دمشق المحروسة، كان إذ ذاك مولانا السلطان الملك المؤيد كافلها، ففوض إليه خطابة الجامع الأمويّ، فلم يبق أحد من أعيان دمشق حتى حضر في تلك الجمعة، لأجل سماع الخطبة، فكانت براعة خطبته: الحمد لله الذي أيد محمداً بهجرته، ونقله من أحب البقاع إليه لما اختاره من تأييده ورفعته، فعلت[1] بالجامع الأموي أصوات ترنم حركت أعواد المنبر طرباً، وكاد النسر أن يصفق لها بجناحيه عجباً.

وما ألطف براعة الشيخ العلامة نور الدين أبي الثناء محمود الشافعي، الناظر في الحكم العزيز بحماة المحروسة، والشهير بخطيب الدهشة بحماة المحروسة، في كتاب أدعيته المسمى «بدواء المصاب في الدعاء المجاب»، وهي: الحمد لله سامع الدعاء، ودافع البلاء. وفيها البناء والتأسيس، فإنه أشار بسامع الدعاء إلى الدعاء المجاب، وبدافع البلاء إلى دواء المصاب.

وأما براعة خطيب الخطباء أبي يحيى عبد الرحيم بن نباتة الفارقي، فإنها شغلت أفكاري مدة ولم يسعني غير السكوت والإحجام عنها، فإنه استهلها في خطبة وفاة النبي ﷺ بقوله: الحمد لله المنتقم ممن خالفه، المهلك من آسفه. ولقد اعتذر عنها جماعة من أكابر العلماء.

وأورد الشيخ سري الدين بن هانىء، في شرحه الذي كتبه على ديوان الخطب، على هذه البراعة عذراً لأبي البقاء، أرجو أن تهب عليه نسمات القبول.

وما أحشم ما استهل الشيخ جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي، في خطبة وفاة النبي ﷺ بقوله: الحمد لله الذي استأثر بالبقاء، وحق له أن يستأثر وحكم بالفناء على سكان هذا الفناء[2]، فأذعنوا لحكمه القاهر.

وأما خطبة الشيخ صفي الدين، في صدر شرح بديعيته، فإن استهلالها نير، ولكن فيه نظر وبعض مباينة عما نحن فيه، فإنه قال: الحمد لله الذي حلل لنا سحر البيان.

---

(١) في الأصل فعلا والأصح ما أثبتناه (الشارح).

(٢) الفناء: الأولى بفتح الفاء: الموت، والثانية بكسرها: المكان الواسع (الدنيا).

وكتابه مبنيّ على البديع. ولهذا استهليت خطبة شرح بديعيتي بقولي: الحمد لله البديع الرفيع. ولما جمعت ديواني استهليت خطبتي بقولي: الحمد لله الذي لا يحصر مجموع فضله ديوان.

وكان قد رسم لي أن أنشىء صداقاً للملك الناصر، وأنا إذ ذاك بدمشق، وقد حل ركابه الشريف بها على بنت المرحوم الشريف السيفي كشبغا الظاهر الحموي، فاستهليت بقولي: الحمد لله الذي أيد السنة الشريفة بقوة وناصر. وتمثلت، بعد هذا التاريخ بالمواقف الشريفة الإمامية الخليفية المستعينية العباسية، زاد الله شرفها تعظيماً، فبرزت إليّ أوامرها المطاعة، أن أنشىء عهداً بكفالة السلطنة، بالبلاد الهندية للسلطان العادل مظفر شاه شمس الدنيا والدين صاحب دهلي[1] والفتوحات الهندية، فاستهليت براعته بقولي: الحمد لله الذي وثق عهد النجاح للمستعين به. وقلت بعد الاستهلال: وثبت أوتاده ليفوز من تمسك، من غير فاصلة، بسببه، وزين السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً، فافرغ على أطراف الأرض حلل الخلافة الشريفة، وعلم أن في خلفها الزاهر زهرة الحياة الدنيا، فقال عز من قائل ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾[2] واختارها من بيت براعة استهلاله من أول بيت وضع للناس، وسبقت إرادته وله الحمد أن تكون هذه النهاية الشريفة، من سقاية بني العباس، وذلك في العشر الأواخر من رمضان، سنة ثلاث عشرة وثمانمائة.

ومما أنشأته في الديار المصرية وقد استقريت منشىء ديوان الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، تقليد مولانا المقر الأشرف القاضوي الناصري محمد بن البارزي الجهني الشافعي، عظم الله شأنه، بصحابة ديوان الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، بتاريخ شوّال سنة خمس عشرة وثمانمائة، واستهليته بقولي: الحمد لله الذي أودع محمداً سره. وقلت بعد الاستهلال: وجعله ناصر دينه، فحل به عقد الشرك، وشدّ أزره، وأرسله لينشىء مصالح الأمة، فهذبنا بترسلاته، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، وبيّن ديوان الإنشاء الشريف، بصاحب من بيت ظهر التميز بكتابته، وأيد الإسلام والمسلمين بملك مؤيد تمسك بمحمد وصحابته. وأنشأت بعد هذا التاريخ، توقيعاً لرئيس الطب بالديار المصرية، فكانت براعته: الحمد لله الحكيم اللطيف.

وبراعة الشيخ صلاح الدين الصفدي، في شرح لامية العجم، في غاية الحسن،

---

(١) نظنها: دلهي، وقد أصابها التحريف (الشارح).

(٢) البقرة، ٢/ ٣٠.

فإنه استهلها بقوله: الحمد لله الذي شرح صدر من تأدب. والكتاب مبني على شيء من علم الأدب.

وأما البراعات التي يحلو تقبيلها بوجنات الطروس، فمنها براعة الشيخ جمال الدين ابن نباتة، من رسالة كتبها إلى القاضي علاء الدين الحسني، واستهلها بقوله: يقبل الأرض العلية على السحاب نسباً. وقال بعد الاستهلال: الموفية على حصباء الأنجم حسباً. هذا الأدب إن أطنبت في وصفه فهو فوق الوصف.

وكتب إليه الشيخ برهان الدين القيراطي، من القاهرة المحروسة إلى دمشق المحروسة، رسالة بليغة واستهلها بقوله: يقبل الأرض التي سقت السماء نباتها. وقال بعد البراعة: وحرس الله ذاتها وعمر معاني الحسن أبياتها.

ومن أظرف ما وقع من البراعات المتوشحة برداء التبكيت، براعة القاضي فخر الدين عبد الوهاب، كاتب الدرج، فإنه كان له صديق منهم يعبده، فكتب إليه رسالة يداعبه فيها، واستهلها بقوله: يقبل اليد الشهابية، كثر الله عبيدها. وقال بعد البراعة: وضاعف خدمها وأضعف حسودها. وقد خطر لي أن أوردها بكمالها لوجازتها[1] وغرابة أسلوبها، فإنه قال بعد يقبل الأرض الخ: وينهي بعد ولاء يمتد ودعاء يستد[2] وثناء كأنه عنبر أو كافور راوند[3]، إن مولانا توجه، والأعضاء خلفه سائره، وكل عين لغيبته ساهره، ولا يخفى عليه شوق العليل إلى الشفاء، والظمآن إلى صيِّب الماء، والغريب إلى بلده، والمحصور إلى سعة مسلكه ومقعده، فمولانا يطوي هذه الشقة، ويقصر هذه المدّة، ويدع أحد غلمانه يسد مسده[4]، فالمملوك قلق لسماع أخبار التشويش في البلاد، وتطرق أهل الجرائم والفساد، فمولانا يرسم لغلمانه أن يشمروا في خدمته ذيلاً، ويسهروا عليه بالنوبة[5] لمن يطرق ليلاً، والله المسؤول أن تكون هذه السفرة معجلة، ويخص فيها بالتبرك مخرجه ومدخله، ويبلغه من فضله مزيداً، ويجعل يومه عليه مباركاً وليله عليه سعيداً.

وكتب المقر المخدومي فضل الله بن مكانس، مجد الأدب الذي ظهر من بيته

---

(١) لوجازتها: من الإيجاز وهو الاستغناء من الكلام بما قل ودل.

(٢) يستد: يستجاب.

(٣) الراوند: نبات عشبي يطلق البطن.

(٤) يسد مسده: يقوم مكانه.

(٥) النوبة: الدّور.

فجره، ورضيع لبانه الذي ما سقانا منه ذرة إلا قلنا لله دره، إلى والده المقر المرحومي الفخري، من القاهرة إلى حلب، وهو صحبة الركاب الشريف الظاهري يشكو إليه ومما حصل له بعده، وكان مبدأ الرسالة قوله:

ما الطرف بعدكم بالنوم مكحول هذا وكم بيننا من ربعكم ميل[1]

وقال بعد الاستهلال: لا استهلت لمولانا دموع، ولا جفا جفنه مدى الليالي هجوع[2].

منها: يطالع العلوم الكريمة بما قاساه طرف المملوك من الرمد، وما حصل عليه من الكمد[3]:

إن عيني مذ غاب شخصك عنها يأمر السهد في كراها وينهى
بدموع كأنهن الغوادي لا تسل ما جرى على الخد منها[4]

فلو رآه وقد أخذت عيناه من العناصر الثلاثة بنصيب، وعوضها الهواء عن التراب بمضاعفة الماء واللهيب، لرأى من نارها ما يفحم القلوب، ومن دمعها ما هو البلاء المصبوب، واستمر انهمالها حتى أنشدها المتوجع: قارنها الدمع فبئس القرين. وطالت مدّة رمده، حتى لقد أتى على الإنسان حين وتزايد خوف المملوك على مقلتيه، وشحه بكريمتيه، ففصد في الذراعين، وكاد أن يصير، لولا أن منَّ الله تعالى عليه، أثراً بعد عين.

وكتب إلى المقر المخدومي المشار إليه، سيدنا الإمام العلامة الذي صلت جماعة أهل العصر خلف إمامته، وملك قياد البلاغة ببراعته وعبارته، بدر الدين، رحلة الطالبين، أبو عبد الله محمد بن الدماميني المخزومي المالكي، جواباً عن حل لغز في ورد أرسله إليه، فاستهله بقوله: يقبل الأرض وينهي ورود الجواب الذي شفى الصدور وروده؛ وقال بعد الاستهلال: واللغز الذي نسي بوروده منه، بان الحمى وزروده منه، فاستحلى المملوك منه بالتحريف ورده، وود لو اقتطف من أغصان حروفه ورده، فردّه ذل التقصير عارياً عن ملابس عزه، وأنشد قول ابن قلاقس وهو يقلى بنار عجزه:

إذا منعتك أشجار المعالي جناها الغض فاقنع بالشميم[5]

(١) الربع: الديار وسكانها ـ والميل: مقياس للطول يقدر بـ ١٦٠٩ أمتار.

(٢) هجوع: نوم.

(٣) الكمد: الحزن والغم.

(٤) الغوادي: السحاب الممطر غدوة.

(٥) الشميم: شم الرائحة.

فظهر من طريق سعده نصره، وعلم أن هذا الورد لا يحسن من غير تلك الحضرة، وأن هذه الفاكهة لا تخرجها إلا أغصان أقلام لها بيدي الراحة المخدومية بهجة ونضرة.

ومنه: وتمشى نظر المملوك من هذا اللغز في بساتين الوزير على الحديقة، فرأى كل وردة وأخت الوجنات الحمر فتحير أوردة هي أم شقيقة، وعلمت أن الفكر القاصر لا يجاري من بديهته من بحار الفضل رويه، وأن الخاطر الذي هو على ضعف من رعايا الأدب لا يقوى على سلطان هذا اللغز لأن شوكته قوية.

منه: وتمتعت من ورده الوارد بالمشموم، ثم تذكرت البعد عن جناب المخدوم، فاستقطر البين ماء الورد من حدقي[1].

وكتبت إليه من القاهرة المحروسة، في منتصف ربيع الآخر سنة اثنتين وثمانمائة، عند دخولي إليها في البحر هارباً من طرابلس الشام، وقد عضت عليَّ أنياب الحرب، بثغرها، رسالة مشتملة على حكاية الحال ورّيت في براعتها بمصنفين له: أحدهما الفواكه البدرية الذي جمعه من ثمار أدبه، والثاني نزول الغيث الذي نكت فيه على الغيث الذي انسجم[2] في شرح لامية العجم، للشيخ صلاح الدين الصفدي، واستهليتها بقولي: يقبل الأرض التي سقى دوحها بنزول الغيث، وأثمر بالفواكه البدرية. وقلت بعد الاستهلال: وطلع بدر كمالها من الغرب، فسلمنا لمعجزاته المحمدية، وجرى لسان البلاغة في ثغرها فسما على العقد بنظمه المستجاد، وأنشد، لا فض الله فاه، وقد ابتسم عن محاسنه التي لم يخلق مثلها في البلاد:

لقد حسنت بك الأيام حتى كأنك في فم الدنيا ابتسام

فأكرم به من مورد فضل ما برح منهله العذب كثير الزحام، ومدينة علم تشرفت بالجناب المحمدي فعلى ساكنها السلام، ومجلس حكم ما ثبت لمدعي الباطل به حجة، وعرفات أدب إن وقفت بها وقفة صرت على الحقيقة ابن حجة، وأفق معان بالغ في سمو بدر فلم يقنع بما دون النجوم، وميدان عربية يجول فيه فرسان العربية من بني مخزوم، ومنها: أورى بدخوله إلى دمشق ومطارحته للجماعة، وتالله ما لفرسان الشقر أو البلق[3] في هذا الميدان مجال، وإذا عرفوا ما حصل للفارس المخزومي عندهم من الفتح، كفى الله المؤمنين القتال، وينهي بعد أدعية ما برح المملوك منتصباً لرفعها، وتعريداً ثنية ما

(1) حدقي: عيني مفردها حدقة وهي السواد المستدير وسط العين.

(2) انسجم الغيث: انسكب وانهمر.

(3) البُلق: مفردها أبلق وهو من الجياد الأسود الذي يتخلله بياض.

لسجع المطوق(١) في الأوراق النباتية مثل سجعها، وأشواقاً برحت بالمملوك ولكن تمسك في مصر بالآثار:

وأبرح ما يكون الشوق يوماً ... إذا دنت الديار من الديارِ

وهذه الرسالة لكونها نظمت في طويل البحر ومديده، يفتقر إلى سرد غالبها لتعلقها بحكاية الحال وينهي وصول المملوك إلى مصر مخيماً بكنانتها، وهو بسهم البين مصاب مذعور لما عاينه من المصارع عند مقاتل الفرسان في منازل الأحباب، مكلماً(٢) من ثغر طرابلس الشام بألسنة الرماح، محمولاً على جناح غراب، وقد حكم عليه البين أن لا يبرح سفره على جناح:

وكان في البين ما كفاني ... فكيف بالبين والغراب(٣)

منها: يا مولانا، وأبثك ما لاقيت من أهوال البحر، وأحدث عنه ولا حرج، فكم وقع المملوك من أعاريضه في زحاف تقطع منه القلب لما دخل إلى دوائر تلك اللجج، وشاهدت منه سلطاناً جائراً يأخذ كل سفينة غصباً، ونظرت إلى الجواري الحسان وقد رمت أزر قلوعها(٤) وهي بين يديه لقلة رجالها تسبى، فتحققت أن رأي من جاء يسعى في الفلك غير صائب، واستصوبت هنا رأي من جاء يمشي وهو راكب، وزاد الظمأ بالمملوك وقد اتخذ في البحر سبيله، وكم قلت، من شدة الظمأ، يا ترى قبل الحفرة أطوي من البحر هذه الشقة الطويلة:

وهل أباكر بحر النيل منشرحاً ... وأشرب الحلو من أكواب ملاح

بحر تلاطمت علينا أمواجه حتى متنا من الخوف، وحملنا على نعش الغراب، وقامت واوات دوائره مقام مع، فنصبنا للغرق لما استوت المياه والأخشاب، وقارن العبد فيه سوداء استرقت مواليها وهي جارية، وغشيهم منها في اليم ما غشيهم فهل أتاك حديث الغاشية، واقعها الريح فحملت بنا، ودخلها الماء فجاءها المخاض، وانشق قلبها لفقد رجالها، وجرى ما جرى على ذلك القلب ففاض، وتوشحت بالسواد في هذا المأتم، وسارت على البحر وهي مثل وكم، سمع فيها للمغاربة على ذلك التوشيح زجل برج

(١) المطوق: مفردها المطوقة وهي الحمامة.

(٢) مكلماً: مجرحاً.

(٣) البين: الاغتراب والسفر.

(٤) قلوعها: أشرعتها.

مائي، ولكن تعرب في رفعها وخفضها عن النسر والحوت، وتتشامخ كالجبال وهي خشب مسندة، من تبطنها عد من المصبرين في التابوت، تأتي بالطباق ولكن بالمقلوب، لأن بياضها سواد، وتمشي مع الماء، وتطير مع الهواء، وصلاحها عين الفساد، إن نقر الموج على دفوفها لعبت أنامل قلوعها بالعود، وترقصنا على آلتها الحدباء، فتقوم قيامتنا من هذا الرقص الخارج ونحن قعود، وتتشامم(١) وهي كما قيل أنف في السماء وإست(٢) في الماء، وكم تطيل الشكوى إلى قامة صاريها(٣) عند الميل، وهي الصعدة الصماء، فيها الهدى وليس لها عقل ولا دين، وتتصابى إذا هبت الصبا، وهي ابنة مائة وثمانين، وتوقف أحوال القوم وهي تجري بهم في موج كالجبال، وتدعي براءة الذمة وكم أغرقت لهم من أموال، هذا وكم ضعف نحيل خصرها عن تثاقل أرداف الأمواج، وكم وجلت القلوب لما صار لأهداب مجاذيفها على مقلة البحر اختلاج(٤)، وكم أسبلت على وجنة البحر طرة قلعها، فبالغ الريح في تشويشها، وكم مرّ على قريتها العامرة فتركها وهي خاوية على عروشها(٥)، تتعاظم فتهزل إلى أن ترى ضلوعها من السقم تعدّ، ولقد رأيتها بعد ذلك التعاظم وقد تبت وهي حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد(٦).

وأما البراعة التي لخطبة كتابي المسمى «بمجرى السوابق في وصف الخيول المسومة» فإنها أحرزت قصبات السبق، وهي: الحمد لله الذي يقف عند سابق فضله كل جواد، ويقصر في حلبة هذا الكرم الذي ليس له غاية في بديع الاستطراد، فمن ألهمه الحزم وأرشده إلى حد المعرفة، حاز قصبات السبق ولا نقول كاد، نحمده على أن جعل لنا الخير معقوداً بنواصي الخيل، ونشكره شكراً نعلو به على أشهب الصبح ونمتطي أدهم(٧) الليل، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نرجو أن نكون منها في ميادين الرحمة من السابقين، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله قائد الغر المحجلين.

وقد آن أن نقطع طول هذا البحث برسالة السكين، فإن استهلالها يسن ما كلّ(٨)

---

(١) تتشامم: تتشامخ وتعلو.

(٢) الإست: ما يلامس الأرض من المؤخرة عند الجلوس.

(٣) صارية: تجمع على صواري وهي أشرعة السفينة.

(٤) اختلاج: تحرك.

(٥) خاوية على عروشها: خربة.

(٦) مسد: نار.

(٧) أدهم الليل: ظلامه الشديد.

(٨) كلّ: فسد.

من الذوق، ويبرزه من قراب الشك إلى القطع باليقين، وما ذاك إلا أنه لما انفرد كمال الدين عبد الرزاق الأصفهاني برسالة القوس، واستوفى جميع المحاسن، وجاء الشيخ جمال الدين بن نباتة برسالة السيف والقلم، وأظهر فيهـا معجزات الأدب، أردت أن أعززهما من اختراع رسالة السكين بثالث، واستهليتها بقولي: يقبل الأرض التي قامت حدود مكارمها، وقطعت عنا مكروه الفاقة بمسنون عزائمها. منها: وينهى وصول السكين التي قطع المملوك بها أوصال الجفا، وأضافها إلى الأدوية، فحصل بها البرء والشفا، وتالله ما غابت إلا وبلغ الأقلام من تقشيرها إلى الحفى[1]. منها: ما شاهدها موسى إلا سجد في محراب النصاب، وذل بعدما خضعت له الرؤوس والرقاب، كم أيقظت طرف القلم بعد ما خط، وعلى الحقيقة ما رؤي مثلها قط، وكم وجد الصاحب بها في المضايق نفعاً، وحكم بحسن صحبتها قطعاً، من أجل أنها تدخل في مضايق ليس للسيف قط فيها مدخل، وكلما تفعله توجزه والرمح في تعقيده مطول، تطرف بأشعتها الباهرة عين الشمس، وبإقامتها الحد حافظت الأقلام على مواظبة الخمس، وكم لها من عجائب تركت السيف في بحر غمده كالغريق، ولو سمع بها من قبل ضربه ما حمل التطريق.

انتهى ما أوردته من براعة الاستهلال نثراً ونظماً ومن لم ير بهجة ما أبرزته للمتأخرين فهو في هذه أعمى.

(١) الحفى: التعرية.

الجنـاس

ذكر الجناس المركب والمطلق:

بالله سر بي فسربي طلقوا وطني ... وركبوا في ضلوعي مطلق السقم

أما الجناس، فإنه غير مذهبي ومذهب من نسجت على منواله من أهل الأدب، كذلك كثرة اشتقاق الألفاظ، فإن كلًّا منهما يؤدّي إلى العقادة والتقييد عن إطلاق عنان لبلاغة في مضمار المعاني المبتكرة، كقول القائل، وأستحيي أن أقول إنه أبو الطيب:

فقلقلت بالهمّ الذي قلقل الحشا ... قُـلاقـل عيش كلهن قـلاقـل[١]

ولقد تصفحت ديوانه فلم أجد لوافد هذا النوع نزولاً، إلا ما قل في أبياته وهو نادر جداً، ولا العرب من قبله خيمت بأبياتها عليه، غير أن هذا البيت حكمت على أبي الطيب به المقادير، ومثله قول القائل:

وقـبـر حـرب بـمـكـان قـفـر ... وليس قـرب قبـر حـرب قبـر

فقرب وقبر، لأجل الجناس المقلوب هو الذي قلب عليه القلوب، اللهم إلا أن يقع الجناس في حشو بيت من البحور التي تحمل ثقله من غير اعتناء بأمره، كقول القائل:

لله لـبـنـى كـلـمـا لـبـنـا عـلى ... تعنيقها ونهـودهـا تتقـاعـد[٢]

وبنـار أسمـا وهي أسمى رتبـة ... لقـد احتـرقت وريقهـا يتبـارد

---

(١) قلاقل: بضم القاف الأولى: العيش السريع التقلقل. والقلاقل بفتحها: الفتن.

(٢) لبنا: من لاب، يلوب، لا يستطيع القعود عن الأمر، أو الصبر عليه.

ففي طلعة شمس التورية هنا ما يغني عن النظر إلى زحل الجناس ولقد أحسن من قال:

أنظر إلى صور الألفاظ واحدة وإنما بالمعاني تعشق الصور

والجناس من صور الألفاظ، وممن وافق على ذلك علامة عصره الشهاب محمود، وقال: إنما يحسن الجناس إذا قلّ، وأتى في الكلام عفواً، من غير كد ولا استكراه ولا بعد ولا ميل إلى جانب الركة[1]، ولا يكون كقول الأعشى:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاوٍ مشلٌ شلولٌ شلشـلٌ شولُ[2]

ولا كقول مسلم بن الوليد:

شلت وشلت ثم شـل شليلها فـإني شليل شليلها مشلولا[3]

ولا بأس به في مطالع القصائد، إن تعذر على الناظم أن يركبه تورية، فإنه نوع متوسط، بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع، كما قرره مشايخه، كالتورية والاستخدام والاستعارة والتشبيه، وما قارب ذلك من أنواع البديع. وحكي عن ابن جني: أن الأصمعي كان يدفع قول العامة إذا قالوا هذا يجانس هذا إذا كان من شكله، ويقول ليس بعربي خالص. وقال ابن رشيق صاحب العمدة: هو من أنواع الفراغ. وقلة الفائدة، ومما لا يشك في تكلفه. وقد كثر منه هؤلاء الساقة المتعقبون في نظمهم ونثرهم حتى برد ورك (انتهى كلامه). ولم يحتج إليه، بكثرة استعماله، إلا من قصرت همته عن اختراع المعاني التي هي كالنجوم الزاهرة في أفق الألفاظ، وإذا خلت بيوت الألفاظ من سكان المعاني تنزلت منزلة الأطلال البالية، وما أحلى قول الفاضل هنا:

إنمـا الـدار قبـلُ بـالـسكـان ثم بعـد السكـان بـالجيـران
فـإذا مـا الأرواح شـرّدهـا الحتـ ـف فـمـاذا يـراد بـالأبـدان

وكان الشيخ صلاح الدين الصفدي يستسمن ورمه وبطنه شحماً، فيشبع أفكاره منه ويملأ بطون دفاتره، ويأتي فيه بتراكيب تخف عندها جلاميد الصخور، كقوله غفر الله له:

---

(١) الركة: الركاكة: وهي ضعف البناء اللغوي.

(٢) شاوٍ: الذي يشوي اللحم. مشلٌ شلول شلشل شول: كلها ألفاظ ذات معنى واحد وهو الخفيف السريع في عمله.

(٣) شلّت: الأولى بمعنى نُسجت. والثانية بمعنى: رميت ولم تستعمل، شُلّ: أرسلَ. شليلها: الذي نسجها: شليل شليلها: بمعنى أنني مغرمٌ بالذي نسجها، مشلولاً: لا حركة له.

ونم في أمان بالحبيب ولا تخف لقائط واش في لقاء طواشي[١]

وقوله: وكم ساق في الظلماء والليل شاهد رواحل واط في رواح لواط[٢]

وقوله: وإني إذا كان الفراق معاندي مطالع ناء في مطال عناء[٣]

وقوله في الراح:

وكم ألبست نفسي الفتى بعد نورها مدارع قار في مدار عقار[٤]

وقوله: إذا جرح العشاق قالوا أقمت في مدار جراح في مدارج راح

وقوله: وكم شمت لما قست مقدار ودكم بوارق ياس في بوار قياس

وقوله: ولا تفتحن باب الهدايا وعدها مطار فراش لا مطارف راش[٥]

وقوله: ثنت نحوه الأغصان قامة لينها طواعن شاط في طواع نشاط[٦]

وقوله: ومر على غيري سقام وصحة ولم يبرِ قانٍ مثل ذي يرقان[٧]

ورأيت بخط الشيخ بدر الدين البشتكي، تحت هذا البيت والذي قبله وهو الضعيف بالبرقان، وأن من ذلك مبلغه من النظم لجدير أن يقعد مع صغار المتأدبين (انتهى) ومنه قوله:

فجار وأجرى حين جاورت واجترى فما فاته مما يروم جناس[٨]

وقوله: زاروا وزانوا وزادوا هذا الجناس المليح

وفي ذلك من الركة ما لا يخفى على أهل الذوق السليم، ولولا الخشية من سأم الأسماع لأوردت له كثيراً من هذا النمط، وما أظرف ما وقع له مع الشيخ جمال الدين ابن نباتة، وذلك أنه لما وقف على كتابه المسمى «بجنان الجناس» وقد اشتمل على كثير من هذا النوع، قرأه: جنان الخناس، وجرى بينهما بسبب ذلك ما يطول شرحه، وهذا

---

(١) لقائط: ما يلتقطه الواشي من أقوال لينقلها ويشي بصاحبها ـ طواشي: الخصي.

(٢) رواحل: مفردها: راحلة وهي الدابة، واطٍ: السوقه من الناس.

(٣) ناء: بعيد ـ مطال: إخلاف الوعد والمماطلة في تنفيذه.

(٤) مدارع: مفردها مِدْرَعه: ثوب من صوف، والقار: المقيم.

(٥) مطارف: مفردها مطرف وهو الثوب الفضفاض ـ راش: مولود وهو من رشأت الظبية إذا ولدت.

(٦) طواعن: جمع مفرده طاعن وهو ما يطعن به ـ شاطٍ: مخطيء في رميه.

(٧) سقام: مرض، لم يبر قان: أي لم يضعف الدم ـ ذي يرقان: المريض بالكبد.

(٨) جار وأجرى: ظلم وجعل غيره يظلم ـ اجترى: اجترأ ـ يروم: يبغي.

مما يؤيد قولي أنه غير مذهبي ومذهب من نسجت على منواله، ويعجبني هنا قول الشيخ زين الدين عمر بن الوردي رحمه الله تعالى:

إذا أحببت نظم الشعر فاختر لنظمك كل سهل ذي امتناع
ولا تقصد مجانسة ومكن قوافيه وكِلْهُ إلى الطباع

وكان الأسعد بن مماتى أيضاً، ممن لم يجعل الجناس له مذهباً في نظمه، وما أحلى ما قال:

طبع المجنس فيه نوع قيادة أو ما ترى تأليفه للأحرف

ومن غريب ما يحكى: أن الشيخ صلاح الدين الصفدي، مع تهافته على الجناس والتزامه بما صنفه في جنسه وأنواعه، زاحم ابن مماتى في لفظ بيته ومعناه فقال:

ألا إن من عانى القريض بطبعه يقود فارسله لمن صد واحتشم
ألم تره إن قال شعراً مجانساً يؤلف ما بين الحروف إذا نظم

فانظر كيف أخذ المعنى وغالب الألفاظ، ولم يتمكن من نظم ذلك إلا في بيتين، اتى فيهما بكثرة الحشو مع قلة الأدب على أهله، فإن الأسعد أثبت القيادة لطبع المجنس، والشيخ صلاح الدين أثبت الحكم المذكور لمن يعاني نظم الشعر، وقد طال الشرح وتعين الكلام على الجناس، لأن الشروع فيه يلزم لأجل المعارضة لمن تقدمني من ناظمي البديعيات.

أما هذا النوع فإنه ما سمي جناساً إلا لمجيء حروف ألفاظه من جنس واحد، ومادة واحدة، ولا يشترط فيه تماثل جميع الحروف، بل يكفي في التماثل ما تعرف به المجانسة. وأما اشتقاق الجناس فمنهم من يقول: التجنيس، هو تفعيل من الجنس، ومنهم من يقول: المجانسة، المفاعلة من الجنس أيضاً، إلا أن إحدى الكلمتين، إذا تشابهت بالأخرى، وقعت[1] بينهما مفاعلة الجنسية. والجناس مصدر جانس، ومنهم من يقول: النجانس، التفاعل من الجنس أيضاً لأنه مصدر تجانس الشيئان، إذا دخلا في جنس واحد، ولما انقسم أقساماً كثيرة وتنوّع أنواعاً عديدة، تنزل منزلة الجنس الذي يصدق على كل واحد من أنواعه، فهو حينئذ جنس، وأنواعه: التام والمحرف والمصحف والملفق وهلم جراً. كما أن البديع جنس وأنواعه: الجناس واللف والنشر والاستعارة والتورية والاستخدام وغير ذلك من أنواع البديع، وأما حدود أنواع الجناس، فقد اختلفت

---

(١) في الأصل وقع وما اثبتناه أصح (الشارح).

فيها عبارات البديعيين، ولكن نأتي بحد كل واحد من الأنواع في موضعه ونذكر ما وقع الاتفاق عليه.

وقد صدرت بديعيتي هذه بالجناس المركب والمطلق، حسب ما رتبه الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته، ولكن فاته شنب التسمية وإبرازها في شعار التورية، من جنس التغزل، فحد المركّب أن يكون أحد الركنين كلمة مفردة، والأخرى مركبة من كلمتين، وهو على ضربين: فالأول ما تشابه لفظاً وخطاً، كقول الشاعر:

عضنا الدهر بنابه   ليت ما حل بنا به

ومثله قول القائل:

ناظراه فيما جنى ناظراه   أو دعاني أمت بما أودعاني[1]

وحفظت من شيخي العلامة الشيخ شمس الدين الهيتي الحسني النجوي، وأنا في مبادي العمر والاشتغال من الجناس المركب المتشابه قول القائل من دوبيت[2]:

في مصر من القضاة قاض وله   في أكل مواريث اليتامى وله[3]
إن رمت عدالة فقل مجتهداً   من عد له دراهماً عدله

وكان يقول لا أعرف لهما ناظماً. وما ألطف قول القائل:

ياسيدا حاز رقى   بما حباني وأولى
أحسنت برا فقل لي   أحسنت في الشكر أولا

وقال العلامة شهاب الدين محمود: أنشدني الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الوهاب لنفسه، من المتشابه لفظاً وخطاً:

حار في سقمي من بعدهم   كل من في الحي داوى أورقا[4]
بعدهم لا طل وادي المنحنى   وكذا بان الحمى لا أورقا[5]

(١) ناظراه: الأولى بمعنى، ناقشاه والثانية بمعنى عيناه ـ دعاني: أتركاني.

(٢) دوبيت: دو فارسية بمعنى اثنين فيكون: بيتين.

(٣) وله: عشق شديد.

(٤) رقا: استعمل الرقى في التداوي.

(٥) طل: نديَ ـ البان: نوع من الشجر يضرب المثل بأغصانه في الليونة والملاسة.

وأورد الشيخ صلاح الدين الصفدي، لنفسه، في كتابه المسمى «بجنان الجناس» من هذا النوع، قوله:

يـا مـن إذا مـا أتـاه ... أهـل الـمـودة أولـم[1]
أنـا مـحـبـك حـقـاً ... إن كنت في القوم أولم[2]

وهذا النوع لم يذكره الشيخ صفي الدين في بديعيته.

انتهى الكلام على المتشابه من المركب لفظاً وخطاً والثاني ما هو متشابه لفظاً لا خطاً، ويسمى المفروق: وهو الذي نظمه صفي الدين في بديعيته، كقول الشاعر:

لا تعرضن على الرواة قصيدة ... ما لم تكن بالغت في تهذيبها
وإذا عرضت الشعر غير مهذب ... عدوه منك وساوساً تهذي بها

ومثله قول القائل:

يـا مـن تـدل بـمـقـلة ... وأنـامـل مـن عـنـدم[3]
كفي جعلت لـك الـفـدا ... أسياف لحظك عن دمي

ومثله قول ابن أسد الفارقي:

غـدونا بـآمـال ورحنـا بخيبـة ... أمـاتت لنا أفهـامنا والقـرائحـا
فـلا تلق منا غـادياً نحـو حاجة ... لتسـألـه عن حـاجة والق رائحـا

ويحسن هنا قول أبي الفتح البستي فيه:

وإن أقـر عـلى رق أنـامـله ... أقر بالرق كتاب الأنام له[4]

وما ألطف قول العلامة شهاب الدين محمود من هذا النوع:

ولم أر مثل نشر الروض لما ... تـلاقـيـنـا بـبـنـت الـعـامـري
جرى دمعي وأومض برق فيها ... فقال الروض في ذا العام ربي[5]

---

(١) أولم: أقام وليمة.
(٢) أولم: أي أو لم تكن.
(٣) عندم: نبات يصبغ به يقال له: دم الأخوين.
(٤) الرق: العبودية.
(٥) فيها: فمها - ربي: ارتوائي.

ومن لطائف الشيخ جمال الدين بن نباتة:

قمراً نراه أم مليحاً أمردا ... ولحاظه بين الجوانح أم ردى[١]

ومثله قول شمس الدين محمد بن العفيف:

أسرع وسر طالب المعالي ... بكل واد وكل مهمه[٢]
وإن لحا عاذل جهول ... فقل له يا عذول مه مه

ومثله قوله: إن الذي منزله ... من سحب دمعي أمرعا[٣]
لم أدر من بعدي هل ... ضيع عهدي أم رعى

ومثله قولي للقاضي بهاء الدين السبكي، رحمه الله تعالى:

كن كيف شئت عن الهوى لا أنتهي ... حتى تعود لِيَ الحياة وأنت هي

وأنشدني قاضي القضاة، تقي الدين بن الحسني الحنفي، بحماة في مبادىء العمر وقد ذكرت بين يديه الجناس المركب:

قلت للعاذل الملح على الدمع ... وإجرائه على الخد نيلا
سل سبيلاً إلى النجاة ودع دمع ... عيوني تجري لهم سلسبيلا

ومن أنواع الجناس المركب نوع يسمى المرفوّ: وهو أن يكون أحد الركنين جزءاً مستقلاً والآخر مجزأ من كلمة أخرى، كقول الحريري:

والمكر مهما استطعت لا تأته ... لتقتني السؤدد والمكرمه

وقوله: ولا تله عن تذكار ذنبك وابكه ... بدمع يحاكي المزن حال مصابه
ومثل لعينيك الحمام ووقعه ... وروعة ملقاه ومطعم صابه[٤]

وهذا النوع لا يخلو من تعسف وعقادة[٥] في التركيب.

انتهى الكلام على الجناس المركب وأقسامه، غير أن هنا بحثاً لطيفاً وهو أنه قد

---

(١) الردى: الموت
(٢) المهمه: المفازة
(٣) أمرعا: أخصب
(٤) الحمام: الموت ـ الصاب: المر المذاق
(٥) عقادة: تعقيد.

تقرر: إن ركني الجناس يتفقان في اللفظ ويختلفان في المعنى، لأنه نوع لفظي لا معنوي، وهو نوع متوسط بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع، والتورية من أعز أنواعه وأعلاها رتبة، فإذا جعلت الجناس تورية، انحصر المعنيان في ركن واحد وخلصت من عقادة الجناس، وحركت الأذواق وأبهجت خاطر السامع، بما أتحفته من بديع تركيبها وتأهيله بغريبها، وأنا أذكر المثالين هنا ليتضح في الأذهان الصحيحة، أن النهار لم يحتج إلى إقامة دليل. قال صاحب الجناس المركب:

أعن العقيق سـالت برقـاً أومضـا ... أأقام حادٍ بـالركـائب أو مضى[1]

قال صاحب التورية:

وإذا تبسم ضـاحكـاً لم التـفت ... إن عاد برقاً في الدياجي أو مضا

وهنا يحسن أن يتمثل بقول القائل:

ومن يقـل للمسـك أين الشـذا ... كـذبـه في الحـال من شمـا

ومثله قول الشاعر:

نـديـمـي لا تـسـقـنـي ... سوى الصرف فهو الهني
ودع كـأسـهـا اطـلسـاً ... ولا تـسقـني مـع دنـي[2]

ومن التورية المركبة ما أنشدني، من لفظه، علامة عصرنا القاضي بدر الدين ابن الدماميني، بما كتب به إلى مولانا الحافظ الشيخ شهاب الدين ملك المتأدبين، وعمدة المحققين، أبي العباس أحمد بن حجر الشافعي:

حمى ابن عليٍّ حوزة المجد والعلا ... ومن رام أشتات المعالي وحازها
وكم مشكـلات في البيان بفهمـه ... تبينهـا من غير عجب ومـازهـا[3]

فأجابه شيخنا المشار إليه:

بروحي بدراً في الندا ما أطاع من ... نهـاه وقد حـاز المعـالي فـزانهـا
يسائل أن ينهى عن الجود نفسه ... وها هو قـد بر العفـاة ومانهـا[4]

---

(١) العقيق: وادٍ بظاهر المدينة المنورة.

(٢) أطلسا: في لونه طُلْسَة وهي الغُبْرة إلى السواد. أو شفافاً.

(٣) ومازها: ميزها، ولفظها يوهم انه: ما افتخر.

(٤) التورية في قوله: ومانها: فاتها، ولفظها يوهم أنه ما طلب ترك الأمر.

وما أحلى ما قال متغزلاً:

سالت من لحظه وحاجبه كالسهم والقوس موعداً حسنا
ففرق السهم من لواحظه وانقوس الحاجبان وقت رنا[1]

ومن نثر الشيخ بدر الدين المشار إليه في التورية المركبة، يشير إلى تقريظ[2] كتبه لبعض أهل الأدب، على مصنف سافل، لم تمكن تسميته، والتزم في التقريظ نوع الإيهام من الأول إلى الآخر، وكتب الشيخ بدر الدين على ذلك المصنف قوله: ولقد كنت أرتجي باباً أدخل منه إلى التقريظ، ففتح لي المقر التقوي باباً مرتجاً، ونهج الطريق إلى المدح، فاقتفيت آثاره واهتديت حين رأيت منهجاً. ومثله قوله في التقريظ الذي كتبه على بديعيتي هذه: كتبت وأسياف الخطوب ليس لها إلا الجوائح أغماد، والزمن قد كادني بسهام أوتاره المصيبة ورماني بعد أن كاد. ومثله ما أنشدني من لفظه لنفسه الكريمة أحد أعيان العصر، القاضي مجد الدين بن مكانس، حيث قال:

أقول لحبي قم ومس يا معذبي كميسة خود حرك السكر راسها[3]
ولا تسه عن شيء إذا ما حكيتها فقام كغصن البان ليناً وما سها[4]

وأحجية الشيخ شهاب الدين ابن حجر، في هذا الباب، من طرف الأدب، فإنها تورية خفية مركبة في الأصل:

يا فاضلاً هو في الأحا جي ليس يخلو من ولع[5]
ما مثل قولك للذي يشكو الحبيب أسكت رجع

فصه، مرادف أسكت، وباء مرادف رجع، فحصلت التورية في صهباء، وصه باء، ومن النظم في هذا النوع الغريب قول المعمار:

وخادم يعلو على عشاقه برتبة من الجمال نالها
واسمه وهو العجيب محسن وكم دموع في الهوى أسا لها

(١) التورية في قوله: وقت رنا: عندما نظر، ومعناها يوهم الإقتران والالتصاق.

(٢) تقريظ: مديح.

(٣) مِس: أمر من ماس: تمايل ـ خود: حسناء.

(٤) حكيتها: شابهتها.

(٥) الأحاجي: الألغاز.

ومثله قول الشيخ شمس الدين المزين في غلام مليح وله لألاء مليح:

ومليح لالاه يحكيه حسناً فهو كالبدر في الدجا يتلالا
قلت قصدي من الأنام مليح هكذا هكذا وإلا فلا لا

ومن نظمي الغريب في هذا النوع:

تصديتم لقتل ضعيف جسم لغير الوجد فيكم ما تصدى
وعد ضلوعه بالسقم لما تعديتم عليه وما تعدى

وقلت فيه:

بعد هند وبعد سلمى تعطـ ـشت إلى رشف كل العس المى[1]
وفؤادي يقول لا تطلب الري من الريق بعد هند وسلمى

وقلت من قصيدة مطولة:

حين قابلت خده بدموعي أثرت خلت ثوب خز منمم[2]
وانظر اليوم خده مع دموعي واحك ما شئت عن عقيق وعن دم[3]

والبيت الأول من المعاني المخترعة التي لم يسبق إليها.

انتهى ما أوردته من الكلام على الجناس المركب، واستجلاء عرائس التورية، وأما الجناس المطلق فإن للناس، في الفرق بينه وبين المشتق معارك، وسماه السكاكي وغيره المتشابه والمتقارب، لشدة مشابهته وقربه من المشتق، وكل منهما يختلف في الحروف والحركات ولكن الفرق بينهما دقيق، قل من أتى بصحته ظاهراً، فإن المشتق غلط فيه جماعة من المؤلفين وعدوه تجنيساً، وليس الأمر كذلك، فإن معنى المشتق يرجع إلى أصل واحد. والمراد من الجناس اختلاف المعنى في ركنيه، والمطلق كل ركن منه يباين الآخر في المعنى، وأنا أذكر لكل واحد منهما شاهداً يزول به الالتباس، فالمشتق كقوله تعالى: ﴿قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم﴾[4] وقيل إن ما مصدرية أي: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي، فعلى كل تقدير، الجميع راجع إلى العبادة، والمعنى في الاشتقاق راجع إلى أصل واحد، ومنه قوله

---

(١) العس: القدح الكبير ـ المى: بارد.

(٢) منمم: مزخرف، مزركش.

(٣) عقيق: نوع من الأحجار الكريمة لونه أحمر يميل إلى السواد.

(٤) الكافرون، ١٠٩/ ١ و ٢.

تعالى: ﴿ومن شرّ حاسد إذا حسد﴾[1] وقوله تعالى: ﴿إذا وقعت الواقعة﴾[2] وقوله تعالى: ﴿أزفت الآزفة﴾[3] ومن النظم قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

ألا لا يجهلن أحد علينا   فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وما ألطف قول كشاجم، في خادم أسود مشهور بالظلم:

يا مشبهاً في فعله لونه   لم تحظ ما أوجبت القسمه
فعلك من لونك مستخرج   والظلم مشتق من الظلمه

فإن النبي ﷺ قال: «الظلم ظلمات يوم القيامة»، ومن السحر الحلال قول بعض المتأخرين في هذا الباب:

عاتبت طيف الذي أهوى وقلت له   كيف اهتديت وجنح الليل مسدول[4]
فقال آنست ناراً من جوانحكم   يضيء منها لدى السارين قنديل
فقلت نار الجوى معنى وليس لها   نور يضيء وهذا القول مقبول[5]
فقال نسبتنا في الحال واحدة   أنا الخيال ونار الشوق تخييل

وقد نبه على الاشتقاق في قوله نسبتنا في الحال واحدة.

ورأيت الشيخ شمس الدين بن الصائغ، في شرحه على البردة، لما انتهى إلى قول المصنف:

ظلمت سنة من أحيا الظلام إلى   ان اشتكت قدماه الضر من ورم

قال: ظلمت وظلام جناس اشتقاق، وهو كقوله تعالى: ﴿وأسلمت مع سليمان﴾[6] قلت: أما ظلمت وظلام فاشتقاق بلا خلاف، وأسلمت مع سليمان جناس مطلق لأنه لم يرجع في المعنى إلى أصل واحد، وهو أعظم شواهد البديعيين على الجناس المطلق.

انتهى الكلام على المشتق وأما الجناس المطلق، فلشدة تشابهه بالمشتق، يوهم

---

(١) الفلق، ١١٣/ ٥.
(٢) الواقعة، ٥٦/ ٠١.
(٣) النجم، ٥٣/ ٥٧.
(٤) مسدول: مرخى.
(٥) الجوى: شدة الشوق.
(٦) النمل، ٢٧/ ٤٤.

أحد ركنيه أن أصلهما واحد وليس كذلك، كقوله تعالى: ﴿وإن يردك بخير فلا رادّ لفضله﴾ [(١)] وكقوله تعالى: ﴿ليريه كيف يواري سوأة أخيه﴾[(٢)]. ومنه ما كتب به إلى المأمون في حق عامل له وهو: فلان ما ترك فضة إلا فضها، ولا ذهباً إلا أذهبه، ولا مالاً إلا مال عليه، ولا فرساً إلا افترسه، ولا داراً إلا أدارها ملكاً، ولا غلة إلا غلها، ولا ضيعة إلا ضيعها، ولا عقاراً إلا عقره، ولا حالاً إلا أحاله، ولا جليلاً إلا أجلاه، ولا دقيقاً إلا دقه. فهذه الأركان هنا شواهد على الجناس المطلق، ليس فيها ركنان يرجعان إلى أصل واحد كالمشتق، بل جميع ما ذكرنا أسماء أجناس، وهي محمولة على دم الاشتقاق، ومثل ذلك من النظم قول الشاعر:

عرب تراهم أعجمين عن القرىٰ ... متنزلين على الضيوف النزل[(٣)]
فأقمت بين الأزد غير مزود ... ورحلت عن خولان غير مخول[(٤)]

ومثله قول الآخر:

بجانب الكرخ من بغداد عنّ لنا ... ظبيٌ ينفّره عن وصلنا نفر[(٥)]
ضفيرتاه على قتلي تظافرتا ... يا من رأى شاعراً أودى به الشّعر[(٦)]

وما أحلى قول القائل: سلم على الربع من سلمى بذي سلم

فالثلاثة عنان[(٧)] جنسها، مطلق في المطلق، وقال الآخر وأجاد:

إذا أعطشتك أكف اللئام ... كفتك القناعة شبعاً وريا
فكن رجلاً رجله في الثرى ... وهامة همته في الثريا

وما أحلى قول أبي فراس في هذا النوع:

فما السلاف ازدهتني بل سوالفه ... ولا الشمول دهتني بل شمائله[(٨)]

---

(١) يونس، ١٠/ ١٠٧.
(٢) المائدة، ٥/ ٣١.
(٣) القرى: بكسر القاف: إطعام الضيف.
(٤) الأزد وخولان: قبيلتان من قبائل العرب.
(٥) عنّ: ظهر من بعيد.
(٦) ضفيرتاه: جديلتا شعره ـ تضافرتا: تعاونتا ـ أودى به: ذهب به وأماته.
(٧) عنان جنسها: أرفع أنواعها.
(٨) السلاف: الخمرة ـ ازدهتني: جعلتني أتيه زهواً ـ سوالفه: جمع مفرده سالفة وهي =

ومثله قول الصاحب بهاء الدين زهير:

يا من لعبت به شمول ... ما ألطف هذه الشمائل

وللبحتري:

وإذا ما رياح جودك هبت ... صار قول العذول فيها هباء[1]

ويحسن هنا قول الشاب الظريف محمد بن العفيف:

أراك فيمتلي قلبي سروراً ... وأخشى أن تشط بك الديار[2]
فجرْ واهجرْ وصد ولا تصلني ... رضيت بأن تجور وأنت جار[3]

وما أحسن ما قال الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماة، رحمه الله تعالى بمنه وكرمه:

تولى شبابي فولى الغرام ... ولازم شيبي لزوم الغريم
ولو لم يصدني بازيُّهُ ... لما صارمتني مهاة الصريم[4]

انتهى الكلام على المطلق وعلى الفرق بينه وبين المشتق منه نظماً ونثراً، وقد رسم لي أن أثبت في بديعيتي هذه أبيات من تقدّمني في النظم، كالشيخ صفي الدين الحلي والشيخ عز الدين الموصلي، وما ورد في بديعية العميان من القدر الذي استعملوه، ليشاهد المتأمل في هذا الميدان مجرى السوابق، فإن الشيخ صفي الدين جمع بين الجناس المركب والمطلق، في بيت واحد وهو المطلع فقال:

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم ... وأقر السلام على عرب بذي سلم

والعميان لم يأتوا في البيت إلا بنوع واحد، فقالوا في المركب:

دع عنك سلمى وسل ما بالعقيق جرى ... وأُمَّ سلعاً وسلْ عن أهله القدم[5]

- الأحدوثة ـ الشمول: الريح الشمالية، والجارية التفت بثيابها حتى بانت تقاسيم جسمها ـ شمائل: خصال ومزايا.

(١) هباء: لا أثر له ولا معنى.

(٢) تشط: تبعد.

(٣) فجر: من الجور وهو الظلم ـ وصدّ: أي قابلني بالصدود وعدم النظر إلي ـ لا تصلني: لا تمنحني الوصال.

(٤) صارمتني: قاطعتني، الصريم: إسم موضع.

(٥) أمّ: أقصُدْ ـ القدم: القدماء.

وقالوا في الجناس المطلق:

جـار الزمـان فكفوا جـوره وكفوا وهل أضام لدى عرب على أضم [١]

فالمطلق في أضام وأضم، وأما جار وجور فمشتق، ولكن لم يخف ما في البيتين من الثقل، مع خفة الالتزام، وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

فحيي سلمى وسلٍ ما ركّبت بشذاً قد أطلقته أمام الحي عن أَمَمِ [٢]

فالشيخ أتى بالنوعين في بيت واحد، وورى بالاسمين من جنس الغزل، ومع ذلك تلطف وتضاءل عليهم واحتشم، وبيتي، تقدّم ذكره، ولكن دعت الضرورة إلى ذكره هنا حسب المرسوم وهو:

بالله سر بي فسربي طلقوا وطني وركبوا في ضلوعي مطلق السقم

وفي تسمية النوع، هنا ما يغني عن التنبيه عليهما. وقد تقدم الشرح على كل واحد منهما، والشيخ صفي الدين والعميان لم يثقل التقييد بتسمية النوع لهم كاهلاً مع أن يكون مورّى به من جنس الغزل، وشتان بين عالم الإطلاقِ والتقييد بضيق هذا الخناق، لأن الرقيق لم يقم له سوق، بل يصدّق إذا ما ادعى عتقه، والله المسؤول أن يقيم لنا سوق القبول، في متاجر الرقة، فإن الشيخ صفي الدين قال في خطبته، مع إطلاق قياده، فانظر أيها العالم الأديب إلى غزارة الجمع، وهي ضمن الرياقة[٣] في السمع، ثم قال بعد ذلك:

ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

ذكر الجناس الملفق:

ورمت تلفيق صبري كي أرى قدمي يسعى معي فسعى لكن أراق دمي

حد الملفق أن يكون كل من الركنين مركباً من كلمتين، وهذا هو الفرق بينه وبين المركب وقل من أفرده عنه، وغالب المؤلفين ما فرقوا بينهما، بل عدوا كل واحد منهما مركباً إلا الحاتمي وابن رشيق وأمثالهما، ولعمري لو سموا الملفق مركباً والمركب ملفقاً،

(١) كفوا: من وكف الدمْعُ إذا غزر ـ اضام: اضر ـ أضم: إسم جبل.

(٢) عن أَمَمٍ: عن كثب، عن قرب.

(٣) الرياقة: ما يروق السمع.

لكان أقرب إلى المطابقة في التسمية، لأن الملفق مركب في الركنين، والمركب ركن واحد كلمة مفردة، والثاني مركب من كلمتين، وهذا هو التلفيق، وما ألم بالملفق أحد من أصحاب البديعيات غير الشيخ صفي الدين الحلي، وما ذاك إلا أنه قال، في خطبة بديعيته، أنها نتيجة سبعين كتاباً في هذا الفن، وهذا دليل على إنه لما عارضه الشيخ عز الدين، والتزم تسمية الأنواع التي ذكرها الشيخ صفي الدين، لم يجد بداً من نظمه لأجل المعارضة، ولكن نحت فيه بيتاً من الجبال، وسيأتي. وأما العميان فإنهم عدوه في بديعيتهم من المركب، فاختصرته هنا، وكذلك بقية أبياتهم في أنواع الجناس تعين اختصارها، فإنهم لم يأتوا في البيت إلا بالنوع الواحد.

ومن الملفق في النظم قول الشاعر:

وكم لجباه الراغبين إليه من ... مجال سجود في مجالس جود

وما ألطف ما قال القاضي أبو علي عبد الباقي بن أبي حصين في هذا النوع، وقد ولي القضاء بالمعرة وهو ابن خمس وعشرين سنة، وأقام في الحكم خمس سنين وهو:

وليت الحكم خمساً وهي خمس ... لعمري والصبا في العنفوان
فلم تضع الأعادي قدر شاني ... ولا قالوا فلان قد رشاني

وما أحلى قول الشيخ شرف الدين بن عنين في هذا الباب:

خبروها بأنه ما تصدى ... لسلو عنها ولو مات صدا(١)

ويعجبني قوله بعد المطلع:

وسلوها في زورة من خيال ... إن تكن لم تجد من الهجر بدا(٢)

وبيت الحلي في الملفق:

فقد ضمنت وجود الدمع من عدم ... لهم ولم أستطع مع ذاك منع دمي

ولم يمكن الشيخ صفي الدين أن يحصر مع الملفق غيره من أنواع الجناس في بيت واحد، لما تقدم من صعوبة مسلكه، وهو عزيز الوقوع، ولكن له رونق وموقع في الذوق لطلاوة (٣) تركيبه، وغرابة أسلوبه، وبيت الشيخ صفي الدين في غاية الرقة والانسجام.

---

(١) سلو: نسيان

(٢) زورة: أي زيارة

(٣) الطلاوة: الحسن والرونق.

غير أن التحريف حكم عليه فصار مشوشاً، والمشوش كل جنس تجاذبه طرفان من الصنعة، فلا يمكن إطلاق أحدهما على الآخر، وبيت صفي الدين تجاذبه المحرف والملفق إنتهى.

وبيت الشيخ عز الدين:

ملفق ظاهر سرى وشان دمي لما جرى من عيوني إذ وشى ندمي[1]

هذا البيت فيه الجناس الملفق على الصنعة، وتسميته على الشروط المذكورة، ولكن عجزت لعقادة تركيبه، عن الطيران بأجنحة الفهم لا أحوم له على معنى، ونظرت بعد ذلك في شرحه فوجدته قد قال: إن لفظة ملفق صفة للجار والمجرور في قوله فحيي سلمى وسل ما ركبت بشذا، يعني إن الشذا الذي أطلقته سلمى أمام الحي كان ملفقاً، وبيتي المسؤول له من الله السلامة:

ورمت تلفيق صبري كي أرى قدمي يسعى معي فسعى لكن أراق دمي

والكلام في رقة قولي: ورمت تلفيق صبري الخ البيت، إنما وقع من أصحاب الغراميات، لا من أصحاب البديعيات، وقد تقدّم قولي: إن الفرقة الناجية من التعسف والتكلف، في النظم، لم ترض بالجناس إذا أمكنت التورية، وقال المقر المرحومي الفخري، في التورية التي سماها جناساً ملفقاً:

إن الهواءين يا معشوق قد عبثا بالروح والجسم في سري وفي علني
فالروح تفديك بالممدود قد تلفت والجسم حوشيت بالمقصور فيك فني[2]

وأنشدني، من لفظه لنفسه، علامة عصره الشيخ بدر الدين الدماميني:

تدري لماذا أتاك قلبي في عسكر الوجد وهو ذائب
أذنب ثم اختشى فوافى من ذلك الذنب فيك تائب

وأنشدني، من لفظه لنفسه الكريمة، أحد أعيان العصر ابن مكانس:

كمال أوصافي يا منيتي في الحب أن أصبحت مثل الخلال
وملت من سكر الهوى نشوة فارحم معنىً مغرماً فيك مال[3]

---

(١) سرى: صار متخفياً ـ شان: عاب ـ وشى: دل.

(٢) الممدود: الجسم ـ تلفت: خربت ـ المقصور: أو المقصورة وهي مكان الإقامة أو الصلاة والتورية في قوله: فيك فني التي يوهم لفظها بقوله في كفني.

(٣) معنىً: أسير الحب. أو الذي يعاني من الحب.

ومن نظمي في هذا النوع الغريب:

رأت حياة شبابي قد قضت أجلاً والسقم قد زاد لما قل مصطبري
قالت سرقت نحول الخصر قلت لها ما يحمل الشيخ هذا وهو في كبري[1]

انتهى والله عز وجل أعلم.

الجناس المذيل واللاحق:

وذيل الهم همل الدمع لي فجرى كلاحق الغيث حيث الأرض في ضرم[2]

المذيل اختلف جماعة المؤلفين في اسمه، ولم يتقرر له أحسن من هذه التسمية، فإن فيها مطابقة للمسمى، وما ذاك إلا أن المذيل: هو ما زاد أحد ركنية على الآخر حرفاً في آخره فصار له كالذيل، وهو الفرق بينه وبين المطرف، ويأتي الكلام على المطرف في موضعه، فالمذيل كقول كعب بن زهير:

ولقد علمت وأنت خير عليمة أن لا يقرّبني الهوى لهوان[3]

وما ألطف من قال:

وسألتها بإشارة عن حالها وعليَّ فيها للوشاة عيون
فتنفست صعداً وقالت ما الهوى إلا الهوان فزال عنه النون

ومنه قول أبي تمام:

يمدون من أيد عواص عواصم تصول بأسياف قواض قواضب[4]

وقال آخر:

عذيري من دهر موارٍ موارب له حسنات كلهن ذنوب[5]

---

(١) نحول الخصر: ضموره ودقته.

(٢) همل الدمع: دائم الدمع ـ ضرم: أي اضطرام اشتعال ولهيب.

(٣) الهوان: الذل.

(٤) عواصٍ: مخفية، عواصم: بيض، وهي صفة الأيدي، تصول: تحارب ـ قواضٍ: تقوض العدو ـ قواضب: قاطعة.

والمعنى: تمد أيدٍ بيضاء من التستر تحارب بأسياف تقوض الأعداء وتقطعهم.

(٥) عذيري: أي من عذيري، والعذير هو المخلص ـ موارٍ: مدبرٍ ـ موارب: يأتي بعكس ما يشتهي الإنسان.

ومن النثر فلان حام حامل لأعباء الأمور، كاف كافل لمصالح الجمهور. ومثله فلان سال عن إخوانه سالم من زمانه، ومن غراميات البها زهير في الجناس المذيل قوله من قصيدة:

أشكو وأشكر فعله ... فاعجب لشاك منه شاكر
طرفي وطرف النجم فيـ ... ـك كلاهما ساهٍ وساهر

ولم يخرج عما نحن فيه قوله منها:

يا ليل بدرك حاضر ... يا ليت بدري كان حاضر
حتى يبان لناظري ... من منهما زاه وزاهر

وما أحلى ما ختم القصيدة بقوله:

بدري أرق محاسناً ... والفرق مثل الصبح ظاهر

وقد تأتي الزيادة في آخر المذيل بحرفين، كقول حسان بن ثابت:

وكنا متى يغزو النبي قبيلة ... نصل جانبيه بالقنا والقنابا(١)

ومنه قول النابغة:

لها نار جنّ بعد أنس تحولوا ... وزال بهم صرف النوى والنوائب(٢)

ومنه في رثاء قوله:

فيا لك من حزم وعزم طواهما ... جديد الردى تحت الصفا والصفائح(٣)

وأرق ما سمعته في هذا الباب قول القائل:

إن البكاء هو الشفا ... ء من الجوى بين الجوانح

انتهى الكلام على الجناس المذيل وأما اللاحق، فقل من فرق بينه وبين المضارع، والمراد بالمضارع هنا المشابه، والفرق بينهما دقيق، فإن اللاحق هنا ما أبدل من أحد ركنيه حرف من غير مخرجه، ومتى كان الحرف المبدل من مخرج المبدل منه

---

(١) القناب: المخالب.
(٢) صرف النوى: تصريف النوى وتشتيته والنوى البعد ـ النوائب المصائب مفردها نائبة وهي ما ينوب الإنسان.
(٣) الردى: الموت ـ الصفا: الحجارة العريضة، والصفائح: الحجارة العريضة الملساء.

سمي مضارعاً، وإن كان قريباً منه كان مضارعاً أيضاً، وأنا أذكر شاهد كل منهما، فإن الفرق بينهما يدق عن كثير من الأفهام، ولم يساعده على ظلمة شكه غير ضياء الحسن.

والمضارع هو المتشابه في المخرج، كقوله تعالى، وهو إلى الغاية التي لا تدرك ﴿وهم ينهون عنه وينأون عنه﴾[1] ومنه قوله ﷺ. «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة». ومثله قول بعضهم: البرايا أهداف البلايا.

ومن النظم قول الشريف الرضي رحمه الله:

لا يذكر الرمل إلا حنّ مغترب | له إلى الرمل أوطار وأوطان[2]

فاللام والراء والنون من مخرج واحد، عند قطرب والجرمي وابن دريد والفراء. قال بعض أهل الأدب في كتاب: راش سهامه بالعقوق، ولوى ماله عن الحقوق. فالعين والحاء من مخرج واحد. ويعجبني قول الشيخ جمال الدين بن نباتة في هذا الباب:

رق النسيم كرقتي من بعدكم | فكأننا في حيكم نتغاير
ووعدت بالسلوان واش عابكم | فكأننا في كذبنا نتخاير[3]

فالغين والخاء من مخرج واحد.

انتهى الكلام على المضارع ومقاربه في مخارج حروفه على الأبدال، واللاحق قد تقدم أنه ما أبدل من أحد ركنيه حرف من غير مخرجه، كقوله تعالى: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر﴾[4]. وكتب بعضهم في جواب رسالة: وصل كتابك فتناولته باليمين، ووضعته مكان العقد الثمين. ومن النظم، قول البحتري، وأجاد إلى الغاية:

عجب الناس لاعتزالي وفي الأطـ | ـراف تلفى منازل الأشراف
وقعودي عن التقلب والأر | ض لمثلي رحيبة الأكناف[5]
ليس عن ثروة بلغت مداها | غير أني امرؤ كفاني كفافي[6]

---

(١) الأنعام، ٦/ ٢٦.

(٢) أوطار: مفردها وطر وهي الحاجة.

(٣) نتخاير: يخبر بعضنا الآخر.

(٤) الضحى، ٩٣/ ١٠.

(٥) اكناف: نواحي، مفردها كنف.

(٦) كفافي: ما يقيم أودي وأحافظ به على حياتي.

فكفاني وكفافي هو اللاحق الذي لا يلحق. وهنا نكتة لطيفة تؤيد قول البحتري في بيته الأول وهو:

عجب الناس لاعتزالي وفي الأطـــــــراف تـلفى مـنـازل الأشـراف

قيل لبعضهم: في أي موضع في القرآن الأطراف منازل الأشراف؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين﴾[1] فهذا أشرفهم، وكان ﷺ ينزل من أقصى المدينة والأطراف والأشراف مما نحن فيه. وما أحلى قول أبي هلال العسكري في اللاحق:

أراعي تحت حاشية الديـاجي شقائق وجنة سقيت مداما[2]
وإن ذكـرت لـواحظ مقلتيـة حسبت قلوبنـا مطرت سهـامـا
وإن مـالـت بعـطفيـه شمـول سقـانـا من شمـائله سقـامـا[3]

انتهى الكلام على الجناس اللاحق، والفرق بينه وبين المضارع، ومن الناس من يسمي كل ما اختلف بحرف، تجنيس التصريف، سواء كان من المخرج أو من غيره، ولكن رأيت استجلاء الفرق أنور، ولا يشترط أن يكون الإبدال في الأول ولا في الوسط ولا في الآخر، فإن جل القصد الإبدال كيفما اتفق، وبيت الشيخ صفي الدين يشتمل على المذيل واللاحق وهو:

أبيت والـدمع هـام هامـل سرب والجسم في أضم لحم على وضم[4]

وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

يـذيل الـدمع جـار جـارح بـأذى كلاحق ماحق الآثار في الأكم[5]

قال شيخنا الشيخ شمس الدين الهيتي، وقد تقدمت ترجمته لما أنشدته هذا البيت والذي قبله، بعد حفظي لهما من المصنف بحماة: لو عزا أحد هذين البيتين إلى الجان ما شككت في قوله. وبيت بديعيتي:

---

(١) يس، ٣٦/ ٢٠.
(٢) مداماً: خمراً أديمت في دنانها وعتقت وهي أجود الخمرة.
(٣) عطفيه: جانبيه ـ شمول: رياح شمالية.
(٤) هام: منصب انصباباً ـ هامل: منسكب بغزارة وديمومة. سرب: يتبع بعضه بعضاً ـ الأضم: الأذى ـ وضم: كل ما يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير أو مائدة الطعام.
(٥) الأكم: جمع مفرده أكمة وهي التلة الملتفة الأشجار.

وذيل الهم همل الدمع لي فجرى		كلاحق الغيث حيث الأرض في ضرم

فالمذيل في هم وهمل واللاحق في غيث وحيث.

الجناس التام والمطرف:

يا سعد ما تم لي سعد يطرفني		بقربهم وقليل الحظ لم يلم[1]

أما الجناس التام: فهو ما تماثل ركناه واتفقا لفظاً واختلفا معنى، من غير تفاوت في تصحيح تركيبهما، واختلاف حركتهما، سواء كانا من اسمين، أو من فعلين، أو من اسم وفعل، فإنهم قالوا: إذا انتظم ركناه، من نوع واحد، كاسمين أو فعلين، سمي مماثلاً، وإن انتظما من نوعين، كاسم وفعل، سمي مستوفى، وجل القصد تماثل الركنين في اللفظ والخط والحركة واختلافهما في المعنى، سواء كانا من اسمين أو من غير ذلك، فإن المراد أن يكون الجناس تاماً، على الصفة المذكورة، من حيث هو أكمل الأنواع إبداعاً وأسماها رتبة وأوّلها في الترتيب، فمنه قول الإمام أمير المؤمنين، علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه: صولة الباطل ساعة، وصولة الحق إلى الساعة. وقيل: ما وقع في القرآن العظيم غير هذين الركنين، وهو قوله تعالى: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾[2]. ولكن استخرج ابن حجر من القرآن جناساً آخر تاماً عظيماً، وهو قوله تعالى: ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار * يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾[3]. ومن الشعر قول بعضهم وأجاد:

وسميته يحيى ليحيى فلم يكن		إلى ردّ أمر الله فيه سبيل

ومن ملح هذا النوع قول ابن الرومي:

للسود في السود آثار تركن بها		وقعا من البيض يثني أعين البيض[4]

ومنه قول أبي الفتح البستي:

سما وحمى بني سام وحام		فليس كمثله سام وحام

---

(١) يا سعد: ترخيم يا سعدى، وسعد الثانية: الحظ الجيد ـ يطرفني: يمتعني.

(٢) الروم، ٣٣/ ٥٥.

(٣) النور، ٢٤/ ٤٣ و ٤٤.

(٤) السود الأولى: الفرسان السود ـ والسود الثانية: لمعنى الليالي السود ـ الوقع: الضرب ـ البيض: ما يلبسه الفارس اتقاء للسيوف ـ يثني: يرد ـ البيض: النساء البيض.

أما أبو الفتح، فإنه ثابر على استعمال الجناس كثيراً، ولكن ما أعلم أنه نظم أحسن من هذا البيت، وقد تجمل به نوع الجناس وكاد أن يكون تورية. وما أحسن قول المعري فيه وأحشمه:

لم نلق غيرك إنساناً يلاذ به ... فلا برحت لعين الدهر إنسانا(1)

ومطلع الشيخ صفي الدين، في قصيدته البائية التي عارض بها المتنبي، وامتدح بها السلطان الملك الناصر، سقى الله عهده، حسن في هذا الباب وهو:

أسبلن من فوق النهود ذوائباً ... فتركن حبات القلوب ذوائبا(2)

ومن محاسنها:

عاتبته فتضرجت وجناته ... وازور ألحاظاً وقطب حاجبا(3)

فأذابني الخدّ الكليم وطرفه ... ذو النون إذ ذهب الغداة مغاضبا(4)

ومطلع قصيدة ابن نباتة التي امتدح بها الملك الأفضل، صاحب حماة، غاية في هذا النوع، وقد عارض أبا الطيب المتنبي، ولكن أتى فيها بما لو سمعه أبو العلاء لرجع عن ديوان أحمد، وأقر بمعجزات محمد. فمطلع المتنبي:

أرق على أرق ومثلي يأرق ... وجوى يزيد وعبرة تترقرق(5)

ومطلع ابن نباتة:

ما بت فيك بدمع عيني أشرقُ ... إلا وأنت من الغزالة أشرق(6)

ولأجل إطنابي في هذه القصيدة تعين إيراد شيء من محاسنها هنا. فمنها:

أنفقت عيني في البكاء وحبذا ... عين على مرأى جمالك تنفق

وتكاثرت في الجفن أنجم أدمعي ... فكأن غرب الجفن مني مشرق

---

(1) يلاذ به: يحتمى به ـ إنسان العين: بؤبؤها.

(2) أسبلن: أرخين ـ النهود: جمع مفرده نهد وهو الثدي ـ الذوائب: خصل الشعر.

(3) تضرّجت: احمرت من جراء تدفق الدم إليها من الخجل ـ والوجنات مفردها وجنة: وهي كرسي الخد ويقصد بها معظمه ـ أزورّ الحاظاً: أدار نظره عني.

الكليم: الجريح ـ ذو النون: هو الذي ورد ذكره في القرآن في قوله تعالى: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً...﴾ الأنبياء ٢١/ ٨٧.

(5) الأرق: عدم استطاعة النوم ـ عبرة: دمعة.

(6) أشرقُ: أغصُّ: الغزالة: من أسماء الشمس ـ أشرق: أكثر إشراقاً

وأخافني فيك العذول وما درى أني لجورك في الهوى أتشوق
قسماً بمن جعل الأسى بك لذة والدمع راحة من يحب ويعشق
إن العذول هو الغبي وإن من يفني عليك حياته لموفق
لي من نصيب هواك سهم وافر وسهام سحر من جفونك ترشق
يمتار من دمعي عليك ذووا البكا فاعجب له من سائل يتصدق
ولقد سقيت بكأس فيك مدامة في غيظ عذالي عليك فلا سقوا[1]
وضممت من عطفيك غصن ملاحة بالحلي يزهر والغلائل يورق
وقرأت من خديك بعد تأمل خطابه حب القلوب معلق
ورزقت من جفنيك ما حسد الورى حظي عليه وهو رزق ضيق
ونعمت باللذات وهي جديدة ولبست ثوب الراح وهو معتق
في ليل أفراح كأن هلاله للشرب ما بين الندامى زورق
حتى استطال الفجر يطعن في الدجى فهو السنان أو العدوّ الأزرق
يا حبذا ليل نبيع به الكرى لكننا لا عن رضا نتفرق
حيث الشباب إلى المسرة راكض لا يستقر وطالب لا يرفق[2]
ما سرني أن الكميت يحثها نحوي السقاة وأن فودي أبلق[3]
زار الضنا ونأى الحبيب وعادني ارق على أرق ومثلي يأرق

والعذر عن طول ما أوردته واضح لغرابة أسلوبها غزلاً ومدحاً. منها في المدح:

قوم لذكراهم على صحف العلا أصل الفخار وكل ذكر ملحق
الملك بعض ديارهم فلينزلوا والنجم بعض جدودهم فليرتقوا[4]
إن يسجع الدين الحنيف بمدحهم فلأنه بأبي الفتوح مطوق
أو يبق ماضيهم على سنن الوفا فلأنهم ببقاء أفضلهم بقوا
ملأت مواهبه القلوب مهابة فالقلب قبل الطرف فيها مطرق

---

(١) لاسقوا: دعاء عليهم بمعنى لا سقاهم الله. إذ يقال في معرض الدعاء لهم سقاهم الله أو سقى الله قبره إلخ...
(٢) لا يرفق: لا تأخذه بنفسه شفقة أو رحمه.
(٣) الكميت: الخمرة التي لونها أحمر يشوبه السواد - والفود: جانب الرأس مما يلي الأذن - أبلق: خالط سواده بياض أي شابّ.
(٤) هذا البيت كناية عن فضلهم وعلو حسبهم.

وكـأنـمـا أقـلامـه بـسـوادهـا   غربان بين في الخزائن تنعق[1]
لا عيب فيه سوى العزائم قصرت   عنها الكواكب وهي بعد تحلق

منها:

يـا أيها الملك المكمـل فضله   وقيت من حـدق إليك تحـدّق
وبقيت للمـدّاح تجلب عيسهم   جلبـاً بغير بـلادكم لا ينفق[2]
أذكـرتنا زمن المؤيـد لا عـدت   مثواه باكية الغمـامـة تشهق[3]
حتى تجـر بـه ذيـون حديقـة   أكمـامهـا بيـد النسيم تفـتق[4]

منها:

وبـديعـة كـالـروض إلا أنهـا   تجلى بجارحـة السمـاع وتنشق
نـظمتها عقـداً بـدون مثـالـه   في النظم شاب من الوليد المفرق
لا فضـل لي فيها وبحـرك قاذف   درر الصفـاء يقول للنـاس انفقوا
من عش بيتك قد درجت فطار لي   في الخافقين جناح ذكـرك يخفق
ولكم علقت من القريض صناعة   مـا كنت لـولاكـم بهـا أتـعلق
لـكم الـولا مـني لأن نـداكـم   في كـل حادثـة لفقري يعتق[5]

ومن مطالعي في الجناس التام قولي:

يـا طيب الأخبار يـا ريح الصبـا   يـا من إليه كـل قلب قـد صبـا

وهذه القصيدة كتبت بها من القاهرة المحروسة سنة اثنتين وثمانمائة إلى القاضي تاج الدين بن البارزي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف، تشوقاً إليه وإلى حماة المحروسة، وقلت بعد المطلع أخاطب النسيم بما هو أرق منه:

يا صادق الأنفاس يا أهل الذكـا   يا طاهر الأذيال كم لك من نبا[6]

---

(١) البين: الفراق - تنعق: تصوت والنعيق: صوت الغراب.

(٢) عيس: جمع مفرده أعيس وهو من الجمال التي يخالط بياضه شقرة.

(٣) المثوى: القبر - باكية الغمامة: من الغيوم الممطرة - تشهق: ترتفع.

(٤) أكمامها: مفردها كِمّ وهو برعوم الثمرة - تفتق: تتفتق تتفتح.

(٥) نداكم: عطاؤكم - يعتق: يحل عقده ويحرره.

(٦) الذكا: طيب الرائحة - نبا: نبأ، خبر.

يا من نراه عبارة عن حاجر		يا روح نجد مرحباً بك مرحبا
يا نسمة الخير الذي من طيبه		نتنشق الأخبارَ عن تلك الربا
بالله إن رنحت ذيلك بالحمى		ووردت شعباً من دموعي معشبا[1]
وهززت فيه كل عود أراكة		أضحى بهاتيك الثغور مطيبا
ولثمت من ثغر الأقاحي مبسماً		أبدى بدرُ الطل ثغراً أشنبا[2]
ودخلت كل خباء زهر قد غدا		بدموع أجفان الغمام مطنبا
وطرقت حي العامرية ظامئاً		فنعمت في الوادي بريا زينبا[3]
وحملت من نشر الخزامى نفحة		مشمولة بالطيب من ذاك الخبا[4]
عج بالعذيب فإن محجر عينه		أضحى لما حملته مترقبا
واصحب عبير المسك منه فإنه		لشوارد الغزلان أضحى مشربا
وإذا تنسمت الشذا وتعطرت		منك الذيول وطبت يا ريح الصبا
عرج على وادي حماة بسحرة		متيمماً منه صعيداً طيبا
واحمل لنا في طي بردك نشره		فبغير ذاك الطيب لن نتطيبا
واسرع إليّ وداو في مصر به		قلباً على نار البعاد مقلبا
لله ذاك السفح والوادي الذي		ما زال روض الأنس فيه مخصبا[5]
وانعم بمصر نسبة لكن أرى		وادي حماة ولطفه لي أنسبا
أرض رضعت بها ثدي شبيبتي		ومزجت لذاتي بكاسات الصبا
يا ساكني مغنى حماة وحقكم		من بعدكم ما ذقت عيشاً طيبا
ومهالك الحرمان تمنع عبدكم		من أن ينال من التلاقي مطلبا
وإذا اشتهيت السير نحو دياركم		قرأ النوى لي في الأواخر من سبا
وقد التفت إليك يا دهري يطو		ل تعتبي ويحق لي أن أعتبا
قررت لي طول الشتات وظيفة		وجعلت دمعي في الخدود مرتبا[6]
وأسرتني لكن بحق محمد		يا دهر كن في مخلصي متسببا

(١) رنحت: حرّكت ـ شعبا: حيّاً.
(٢) أشنبا: رقيق الأسنان أبيضها.
(٣) طرقت: من طرق المكان إذا مر به
(٤) النفحة: السحابة الصيفية البيضاء.
(٥) مخصباً: كثير الخصوبة.
(٦) الشتات: الفراق والابتعاد عن الأهل والأقارب.

فمحمد ومدينة قد حلها ... لم ألق غيرهما لقلبي مطلبا
مولى إذا قصد الزمان بلحنه ... خفضي غدا عن رفع قدري معربا
ذو رتبة نصب السعود بيوتها ... من فوق هام الفرقدين وطنبا(١)
وفضائل أمست على حلل العلو ... م برقمها الزاهي طرازاً مذهبا
وكتابة منسوبة لكن إلى ... عين الكمال وحقها أن تنسبا
وإذا تسنم ذروة من منبر ... لخطابة فابن الخطيب هنا هبا(٢)
من بيت فضل قد علت طبقاته ... وأراه للعلم الشريف مبوّبا
وإذا وقفت لحاجة في بابه ... تلقاه باباً للنجاح مجربا
يا كاتب الأسرار يا من فضله ... قد جمل الدنيا وزان المنصبا
أقلامك السمر الرشاق إذا انثنت ... أغنت نهار الخطب عن بيض الظبا(٣)
سود العيون كأنما ألحاظها ... قد كحلت بسواد أحداق الظبا(٤)
لكن إلى وجه الطروس إذا رنت ... أبدت لنا سحراً حلالاً طيبا(٥)
وسرى نسيم الذوق في قصباتها ... فغدا بها بين الأنام مشيبا(٦)
فلأجل ذا إن رجعت أقوالها ... لم نلق إلا مرقصاً أو مطربا

رجع إلى ما كنا فيه من الجناس التام، ومن نظمي فيه أيضاً مع زيادة التورية:

طلبت تقبيل من أحب وقد ... أنكرت في الخد نقطة حسنه
فرق لي قلبه وقال إذا ... لثمت خدي لا تنكر الحسنه

انتهى الكلام على الجناس التام، وقد تقدم قولي إن جميع من نهلت من شرابهم الصافي لم يرضوا بالجناس التام، إذا أمكن استدراك التورية من ركنيه، لعلمهم بعلوّ رتبتها عنه والتفات الأذواق الصحيحة السليمة إلى حسن موقعها، وإذا راجعت النظر في كلامهم وجدت غالب ما نظموه من التورية جناساً تاماً، فمن ذلك قول الشيخ صدر الدين ابن الوكيل من دو بيت:

---

(١) السعود: الحظ والبخت ـ الفرقدين: نجمان في السّماء ثابتان قرب القطب الشمالي يهتدى بهما.

(٢) ابن الخطيب: هو الوزير لسان الدين الأديب والشاعر والخطيب المعروف ـ هبا: انحط قدره.

(٣) الرشاق: مفردها رشيق وهو السريع الخفيف ـ الخطب: المصيبة ـ بيض الظبا السيوف والظبا: حد السيف وشفرته.

(٤) الظبا: الظباء مفردها ظبي وهو الغزال الأعفر.

(٥) الطروس: مفردها الطرس وهو الكتاب الذي محي ثم كتب.

(٦) قصباتها: قصبات الأقلام ما يكتب به منها وهي رؤوسها.

كم قال معاطفي حكتها الأسل		والبيض سرقن ماحوته المقل[1]
والآن أوامري عليهم حكمت		البيض تحد والقنا تعتقل[2]

ففي تحد وتعتقل جناسان تامان، إذا أبطلت الاشتراك وأبرزت كلاً من الركنين في موضعه، على طريق من له رغبة في الجناس، ومثله قول محيي الدين بن عبد الظاهر في كوز[3]:

وذي أذن بلا سمع		له قلب بلا قلب
إذا استولى على حب		فقل ما شئت في الصب

ومثله قول بدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي:

تعشقته لدن القوام مهفهفاً		شهي اللمى أحوى المراشف أشنبا[4]
وقالوا بدا حب الشباب بوجهه		فيا حسنه وجهاً إليّ محببا

ومثله قول الشيخ شرف الدين الأنصاري شيخ شيوخ حماة:

لنا من ربة الخالين جاره		تواصل تارة ونصدّ تاره[5]
تعاملني بما يحلو وتلوي		ولكن ليس في جوفي مراره

ومثله قول الشيخ ظهير الدين البارزي، سقى الله ثراه:

يا لحية الحب التي		طال لها تلفتي
هل أنت مسك الترك أو		هل أنت مسك نبتي

ومثله قول الشيخ علاء الدين الوداعي:

أثخنت عينها الجراح ولا إثـــم عليها لأنها نعساء[6]
زاد في عشقها جنوني فقالوا		ما بهذا فقلت بي سوداء[7]

---

(١) الأسل: نبات كثير الأغصان شائكها تصنع منه الحصر والحبال.
(٢) تُحَد: تعاقب بإنزال الحد بها والحد مفرد حدود وهي في الفقه والشرع: حد الزنى حد شرب الخمر، حد السرقة... إلخ ومعناه قصاص معين ينزل بالشخص مقابل عمله الشائن.
(٣) الكوز: الإبريق الصغير.
(٤) لدن: ليِّن ورشيق ـ مهفهفاً: ضامر البطن دقيق الخصر: اللمى السمرة ـ أحوى المراشف: لون شفتيه فيه كمنة وهي الاحمرار المشوب بالسواد والأشنب: رقيق الأسنان أبيضها.
(٥) الخالين: مفردها الخال وهو شامة سوداء تظهر عادة في الخد.
(٦) أثخنت: كثرت فيها وأثقلتها ـ نعساء: ناعسة.
(٧) سوداء: سوداوية المزاج.

ومثله قول لسان الدين بن الخطيب:

جلس المولى لتسليم الورى ... ولفصل البرد في الجوّ احتكام
فإذا ما سألوا عن يومنا ... قلت هذا اليوم برد وسلام

ومثله قول الشيخ سراج الدين الوراق، فيمن بخل بالراح، والتورية ثلاثية وهو:

لا تطمعن براحة من معشر ... سادوا بغير مآثر السادات
قطعت عن المعروف أيديهم وقد ... سرقوا العلا فخلت من الراحات

ومثله قول نصير الدين الحمامي:

لي منزل معروفه ... ينهل غيثاً كالسحب
أقبل ذا العذر به ... وأقبل الجار الجنب[1]

ومثله قول شهاب الدين الحاجبي:

له عين لها غزل وغزو ... مكحلة ولي عين تباكت
وحاكت في فعائلها المواضي ... فيا لك مقلة غزلت وحاكت

ومثله قول ابن الوردي:

قالت إذا كنت ترجو ... وصلي وتخشى نفوري
صف ورد خدّي وإلا ... أجور ناديت جوري

ومثله قول ابن الصائغ:

هجرت فأحشائي لذاك توقدت ... جمراً وليست في المحبة فاتره
هذا وتحرمني الثقيل الهوى ... من ذا الذي يرضى بنار الهاجره[2]

ومثله قول ابن نباتة في الملك المؤيد صاحب حماة:

لنا ملك قد قاسمتنا هباته ... فنثر العطا منه ونظم الثنا منا[3]
يذكرنا أخبار معن بجوده ... وننشي له لفظاً فينشي لنا معنى[4]

---

(1) الجار الجُنُب: الجار بالجنب.

(2) في الشطر الأول خلل في الوزن ونظنه: هذا وتحرمني الثقيل من الهوى.

(3) هباته: مفردها هبة وهي الأعطية ـ العطا: العطاء ـ والثنا: الثناء.

(4) معن: هو معن بن زائدة من أجواد الجاهلية وفرسانها.

ومثله قوله، وهو أعدل شاهد في هذا الباب:

دمعي عليك مجانس قلبي فانظر على الحالين في الصب

فذكر التجانس هنا أحد لازمي التورية، والدمع هو اللازم الآخر، وقد نبهنا الشيخ جمال الدين على أنه لم يرض بالجناس، ويؤيد ذلك قوله على الحالين، ومنه قول القيراطي:

أباح لي نرجس ألحاظه في مجلس ما فيه ما نكره
فقلت ورد الخد جد لي به أيضاً فقال الكل في الحضره[1]

ومثله قول بدر الدين بن الصاحب:

فتنت بنبت من عوارض خده فها أنا في قيد الغرام أسير
وما كان لي بالعشق قط تعلق ولا بالهوى قبل العذار شعور[2]

ومثله قول صلاح الدين الصفدي:

إن لم تصدّقني تصدّق بالكرى ليزورني فيه الخيال الزائل
وانظر إلى فقري لوصلك واغتنم أجري وقل للدمع قف يا سائل

ومثله قول ابن أبي حجلة:

يا صاح قد حضر الشراب ومنيتي وحظيت بعد الهجر بالإيناس
وكسا العذار الخد حسناً فاسقني واجعل حديثك كله في الكاس

وما أظرف قول يحيى الخباز الحموي:

أصبحت في العالم أعجوبة عند ذوي المعقول والفهم
جدي حموي فاسمعوا واعجبوا وما كفى حتى أبي أمي

ومثله قول المعمار:

قد بت من كربي لفقد النسا أفور كالتنور من ناريه[3]
وقد طغى الماء فمن لي بأن أحمل بالجود على جاريه

(١) الحضره: الحضور والمكانة.

(٢) العذار: الشعر على جانب الخد.

(٣) التنور: الفرن يخبز فيه.

ومثله قول الشيخ شرف الدين حسن المشهور بالزغاري:

قيل لي إذا رأيت أقمار تم عن بدور السماء للطرف تلهي[1]
أي وجه أضناك قلت دعوني فمقامي قد صح من كل وجه

ومثله قول عز الدين الموصلي:

حديث عذار الحب باد وساقه له أوجه تبدي لقلبي اشتياقه
درى أننا نصغي إلى الحسن دائماً فأبدى لنا ذاك الحديث وساقه

ومثله قول ابن مكانس:

يقول معذبي إذ همت فيه بخد خلت فيه الشعر نملا[2]
أتعرف خده للعشق أهلاً فقلت له نعم أهلاً وسهلا

وأنشدني، من لفظه لنفسه، بقية السلف ومن كان للفروع النباتية نعم الخلف، الشيخ زين الدين أبو بكر بن العجمي، عين كتاب الإنشاء الشريف بالديار المصرية. وقد تمثلت بين يديه بالقاهرة المحروسة، سنة إحدى وثمانمائة، وطالبته بشيء من لفظه في المواليا، فإنه كان إمام فنونه المتشعبة فقال:

للحب قالوا معناك الذي أذبلتو جدلو بقبلة فقنبو فيك خبلتو[3]
فقال أقسم لو أن انبوس سبلتو ومات للشرق مادرتو وقبلتو[4]

ومنه قول ابن خطيب داريا:

تقول وقد أتتني ذات يوم مخبرة عن الظبي الجموح[5]
يسرك أن أروح إليه أجري فقلت لها خذي مالي وروحي

ومنه قول بدر الدين الدماميني:

قم بنا نركب طرف اللهو سبقاً للمدام
واثن يا صاح عناني لكميت ولجام[6]

---

(١) أقمار تم: بدور كاملة تامة لأربع عشرة ليلة.

(٢) خلت: ظننت.

(٣) جدلو: جُذْله ـ خبلتو: خبلته: جرحته.

(٤) البوس: التقبيل.

(٥) الجموح: الشارد.

(٦) الكميت: الخمرة.

ومثله قول ابن حجر:

سألوا عن عاشق في قمر باد سناه
أسقمته مقلتاه قلت لا بل شفتاه

ومثله قولي:

عاتبته ودموعي غير جارية لأن دمعي من طول البكا نشفا
فقال لم أر وكف الدمع قلت له حسبيك الله يا بدر الدجى وكفى[1]

ولم أستطرد إلى هذا إلا لتأييد قولي: إن جميع من نسجت على منوالهم لم يرضوا بالجناس، التام إذا أمكنت التورية التامة، وصبح الفرق بينهما بحمد الله ظاهر، وبدر مثاله في ليالي السطور سافر.

انتهى ما أوردته من محاسن التورية التامة، ووجوب تقديمها على الجناس التام إذا كان عند الناظم يقظة، وكان ممن يميل إلى هذا المذهب. وأما الجناس المطرف، فهو ما زاد أحد ركنيه على الآخر حرفاً في طرفه الأول، وهذا هو الفرق بينه وبين المذيل، فإن الزيادة في المذيل تكون في آخره، وأما المطرف فتكون زيادته في أوله لتصير له كالطرف، ويسمى: الناقص والمردف، وفي تسميته اختلاف كثير، ولكن مطابقة المطرف في التسمية طرفة، كقوله تعالى: ﴿والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق﴾[2] والزيادة تارة تكون في أول الركن الثاني كما تقدم، وتارة في أول الركن الأول، كقول أبي الفتح البستي:

أبا العباس لا تحسب بأني بشيء من حلى الأشعار عاري
فلي طبع كسلسال معين زلالٍ من ذرى الإحجار جاري[3]
إذ ما كبت الأدوار زنداً فلي زند على الأدوار واري[4]

ومثله:

وكم سبقت منه إليّ عوارف ثنائي على تلك العوارف وارف[5]
وكم غرر من بره ولطائف فشكري على تلك اللطائف طائف

---

(١) وكف الدمع: انهماله وانصبابه.

(٢) القيامة، ٧٥/ ٢٩.

(٣) السلسال: الماء العذب الصافي ـ معين: جارٍ ـ زلال: شديد الصفاء.

(٤) في البيت كسر ونظنه: إذا ما أكبت الأدوار: أي إذا جعلته يكبو بمعنى يخبو وينطفىء.

(٥) عوارف: مفردها عارفة وهي الصنيعة واليد ـ وارف: واسع الظل.

ومثاله قول القائل:

قام يسعى ما بين شرب أعزه ... من بني الترك أغيد فيه عزه

وقصيدة هذا المطلع رأيتها في بعض التذاكر، بخط الشهاب محمود، ولم أعرف لها ناظماً وأعجبني فيها أبيات منها:

يقظ ما يشير طرف إليه ... بمرام إلا ويعرف رمزه
كلما تفعل الصوارم تغني ... عنه ألحاظه المراض بغمزه

ومن نظم ابن نباتة الذي جعله نفثاً:

عطفت كأمثال القسي حواجبا ... فرمت غداة البين قلباً واجبا (١)

ومثله قولي:

والله ما هب النسيم بحاجر ... إلا ترقرق مدمعي بمحاجري

انتهى الكلام على الجناس التام والمطرف، وهما في بيت البديعية ظاهران، وبيت صفي الدين الحلي قوله:

من شأنه حمل أعباء الهوى كمدا ... إذا هم شأنه بالدمع لم يلم

وبيت عز الدين الموصلي:

مذ نم للعين أنس حين طرفها ... مرأى الحبيب ببذل العين لم يلم

وبيتي:

يسعد ما تم لي سعد يطرفني ... بقربهم وقليل الحظ لم يلم

وللمتأمل أن يستحلي ويستجلي ما يظهر في مرآة ذوقه، ولا يميل عن جادة الإنصاف.

الجناس المصحف والمحرف(٢):

هل من يفي ويقي إن صحفوا عذلي ... وحرفوا وأتوا بالكلم في الكلم

---

(١) القسي: جمع مفرد ـ قوس.

(٢) من التصحيف وهو زيادة نقاط أو حذف نقاط من الكلمة أثناء الكتابة مثل يسقين ويشفين. والتحريف وهو زيادة حرف أو إنقاصه أو تغيير موضعه.

يفي ويقي فيهما جناس التصحيف، ومنهم من يسميه جناس الخط، وهو ما تماثل ركناه خطاً واختلفا لفظاً، والمقدم في هذا قوله تعالى: ﴿والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين﴾ (١) ومنه قول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: قصر ثوبك فإنه أنقى وأتقى وأبقى. وقول النبي ﷺ حين سمع رجلاً ينشد على سبيل الافتخار. وقيل: : سأله عن نسبه فقال:

إني امرؤ حميريّ حين تنسبني ... لا من ربيعة آبائي ولا مضر

فقال له النبي ﷺ: ذلك والله ألأم لجدك وأقل لحدك ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو كنت تاجراً ما اخترت غير العطر، إن فاتني ربحه لم تفتني ريحة ومنه قول القاضي الفاضل، في بعض رسالاته: فأنتم يا بني أيوب أيديكم آفة أنفس الأموال، كما أن سيوفكم آفة أنفس الأبطال، فلو ملكتم الدهر لامتطيتم لياليه أداهم وقلدتم بيض أيامه صوارم، ووهبتم شموسه وأقماره دنانير ودراهم، وأوقاتكم أعراس ومآتم إلا على الأموال فهي مآتم، والجود خاتم في أيديكم، ونفس حاتم (٢) نقش في ذلك الخاتم. وقال أهل الأدب خلف الوعد خلق الوعد(٣) والأربعة أركان بغير حشو، وهو غاية في هذا الباب ومن النظم قول الشاعر:

فإن حلوا فليس لهم مقر ... وإن رحلوا فليس لهم مفر

ومثله قول أبي فراس:

من بحر جودك أغترف ... وبفضل علمك أعترف

ولم أذكر هنا من جناس التصحيف إلا النوع السالم من اختلاف الحركة بالتحريف، فإنه إذا اجتمع فيه النوعان صار مشوشاً، كقول الحريري: «زينت زينب بقد يقد». فهذا فيه التحريف والتصحيف. وقد تقدم أن الركنين، إذا تجاذبهما نوعان من التجنيس ولم يخلصا لواحد، كان الجناس مشوشاً، ومثله قول أبي تمام: «في حده الحد بين الجد واللعب».

ومن المصحف السالم، ما كتبت به إلى المقر المخدومي، فخر الدين بن مكانس، في رسالتي التي ذكرت فيها حريق دمشق وهو: وأضحت أوقات الربوة، بعد ذلك العيش

---

(١) الشعراء، ٢٦/ ٧٩.

(٢) حاتم الطائي ويضرب به المثل في الكرم العربي القديم.

(٣) أي عدم الوفاء بالوعد اللئيم الخسيس من الناس.

الخضل واليسر، عسيره، ولقد كان أهلها في ظل ممدود وماء مسكوب وفاكهة كثيرة، فعبس بعد ذلك ثغر روضها الباسم، وضاع من غير تورية عطره الناسم.

ومن غراميات البهاء زهير ولطائفه في الجناس المصحف قوله:

وليس مشيباً ما ترون بعارضي ... فلا تمنعوني أن أهيم وأطربا [1]
وما هو إلا نور ثغر لثمته ... تعلق في أطراف شعري فألهبا
وأعجبني التجنيس بيني وبينه ... فلما تبدى أشنبا رحت أشيبا [2]

وما أظرف قول شمس الدين بن العفيف، وقد كنى بأحد الركنين عن الآخر، وهو:

يا ذا الذي صدّ عن محبْ ... فيه أذاب الغرام قلبه
مالك في الهجر من دليل ... لكن هذي علوّ قبه

- ولم يطالب فيه بالتشويش لظرافته ولطافته.

انتهى الكلام على الجناس المصحف. وأما قولي وحرفوا وأتوا بالكلم في الكلم، فهذا جناس التحريف، وهو ما اتفق ركناه في عدد الحروف وترتيبها واختلفا في الحركات، سواء كانا من اسمين أو فعلين أو من اسم وفعل أو من غير ذلك، فإن القصد اختلاف الحركات كما تقرر، والمقدّم فيه، وهو الغاية التي لا تدرك، قوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا فيهم منذرين فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾ [3]. ولا يقال: إن اللفظين متحدان في المعنى، لأنهما من الانذار، فلا يكون بينهما تجنيس، فاختلاف المعنى ظاهر، إذ المراد بالأوّل الفاعلون وهم الرسل، وبالثاني المفعولون وهم الذين وقع عليهم الإنذار، وقول النبي ﷺ: اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي. ومثله قولهم: جبة البرد جنة البرد، ومثله قولهم: رطب الرطب ضرب من الضرب، ومنه قول القاضي الفاضل لا زالت الملوك ببابه وقوفاً، والأقدار له سيوفاً، والخلق له في دار الدنيا ضيوفاً، ودين دين الحق إذا جردوا لتقاضيه سيوفاً سيوفى.

ومن النظم قول أبي تمام:

هن الحمام فإن كسرت عيافة ... من حائهن فإنهن حِمام [4]

---

(١) عارضي: جانب وجهي، وهما عارضان.
(٢) أشنبا: أبيض الأسنان رقيقها.
(٣) الصافات، ٣٧/ ٧٣
(٤) عيافة: ظناً وحدساً، والعيافة: زجر الطّيرْ والتفاؤ ل بأسمائها ـ الجمام: الموت.

وما أحلى قول أبي العلاء المعري:

لغيري زكاة من جمال فإن تكن ... زكاة جمال فاذكري ابن سبيل

ومثله قول ابن الفارض رحمه الله تعالى:

هلا نهاك نهاك عن لوم امرىء ... لم يلف غير منعم بشقاء[1]

ومثله قول الشيخ عبد العزيز شيخ شيوخ حماة:

لعيني كل يوم فيه عبرة ... تصيرني لأهل العشق عبره[2]

وغاص، هو والقاضي الفاضل، في هذا البحر وأظهرا من هذا الروي جواهر العقود، فمن قصيد شيخ الشيوخ بحماة:

إذا غفل الوشاة بعثت دمعي ... فيغدو مرسلاً من غير فتره[3]
علامة شقوتي في الحب إني ... ثقلت عليك لا من طول عشره
سألزم باب خمار الثنايا ... ليطلق لي ولو في العمر سكره

وظريف هنا قول الشاب الظريف، شمس الدين محمد بن العفيف، من قصيدة:

لا أجازي حبيب قلبي بظلمه ... أنا أحنى عليه من قلب أمه
جوره مثل عدله عند من يهـ ... ـواه مثلي وظلمه مثل ظلمه

وما أظرف قول الصاحب بهاء الدين زهير من غرامياته في هذا النوع:

زها ورد خديك لكنه ... بغير النواظر لم يقطف
وقد زعموا أنه مضعف ... وما علموا أنه مضعفي

وأورد الشيخ كمال الدين الدميري، في كتابه المسمى «بحياة الحيوان» عندما انتهى إلى ذكر المها[4]، أبياتاً تعجبني في هذا الباب أولها تام وآخرها مطرف، وباقي الأبيات تحريفها، تمتزج بالأذواق حلاوته المعتدلة والأبيات لجميل بثينة:

خليليَّ إن قالت بثينة ما له ... أتانا بلا وعد فقولا لها لها[5]

---

(١) نُهاك: عقلك ـ يلف: يوجد.

(٢) عبرة: بفتح العين، دمعة وبكسرها: عظة وما يعتبر به.

(٣) فترة: فتور وانقطاع.

(٤) المها: الغزال.

(٥) لها: نسي وسلا.

أني وهو مشغول لعِظْم الذي بـه ... ومن بات طول الليل يرعى السُّها سها[1]
بثينة تزري بالغزالـة في الضحى ... إذا برزت لم تبق يوماً بها بها [2]
لهـا مقلة كحـلاء نجـلاء خلقـة ... كـأن أباهـا الـظبي أو أمهـا مهـا
دهتني بـودّ قـاتـل وهـو متلفي ... وكم قتلت بالودّ من ودّهـا دها [3]

ويعجبني قول من قال: إن الصديق الصدوق أول العقد وواسطة العقد: ومثله قولهم: البدعة شرك الشرك. وما أحلى قول ابن نباتة:

قـوامك تحت شعـرك يـا أمـامـه ... غـدا لـك حـامـلاً علم الإمـامـه

ولي مع زيادة التورية:

ولـمـا أراني الشعـر وهـو مـذيـل ... وجانب ذاك الصدغ زهـو مطرف
بـدا بخمـار من خمـار بـريقـه ... فقلت لهم هذا الجناس المحرف

انتهى الكلام على الجناس المصحف والمحرف و[منه] بيت الشيخ صفي الدين الحلي:

من لي بكـل غريـر من ظبـائهم ... غزير حسن يداوي الكلم بالكلم [4]

وبيت الشيخ عز الدين الموصلي الحنبلي:

هل من تقي نقي حين صحف لي ... محرف القول زان الحكم بالحكم

أما التصحيف والتحريف في هذا البيت فظاهران، وأما المعنى فالسريرة عند الله.

وبيتي:

هل من يقي ويفي إن صحفوا عذلي ... وحـرفوا وأتـوا بـالكلم في الكلم

الجناس اللفظي والمقلوب:

قد فاض دمعي وفاظ القلب إذ سمعا ... لفظي عذول مـلا الأسماع بـالألم

---

(١) السُّها: كوكب صغير خفي الضوء، وهو في بنات نعش الكبرى أو الصغرى. وسها: غفل.

(٢) تزري: تعيب ـ الغزالة: الشمس ـ بها: بهاءً أي رونقاً وجمالاً.

(٣) الود: الحب الشديد ـ دها: دهاء وهو حسن الحيلة والمكر.

(٤) الغرير: الطائش الذي لا يقدر عواقب الأمور، والمغرور. الكلم: الأولى بمعنى الجرح والثانية بمعنى الكلام.

أما اللفظي فهو النوع الذي إذا تماثل ركناه وتجانسا خطاً خالف أحدهما الآخر، بإبدال حرف منه فيه مناسبة لفظية، كما يكتب بالضاد والظاء، وشاهده قولي في البيت فاض وفاظ فإن الأوّل من فيض الماء والثاني من التلف، وجاء في هذا النوع من القرآن العظيم ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾[1] فالأول من النضارة، والثاني من النظر، وألحقوا به ما يكتب بالهاء والتاء، كقولهم: جبلت القلوب على معاداة المعادات، وقيل هو حديث أو بالنون والتنوين، كقول الأرجاني:

وبيض الهند من وجدي هواز   بإحدى البيض من عليا هوازن[2]

أو بالألف والنون، كقول الشاعر ابن العفيف:

أحسن خلق الله وجهاً وفماً   إن لمْ يكن أحقّ بالحسن فمن

ولم ينظم هذا النوع غير الصفي وهو قليل جداً، وأصعب مسالكه تركيبه بالضاد والظاء، لأجل إبدال الحرف الذي فيه المناسبة اللفظية، وقد تقدم قول الشيخ شمس الدين بن الصائغ أنه أورد، في شرحه الذي سماه رقم البردة، شيئاً من محاسن الزجل على هذا النوع البديعي الذي أطلق عنان القلم في الكلام عليه.

والزجل فن يتمكن الناظم فيه من المعاني لجولانه في ميادين الأغصان والخرجات[3]، وهو لا يحسن رسمه في الكتابة إلا من عرف اصطلاحه. وكان الشيخ علاء الدين بن مقاتل، إذا ذكر الزجل، كان ابن بجدته وأبا عذرته، وممن سلمت إليه مقاليد هذا الفن. وأورد الشيخ صلاح الدين الصفدي له نبذة من غرر أزجاله، في تذكرته وتاريخه، تغني عن الإكثار في ترجمته، وله في الجناس اللفظي زجل جانسه بالظاء والضاد لم يسبق إليه ومطلعه قوله:

إن مع معشوقي جفون ولحاظ   لو رآهم عابد لهام وحاض
ومع أنوار من سحر عينيه إذا   حفظوه باب أنساه صلا تودا
إن ماعو عيون فواتر حور   في بحور ولدانها بواتر جفون
كيف لا يفتن عشاقو ذاك الفتور   وعلى خده شامه بنقطة فنون
من نظرهم نظره بقي مسحور   وكيف أنو ما ينسحر من عيون

---

(١) القيامة، ٧٥/ ٢٣.

(٢) هواز: هز السيف انفض. فهو هازٌ وهم هواز.

(٣) الخرجات: جمع مفرده خرجة وهي في الشعر اللازمة، التي تتكرر في نهاية كل مقطع.

يعتقدهم رقود وهم إيقاظ وجفون كل جفن بسيف أي قاض[1]
يقضي فيمن بسر وباح وهذى حكمه ممن أضل ناس وهدى
حضرني لما أن يغيب عني في غيابو ياما بتحفظ فصول
حتى نوا يصير قريب مني ولو أنو يكون في ميدان يجول
ايش تضيق الدنيا على ذهني ولا يدري ايش كان يريد لو يقول
وأنسى ما قد حفظتو من الألفاظ ويضيق بي رحب المكان الفاض[2]
ولا أطلب يومي شراب وغدا فأبقى سكران طول ليلتي وغدا
يا نسيم السحر على حبي بث مني طيب السلام كلو
لله وأوصيه بالعاشق المسبي. وبقلبي ذاك الذي استلو[3]
وإن تيسر لك أن ترى قلبي وأن يسل عن جسمي الضعيف قلو
أنو نخيل من بعدك الى أن فاظ واغتسل مما من عيونو فاض
وعلى حذوالدارجين قد حذا وفي نابو حادي المنايا حدا
أذكراني في عتبو وخدّ البهار عصتو حتى وقف على ما حرا
وبقي مو يحمرونا بصفار ونوادر منى ومنو ترا
فلا تعجب من خد وكيف يحمار فوق ورد الخدود وتحتو جرا
ماء الحيا في وجناتو لما انغاظ ونشف ماء لوني الى أن غاض[4]
وما ينكر حالي وحالو فذا سر فيه ممن أنا لو فدا

ونظمت في هذا النوع الغريب، تورية فجاءت في غاية الحسن ولم أسبق إليها إلا من الشاب الظريف، محمد بن العفيف، كقوله:

عبتم من المحبوب حمرة شعره وأظنكم بدليله لم تشعروا
لا تنكروا ما احمر منه فإنه بدماء أرباب الغرام مضفر[5]

وقولي: خاطرت في عشقي له يا مهجتي لا تشغلي قلبي الحزين وخاطري
فالطرف شاهد منه ناضر قده فغدا يهيم بكل غصن ناضر

---

(١) قاض السيف: صوّت.
(٢) الفاض: الواسع.
(٣) استلو: استله ـ سحبه من مكانه.
(٤) انغاظ: أغيظ أي أغضب ـ غاض الماء غار ولم يعد يرى.
(٥) مضفر: جعل شعره ضفائر مفردها ضفيرة وهي الجديلة.

وقولي: مــرج حـــمـــاة بـــنـــوا غـــيـــره زاد على المقيـــاس في روضتـــه
واغـتـــاظ نـــمـــروذ دمـــشـــق لـــه فـقـلت لا أفـكـــر في غـيـضـتـــه

وقولي: حضبـت عـــزمي إليك شـــوقـــاً فـــلـم أطـق مـكـشـة بـــأرض[1]
وحـيـث لـــم أحظ بـــالـتـــلاقـــي فـغـــايـتـي أن ألـــوم حـضـي[2]

انتهى الكلام على الجناس اللفظي، وأما الجناس المقلوب، وسماه قوم جناس العكس، وهو الذي يشتمل كل واحد من ركنيه على حروف الآخر من غير زيادة ولا نقص، ويخالف أحدهما الآخر في الترتيب، كقوله تعالى حكاية عن هرون: ﴿خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾[3] ومنه قول النبي ﷺ: يقال لصاحب القرآن يوم القيامة اقرأ وارقأ. وما ألطف ما أشار الصاحب بن عباد إلى الجناس المقلوب، بقوله لأبي العباس بن الحرث في يوم قيظ، وقد طلب مروحة الخيش: ما يقول الشيخ في قلبه، يعني الخيش، ومروحة الخيش أحدثها بنو العباس، وذكرها الحريري في المقامات، وقال اسمعوا وقيتم الطيش، وأنشد لغزاً في مروحة الخيش:

وجـــاريـــة في سيـــرهـــا مشمعلة ولكن على أثر المسير قفـولها[4]
لهـــا سائق من جنسهـا يستحثـها على أنـه في الاحتثـاث رسيلهـا
ترى في أوان القيظ تنطف بالندى ويبدو إذا ولى المصيف فحولها[5]

وكان السبب في حدوث هذه المروحة إن هرون الرشيد دخل يوماً على أخته علية بنت المهدي، في يوم قيظ، فألفاها وقد صبغت ثيابها من زعفران وصندل[6] ونشرتها على الحبال لتجف، فجلس هرون قريباً من الثياب المنشورة، فصارت الريح تمر على الثياب فتحمل منها ريحاً بليلة عطرة، فوجد لذلك راحة من الحر واستطابه، وأمر أن يصنع له مثل ذلك. وقال ابن الشريشي، في شرح المقامات: وهذه المروحة شبه الشراع للسفينة، تعلق بالسقف ويشد بها حبل وتبل بالماء وترش بالماورد، فإذا أراد الرجل في القائلة[7]

---

(١) حضب: أضرم وهيّج وحضْ.
(٢) طه، ٢٠/ ٩٤.
(٣) مريم، ٩٤/٢٠.
(٤) مشمعلة: مشرفة ـ قفولها: رجوعها.
(٥) القيظ: الحرّ الشديد وأيام الصيف.
(٦) الصندل: شجر طيب الرائحة.
(٧) القائلة: وقت القيلولة.

أن ينام جذبها بحبلها فتذهب بطول البيت وتجيء، فيهب على النائم منها نسيم بارد رطب. اهـ.

رجع إلى الجناس المقلوب، فمنه قول بعضهم:

حكاني بهار الروض حين ألفته ... وكل مشوق للبهار مصاحب[1]
فقلت له ما بال لونك شاحباً ... فقال لأني حين أقلب راهب

وما أحلى قول ابن العفيفْ مع زيادة التورية:

أسكرني باللفظ والمقلة الـ ... ـكحلاء والوجنة والكاس
ساق يريني قلبه قسوة ... وكل ساق قلبه قاس

وبديع هنا قول الشيخ جمال الدين بن نباتة، في الأمير شجاع الدين بهرام:

قيل كل القلوب من ... رهب الحرب تضطرب
قلت هذا تخرّص ... قلب بهرام ما رهب[2]

وبيت عبد الله بن رواحة غاية في هذا النوع، وقيل [هو] أمدح بيت قالته العرب، فإنه من جملة مديح النبي ﷺ وهو قوله:

تحمله النّاقة الأدماء معتجراً ... بالبرد كالبدر جلى نوره الظلما[3]

وما أحلى قول القائل:

وألفيتهم يستعرضون حوائجاً ... إليهم ولو كانت عليهم جوائحا[4]

ومثله:

إن بين الضلوع منيَ ناراً ... تتلظى فكيف لي أن أطيقا
فبحقي عليك يا من سقاني ... أرحيقاً سقيتني أم حريقا

ومن الغايات في هذا الباب قول القائل:

لبق أقبل فيه هيف ... كل ما أملك إن غنى هبه

---

(١) البُهار: الخطاف ويدعى عصفور الجنة.
(٢) تخرّص: ظن.
(٣) معتجراً: متعمماً.
(٤) جوانحاً نوادباً.

فهذا البيت كل كلمة منه، بانضمامها إلى أختها، تجانسها في القلب، وأعلى منه رتبة قول سيف الدين ابن المشد:

لـيـل أضـاء هـلالـه　　　أنى يضـيء بكـوكـب

وهذا البيت كل كلمة منه تقرأ، مستوية ومقلوبة، وهو مما لا يستحيل بالانعكاس. كقول الحريري: ساكب كاس، وهذا النوع يأتي الكلام عليه في موضعه لأن المراد هنا جناس القلب، وللشيخ علاء الدين بن مقاتل الحموي أيضاً زجل في هذا النوع، سارت به الركبان أنشده المصنف في حماة، بحضرة الملك المؤيد، والشيخ صفي الدين، والشيخ جمال الدين بن نباتة، فوقع في المجلس شيء إذا استوعبت الزجل كتابة علمته:

قلبي بحب تياه　ليس يعشق إلا إياه　فاز من وقف وحياه　يرصد على محياه
بدر السما لو يطبع　من رام وصالو يعطب[1]

صغير بحيّر في أمرو　غزال قهر بسمرو　ليث الهوى ونمرو　فاعجب لصغر عمرو
ريم ابن عشر وأربع　أردى الأسود وأرعب

اذكر نهار تبعتو　وروحي كنت بعتو　وخيب ما فيه طمعتو　فقال وقد سمعتو
ارجع ولا لي تتبع　أخشى عليك لا تتعب

كم قدامو وخلفو　مشيت مطيع لحلفو　ورمت لثم كفو　قال دع مناك وكفو
فإن لثم أصبع　من الثريا أصعب

ما زلت لو نداري　حتى تحصل في داري　ناديت ودمعي جاري　ايش كان يصيب يا جاري
لو كنت من فيك أشبع　قال ايش يكن لك أشعب

من حاز حسن خدو　لحظو لقتلي حدو　وورد خد وندو[2]　ما في الرياض شيء
روض الحيا مبرقع　عليه ساج معقرب

من في الجمال فريدو　للصب من وريدو　يذبح ولو يزيدو　وكم ذا شيخ مريدو
خلاه دموعو يبلع　وهو بعقلو يلعب

كم خصم في المقاتل　صابو ابن مقاتل　وكم ذا في المحافل　قد أنشالو جحافل
من كل بيت مربع　ملحون بألف معرب

والشيء اللطيف الذي وقع في المجلس المشار إليه، ووعدت بذكره: ذكروا أن الشيخ علاء الدين بن مقاتل، لما وصل إلى قوله ملحون بألف معرب، صار الشيخ جمال

---

(١) يعطب: يصاب بالعطب وهو الهلاك.

(٢) ندو: نده: والند هو المشابه المماثل.

الدين بن نباتة ينظر إلى الشيخ علاء الدين بن مقاتل، ويشير إلى الشيخ صفي الدين الحلي، ويقول: ملحون بألف معرب. والملك المؤيد يتبسم لذلك. اهـ.

وإذا نظر المتأمل إلى بعض هذه الأحرف في رسم كتابة الزجل لا ينتقد، فإن شرط رسمه أن يوضع كذا لأجل تحرير وزنه.

انتهى الكلام على الجناس اللفظي والمقلوب، وبيت الشيخ صفي الدين الحلي فيهما:

بكل قدّ نضير لا نظير له ... لا ينقضي أملي منه ولا ألمي(١)

وبيت الشيخ عز الدين:

لفظي حض على حظ يمانعه ... مقلوب معنى ملا الأحشاء من ألم

وبيتي:

قد فاض دمعي وفاظ القلب إذ سمعا ... لفظي عذول ملا الأسماع بالألم

انتهى والله أعلم.

ذكر الجناس المعنوي:

أبا معاذ أخا الخنساء كنت لهم ... يا معنويّ فهدّوني بجورهم(٢)

أما الجناس المعنوي فإنه ضربان: تجنيس إضمار، وتجنيس إشارة. ومنهم من سمى تجنيس الإشارة، تجنيس الكناية، وكل منهما مطابق التسمية. ولم ينظم الشيخ صفي الدين الحلي، في بديعيته، غير نوع الإضمار، وهو أصعب مسلكاً من جناس الإشارة، ولا بد أن أنوّع هذا الشرح بمحاسن النوعين: فإن المعنوي طرفة من طرف الأدب عزيز الوجود جداً، ولم يذكره الشيخ جلال الدين القزويني، في التلخيص، ولا في الإيضاح، ولا ذكره ابن رشيق في العمدة، ولا زكي الدين بن أبي الأصبع في التحرير، ولا ابن منقذ في كتابه، والعميان ذكروه في شرح بديعيتهم، ولكن ما تيسر لهم نظمه، وذكر الشهاب محمود، في كتابه المسمى بحسن التوسل في صناعة الترسل، منه نوع

---

(١) نضير: ذو رونق وبهجة ـ نظير: شبيه.

(٢) أبو معاذ: هو جبل والد معاذ بن جبل الصحابي الجليل ـ أخو الخنساء: هو صخر بن عمرو الشريد. ويقصد: جبل صخر كنت لهم...

الإشارة لا نوع الإضمار، ولكن ما نظمه، ولم يذكر نوع الإضمار في بديعيته غير الشيخ صفي الدين الحلي، وقد تقدّم القول أنه قال عن بديعيته: إنها نتيجة سبعين كتاباً في هذا الفن. وكان شيخنا قاضي القضاة، علاء الدين بن القضامي رحمه الله يقول: وهو إمام هذا العلم: ما أعلم لبيت أبي بكر بن عبدون، في إضمار الركنين ثانياً، غير بيت الشيخ صفي الدين الحلي، ولو لم يفتح ابن عبدون هذا الباب في بيته، ما حصل للشيخ صفي الدين دخول إلى نظم هذا النوع. انتهى.

والكلام علىٰ البيتين يأتي بعد تعريف النوع، فالمعنوي المضمر: هو أن يضمر الناظم ركني التجنيس، ويأتي في الظاهر بما يرادف المضمر للدلالة عليه، فإن تعذر المرادف أتى بلفظ فيه كناية لطيفة تدل على المضمر بالمعنى، كقول أبي بكر بن عبدون المشار إليه، وقد اصطبح بخمرة ترك بعضها إلى الليل فصارت خلا:

ألا في سبيل اللهو كأس مدامة ... أتتنا بطعم عهده غير ثابت(1)
حكت بنت بسطام بن قيس صبيحة ... وأمست كجسم الشنفرى بعد ثابت

فبنت بسطام بن قيس كان اسمها الصهباء، والشنفرى قال:

اسقنيها يا سواد بن عمرو ... إن جسمي من بعد خالي لخل

والخل هو الرقيق المهزول، فظهر من كناية اللفظ الظاهر جناسان مضمران في صهباء وصهباء، وخل وخل، وهما في صدر البيت وعجزه، ومن هنا أخذ الشيخ صفي الدين الحلي وقال:

وكل لحظ أتى باسم ابن ذي يزن ... في فتكه بالمعنى أو أبي هرم(2)

فابن ذي يزن اسمه سيف، وأبو هرم اسمه سنان، فظهر له جناسان مضمران من كنايات الألفاظ الظاهرة، فظهر قول شيخنا، قاضي القضاة علاء الدين: إن هذا الباب ما فتحه، للشيخ صفي الدين، غير ابن عبدون، وكنت أودّ أن يكون شيخنا رحمه الله حياً ويراني قد عززتهما بثالث وهو:

أبا معاذ أخا الخنساء كنت لهم ... يا معنويّ فهدّوني بجورهم

أبو معاذ اسمه جبل، وأخو الخنساء اسمه صخر، فظهر له من كنايات الألفاظ

---

(1) عهده: وعده والمعنى لا يثبت على طعم معهود، معروف.
(2) فتكه بالمعنى: شدة ضرره بالمغرم.

الظاهرة أيضاً جناسان مضمران في صدر البيت، وهما جبل وجبل، وصخر وصخر، وبالنسبة إلى الجبل في الركن الواحد يحسن قولي: فهدّوني بجورهم، وقد أظهرت محاسن هذا الجناس المضمر، وكشفت عن جماله الباهر سطور الاشكال، ليتمتع به صاحب الذوق السليم، فإن فحول المتأخرين وقفوا عن المجاراة في حلبته، ولم يتعلق أحد منهم إلا بأذيال الضرب الثاني، وهو جناس الإشارة، ويأتي الكلام عليه.

ومن غريب ما يحكى: أن الشيخ صلاح الدين الصفدي قال في شرح لامية العجم، وفي كتابه المسمى بجنان الجناس، لما اعترضه الجناس المعنوي، قال: هذا النوع عندي باطل، ولم يتيسر له منه نظم بيت واحد، مع كثرة تهافته على الجناس وأنواعه. والذي يظهر لي أنه عجز عن نظمه، فإنه قال في غضون ذلك: وقد استخرجت من شعر أبي الطيب المتنبي، من الجناس المعنوي، قوله:

حاولن تفريبي وخفن مراقبا فوضعن أيديهن فوق ترائبا(١)

وهذا دليل على أنه لم يفهمه.

انتهى الكلام على الجناس المعنوي الذي يضمر فيه الركنان وما أخرت بيت الشيخ عز الدين الموصلي، ونثرت نظم الترتيب الذي تقدم إلا لتنحيه عن نظم الجناس المعنوي المضمر الركنين، وميله إلى جناس الإشارة، لسهولة مأخذه، فلم يبق لبيته طاقة على المناظرة، لتحوله عن النوع الذي عارض فيه الشيخ صفي الدين، والظاهر أنه قنع بقول القائل:

إذا منعتك أشجار المعالي جناها الغض فاقنع بالشميم(٢)

والضرب الثاني من المعنوي، وهو جناس الإشارة والكناية هو غير الأول، وسبب ورود هذا النوع في النظم أن الشاعر يقصد المجانسة في بيته، بين الركنين من الجناس، فلا يوافقه الوزن على إبرازهما فيضمر الواحد، ويعدل بقوته إلى مرادف فيه كناية تدل على الركن المضمر، فإن لم يتفق له مرادف الركن المضمر يأتي بلفظة فيها كناية لطيفة تدل عليه، وهذا لا يتفق في الكلام المنثور، والذي يدل عليه المرادف قول امرأة من عقيل، وقد أراد قومها الرحيل عن بني ثهلان وتوجه منهم جماعة يحضرون الإبل، وهو:

فما مكثنا دام الجمال عليكما بثهلان إلا أن تشد الأباعر(٣)

---

(١) ترائبا: جمع مفرده تربية وهي موضع القلادة أي عظام الصدر.

(٢) جناها: ما يجنى منها من الثمار ـ الشميم: شم الروائح.

(٣) الأباعر: جمع مفردها بعير وهو الجمل.

وأرادت أن تجانس، بين الجمال والجمال، فلم يساعدها الوزن ولا القافية، فعدلت إلى مرادفة الجمال بالأباعر، والذي يدل على مضمره اللفظة الظاهرة بالكناية اللطيفة، قول دعبل في امرأته سلمى:

إني أحبك حباً لو تضمنه ... سلمى سميك ذاك الشاهق الراسي(١)

فالكناية اللطيفة في سميك، لأنها أشعرت أن الركن المضمر في سلمى يظهر منه جناس الإشارة، بينَ الركن الظاهر والمضمر، في سلمى وسلمى الذي هو الجبل، ومثله قول الآخر:

وتحت البراقع مقلوبها ... تدب على ورد تلك الخدود(٢)

فكني عن العقارب بمقلوب البراقع، ولا شك أن بين اللفظ المصرّح به والمكنى عنه تجانساً، ومثله قول الآخر، يهجو مغنياً ثقيلاً:

قال غنيت ثقيلاً ... قلت قد غنيت نفسك

ومن الكنايات بالمرادف، قول شرف الدين بن الحلاوي، وهو غاية في هذا النوع:

وبدت نظائر ثغره في قرطه ... فتشابها متخالفين فأشكلا(٣)
فرأيت تحت البدر سالفة الطلا ... ورأيت فوق الدر مسكرة الطلا(٤)

أراد أن يجانس بين سالفة الطلا وسلافة الطلا، فلم يساعده الوزن، فعدل بقوته إلى المسكرة، وهي مرادفة السلافة، وقد تقدم أن الشيخ عز الدين الموصلي لم ينظم من المعنوي إلا هذا الضرب، وهو الذي أوجب تأخير بيته عن المناظرة، وقد تقرر أن الشاعر يريد في هذا النوع إظهار الركنين، فلا يساعده الوزن، فيعدل بحسن تصرفه إلى مرادفه، وأراد الشيخ عز الدين أن يمشي على هذا الطريق فحصل له في الطريق عقلة، فإنه قال:

وكافر يضمر الإحسان في عذل ... كظلمة الليل عن ذا المعنوي عمي

فالليل يسمى كافراً وهو الذي يستر الأشياء، وكافر هنا بمعنى ساتر، وهذا هو الركن الذي أضمره عز الدين ورادفه بالظلمة، وكنى بها عنه، فظهر منها جناس الإشارة بين كافر

---

(١) سلمى: جبل سلمى.
(٢) مقلوبها: أي مقلوب البراقع وهو العقارب.
(٣) القرط: ما تعلقه الفتاة في شحمة الأذن من دبر أو ذهب أو غيره ـ أشكلا: التبسا.
(٤) سالفة الطلا: جانب العنق ـ مسكرة الطلا: الخمرة.

وكافر، غير أن الوزن ما عصى على عز الدين حتى عدل إلى المرادف، فلو أراد أن يبرز الركنين لكان الوزن داخلاً تحت طاعته إذا قال:

وكافر يضمر الإحسان في عذل ... ككافر الليل عن ذا المعنوي عمي

ولما وقف مولانا الشيخ شهاب الدين بن حجر على هذا النوع قال: هذا عزيز الوجود، وأنشدني، بعد أيام، مولانا السلطان الملك المؤيد هذين البيتين وهما في نوع المضمر المقدم، ذكره غاية، وهما:

جمع الصفات الصالحات مليكنا ... فغدا بنصر الحق منه مؤيدا
كأبي الأمين برأيه وكجده ... أنى توجه وابن يحيى في الندى(١)

ومن نظمي، في نوع الإشارة الغريبة، قولي، من جملة قصيد في سكر حماة:

وجناس ذاك السكر يحلو للورى ... تحريفه ويروق في تشرين

ففي صريح الجناس وتورية التحريف كنايتان لطيفتان، يظهر منهما جناس الإشارة محرّفاً بين السكر والسكر، والمراد بقولي يروق في تشرين: أن عاصي حماة يروق في هذا الفصل، إلى أن يرى قراره من أعالي شطوطه، وهذه القصيدة كتبت بها من القاهرة المحروسة، في عام ثماني عشرة وثمانمائة، إلى مولانا المقر الأشرف القاضوي الناصري محمد بن البارزي، كاتب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، وقد حل ركابه الكريم بحماة المحروسة، وقالت شطوطها أهلاً بعيش أخضر يتجدد، وروى عاصيها بعد نار شوقه الكامل عن المبرد، وعادت إلى عصر الشبيبة وقد شاهدت الملك المؤيد ومطلع القصيدة:

خلي التعلل في حمى يبرين ... فهوى حماة هو الذي يبريني(٢)
وأطع ولا تذكر مع العاصي حمى ... ما في وراء النهر ما يرضيني(٣)
أنا سائل والنهر فيها لذلي ... ومع افتقاري نظرة تغنيني.
والنبت يضبطها بشكل معرب ... لما يزيد الطير في التلحين
والغصن يحكي النون في ميلانه ... وخياله في الماء كالتنوين
والله ما أنا آيس من قربها ... بالله صدقني وخذ بيميني(٤)

---

(١) الندى: العطاء والكرم.

(٢) يبرين: إسم بلدة ـ ويبريني: يضعفني.

(٣) العاصي: نهر العاصي الذي ينبع من لبنان ويصب في سوريا.

(٤) آيس: يائس.

فالطرف قد أبقى بقايا أدمع   وهناك أجريها برجع أنيني
فاحذر ملامي عند فيض مدامعي   فالدمع دمعي والعيون عيوني
قالوا تسلى عن ثمار شطوطها   فأجبت لا والتين والزيتونِ
يا لائمين على شريعتها لكم   في ذاك دينكم ولي أنا ديني
فلنا على الأعراف من ريحانها   قصص أتت بتناسخ البشنينِ(١)
ويشط شرعاً يا لنا كم شرعت   أعوادها وتشقفت بالـلينِ
لكن إذا اشتبكت رأيت الظل قد   ألقته مضطرباً شبيه طعينِ
وخيال ضوء الشمس في تدويره   يحكي فم الطعنات• في التكوينِ
وعيونها كم قال هدب نباتها   ما للبناني مثل شرح عيوني
تلك المعالم والمعاهد بغيتي   بحماة لا الجيران من جيرونِ(٢)
كم قال دمع الصب ليتهم على   تلك الرسوم بفضلهم يجروني
يا نازلين حمى حماة نعمتم   فيها صباحاً نوره يهديني
قد كنت أنساها برؤيتكم وقد   صرتم بها فالصبر غير معيني
غبتم وهذا محضري لي شاهد   بالعسر من صبري وبالمضمون
وحللتم دار السعادة بالحمى   فبحقكم بالبعد لا تشقوني
ذنبي عظيم لانقطاعي عنكم   فلأجله في مصر لا تبقوني
وتكوّنت نار اشتياقي في الحشا   لفساد تكويني فدع تكويني
وعجزت ضعفاً عن وفا دين اللقا   فترفقوا بفؤادي المرهونِ
فعسى يزول ظلام بعدي عنكم   وأرى ضياء القرب من شمسينِ
ولرقة فيكم أظن بأنكم   حنيتم طرباً لرجع حنيني
هذي غراميات صب ماله   أرب بتورية ولا تضمينِ(٣)
لكن إذا ذكروا بديع مدائح   في البارزي فكل فوق دوني
ما القصد فخري إنما أنا عبده   فالشك أدفعه بحسن يقيني
الغصن نسقيه وغصن يراعه   يسقي الورى لكن أنا ينشيني(٤)

---

(١) البشنين: نبات مائي ينبت عادة في الأنهار والمناقع، وقد وردت في الأصل اليشنين، والأصح ما أوردنا لأننا لم نعثر على لفظة يشنين في ما بين يدينا (الشارح). أعراف: أمواج مفردها عُرْف وهو أعلا الموج.

(٢) جيرون: إسم بلدة.

(٣) الصب: العاشق المغرم والمولع بالشيء ـ الأرب: الحاجة.

(٤) اليراع: القلم ـ ينشيني: يطربني.

فـالطرس وهـو مطوق بيمينـه ينسي السواجع معرب التلحين[1]
هـو كـامـل في فضله وعلومـه والله أعـطاه كـمـال الـديـن
حسـنـت لـيـاليـه وأيـام لـه فهـدى الـزمـان بـطرة وجبين[2].
يا صاحب البيت الذي عن وصفه قد أحجمت شعراء هـذا الحينِ
إن جاء نظمي قاصراً عن وصفه عـذراً فهـذي نشـطة الخمسينِ
ونعم كبرت وبان عجزي إنما كـانت مـسرات اللقـا تصبيني[3]
وحجبتمـوني عن حمـاة وغبتمـوا عني فهـذا من فنـون جنـونـي
وقعدت عن ديوان شيخ شيوخنـا في مصـر جـار عـويس والمتيني
بـرهـان شـوقي قد أقمت دليله بسنا نجوت مع ضيـاء الـدين
لا زلتم بكمـالكم في نعمـة مقـرونـة بـالنصـر والتمكين

---

(1) الطرس: ما يكتب عليه.
(2) الطرّة: أول الشعر، الغرة.
(3) تصبيني: تجعلني أتصرف تصرف الصب.

ذكر الاستطراد

واستطردوا خيل صبري عنهم فكبت وقصرت كلياليـنا بـوصلهم[1]

الاستطراد في اللغة، مصدر استطرد الفارس من قرنه في الحرب، وذلك أن يفر من بين يديه يوهمه الانهزام، ثم يعطف عليه على غِرّة منه، وهو ضرب من المكيدة، وفي الاصطلاح، أن تكون في غرض من أغراض الشعر توهم أنك مستمر فيه، ثم تخرج منه إلى غيره، لمناسبة بينهما، ولا بد من التصريح باسم المستطرد به، بشرط أن لا يكون قد تقدم له ذكر، ثم ترجع إلى الأول وتقطع الكلام، فيكون المستطرد به آخر كلامك، وهذا هو الفرق بينه وبين المخلص، فإن الاستطراد يشترط فيه الرجوع إلى الكلام الأول، وقطع الكلام بعد المستطرد به، والأمران معدومان في المخلص، فإنه لا يرجع إلى الأول ولا يقطع الكلام، بل يستمر إلى ما يخلص إليه.

وحد صاحب الإيضاح الاستطراد بحد أتى فيه بالغرض، بعد ما بالغ في الإيجاز فإنه قال: الاستطراد هو الانتقال من معنى إلى معنى متصل به، ثم يقصد بذكر الأول التوصل إلى الثاني، ففي قوله متصل به، جل القصد وعدم الاحتياج إلى الكلام الكثير. وذكر الحاتمي في حلية المحاضرة أنه نقل هذه التسمية عن البحتري. وذكر غيره أن البحتري نقلها عن أبي تمام، وقال ابن المعتز: الاستطراد هو الخروج من معنى إلى معنى، وفسره بأن قال: هو أن يكون المتكلم في معنى فيخرج منه بطريق التشبيه، أو الشرط، أو الأخبار، أو غير ذلك، إلى معنى آخر يتضمن مدحاً أو هجواً، أو وصفاً، وغالب وقوعه في الهجاء، فمنه قوله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت

---

(١) كبت: عثرت .

ثمود﴾[1] فذكرُ ثمود استطراد. وقيل: إن أول شاهد ورد في هذا النوع، وسار مسير الأمثال، قول السموأل:

وإنا لقوم لا نرى القتل سبة　　إذا ما رأته عامر وسلول[2]

فانظر إلى خروجه الداخل في الافتخار إلى الهجو، وحسن عوده إلى ما كان عليه الافتخار، بقوله:

يقرّب حب الموت آجالنا لنا　　وتكرهه آجالهم فتطول

ومنه قول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه:

إن كنت كاذبة الذي حدثتني　　فنجوت منجى الحرث بن هشام
ترك الأحبة أن يقاتل دونهم　　فنجا برأس طِمِرِّهِ ولجام[3]

فانظر كيف خرج من الغزل إلى هجو الحرث بن هشام، والحرث هو أخو أبي جهل، أسلم يوم الفتح وحسن إسلامه، ومات يوم اليرموك بالشام، ومنه قول البحتري، من قصيدة في وصف فرس:

كالهيكل المبني إلا أنه　　في الحسن جاء كصورة في هيكل
ملك العيون فإن بدا أعطيته　　نظر المحب إلى الحبيب المقبل
ما إن يعاف قذى ولو أوردته　　يوماً خلائق حمدويه الأحول[4]

ومنه قول أحمد بن يحيى البلاذري يرثي أبا تمام:

أمسى حبيب رهن قبر موحش　　لم يدفع الأقدار عنه بكيد
لم ينجه لما تناهى عمره　　أدب ولم يسلم بقوّة أيِّدِ[5]
قد كنت أرجو أن تنالك رحمة　　لكن أخاف قرابة ابن حميد

---

(1) هود، 11/ 95.
(2) سبّة: عاراً.
(3) الطِّمِرُّ: هو الفرس الجواد السريع.
(4) يعاف: يترك الشيء اشمئزازاً وقرفاً ـ والقذى: ما يتكون في العين المريضة من رمص وغمص وغيره.
(5) الأيّد: المساعد القوي.

ما أحسن ما خرج من الرثاء إلى الهجو، في حميد بن قحطبة، والقرابة التي بينه [1] وبين ابن حميد أنهما كانا طائيين، ومنه قول الحسين بن علي القمي:

جاورت أجبالاً كأن صخورها ... وجنات نجم ذي الحياء البارد
والشوك يفعل في ثيابي مثل ما ... فعل الهجاء بعرض عبد الواحد

ومنه قول أبي محمد بن مكدم، وهو غاية في هذا الباب:

وليل كوجه البرقعيدي ظلمة ... وبرد أغانيه وطول قرونه [2]
قطعت فنومي عن جفوني مشرد ... كعقل سليمان بن فهد ودينه
بذي أولق فيه اعوجاج كأنه ... أبو جابر في خبطه وجنونه [3]
إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه ... سنا وجه قرواش ونور جبينه

فانظر إلى قوة الاستطراد من وصف حاله مع الليل، إلى هجاء الثلاثة ومدح قرواش.

ومنه:

-إذا ما اتقى الله الفتى وأطاعه ... فليس به باس وإن كان من جرم

أنظر ما أبلغ ما خرج من الوعظ إلى الهجو المؤلم، في قبيلة جرم.

ومثله:

وشادن بالدلال عاتبني ... واميتني من تدلل العاتب [4]
فكان ردي عليه من خجل ... أبرد من شعر خالد الكاتب

ومنه قول ابن المعتز:

ولقد شربت مدامة كرخية ... مع ماجد طلق اليدين حميد [5]
عُليت بماء بارد فكأنما ... عليت ببرد قصيدة ابن سعيد

ومثله قول بعضهم، يصف خمراً طبخت حتى راقت وصفت:

لم يبق منها وقود الطابخين لها ... إلا كما أبقت الأنواء من داري [6]

---

(١) التي بين أبي تمام وابن حميد بن قحطبة.
(٢) البرقعيدي: أحد المغنين.
(٣) أولَق: جمع مفردها وَلَق وهو الإسراع في الشيء.
(٤) الشادن: الغزال.
(٥) كرخية: نسبة إلى الكرخ المدينة العراقية المشهورة بخمرتها الجيدة ـ طلق اليدين: كريم.
(٦) الأنواء: الرياح العاتية.

أنظر ما أحلى استطراده، من وصف الخمر إلى وصف داره بالخراب، بألطف كناية.

والغريب في هذا الباب الاستطراد من الهجو إلى الهجو، وهو كقول جرير يهجو أم الفرزدق:

لهـا بـرص بـأسفـل اسكتيهـا كعنفقـة الفـرزدق حين شـابا[1]

ومثله قوله:

وكـأني اقـرأ بحـرف أبي عمـــــرو على القـوم سـورة الأنعـام
محنة تصفع ابن عمرو بن يحيى في دماغ الأعشى بنعل القطامي

ولقد أردت أن أستطرد هنا، إلى ذكر ما وقع لي وللمتأخرين من الاستطرادات الغريبة، فلم أجد أبدع من بيت البديعية، فاكتفيت عند قضاة الأدب بحسن آدابه، فإنه أعدل شاهد في هذا الباب، وحبست عنان القلم عن الاستطراد في وصفه، علماً أن في إنصاف علماء الأدب، إذا وقفوا عليه، ما يغني عن ذلك.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته:

كـأن آنـاء ليلي في تـطاولهـا تسويف كاذب آمـالي بقـربهم[2]

الذي يظهر لي أن الشيخ صفي الدين، عبر على الاستطراد، بتقديم أداة التشبيه في أول البيت، وقد تقدم قول صاحب الإيضاح: أن يقصد بذكر الأول التوصل إلى الثاني، وما خرج أحد من الاستطراد، بطريق التشبيه، إلا جعل أداة التشبيه مع المستطرد به، في آخر الكلام، كقول السري الرفاء:

لنـا روضة بـالدار صيغ لزهـرها قلائد من حلي الندى وشنوف[3]
يمـر بنـا فيهـا إذا مـا تبسمت نسيم كعقـل الخـالـدي ضعيف

---

(١) البرص: بياض يصيب الجلد لعلة ـ الأسكتين: لم أعثر على هذه اللفظة فيما بين يدي، والذي أراه أنها: الشفتان لأنها مأخوذة من السكوت والله أعلم. وقد شرحها بعضهم بأنها: شفرا الفرج، وهذا بعيد ـ العنفقة: ما ينبت من الشعر تحت الشفة السفلى ـ فيكون المعنى أن ام الفرزدق بها برص تحت شفتيها شبيه بالشعر الذي ينبت تحت الشفة السفلى للفرزدق أثناء مشيبه.

(٢) اناء: أطراف.

(٣) شنوف: ما يتشنف به أي يتزين ويتحلى وهي الأقراط.

فأداة التشبيه جاءت هنا في الآخر، مع المستطرد به كما تقرر، ولم يقدم الناظم، في أول البيت، ما يتوصل به إلى آخره. اهـ.

ومثل هذا الإيراد قول ابن جلنك الحلبي، وهو أظرف ما رأيت في هذا الباب، حكي أنه كتب رقعة إلى بعض الحكام، وقيل إلى قاضي القضاة، كمال الدين بن الزملكاني، يسأله فيها شيئاً فوقع له بخبز، وأستحيي أن أقول إنه رطلان، فتوجه ابن جلنك يوماً إلى بستان يرتاض فيه، فقيل إنه لقاضي القضاة المشار إليه، فكتب على حائط البستان:

لله بـسـتـان حـللنـا دوحـه | في جنـة قـد فتحت أبـوابهـا
والبـان تحسبهـا سنـانيـراً رأت | قـاضي القضاة فنفشت أذنـابها (١)

فاستطراده من وصف البستان، وتشبيه البان التشبيه المخترع، إلى هجو قاضي القضاة، مرقص عند سماعه. وما شك أحد من أهل الأدب أن التشبيه غريب في اختراعه وقيل إن الشيخ بدر الدين بن مالك أملى عليهما كراسة في البديع، وأنا بالأشواق إلى رؤيتها.

ومن استطرادات أبي عبد الله محمد بن حجاج البغدادي، في طريقه التي لم ينسج على منوالها غيره، فإن الشيخ جمال الدين بن نباتة قال [فيها] في خطبة كتابه المسمى «بتلطيف المزاج في شعر ابن حجاج» فإني رأيت نتائج أفكار الشعراء، ذرية بعضها من بعض، وأمم أشعارهم تبعث جميعها في صعيد واحد من الأرض، إلا أشعار الأريب الفريد أبي عبد الله الحسين بن حجاج، فإنها أمة غريبة تبعث وحدها، وذرية عجيبة تبلغ بإتقان اللهو واللعب رشدها، لم يحط خاطر أحد بمثلها خبراً، ولا استطاع على معارضة شهدها صبراً» انتهى قول الشيخ جمال الدين.

واستطراده الموعود بذكره [هو] قوله:

تـفـديـك أمـي وأبـي | وابـنـي وإن كـان صـبـي
يـا مـن إلـيـه حيـنـمـا | وجـدتـه مـنـقـلـبـي (٢)

---

(١) سنانير: جمع مفرده سنّور، وهو حيوان من الفصيلة السنّورية، أكبر من الهر واصغر من الكلب يُصطاد لفروه.

(٢) منقلبي: رجوعي وعودتي.

يا من مديح غيره | عندي عزيز المطلب
لحية من يشناك في | حال رضا أو غضب[1]
من عين من يطلبها | بالليل في استي تختبي[2]
وأمه أم الشكو | ك في استها والريب
ذات حرٍ أوسع من | شارع باب اللعب[3]
وشعرة غليظة | ذات نبات أشيب
قد شاب منها بعضها | وبعضها لم يشب
نتفت منها طاقة | بشدة أو تعب
فما شككت أنها | لحية ابن الحلبي

ومنها في الاستطرادات الغريبة، لمّا بلغه أن المهذب يعشق ابن أخيه، وينكر ذلك ويعقد الأيمان عليه بسببه، قوله:

جارية مثل شرا | ع المضرب المطنب[4]
صعدت من عليها | بالليل فوق مرقب[5]
حتى رأيت ابن أخي | بحضرة المهذب

ومثله قوله من قصيدة:

حتى متى أفديك ياستي | بندف قطن استك دق إستي
متى أرى سرمك منهدماً | وخصيتي تنهز من تحتي
قالت بهذا الأير واستحقرت | وكان قد نام على بختي
قلت نعم هذا على ما به | قد ضرط البخت فما أنت
هذا إذا قام استوى طوله | بطول ساقيك إذا نمت
فلو رأيتيه على بيضه | مثل أبي منصور في الدستِ
خريت بالطول على عارضي | صاحب ديوان أو بلتِ

(١) اللحية: شعر الذقن ـ يشناك: يشناك أي يبغضك ومنه قوله تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قومٍ على ألا تعدلوا﴾ المائدة، ٥/ ٨ أي بغض قوم وكراهيتهم.
(٢) الإست: موضع خروج الفضلات من جسم الإنسان.
(٣) الحر: فرج المرأة.
(٤) المضرب: الخيمة ـ المطنب: المشدود بالطنب وهي حبال تشد بها الخيم.
(٥) مرقَب: مكان شددت عليه المراقبة.

يـا أيهـا الأستـاذ يـا من بـه يـمسـي كـمـا أمـلتـه وقـتـي
خـذ بـيـدي إني فـي مـحـنـة زلقت فـيهـا في خـرا تـحتي

وأما قول القاضي الفاضل في هذا الباب، على طريقته الفاضلية، فإنه عجيب وهو:

لي عنـدكم دين ولكن هـل لـه من طـالب وفؤادي المـرهـون
فكـأنني ألف ولام فـي الهـوى وكـأنّ مـوعـد وصلكم تنـوين

ومثله قول مسلم بن الوليد:

سـريت بهـا حتى تجلّت بغـرّة كغـرّة يحيى حين يـذكـر خـالـد

وغاية الغايات في هذا الباب، قول عبد المطلب جدّ النبي ﷺ:

لنـا نفوس لنيـل المجد عـاشقـة ولو تسلت أسلناها على الأسل[1]
لا ينـزل المجد إلا في منـازلنـا كالنوم ليس له مأوى سوى المقل

أنـظر إلى هذه البـلاغة الهـاشمية، كيف جمعت بين حشمـة الافتخـار وتفخم الحماسـة[2] وبديع الافتنان وغريب الاستطراد ورقة الانـسجام.

انتهى الكلام على بيت الشيخ صفي الدين الحلي. وبيت العميان، [هو]:

قد أفصح الضب تصـديقاً لبعثتـه إفصاح قس وسمع القوم لم يهم[3]

وهذا البيت على طريق الشيخ صفي الدين الحلي فإن ناظمه قصد بذكر الأول التوصل إلى الثاني، وبيت الشيخ عز الدين الموصلي [هو]:

يستطرد الشوق خيل الدمع سابقة فيفضل السحب فضل العرب للعجم

الذي أقوله إن الشيخ عز الدين رحمه الله أحرز قصبات السبق، بما استطرده هنا، على الشيخ صفي الدين وعلى العميان، مع التزامه بتسمية النوع المورى به من أنس الغزل، ومراعاة جانب الرقة ونظم الاستطراد على الشرط المذكور، وبيت بديعيتي [هو]:

واستطردوا خيل شوقي عنهم فكبت وقصـرت كلبـاليـنـا بـوصـلهم

وهذا البيت غريب، ولا بد لأهل الأدب من تأهيل غريبه. انتهى.

---

(1) الأسل: الرماح.
(2) في الأصل: الحاسة وما أثبتناه أصح.
(3) يهم: يتوهم.

ذكر الاستعارة

وكان غرس التمني يانعاً فذوى بالاستعارة من نيران هجرهم

الاستعارة عندهم أفضل من المجاز، وهي أخص منه، إذ قصد المبالغة شرط في الاستعارة دون المجاز، وموقعها في الأذواق السليمة أبلغ، وليس في أنواع البديع أعجب منها، إذا وقعت في مواقعها، وللناس فيها اختلاف كثير.

وأما أصحاب المعاني والبيان فإنهم أطلقوا فيها أعنة أقلامهم، وجالوا بها في ميادين البحوث. وليس الغرض هنا إلا نفس الاستطراد إلى ما وقع فيها من المحاسن، نظماً ونثراً، بعد تقريبها إلى الأذهان بحدود يزول بها الالتباس.

حد الرماني الاستعارة فقال: هي تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة، على سبيل النقل. وذكر الخفاجي كلام الرماني وقال: تفسير هذه الجملة قوله عز وجل: ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾[1] استعارة، لأن الاشتعال للنار، ولم يوضع في أصل اللغة للشيب، فلما نقل إليه بان المعنى، لما اكتسبه من التشبيه، لأن الشيب لما كان يأخذ من الرأس شيئاً فشيئاً، حتى يحيله إلى غير لونه الأول، كان بمنزلة النار التي تسري في الخشب، حتى تحيله إلى غير حاله المتقدمة، فهذا هو نقل العبارة عن الحقيقة في الوضع للبيان.

ولا بد أن تكون الاستعارة أبلغ من الحقيقة، لأجل التشبيه العارض فيها، لأن الحقيقة لو قامت مقامها، لكانت أولى بها، ولا يخفى على أهل الذوق أن قوله تعالى.

---

(١) مريم، ١٩/ ٤٠.

﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ أبلغ من كثر شيب الرأس، وهو حقيقة، ولا بد للاستعارة من مستعار منه ومستعار ومستعار له، فالنار مستعار منها، والاشتعال مستعار، والشيب مستعار له. انتهى.

ومنهم من قال: هي ادعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه، وهذا يؤيد قول ابن جني: إن لم تكن الاستعارة للمبالغة، وإلا فهي حقيقة. وكلام ابن جني حسن في موضعه، فإن الشيء إذا أعطي وصف نفسه لم تكن استعارة.

وقال ابن المعتز: هي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء عرف بها، كقول النبي ﷺ: ضموا مواشيكم حتى تذهب فحمة العشاء، فاستعار ﷺ الفحمة للعشاء، لقصد حسن البيان.

ومنهم من قال: هي استعارة الشيء المحسوس للشيء المعقول. قال فخر الدين الرازي: هي جعلك الشيء للشيء للمبالغة في التشبيه. وقال ابن أبي الأصبع في «تحرير التحبير»: هي نقل اسم الراجح إلى المرجوح، لطلب المبالغة في التشبيه وحسن البيان، فإنك إذا قلت: زيد أسد، فقد نقلت اسم الأسد لزيد، لكن الأسد راجح في الجراءة، وزيد مرجوح، وقد بالغت في تشبيه زيد بالأسد، وأحسنت البيان، انتهى.

ولا تحسن الاستعارة إلا إذا كان التشبيه مقرراً، وكلما زاد التشبيه خفاء زادت الاستعارة حسناً، وما أحسن قول ذي الرمة هنا:

أقامت بها حتى ذوى العود في الثرى ... وكف الثريا في ملاءته الفجر[1]

فاستعار للفجر ملاءة، وأخرج لفظه مخرج التشبيه. وكان أبو عمرو بن العلاء لا يرى أن لأحد مثل هذه الاستعارة، وأحسن الاستعارات ما قرب منها دون ما بعد، وأعظمها، في هذا الباب، قوله تعالى: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ فإن ظهور الأنوار من المشرق من أشعة الشمس قليلاً قليلاً، بينه وبين إخراج النفس مشابهة شديدة القرب، ومن هذا النور استضاء الحريري، في مقاماته، بقوله: إلى أن عطس أنف الصباح. وقد تقدم أن بُعْدَ الاستعارة يبعد من القلوب، عند أهل الذوق، كقول أبي نواس مع يقظته:

بح صوت المال مما ... منك يشكو ويصيح

---

(١) الثريا: مجموعة من النجوم على صورة الثور، واسم النجم علم لها.

(٢) التكوير، ٨١/ ١٨.

فأي شيء أبعد استعارة من صوت المال، وكيف يصيح ويبح من الشكوى، ومثله قول بشار:

وجدّت رقاب الوصل أسياف هجرنا وقدّت لرجل البين نعلين من خدي

قال ابن رشيق في العمدة، ما أقبح رجل البين، وأهجن استعارتها، وكذلك رقاب الوصل. ومثله قول ابن المعتز: وهو من أنقد النقاد: كل يو[1] يبول زب السحاب. وأين هذا البعد من قرب استعارة ابن نباتة القديم في قوله:

حتى إذا نهر الأباطح والثرى نظرت إليه بأعين النوار[2]

فنظر أعين النوار من أشبه الاستعارات وأليقها وأقربها، لأن النوار يشبه العيون إذا كان مقابلاً لمن يمر به، كأنه ناظر إليه، ويعجبني هنا قول القائل، ولم يُلحق فيما قاله:

مجرة جدول وسماء آس وأنجم نرجس وشموس ورد[3]
ورعد مثالث وسحاب كاس وبرق مدامة وضباب ند[4]

ومن الغايات في هذا الباب قول مجير الدين ابن تميم:

وليلة بت أسقى في غياهبها راحاً تسل شبابي من يد الهرم[5]
ما زلت أشربها حتى نظرت إلى غزالة الصبح ترعى نرجس الظلم[6]

والذي اتفق عليه علماء البديع، أن الاستعارة المرشحة هي المقدمة في هذا الباب، وليس فوق رتبتها في البديع رتبة، وأعلاها وأغلاها قوله تعالى: ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم﴾[7] فإن الاستعارة الأولى، وهي لفظ الشراء، رشحت الثانية، وهي لفظ الربح والتجارة، ومن الاستعارات المرشحة قول الإمام

---

(١) هكذا في الأصل، ونطنها: يوم.
(٢) نهّر: جعل فيها أنهاراً ـ الأباطح: مفرده أبطح وهو السهل من الأرض ـ النوار: نوع من الأزهار.
(٣) مجرة جدول: جدولٌ كأنه المجرة، والمجرة مجموعة كبيرة من النجوم. وسماء آس: أي سماء كأن نجومها أزهار الأس وهو شجر زهره أبيض.
(٤) رعد مثالث: أي مكرر ثلاث مرّات حتى صار مما يعتاد ـ ند: أي يترك الندى.
(٥) غياهب: ظلمات مفردها غيهب.
(٦) غزالة الصبح: الشمس.
(٧) البقرة، ٢٠/ ٠١٦.

علي بن أبي طالب رضي الله عنه تعالى عنه: الدنيا من أمسى فيها على جناح أمن، أصبح فيها على قوادم خوف، فإن الاستعارة الأولى التي هي .لفظ الجناح رشحت الثانية وهو لفظ القوادم، مع زيادة المطابقة بين الأمن والخوف، والصباح والمساء، وناهيك بالبلاغة الهاشمية، وباب المدينة[1]، وما أحلى قول بعض العرب فيها: جعلنا رماحنا أرشية الموت[2]، فاستقينا بها أرواح العدا ومثله قول الشاعر:

سلامة بن نجاح ... يجد حث السراح
إذا تغنى زمرنا ... عليه بالأقداح

ومثله لابن سكرة، وشتان بين قوله هنا وبين قوله في الكافات:

قيل ما أعددت للبرد ... د فقد جاء بشده
قلت دراعة عري ... تحتها جبة رعده[3]

والذي ينشأ هنا قول القائل:

والشمس لا تشرب خمر الندى ... في الروض إلا بكؤوس الشقيق

ومثله قول ابن رشيق رحمه الله:

باكر إلى اللذات واركب لها ... سوابق اللهو ذوات المزاح
من قبل أن ترشف شمس الضحى ... ريق الغوادي من ثغور الأقاح

وما ألطف قول أبي زكريا المغربي، وقد ترجمه ذو الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب في تاريخه المسمى بالإحاطة في تاريخ غرناطة، وهو:

نام طفل النبت في حجر النعامى ... لاهتزاز الطل في مهد الخزامى
كحل الفجر لهم جفن الدجى ... وغدا في وجنة الصبح لثاما
تحسب البدر محيا ثملاً ... قد سقته راحة الصبح مداما

ويعجبني هنا قول ابن قلاقس:

وفي طمي أبراد النسيم خميلة ... بأعطافها نور المنى يتفتح[4]

---

(١) باب المدينة: هنا إشارة إلى قول النبي محمد ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها».

(٢) أرشية: مفردها رشاء وهو الحبل يعلق به الدلو للاستقاء.

(٣) دراعة: أو مدرعة وهي ثوب من صوف ـ الجبة: العباءة.

(٤) طمي: ما تحمله السيول من الأتربة وغيرها ليستقر في مكان ما.

تضاحك في سر المعاطف عارضاً مدامعه في وجنة الروض تسفح
وتوري به كف الصبا زند بارق شرارته في فحمة الليل تقدح

وقال أبو الحسن علي بن ظافر العسقلاني، في كتابه المسمى «ببدائع البداية». اجتمعت أنا والقاضي الأعز يوماً في روضة، فقلت له أجز: طار نسيم الروض من وكر الزهر. فقال: وجاء مبلول الجناح بالمطر. وما أبدع قول ابن خفاجة في هذا الباب:

وقد نظرت شمس الأصيل إلى الربا بأضعف من طرف المريب وافترا
وصفرة مسواك الأصيل تروقني على لعس من مسقط الشمس أسمرا (١)

وممن تلطف في استعمال الاستعارة المرشحة إلى الغاية، مجد الدين الأربلي، بقوله:

أصغي إلى قول العذول بجملتي مستفهماً عنكم بغير ملال
لتلقطي زهرات ورد حديثكم من بين شوك ملامة العذال

وممن جاراه في هذه الحلبة أبو الوليد بن حيان الشاطبي، بقوله:

فوق خد الورد دمع من عيون السحب يذرف
برداء الشمس أضحى بعد ما سال يجفف

وظريف قول مجير الدين بن تميم منها:

كيف السبيل لأن أقبل خد من أهوى وقد نامت عيون الحرس
وأصابع المنشور تومي نحونا حسداً وتغمزها عيون النرجس (٢)

ومثله قوله:

لما ادعى المنشور أن الورد لا يؤتى وأن يصلى بنار سعير (٣)
ردت ثغور الأقحوان لو أنها كانت تعض أصابع المنشور

ومثله قوله:

كيف السبيل للثم من أحببته في روضة للزهر فيها معرك
ما بين منثور أقام ونرجس مع أقحوان فضله لا يدرك
هذا يشير بأصبع وعيون ذا ترنوا إليّ وثغر هذا يضحك

---

(١) المسواك: ما يستاك به، وهو عود يتخذ من شجر الأراك ـ اللعس: سواد مستحسن في باطن الشفة

(٢) المنثور: نبات زهره متعدد الألوان وذو رائحة فواحة وأغصان طويلة نوعاً ما.

(٣) يُصلى: يحرق ـ سعير: من أسماء جهنم.

وما أحلى قول محيي الدين بن قرناص الحموي:

قد أتينا الرياض حين تجلت ... وتحلت من الندا بجمان
ورأينا خواتم الزهر لما ... سقطت من أنامل الأغصان

وقال البدر الذهبي وأجاد:

هلم يا صاح إلى روضة ... يجلو بها العاني صدا همه (١)
نسيمها يعثر في ذيله ... وزهرها يضحك في كمه (٢)

ومثله قول ابن عمار:

يا ليلة بتنا بها ... في ظل أكناف النعيم
من فوق أكمام الريا ... ض وتحت أذيال النسيم

وأما مطلع قصيدة ابن النبيه، في هذا الباب، فإنه أبهى من مطالع الأقمار، و «ديباجة الاستعارة من حلية تستعار»، وهو:

تبسم ثغر الزهر عن شنب القطر ... ودب عذار الظل في وجنة النهر (٣)

وهذا المعنى مولد من قول ابن خفاجة الأندلسي:

«وطرة ظل فوق وجه غدير». ولكن ابتسام ثغر الزهر عن شنب القطر، في قول ابن النبيه غاية.

وتلطف الشريف العقيلي في هذا الباب بقوله:

وروضة الجام فيها ... من زهرة الراح ورد
فاشرب على وجه روض ... له من الماء خد

وما أحلى قول القاضي، السعيد بن سنا الملك هنا:

ولبعدهم طالت ذوائب ليلهم ... فيها تغطي ضوء وجه نهارهم (٤)

---

(١) العاني: المتعب والمهموم.
(٢) كم الزهر: زره أو الزهر قبل أن يتفتح تجمع على أكمام.
(٣) الشنب: رقة الأسنان وبياضها ـ العذار: الشعر المتدلي عند جانب الأذن.
(٤) ذوائب: جمع مفرده ذؤابة وهي خصلة الشعر في مقدم الرأس.

وأحلى منه قوله:

سرى طيفه لا بل سرى لي سرابه وقد طار من وكر الظلام غرابه
أتت مع نقس الليل صفحة خده فقلت حبيب قد أتاني كتابه (1)

وقال من غيرها:

بشوك القنا يحمون شـــــــهد رضابها (2)

وما أحلى تكميله بقوله: «ولا بد دون الشهد من إبر النحل».

ومثله قوله:

ألقى حبائل صيد من ذوائبه فصاد قلبي بأشراك من الشعر (3)

وأحلى منه قوله:

خصر أدير عليه معصم قبلة فكأن تقبيلي له تعنيق

وغاية الغايات قوله:

بعثت لي على فم الطيف قبلة فأتاني بعض المسرة جملة

ومن الاستعارات الحسنة في هذا الباب، قول شمس الدين بن العفيف، في مديح النبي ﷺ:

حياك يا تربة الهادي الرسول حيا بمنطق الرعد باد من فم السحب

وظريف هنا قول ابن قلاقس:

هدتنا للسرور نجوم راح بها قذفت شياطين الهموم
وكف الصبح تلقط ما تبدى بجيد الليل من درر النجوم

ومن اللطائف، في هذا الباب، قول أبي الحسن العقيلي:

لنا أخ يحسن أن يحسنا رضاه للجانين عذب الجنى
قد عرفت روضة معروفه بأنها تنبت زهر الغنى
إذا تبدى وجه إحسانه تنزهت فيه عيون المنى

---

(1) النقس: المداد.
(2) الرضاب: الريق.
(3) أشراك: جمع مفرده شرك، وهو ما ينصب للاصطياد من شباك وفخاخ وكمائن إلخ...

ويعجبني، في الاستعارة المرشحة، قول ابن سعيد الموصلي، من قصيدة يتشوق فيها إلى دمشق المحروسة، فإنه أتى فيها، في بيت واحد، باستعارات كثيرة مع اجتناب الحشو، ومطلع القصيدة قوله:

سقى دمشق وأياماً مضت فيها | مواطر السحب ساريها وغاديها

وبيت الاستعارة بعده:

ولا يزال جنين النبت ترضعه | حوامل المزن في أحشا أراضيها[1]

ومن أغرب الاستعارات وأبدعها وأحشمها، قول ابن زيدون من قصيدته النونية المشهورة:

سران في خاطر الظلماء يكتمنا | حتى يكاد لسان الصبح يفشينا[2]

وقد عنَّ لي أن أنثر، في حدائق الاستعارة، نبذة من زهر المنثور، وأورد منه ما يزهو بوروده على روضات الزهور، كقول القائل: وطفقنا نتعاطى شموساً من أكف بدور، وجسوم نار في غلائل نور، إلى أن ذاب ذهب الأصيل على لجين الماء، وشبت نار الشفق في فحمة الظلماء، ومثله قول علي بن ظافر الحداد، في دوح: انعطفت قدود أشجاره، وابتسمت ثغور أزهاره، وذر كافور مائه على عنبر طينته وامتدت بكاسات الجلنار[3] أنامل غصونه. وقال آخر وأجاد: وقد عرق بالندا جبين النسيم، وابتل جناح الهواء، وضربت خيمة الغمام، واغرورقت مقلة السماء، وقام خطيب الرعد فنبض عرق البرق. ولقد حاز القاضي الفاضل قصبات السبق، في هذا الميدان، بقوله: كتبها المملوك وقد عمشت مقلة السراج، وشابت لمة[4] الدواة، وخرس لسان القلم، وكلَّ خاطر السكين، وضاق صدر الورق. وما أحلى قول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر: والأغصان قد اخضر نبات عارضها[5]، ودنانير الأزهار ودراهمها قد تهيأت لتسليم قابضها. وقال جمال الدين بن نباتة: كتبها المملوك ودمع الغيث قد رقا[6] ووجه الأرض قد راق،

---

(١) الجنين: المولود في بطن أمه ـ حوامل: جمع مفرده حامل وهي من النساء الحبلى ومن الغيوم الممطرة ـ المزن: واحدتها مزنة وهي الغيمة ـ أحشا: ترخيم أحشاء وهي الجوف.

(٢) يفشينا: يكشفنا ويظهرنا.

(٣) الجلنار: زهر الرمان.

(٤) اللمة: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن.

(٥) العارض: جانب الوجه.

(٦) رقا: سكن وجف.

وقدود الأغصان قد راسلت أهواء القلوب بالأوراق، وقيان[1] حمائمها قد ترنمت وجذبت القلوب بالأطواق، والورد قد احمر خده الوسيم، وفكت أزراره من أجياد القضيب أنامل النسيم، وخرجت أكفه من أكمامه لأخذ البيعة على الأزهار بالتقديم.

ومما كتبته، في البشارة الصادرة عن الملك المؤيد، عند عوده من البلاد الرومية وحلول ركابه الشريف بحلب المحروسة، المتضمنة ما من الله به من الفتح الذي صار له في الروم قصص، سنة عشرين وثمانمائة، فمن ذلك قولي عند حصار قلعة طرسوس وفتحها: ورأوا ألسن السهام في أفواه تلك المرامي، فقالوا رأينا المصائب ناطقة، وما رموا على سماء برج غيوم ستائر إلا لمعت فيها من بوارق نقوطها بارقة، وحكم عليها القضاء بالاعتقال، ولم يأتوا عند ذلك الحكم بدافع، هذا بعدما صفق مقبلهم جماد وجهه فبصقت فيه أفواه المدافع. وقولي في الاستعارة المرشحة أيضاً، عند حصار قلعة دريدة وفتحها: وقررنا صدع سورها باختلاف الآلات، فجاء ما قررناه نقشاً على حجر، وادعت أن صخرها أصم، فأسمعناه من آذان المرامي تنقير المدافع وتحريك الوتر، وقرعنا سنّ جبلها بنابات المداقع[2] وكسرنا منه السنية وأمست حلق مراميها كالخواتم في أصابع، سهامنا المستوية. ومثله قولي، عند حصار قلعة كختار وفتحها، على لسان حال القلعة في سموها وإفراط علوها: فأنا الهيكل الذي ذاب قلب الأصيل على تذهيبه، وودّ دينار الشمس أن يكون من تعاويذه، والشجرة التي لولا سمو فرعها تفكهت به حبات الثريا وانتظمت في سلك عناقيده، وتشامخ هذا الحصن ورفع أنف جبله وتشامم، فأرمدنا عيون مراميه بدم القوم، وأميال سهامنا على تكحيلها تتزاحم، وغاية الغايات في هذا الباب، قولي عند حصار قلعة كركر: وتنكرت أكراد كركر بسور القلعة فعرفناهم بلامات القسي وألفات السهام، وعطست أنوف مراميها بأصوات مدافعنا وكان بها زكام. ومن حسن ختامها، ولم نخرج عما نحن فيه من بديع الاستعارة وغريبها، قولي: فلا بكر قلعة إلا افتضينا بكارتها[3] بالفتح، وابتذلنا من سترها الحجاب، ولا كأس برج أترعوه بالتحصين، إلا توجنا رأسه من حبات مدافعنا بالحباب. انتهى.

ولم أحبس عنان القلم عن الاستطراد إلى ما وقع لي من محاسن الاستعارة نظماً، إلا للتخفيف عن بيت البديعية، وقلت: تكفيه المزاحمة في مناظرة الشيخ صفي الدين

---

(١) جمع مفرده قينة وهي المغنية الحسناء.

(٢) المداقع: المذلات.

(٣) البكارة: عُذرة الفتاة

الحلي، ومبارزة الشيخ عز الدين الموصلي رحمه الله، وحمل ثقل العميان، فبيت الشيخ صفي الدين رحمه الله في بديعيته، وهو الشاهد على نوع الاستعارة:

إن لم أحث مطايا العزم مثقلة   من القوافي تؤم المجد عن أمم[1]

وبيت العميان:

يقول صحبي وسفن العيس خائضة   بحر السراب وعين القيظ لم تنم

بيت الشيخ صفي الدين وبيت العميان، لم يحسن السكوت عليهما ولا تتم الفائدة بهما، فإن بيت الشيخ صفي الدين متعلق بما قبله، وبيت العميان متعلق بما بعده، وبيت الشيخ عز الدين صالح للتجريد وهو: .

دع المعاصي فشيب الرأس مشتعل   بالاستعارة من أزواجها العقم[2]

أقول: ولو بلغت ما عسى أن يكون، أن في قوله: من أزواجها العقم، ما يرعب السامع، وبيت بديعيتي:

وكان غرس التمني يانعاً فذوى   بالاستعارة من نيران هجرهم

وقد تقدم أن المقدم، عند علماء البديع، الاستعارة المرشحة، فلفظة غرس رشحت بيانع، وأما قولي: بالاستعارة من نيران هجرهم، بعد ذوى، فما أعده إلا من المنح الإلهامية، فإن اسم النوع الذي هو الاستعارة جمع بين التورية والاستعارة والترشيح، مع عدم الحشو وصحة التركيب والمشي على جادة الرقة والالتزام بتسمية النوع مورى به من جنس الغزل. انتهى.

---

(١) تؤم: تقصد ـ عن أمم: عن قرب.

(٢) العقم: عدم الإنجاب.

ذكر الاستخدام

واستخدموا العين مني وهي جارية　　وقد سمحت بها أيام عسرهم

الاستخدام هو استفعال من الخدمة، وأما في الاصطلاح فقد اختلفت العبارات في ذلك على طريقين: الأولى طريقة صاحب الإيضاح ومن تبعه، ومشى عليها كثير من الناس، وهي أن الاستخدام إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، فتريد بذلك اللفظ أحد المعنيين، ثم تعيد عليه ضميراً تريد به المعنى الآخر، أو تعيد عليه، إن شئت، ضميرين تريد بأحدهما أحد المعنيين وبالآخر المعنى الآخر، وعلى هذه الطريقة مشى أصحاب البديعيات واالشيخ صفي الدين الحلي والعميان والشيخ عز الدين وهلم جراً. الثانية: طريقة الشيخ بدر الدين بن مالك رحمه الله تعالى، في المصباح، وهي أن الاستخدام إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، ثم يأتي بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين، ومن الآخر المعنى الآخر، ثم إن اللفظين قد يكونان متأخرين عن اللفظ المشترك، وقد يكونان متقدمين، وقد يكون اللفظ المشترك متوسطاً بينهما، والطريقتان راجعتان إلى مقصود واحد وهو استعمال المعنيين، وهذا هو الفرق بين التورية والاستخدام، فإن المراد من التورية هو أحد المعنيين، وفي الاستخدام كل من المعنيين مراد.

ونقل الشيخ صلاح الدين الصفدي، في كتابه المسمى «بفض الختام عن التورية والاستخدام»، ما يؤكد هذا، فإنه قال: المشترك، إذا لزم استعماله في مفهوميه معاً، فهو الاستخدام، وإن لزم في أحد مفهوميه في الظاهر، مع لمح الآخر في الباطن، فهو التورية.

ومنهم من قال: الاستخدام عبارة عن أن يأتي المتكلم بلفظة مشتركة بين معنيين اشتراكاً أصلياً، متوسطة بين قرينتين تستخدم كل قرينة منهما معنى منْ معنيي تلك اللفظة

المشتركة، وهذا مذهب ابن مالك. وعلى كل تقدير، فالطريقتان راجعتان إلى مقصود واحد، وهو استعمال المعنيين، بضمير وغير ضمير، وأعظم الشواهد على طريقة ابن مالك ومن تبعه قوله تعالى: ﴿لكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾[1] فإن لفظة كتاب يحتمل أن يراد بها الأجل المحتوم والكتاب المكتوب، وقد توسطت بين لفظتي أجل ويمحو فاستخدمت أحد مفهوميها وهو الأمد، بقرينة ذكر الأجل، واستخدمته المفهوم الآخر وهو الكتاب المكتوب، بقرينة يمحو، ومنه قوله[2]، من القصيدة النباتية:

حويت ريقاً نباتياً حلا فغدا ... ينظم الدر عقداً من ثناياك

فإن لفظة نباتي تحتمل الاشتراك بالنسبة إلى السكر وإلى ابن نباتة الشاعر، وقد توسطت بين الريق وحلاوته، وبين الدر والنظم والعقد، فاستخدمت أحد مفهوميها وهو السكر النباتي، بذكر الريق والحلاوة، واستخدمت المفهوم الآخر، وهو قول الشاعر النباتي بذكر النظم والدر والعقد وليس في جانب من المفهومين إشكال. وأما شاهد الضمائر، على طريق صاحب الإيضاح، فجميع كتب المؤلفين لم يستشهدوا فيها على عود الضمير الواحد إلا بقول القائل:

إذا نزل السماء بأرض قوم ... رعيناه وإن كانوا غضابا

فلفظة السماء يراد بها المطر، وهو أحد المعنيين، والضمير في رعيناه يراد به المعنى الآخر، وهو النبات. وأما شاهد الضميرين، فإنهم لم يخرجوا به عن قول البحتري وهو:

فسقى الغضى والساكنيه وإن هم ... شبوه بين جوانحي وضلوعي[3]

فإن لفظة الغضى محتملة الموضع والشجر، والسقيا صالحة لكل منهما، فلما قال: والساكنيه، استعمل أحد معنيي اللفظة، وهو الموضع بدلالة القرينة عليه، ولما قال شبوه استعمل المعنى الآخر وهو الشجر بدلالة القرينة عليه. انتهى.

والشيخ صفي الدين رحمه الله لم يستطرد، في شرح بديعيته، إلى غاية ذلك ولكن رأيته، في شرحه، قد أورد على بيت البحتري نقداً حسناً ليس فيه تحمل[4] ولا إشكال،

(١) الرعد، ١٣/ ٣٨و ٣٩.

(٢) قوله: قول ابن مالك.

(٣) الغضى: شجر من الأثل خشبه صلب، وجمرة يبقى طويلاً لا ينطفىء وهو علم على نجْد لكثرته هناك ـ شبوه: أشعلوه وأضرموه.

(٤) تحمّل: تحامل وهو الجور في الحكم.

فإنه قال: شرط علماء البديع أن يكون اشتراك لفظة الاستخدام اشتراكاً أصلياً والنظر هنا في اشتراك لفظة الغضى، فإنه ليس بأصلي، لأن أحد المعنيين منقول من الآخر، والغضى في الحقيقة الشجر وسموا الوادي غضى، لكثرة نبته فيه، وقالوا جمر الغضى لقوة ناره، فكلٌ منقولٌ من أصل واحد، ولم يرد في كتب المؤلفين غير هذين البيتين، وقول أبي العلاء:

قصد الدهر من أبي حمزة الأواب ... مولى حجى وخدن اقتصاد[1]
وفقيهاً أفكاره شدن للنعمان ما لم يشده شعر زياد[2]

فالنعمان يحتمل هنا أبا حنيفة رضي الله عنه، ويحتمل النعمان بن المنذر ملك الحيرة، فإن الزمخشري صنف كتاباً في مناقب أبي حنيفة سماه «شقائق النعمان في حقائق النعمان» وأما أبو العلاء، فإنه أراد بلفظ النعمان أبا حنيفة، وأراد بالضمير المحذوف ابن المنذر ملك الحيرة وزياد هنا هو النابغة، وكان معروفاً بمدح النعمان بن المنذر، وهذا يصح على طريقة ابن مالك، فإن فقيهاً يخدم أبا حنيفة، وشعر زياد يخدم النعمان بن المنذر، ولا يصح على مذهب صاحب الإيضاح فإن ضمير يشده لم يعد على واحد منهما، لأن شرط الضمير في الاستخدام أن يكون عائداً على اللفظة المشتركة، ليستخدم بها معناها الآخر، كما قال البحتري في شبوه، فهذا الضمير عائد على الغضى، وهذا جعل الضمير في يشده غير عائد على اللفظة المشتركة التي هي النعمان، فصار طيب الذكر الذي يشيده زياد لا يعلم لمن هو، لأن الضمير لا يعود على النعمان، اللهم إلا أن يكون التقدير، ما لم يشده له، فيعود الضمير على النعمان بهذا التقدير. انتهى.

وما أحلى قول بعض المتأخرين، مع عدم التعسف، والسلامة من النقد، وصحة الاشتراك الأصلي، وهو:

وللغزالة شيء من تلفته ... ونورها من ضيا خديه مكتسب

وأنا بالأشواق إلى معرفة الناظم، وهذا النوع، أعني الاستخدام، قل من البلغاء من تكلفه وصح معه بشروطه، لصعوبة مسلكه وشدة التباسه بالتورية، وقد تقدم ما أوردنا فيه من النقد على بيتي البحتري وأبي العلاء، وهو أعلى رتبة عند علماء البديع من التورية،

---

(١) الأواب: الذي يرجع عن ذنبه ويتوب سريعاً ـ الحجى: الذي يوثق به ـ خدن: خدين تجمع على أخدان: وهم الأصحاب.

(٢) شِدْن: من شاد يشيد: يبني.

وأحلى موقعاً في الأذواق السليمة، ولكن قل من ظفر منه بسلامة التخلص من علق النقد. وصعد من غور التعسف إلى نجد السهولة، قال الشيخ صلاح الدين الصفدي في كتابه المسمى «بفض الختام عن التورية والاستخدام»: ومن أنواع البديع ما هو نادر الوقوع، ملحق بالمستحيل الممنوع، وهو نوع التورية والاستخدام الذي تقف الأفهام حسرى[1] دون غايته عند مرامي المرام:

نوع يشق على الغبي وجوده من أي باب جاء يغدو مقفلا

لا يفرع هضبته فارع[2]، ولا يقرع بابه قارع، إلا من تنحو البلاغة نحوه في الخطاب، ويجري ريحها بأمره رخاء حيث أصاب، على أن المتقدمين ما قصدوه جملة كافية، ولا شعروا به لما شعروا أنه دخل معهم في بيت تحت قفل قافيه، وأما المولدون من الشعراء، كالفرزدق وجرير ومن عاصرهما وخاض معهما لجة بحر البلاغة، فلم يرد أحد منهم ورد هذا الغدير، وأما الذين تفقهوا من بعدهم في الأدب، وتنبهوا لتخلل طرقه بالطلب، فربما قصدوا بعض أنواع البديع، فجادت إذ جاءت، وفاتت مرة أخرى وأخرى فاءت[3]، وقد قصد أبو تمام كثيراً من الجناس، وفتح أبوابه، وشرع طرقه للناس.

وأما التورية والاستخدام فما تنبه لمحاسنهما، وتيقظ وتحرى وتحرر وتحفد[4] وتحفظ، إلا من تأخر من الشعراء والكتاب، وتضلع من العلوم وتطلع من كل باب، وأظن أن القاضي الفاضل رحمه الله تعالى هو الذي ذلل منهما الصعاب، وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب، حتى ارتشف هذه السلافة أهل عصره وأصحابه الذين نزلوا ربوع مصره، وخفقت رياحهم بالإخلاص في نصره، كالقاضي السعيد هبة الله بن سنا الملك، ومن انخرط معه في هذا السلك، ولم يزل هو ومن عاصره على هذا المنهج، في ذلك الأوان، ومن جاء بعدهم من التابعين بإحسان، إلى أن جاء بعدهم حلبة أخرى، وزمرة تترى[5]، فكلهم يرمون في هذا الإحسان عن قوس واحدة، وينفقون من مادة هي في الجود معن بن زائدة، ويصلون المقطوع بالمقطوع فلا تخلو فيه كلمة فائتة من فائدة، وغالب شعرهم على هذا النمط، وأكثره درر أسماع متى تلتق تلتقط، كأبي الحسين

---

(١) حسرى: أصابها العياء والتعب.

(٢) فارع: مصعِّد.

(٣) فاءت: رجعت إلى الصواب.

(٤) تحفّد: أسرع.

(٥) تترى: تالية.

الجزار والسرّاج الورّاق والنصير الحمامي والحكيم شمس الدين بن دانيال والقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، فهؤلاء هم الفحول الذين جدوا، بعد القاضي الفاضل، إلى هذه الغاية ورفعوا راية هذا النوع، وكان كل منهم عرابة تلك الراية، تسابقوا جياداً، والديار المصرية لهم حلبة، وتلاحقوا أفراداً، وهم في شرف هذا الفن من هذه النسبة.

وجاء من شعراء الشام جماعة، تأخر عصرهم وتأزر نصرهم ولأن في هذا النوع هصرهم وبعد حصرهم، فيما أرادوه، كما زاد حصرهم كل ناظم تود الشعرى [1] لو كانت له شعراً، ويود الصبح لو كان له طرساً والغسق مداداً، والنثرة [2] نثراً، منهم شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماة. والأمير مجير الدين بن تميم، وبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي، ومحيي الدين بن قرناص، وشمس الدين بن محمد العفيف، وسيف الدين بن المشد. ثم إن الشيخ صلاح الدين قال في آخر هذا الفصل: وهؤلاء معهم جماعة يحضرني ذكرهم عند شعرهم، ويعز علي أن لم أرهم على تكاثرهم لفوات عصرهم، وكأني بقائل يقول: لقد أفرطت في التعصب، لأهل مصر والشام على من دونهم من الأنام، وهذا باطن باطل، وعدوان وحمية لأوطانك وما جاورها من البلدان، فالجواب: إن الكلام في التورية والاستخدام لا غير، ومن هنا تنقطع المادة في السير، ومن ادعى أنه يأتي بدليل وبرهان، فالمقياس بيننا والشقراء والميدان.

وقد رجح صاحب يتيمة الدهر شعراء الشام على شعراء العراق، وقال: إنهم حازوا قصبات السبق عليهم في حلبة السباق، فإنهم قوم جبلت طباعهم على اللطافة، وطبعت جبلتهم على الكيس [3] والظرافة. انتهى كلام الشيخ صلاح الدين الصفدي.

قلت: واتصل هذا الحديث القديم، بالشيخ جمال الدين بن نباتة، فأينع فرعه النباتي بغصنه ووريقه، واستعبد التورية والاستخدام في سوق رقيه، فمن استخداماته ما أرانا من استخدام البحتري عيب الوليد، وقلنا بعده في استخدام أبي العلاء ليس على الأعمى حرج، فإنه مشى على الحس في ظلمة التعقيد، واستخدام الشيخ جمال الدين الموعود به، قوله من قصيدة رائية امتدح بها النبي ﷺ:

إذا لم تفض عيني العقيق فلا رأت ... منـازلـه بـالقـرب تبهي وتبهـرُ
وإن لم تواصل عادت السفح مقلتي ... فلا عادها عيش بمغناه أخضرُ [4]

---

(١) الشعرى: كوكب نيِّر يطلع عند شدة الحرّ.
(٢) النَّثرة: مجموعة من النجوم في صورة السرطان.
(٣) الكيْس: اللباقة في التصرف.
(٤) السفح: انهمار الدمع.

أنظر أيها المتأمل، إلى صحة الاشتراك بين الاستخدامين، وانسجام البيت الأول مع البيت الثاني، وسيلان الرقة لذا القطر النباتي، والتشبيب المرقص بالمنازل الحجازية، والغزل الذي يليق أن تصدر به المدائح النبوية. ولعمري إنه مشى على طريق صاحب الإيضاح فزاده إيضاحاً، ولو دعي إلى عروس الأفراح زاده أفراحاً، وهذه القصيدة، التي ظفرت منها بهذين الاستخدامين، محاسنها غرر في جباه القصائد، ولأنواع البديع بها صلة ومن أبياتها عائد، منها:

سقى الله أكناف الغضى سائل الحيا ... وإن كنت أسقى أدمعاً تتحدر
وعيشاً نضى عنه الزمان بياضه ... وخلفه في الرأس يزهو ويزهر[(١)]
تغير ذاك اللون مع من أحبه ... ومن ذا الذي يا عز لا يتغير
وكان الصبا ليلاً وكنت كحالم ... فوا أسفي والشيب كالصبح يسفر[(٢)]
يعللني تحت العمامة كتمه ... فيعتاد قلبي حسرة حين أحسر[(٣)]
وينكرني ليلي وما خلت أنه ... إذا وضع المرء العمامة ينكر

ومنها:

وغيداء أما جفنها فمؤنث ... كليل وأما لحظها فمذكر[(٤)]
يروقك جمع الحسن في لحظاتها ... على أنه بالجفن جمع مكسر
يشف وراء المشرفية خدها ... كما شف من دون الزجاجة مسكر[(٥)]
خليليّ كم روض نزلت فناءه ... وفيه ربيع للنزيل وجعفر[(٦)]
وفارقتها والطير صافرة بها ... وكم مثلها فارقتها وهي تصفر[(٧)]

ومنها في وصف الناقة:

ورب طموح العزم أدماء جسرة ... يظل بها عزمي على البيد يجسر[(٨)]
طوت بذراعَيْ وَخْدِها شقة الفلا ... وكف الثريا في دجى الليل يشبر[(٩)]

---

(١) نضى: خلع ونزع.
(٢) يسفر: يبدو ويظهر.
(٣) أحسر: اكشف.
(٤) كليل: مريض، ومرض الجفون من صفات الجمال عند الحسان.
(٥) شف: رق حتى بدت الأشياء من خلاله.
(٦) الجعفر: النهر، وتجمع على جعافر.
(٧) صافرة: مغردة أو أصابها الصُفار وهو الجوع ـ وتصفر: أي خالية من صَفِرَ.
(٨) الأدماء: السمراء وهي من صفات الناقة ـ الجَسور: القوية ـ يجسر: يجرؤ.
(٩) الوَخْد: نوع من السير ـ يشبر: يقيس بشبره والشبر ما بين طرفي الإبهام والخنصر.

ومدّ جناحي ظلها ألف الضحى ... فشدّت كما شد النعام المنفر [1]
بصم الحصى ترمي الحداة كأنما ... تغار على محبوبها حين يذكر [2]
إذا ما حروف العيس خطت بقفرة ... غدت موضع العنوان والعيس أسطر
فلله حرف لا تسام كأنها ... تولتك السرى حرف لدى الشد مضمر

وعارض الشيخ جمال الدين بن نباتة جماعة نسجوا على منواله في عصره، لكن الذوق السليم يشهد أنهم كانوا خلاصة قطره[3]. وهذا الشرح هو جامعهم الكبير، وإذا ذكرت فيه نظائرهم، فاعلم أنه ليس له فيهم نظير.

نرجع إلى الاستخدام وشواهده وإيراد أبيات البديعيات فيه، فبيت صفي الدين قوله:

من كل أبلج واري الزندِ يوم قرىً ... مشمر عنه يوم الحرب مصطلم [4]

وبيت العميان:

إن الغضى لست أنسى أهله فهم ... شلوه بين ضلوعي يوم بينهم[5]

أقول لو عاش البحتري ما صبر للعميان على هذه السرقة الفاحشة، فإنهم أخذوا لفظه ومعناه، وضميره وما اختشوا من الحرج، ولا سلموا من النقد. وبيت عز الدين:

والعين قرت بهم لما بها سمحوا ... واستخدموها من الأعدا فلم تنم

قوله: والعين قرت بهم لما بها سمحوا، في غاية الحسن، فإنه أتى بالاستخدام وعود الضمير في شطر البيت، مع الانسجام والرقة واستخدامه في العين الناظرة وعين المال، وأما قوله في الشطر الثاني: واستخدموها من الأعدا فلم تنم، ما أعلم ما المراد به، فإن الاستخدام في العين، التي هي الجارحة، قد تقدم، والذي يظهر لي أن اضطراره إلى تسمية النوع ألجأه إلى ذلك، وبيت بديعيتي:

واستخدموا العين مني فهي جارية ... وكم سمحت بها أيام عسرهم

فالتورية في جارية بعدما استخدموها، لم يوجد في سوق الرقيق مثلها، والعود بالضمير مع تمكن القافية وعدم التكلف والحشو، لا يخفى على أهل الذوق السليم، فإن قافية مصطلم، في بيت صفي الدين تمجه الأذواق. انتهى الكلام على الاستخدام.

---

(١) مد جناحي ظلها ألف الضحى: أي اصابها الحرّ.

(٢) الحداة: جمع مفرده الحادي وهو الذي يحدو الإبل في سيرها يحثها على الإسراع.

(٣) خلاصة قطره: أي اخذوا منه من خَلَس وهي اخذ خِلسة وخفية.

(٤) الأبلج: الذي بَعُدَ ما بين حاجبيه، دلالة على عزيمته ـ واري الزندي: هكذا في الأصل. والذي نراه واري الزند: معلّم الزند ـ القِرى: الإطعام وقت الحاجة ـ مصطلم: أي مقطع الأذنين.

(٥) شلوه: ارسلوه، وقد وردت هذه في بيت البحتري السابق: شبوه بمعنى: أشعلوه وأضرموه.

ذكر الهزل الذي يراد به الجد

والبين هازلني بالجد حين رأى دمعي وقال تبرد أنت بالديم

قال صاحب التلخيص: ومنه، يعني فن البديع، الهزل الذي يراد به الجدّ: كقوله:

إذا ما تميميٌّ أتاك مفاخراً فقل عدِّ عن ذا كيف أكلك للضب[1]

ولم يزد على ذلك شيئاً.

والهزل الذي يراد به الجد هو أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه، فيخرج مر ذلك المقصد مخرج الهزل والمجون اللائق بالحال، كما فعل أصحاب النوادر، ومثل أشعب وأبي دلامة وأبي العيناء ومزيد، ومن سلك مسلكهم، كما حكي عن أشعب أن حضر وليمة بعض ولاة المدينة، وكان رجلاً بخيلاً، فدعا الناس ثلاثة أيام وهو يجمعهم على مائدة فيها جدي مشوي، فيحوم الناس حوله ولا يمسه أحد منهم، لعلمهم ببخله، وأشعب كان يحضر مع الناس ويرى الجدي، فقال في اليوم الثالث: زوجته طالق إن لم يكن عمر هذا الجدي، بعد أن ذبح وشوي، أطول من عمره قبل ذلك.

ومن شواهد الهزل الذي يراد به الجدّ ما أنشده ابن المعتز، من قول أبي العتاهية:

أرقيك أرقيك بسم الله أرقيكا من بخل نفسك على الله يشفيكا[2]

ما سلم كفك إلا من يناولها ولا عدوك إلا من يرجيكا

---

(١) عدّ: كُفّ ـ الضب: حيوان شبيه بالحرذون.

(٢) على: هكذا وردت في الأصل ونظنها من تحريف النساخ والأصح: علّ: أي لعلّ.

والفاتح لهذا الباب، امرؤ القيس، وقوله أبلغ ما سمع فيه وألطف، وهو:

وقد علمت سلمى وإن كان بعلها بأن الفتى يهذي وليس بفعال[١]

قال زكي الدين بن أبي الأصبع: ما رأيت أحسن من قوله، ملتفتاً: وإن كان بعلها. انتهى.

وهذا النوع، أعني الهزل الذي يراد به الجد، ما سبكه في قوالبه إلا من لطفت ذاته، وكان له ملكة في هذا الفن وحسن تصرف.

ومن أظرف ما وقع في هذا الباب، أنه حصل لي، بالديار المصرية، جَرَبٌ[٢] أشرفت منه على التلف، فوصف لي الحكيم بطيخاً، وهو عزيز الوجود في تلك الأيام، فبلغني أنه أُهدي إلى مولانا، المقر الأشرف القاضوي الناصري محمد بن البارزي، صاحب دواوين الانشاء الشريف بالممالك الإسلامية، عظم الله تعالى شأنه، بطيخ، فكتبت إليه:

مولاي عاقبني الزمان بجربةٍ وقد انقطعت بجسمي المسلوخ[٣]
وعميت من حزني على ما تم لي لكن شممت روائح البطيخ

فالكناية، على طلب البطيخ، سبكت في أحسن قوالب الهزل، مع حسن التضمين، ومثله قولي:

جاء الشتاء فرأسيّ والجسم صارا شماته
بطيلسان ابن حرب وفروة ابن نباته[٤]

ففي طيلسان ابن حرب وفروة ابن نباتة، مع ما فيهما من الهزل الظاهر، كنايتان عن الفقر الذي تزايد حده، وطيلسان ابن حرب معروف لشهرته، وأما فروة ابن نباتة ففيها إشارة إلى قوله:

زرقة جسمي وبياض ثلجها سنجابي الأبلق في فصل الشتا[٥]

---

(١) البعل: الزوج ـ يهذي: يتكلم دون ان يقصد بكلامه شيئاً.

(٢) الجرب: دواء معروف يصيب الجلد.

(٣) جربة: واحدة الجرب.

(٤) الطيلسان: نوع من اللباس الفارسي المزركش الأخضر وهو لباس العلماء.

(٥) سنجابي: ثوبي ذي اللون السنجابي، والسنجاب: حيوان لونه أزرق تشوبه غبره، أكبر من الجرذ وأصغر من الهر ـ الأبلق: المختلف الألوان.

ومثله قولي: وصاحب تسمح لي نفسه بغدوة لكن إذا ما انتشا
يضحك سنّي للغدا عنده لكنني أقلع ضرسي للعشا

فيه على الهزل الذي يراد به الجد، زيادة تلطف الاستدراك ومراعاة النظير، وكان هذا الصاحب، تغمده الله برحمته ورضوانه، من أعز الأصحاب عليّ، ولكن التصريح باسمه غير ممكن هنا، وبين الهزل الذي يراد به الجد وبين التهكم فرق لطيف، وهو أن التهكم ظاهره جد وباطنه هزل، وهذا النوع بالعكس.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته:

أشبعت نفسك من ذمي فهاضبك ما تلقى وأكثر موت الناس بالتخم[1]

فقوله: وأكثر موت الناس بالتخم، كناية يهزلون بها على من يفرط في أكل شيء ويخص به نفسه.

وبيت العميان:

قل للصباح إذا ما لاح نورهم إن كان عندك هذا النور فابتسم

لم أرَ في بيت العميان [هذا] هزلاً يراد به الجد، والله أعلم.

وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

هزل أريد به جد عتابك لي كما كتمت بياض الشيب بالكتم[2]

الشيخ عز الدين، غفر الله له، حكى هنا حكاية لم يسعني الكلام عليها، لئلا يطول الشرح.

وبيت بديعيتي:

والبين هازلني بالجد حين رأى دمعي وقال تبرد أنت بالديم

أنظر أيها المتأمل هنا، بنور الله تعالى، فإن الهزل الذي يراد به الجد أنا ملتزم تسميته، وقد استوعب شطر البيت، وانظر كيف أفرغت هذا النوع الغريب في أحسن القوالب وأغرب المعاني، فإن الدمع تزايد انهماله، إلى أن صار كالديم الهاطلة، والبين يغبطني بذلك مهازلاً، ويقول لي: تبرد أنت بهذه الديم.

---

(١) هاضبك: أحمقك من هاضاه إذا استحمقه.

(٢) الكَتَم: شجر قريب من الآس له ثمر يشبه الفلفل الأسود، كان يستعمل في الخضاب أي صباغ الشعر.

ذكر المقابلة

قابلتهم بالرضا والسلم منشرحاً ولوا غضاباً فيا حَرْبي لغيظهم

المقابلة أدخلها جماعة في المطابقة، وهو غير صحيح، فإن المقابلة أعم من المطابقة، وهي التنظير[1] بين شيئين فأكثر، وبين ما يخالف وما يوافق. فبقولنا: وما يوافق، صارت المقابلة أعم من المطابقة، فإن التنظير بين ما يوافق ليس بمطابقة، وهذا مذهب زكي الدين بن أبي الأصبع، فإنه قال: صحة المقابلات عبارة عن توخي المتكلم بين الكلام على ما ينبغي، فإذا أتى بأشياء في صدر كلامه أتى بأضدادها في عجزه، على الترتيب، بحيث يقابل الأول بالأول، والثاني بالثاني لا يخرم من ذلك شيئاً، في المخالف والموافق، ومتى أخل بالترتيب كانت المقابلة فاسدة، وقد تكون المقابلة بغير الأضداد. والفرق بين المطابقة والمقابلة من وجهين: أحدهما، أن المطابقة لا تكون إلا بالجمع بين ضدين، والمقابلة تكون غالباً بجمع بين أربعة أضداد: ضدان في صدر الكلام، وضدان في عجزه، وتبلغ إلى الجمع بين عشرة أضداد: خمسة في الصدر وخمسة في العجز. والثاني أن المطابقة لا تكون إلا بالأضداد، والمقابلة بالأضداد وغير الأضداد، ولكن بالأضداد أعلا رتبة وأعظم موقعاً. ومن معجزات هذا الباب قوله عز وجل: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾[2] فانظر إلى مجيء الليل والنهار في صدر الكلام، وهما ضدان، ثم قابلهما، في عجز الكلام، بضدين وهما السكون والحركة، على الترتيب، ثم عبر عن الحركة بلفظ الأرداف، فالتزم الكلام ضرباً من

---

(١) التنظير: التشبيه.

(٢) القصص، ٢٨/ ٧٣.

المحاسن زائداً على المقابلة، فإنه عدل عن لفظ الحركة إلى لفظ ابتغاء الفضل، لكون الحركة تكون لمصلحة ولمفسدة، وابتغاء الفضل حركة المصلحة دون المفسدة، وهي تشير إلى الإعانة بالقوة، وحسن الاختيار الدال على رجاحة العقل وسلامة الحس، وإضافة الطرف إلى تلك الحركة المخصوصة واقعة فيه، ليهتدي المتحرك إلى بلوغ المآرب، ويتقي أسباب المهالك. والآية الشريفة سيقت للاعتداد بالنعم، فوجب العدول عن لفظ الحركة إلى لفظ هو ردفه، ليتم حسن البيان، فتضمنت هذه الكلمات التي هي بعض آية عدة من المنافع والمصالح، التي لو عددت بألفاظها الموضوعة لها لاحتاجت في العبارة عنها إلى ألفاظ كثيرة، فحصل في هذا الكلام، بهذا السبب، عدة ضروب من المحاسن. ألا تراه سبحانه وتعالى كيف جعل العلة في وجود الليل والنهار، حصول منافع الإنسان، حيث قال: لتسكنوا ولتبتغوا، بلام التعليل! فجمعت هذه الكلمات من أنواع البديع: المقابلة، والتعليل، والإشارة، والإرداف، وائتلاف اللفظ مع المعنى، وحسن البيان، وحسن النسق، فلذلك جاء اكلام متلائماً آخذاً بعضه بأعناق بعض، ثم أخبرنا بالخبر الصادق: إن جميع ما عدده من النعم باللفظ الخاص، وما تضمنته العبارة من النعم التي تلزم من لفظ الأرداف، بعض رحمته، حيث قال بحرف التبعيض: ومن رحمته. وهذا كله في بعض آية عدتها عشر كلمات، فالحظ هذه البلاغة الباهرة والفصاحة الظاهرة. انتهى.

ومن أمثلة صحة المقابلة في السنة الشريفة، قول النبي ﷺ: ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا كان الخرق[1] في شيء إلا شانه. فانظر كيف قابل الرفق بالخرق والزين بالشين، بأحسن ترتيب وأتم مناسبة. وهذا الباب في مقابلة اثنين باثنين، ومنه قوله تعالى: ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾[2] ومنه قول النبي ﷺ: إن لله عباداً جعلهم مفاتيح الخير، مغاليق الشر. ومنه، وهو ظريف في مقابلة اثنين باثنين، أن المنصور قال لمحمد ابن عمران: إنك لبخيل. فقال: يا أمير المؤمنين، لا أحمد في حق ولا أذم في باطل. ومنه في النظم قول النابغة:

فتى كان فيه ما يسر صديقه ... على أن فيه ما يسوء الأعاديا

وقول الحلي:

ورنح الرقص منه عطفاً ... خف به اللطف والدخول
فعطفه داخل خفيف ... وردفه خارج ثقيل

---

(١) الخرق: الحمق والتسرّع.
(٢) التوبة، ٩/ ٨٢.

وأخبرني مولانا، قاضي القضاة الشافعي نور الدين، الحاكم بحماة المحروسة، المشهور بخطيب الدهشة: أنه كان بحماة يهودي يطوف بالحناء والصابون على رأسه، ويقول: معي حناء أخضر جديد، وصابون يابس عتيق.

وأما مقابلة ثلاثة بثلاثة فقيل: إن المنصور سأل أبا دلامه، عن أشعر بيت في المقابلة فأنشده:

ما أحسن الدينَ والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

فالشاعر قابل بين أحسن وأقبح، وبين الدين والكفر، والدنيا والإفلاس. قال ابن أبي الأصبع: إنه لم يقل قبله مثله.

ومن مقابلة أربعة بأربعة، قوله تعالى: ﴿فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى﴾[1] المقابلة بين قوله واستغنى وقوله واتقى، لأن معناه زهد فيما عنده واستغنى بشهوات الدنيا عن نعيم الآخرة، وذلك يتضمن عدم التقوى، ومن مقابلة أربعة بأربعة قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، في وصيته عند الموت: هذا ما أوصى به أبو بكر، عند آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها. فقابل أولا بآخر، والدنيا بالآخرة، وخارجاً بداخل، ومنها بفيها. فانظر إلى ضيق هذا المقام كيف صدر عنه مثل هذا الكلام.

قال علماء البديع: كلما كثر عددها كانت أبلغ. فمن مقابلة خمسة بخمسة قول أمير المؤمنين عليّ، كرّم الله وجهه، لعثمان بن عفان رضي الله عنهما: إن الحق ثقيل مري[2] والباطل خفيف وبيّ[3]، وأنت رجل إذا صدقت سخطت، وإن كذبت رضيت.

وأوردوا لأبي الطيب، في مقابلة خمسة بخمسة:

أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

قال صاحب الإيضاح ضدّ الليل المحض هو النهار لا الصُبح، والمقابلة الخامسة، بين بي ولي، فيها نظر، لأن الباء واللام صلتا الفعلين. ويرجح بيت أبي دلامة

(١) الليل، ٩٢/ ٥ - ١٠.

(٢) مري: يسهل بلعه.

(٣) وبي: من الوباء وهو المرض.

المتقدم[1]، على بيت أبي الطيب، بجودة المقابلة، ولكن القافية مستدعاة، فإن الذي ذكره مختص بالرجل وبغيره، والمعنى قد تم بدون الرجل، قال زكي الدين بن أبي الأصبع: لو كان، لما اضطر إلى القافية، أفاد بها معنى زائداً، بحيث يقول: بالبشر، لكان البيت نادراً. وعلى كل تقدير، بيت أبي دلامة أفضل من بيت المتنبي، لصحة المقابلة، لأنه قابل بالأضداد، والمتنبي بغير الأضداد، والمقابلة بالأضداد أفضل، وهو مذهب السكاكي، فإنه قال: المقابلة أن تجمع بين شيئين متوافقين فأكثر، ثم إذا شرطت هناك شيئاً شرطت هناك[2] ضده. انتهى. وبيت المتنبي أفضل، بالكثرة، عند غير السكاكي، وإن المقابلة عنده لا تصح إلا بالأضداد، وأسلم من بيت أبي الطيب، في التركيب، ما أورده الصاحب شرف الدين مستوفي أربل:

على رأس عبد تاج عز يزينه وفي رجل حر قيد ذل يشينه

وبيت صفي الدين الحلي:

كان الرضا بدنوّي من خواطرهم فصار سخطي لبعدي عن جوارهم

فقابل الرضا بالسخط، والدنو بالبعد، ولفظة من بعن، فإذا قلنا: إن من ضدّ عن، سلم له أربعة بأربعة، وخواطرهم بجوارهم، على مذهب من يرى أن المقابلة تجوز بالأضداد وبغيرها، وبيت العميان:

بواطىء فوق خد الصبح مشتهر وطائر تحت ذيل الليل مكتتم

بيت العميان أمكن من بيت صفي الدين في المقابلة، لأنهم قابلوا واطئاً بطائر، لأن الواطىء هو الماشي على الأرض والطائر السائر في الهواء، وفوق بتحت، وخد بذيل، لما بينهما من معنى العلو والسفل، والصبح بالليل، ومشتهر بمكتتم، وانظر لفظة مشتهر مع مكتتم، وهي القافية التي لا يمكن أمكن منها ولفظة، خواطرهم ومقابلتها بجوارهم، في بيت صفي الدين، وما بينهما من المباينة، غير أن ثقل قولهم: بواطىء، يشق حمله على لطيف الذوق وبيت الشيخ عز الدين:

ليل الشباب وحسن الوصل قابله صبح المشيب وقبح الهجر وا ندمي

(١) هو قوله: ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل.

(٢) هناك: هكذا وردت في الأصل والأصح هنا ويقصد: إذا شرط هناك أي في المتوافقين فأكثر، شرطت هنا أي في الأضداد، ضده.

قابل بين ليل وصبح، وشباب ومشيب، وحسن وقبح، والوصل والهجر، وهي مقابلة صحيحة بين الأضداد، وأتى بلفظة قابله اضطراراً لتسمية النوع، وأما قوله: واندمي، فقافية مستدعاة أجنبية من المقابلة، فإنه لم يؤهلها لمقابلة ضد ولا لغيره، بل تركها بمنزلة الأجانب وبيت بديعيتي:

قابلتهم بالرضا والسلم منشرحاً ولّوا غضاباً فيا حَرْبي لغيظهم

قد تقرر أن الشيخ عز الدين لم يأت بلفظة قابله، في بيته، إلا اضطراراً لتسمية النوع، فإنه لم يقابلها بشيء، فانظر كيف أتيت بلفظة قابلتهم، في أول البيت، وقابلتها، في الشطر الآخر، بلفظة ولوا، ومقابلة بقية الأضداد من الرضا والغضب والسلم والحرب ظاهرة. وتمكين القافية بغيظهم ومقابلتها بالانشراح أظهر، فإن القافية إذا كانت ممكّنة، وهي جارية في عداد[1] المقابلات، كانت من أعلى رتب هذا النوع، كما تقدم في بيت المتنبي وبيت أبي دلامة. وقافية العميان منتظمة في هذا العقد، بخلاف بيت صفي الدين وبيت عز الدين. انتهى.

(١) في الأصل في عدد وما أثبتناه أصح وأدق تعبيراً.

ذكر الالتفات

وما أروني التفاتاً عند نفرتهم   وأنت يا ظبي أدرى بالتفاتهم

فسر قدامة **الالتفات**: بأن قال: هو أن يكون المتكلم آخذاً في معنى، فيعترضه إما شك فيه، أو ظن أن راداً يَرُدّه عليه، أو سائلاً يسأله عن سببه، فيلتفت إليه بعد فراغه منه، فإما أن يجلي الشك، أو يؤكده، أو يذكر سببه، كقول الرماح بن ميادة:

فلا صرمه يبدو وفي اليأس راحة   ولا وصله يصفو لنا فنكارمه[1]

فكأن الشاعر توهم أن قائلاً يقول له: وما تصنع بصرمه؟ فقال: لأن في اليأس راحة.

وأما ابن المعتز فقال: **الالتفات** انصراف المتكلم عن الإخبار إلى المخاطبة ومثاله في الكتاب، قوله تعالى، بعد الإخبار بأن الحمد لله رب العالمين: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ [2] وكقوله تعالى: ﴿إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين﴾[3] وكقوله تعالى: ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم﴾[4] ومثال ذلك من الشعر قول جرير:

متى كان الخيام بذي طلوح   سقيت الغيث أيتها الخيام

---

(١) صرمه: هجره.

(٢) الفاتحة، ١/ ٥.

(٣) الأحزاب، ٣٣/ ٥٠.

(٤) الأنعام، ٦/ ٦.

وانصراف المتكلم عن الخطاب إلى الأخبار، وهو عكس الأول، كقوله تعالى ﴿حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة﴾[1] ومثاله أيضاً قول عنترة:

ولقد نزلت فلا تظني غيره ... مني بمنزلة المحب المكرم

ثم قال يخبر عن هذه المخاطبة:

كيف المزار وقد تربع أهلنا ... بعنيزتين وأهلها بالغيلم[2]

أو انصراف المتكلم عن الأخبار إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿والله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت﴾[3] أو انصراف المتكلم عن التكلم إلى الأخبار، وهو كقوله تعالى: ﴿إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز﴾[4] والقراءة في الكلمات الثلاث بالنون شاذة، نقلها صاحب «البحر الزاخر» وفي هذا الكتاب سبعة آلاف رواية. وقد جمع امرؤ القيس الالتفاتات الثلاث في ثلاثة أبيات متواليات وهي قوله:

تطاول ليلك بالأثمد ... ونام الخليُّ ولم ترقد
وبات وباتت له ليلة ... كليلة ذي العائر الأرمد[5]
وذلك من نبإ جاءني ... وخبرته عن أبي الأسود

فخاطب في البيت الأول، وانصرف عن الخطاب إلى الإخبار في البيت الثاني، وانصرف عن الإخبار إلى التكلم في البيت الثالث على الترتيب. وما أحلى قول مهيار بن مرزويه، في قصيدته التي سارت بمحاسنها الركبان، وامتدح بها الوزير زعيم الدين في يوم نوروز، سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، والمطلع [هو]:

بكّر العارض تحدوه النعامى ... فسقاك الري يا دار أماما[6]

---

(١) يونس، ١٠/ ٢٢.

(٢) بعنيزتين والغيلم: موضعين بعيدين عن بعضهما كثيراً.

(٣) فاطر، ٣٥/ ٩.

(٤) هذه الآية غير موجودة في القرآن الكريم، لأنها كما ذكر الكاتب من القراءات الشاذة. وهي مثبتة بالياء في: إبراهيم، ١٤/ ١٩ و ٢٠ وفي ؛ فاطر، ٣٥/ ١٦ و ١٧.

(٥) العائر الأرمد: الذي في عينيه عوار ورمد.

(٦) العارض: المطر ـ النُعامى: ريح الجنوب وهي في الجزيرة من أندى الرياح وأرطبها.

فانصرف عن الإخبار إلى المخاطبة في بيت واحد، ومثله في اللطف قول القاضي الأرجاني:

وهل هي إلا مهجة يطلبونها | فإن أرضت الأحباب فهي لهم فدى
إذا رمتمُ قتلي وأنتم أحبتي | فماذا الذي أخشى إذا كنتم عدى

ومثله قول أبي الطيب:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت | لها المنايا إلى أرواحنا سبلا
بما بجفنيك من سحر صلى دنفا | يهوى الحياة وأما إن صددت فلا[1]

ومثله قول أبي العلاء:

يودّ أن ظلام الليل دام له | وزيد فيه سواد القلب والبصر
لو اختصرتم من الإحسان زرتكم | والعذب يهجر للإفراط في الخصر[2]

ومن لطائف الالتفات، بالانصراف من الخطاب إلى الإخبار، قول ابن نبيه:

من سحر عينيك الأمان الأمان | قتلت رب السيف والطيلسان
أسمر كالرمح له مقلة | لو لم تكن كحلاء كانت سنان

فقوله عن المقلة، بعد تشبيه القوام بالرمح، أنها لو لم تكن كحلاء كانت سنان. بديع وغريب.

ومن أغرب ما وقع لي، في هذا النوع اللطيف، أنني صرحت باسم الالتفات عند وقوعه بقولي، من قصيدة [قلت فيها]:

والله إن لم ألقهم من بعد ذا | فعلى زماني لم أزل متعتبا
وقد التفت إليك يا دهري بطو | ل تعتبي ويحق لي أن أعتبا
قررت لي طول الشتات وظيفة | وجعلت دمعي في الخدود مرتبا

واتفق لي أيضاً نظير ذلك، في رسالة كتبت بها إلى العلامة بدر الدين ابن قاضي أذرعات رحمه الله، منها: سكن القلب. وغير بدع إذا كان القلب للبدر منزلاً، ورام هلال الأفق أن يباهي سموه بمطلعه، فقلنا: ما أنت من براعة هذا الاستهلال، ولا تطاول الرامح إلى الطعن في محله الذي يجل قدراً عن مناظر ومباهي، فقلنا له أقصر مكتفياً وإلا

---

(١) الدنف: المرض الشديد.

(٢) الخصر: البرودة المؤلمة.

فعند التناهي، ولقد شوقتني ظباء المعالي، في هذا المسرح، إلى الالتفات، فقلت ملتفتاً إلى تلك الليالي المقمرة بنوره، وقطوف الفواكه البدرية دانيات:

أيا بدراً سما أفق المعالي ... وأوقع طائراً من كل نسر

ذكرت لياليا بك قد تقضت ... فيا شوقي إلى ليلات بدر

وأما بيت القصيدة، أعني البديعية، فإنه البيت الذي حظيت من بابه بالفتح، وناداه الغير من وراء حجراته، وتغايرت ظباء الصريم وهو في سرب بديعه على حسن التفاته، وودت ربوع البديعيات أن يسكن منها في بيت، ولكن ﴿راودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت﴾(١) ولقد أنصف الحريري، في المقامة الحلوانية عند إيراد البيت الجامع لمشبهات الثغر بقوله: يا رواة القريض وأساة القول المريض، إن خلاصة الجوهر تظهر بالسبك، ويد الحق تصدع رداء الشك. وها أنا قد عرضت خبيئتي للاختبار، وعرضت حقيبتي على الاعتبار، وقلت وأنا ماش في عرض بيت بديعيتي على هذا السنن، وأرجو أن يكون بحسن التفاته في مرآة الذوق، مثل الغزال نظرة ولفتة، وسأبرزه بين أقرانه، وإذا انسدلت غدائر الأشكال ظهر الفرق من نور بيانه، فبيت الشيخ صفي الدين:

وعاذل رام بالتعنيف يرشدني ... عدمت رشدك هل أسمعت ذا صمم

ولم ينظم العميان في بديعيتهم، هذا النوع وأما بيت عز الدين:

وما التفتّ لساع حج في شغف ... ما أنت للركن من وجدي بملتزم(٢)

وبيت بديعيتي:

وما أروني التفاتاً عند نفرتهم ... وأنت يا ظبي أدرى بالتفاتهم

فهذا البيت فيه التورية بتسمية النوع، وقد برزت في أحسن قوالبها ومراعاة النظير، في الملائمة بين الالتفات والظبي، والنفرة والانسجام الذي أخذ بمجامع القلوب رقة، والتمكين الذي ما تمكنت قافية باستقرارها في بيت، كتمكين قافيته والسهولة التي عدّها التيفاشي، في باب الظرافة، وناهيك بظرافة هذا البيت، والتوشيح وهو الذي يكون معنى أول الكلام دالاً على آخره، ورد العجز على الصدر والالتفات، الذي هو المقصود دون غيره من الأنواع، فقد اشتمل هذا البيت على ثمانية أنواع من البديع، مع عدم التكلف، والله تعالى أعلم.

---

(١) يوسف، ١٢/ ٢٣.

(٢) الساعي: في الحج الذي يهرول بين الصفا والمروة ـ والركن: هو ركن مسجد النبي في الحجاز.

ذكر الافتنان

تغـزلي وافتنـاني في شمـائلهم أضحى رثا لاصطباري بعد بعدهم [1]

الافتنان هو أن يفتن الشاعر فيأتي بفنين متضادين من فنون الشعر، في بيت واحد فأكثر، مثل النسيب والحماسة، والمديح والهجاء، والهناء والعزاء، فأما ما افتن به الشاعر من النسيب والحماسة، كقول عنترة:

إن تغـدقي دوني القنـاع فـإنني طب بـأخـذ الفـارس المستلئم [2]

فأول البيت نسيب، وآخره حماسة، وكقول أبي دلف، ويروى لعبد الله بن ظاهر:

أحبـك يـا ظلوم وأنـت منـي مكـان الروح من جسـد الجبـان
ولـو أني أقـول مكـان روحي خشيت عليك بـادرة الـطعـان [3]

ومما جمع فيه بين التهنئة والتعزية، قوله تعالى: ﴿ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ [4] ومما جمع فيه بين التعزية والفخر، قوله تعالى: ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾[5] ومن إنشاء العلامة الشهاب محمود ما كتب به، من رسالة تهنئة وتعزية، لمن رزقه الله تعالى ولداً ذكراً في يوم، وماتت له بنت قوله:

---

(١) رثا: ترخيم رثاء.

(٢) تغدقي: تسدلي وترخي ـ طب: عالم ـ المستلئم: الذي لبس لأمة الحرب وهي عدتها.

(٣) الطعان: الضرب بالرماح في الحروب.

(٤) مريم، ١٩/ ٧٢.

(٥) الرحمن، ٥٥/ ٢٧.

ولا عتب على الدهر فيما اقترف إن كان قد ساء فيما مضى فقد أحسن الخلف. واعتذر بما وهب عما سلب، فعفا الله عما سلف. ومما جمع فيه من النظم بين التهنئة والتعزية، قول بعض الشعراء ليزيد بن معاوية لما دفن أباه وجلس للتعزية:

إصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة	واشكر حباء الذي بالملك أصفاكا(١)
لا رزء أصبح في الإسلام نعلمه	كما رزئت ولا عقبى كعقباكا(٢)

وقال زكي الدين بن أبي الأصبع: أحسن شعر افتن فيه صاحبه، بالجمع بين التعزية والتهنئة، قول أبي نواس للعباس بن الفضل بن الربيع، يعزيه بالرشيد ويهنيه بالأمين، حيث قال:

تعزَّ أبا العباس عن خير هالك	بأكرم حي كان أو هو كائن
حوادث أيام تدور صروفها	لهن مساوٍ مرة ومحاسن
وفي الحيّ بالميِّتِ الذي غيِّب الثرى	فلا أنت مغبون ولا الموت غابن(٣)

ولعمري، إن جمال الدين بن نباتة رحمه الله قال، في تعزية الملك المؤيد صاحب حماة وتهنئة ولده الأفضل بالسلطنة بعد أبيه، ما هو أحسن من قول أبي نواس الذي استحسنه ابن أبي الأصبع، وقول من تقدمه. وإن تأخر ابن نباتة فقد تقدم بنباته، فإنه استطرب في قصيدة مطوّلة بالجمع بين التهنئة والتعزية إلى آخرها وأتى بمعان منها سلامة الاختراع، والذي يؤدي إليه اجتهاد ذوقي، إن هذه القصيدة من العجائب في هذا النوع، وأوردت مطلعها في براعة الاستهلال، لكن تعين إيراده هنا لندخل منه إلى بيوت القصيدة المشتملة على هذا النوع، ليتأيد ما أشرت إليه من غرابة أسلوبها، وهو قوله رحمه الله تعالى:

هناء محا ذاك العزاء المقدما	فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام في ثغور مدامع	شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما
نردّ مجاري الدمع والبشر واضح	كوابل غيث في ضحى الشمس قد همى(٤)
سقى الغيث عنا تربة الملك الذي	عهدنا سجاياه أعزّ وأكرما

---

(١) حباء: تفضيل في العطاء.

(٢) رزء: مصيبة.

(٣) المغبون: الذي لا يعطى حقه.

(٤) همى: هطل.

ودامت يد النعمى على الملك الذي تدانت به الدنيا وعز به الحمى
مليكان هذا قد هوى لضريحه برغمي وهذا للأسرة قد سما
وروضة أصل شاذويّ تكافأت فغصن ذوى منها وآخر قد نما[1]
فقدنا لأعناق البرية مالكاً وسمنا لأنواع الجميل متمما[2]
كأن ديار الملك غاب إذا انقضى به ضيغم أنشا به الدهر ضيغما[3]
كأن عماد الدين غير مقوّض وقد قمت يا أزكى الأنام وأحزما
فإن يك من أيوب نجم قد انقضى فقد أطلعت أوصافك الغر أنجما
وإن تك أيام المؤيد قد مضت فقد جددت علياك وقتاً وموسما
هو الغيث ولى بالثناء مشيعاً وأبقاك بحراً بالمواهب منعما

وكانت وفاة الملك المؤيد في شهر المحرّم، فقال ولم يخرج عما نحن فيه:

بك انبسطت فينا التهاني وأنشأت ربيع الهنا حتى نسينا المحرّما

والجمع بين التهنئة والتعزية، في نوع الافتنان، أصعب مسلكاً من الجمع بين النسيب والحماسة، لشدة التناقض بينهما. ومن أظرف ما رأيت في هذا النوع: أن ابن حجاج جمع في الافتنان بين التعزية والمدح المؤدي إلى التهكم، بقوله في تعزية بعض الرؤساء بأبيه، في بيت واحد وهو:

أبوك قد جمل أهل الثرى فجمل الله به المقبره

وأما الغزل المخمس فكثير في نظم الفحول وغيرهم، وما أحلى قول مهيار الديلمي، في بيت واحد:

وأتعب من حاولت يا قلب وصله حبيب سنان السمهريّ رقيبه[4]

وممن أتحف الأذواق بحلاوة هذا النوع، وجمع فيه بين النسيب والحماسة القاضي الأرجاني رحمه الله تعالى، في قوله:

نزل الأحبة ساحة الأعداء فغدا لقاء منهم بلقاء

---

(١) شاذوي: نسبة إلى الشذا، وهو الطيب، ذوى: ذبل ويبس.
(٢) مالك ومتمم: أبنا نويرة وكانا من سادات العرب ومتمم شاعر.
(٣) الضيغم: الأسد الواسع الشدق.
(٤) السمهري: رجل تنسب إليه صناعة الرماح.

وما أحلى ما قال بعده:

كم طعنة نجلاء تعرض بالحمى ... من دون نظرة مقلة نجلاء[١]
فتحدثا سراً فحول قبابها ... سمر الرماح يملن للإصغاء
من كل باكية دماً من دونها ... يوم الطعان بمقلة زرقاء
يا دمية من دون رفع سجوفها ... خوض القنا بالخيل بحر دماء[٢]
لو ساعد الأحباب قلت تجلداً ... أهون عليّ بملتقى الأعداء

ومثله قول أبي الطيب، في بيت، وكل من النصفين كامل في معناه:

عدوية بدوية من دنها ... سلب النفوس ونار حرب توقد[٣]

وممن تفنن في هذا النوع وجمع بين رقة النسيب وفخامة الحماسة إبراهيم بن محمد الأنصاري الساحلي المنبوز بطويجن، جرى ذكره في التاج بما نصه: جوّاب الآفاق ومحالف الرفاق، رفع له ببلده راية للأدب لا تحجم، وأصبح نسيج وحده فيما سدى وألحم، فإن نسب صار للنسيب شرف ونسب، وإن مدح قدح من أنوار فطنته ما قدح، كم حرك الجامد، ونظم الجمان في سلوك المحامد، فمن قوله في الافتنان الذي جمع فيه بين الحماسة والتشبب:

خطرت كمياد القنا المتأطر ... ورنت بألحاظ الغزال الأعفر[٤]
وأتتك بين تطاعن وتداعب ... في فتك قسورة وعطفة جؤذر[٥]

وما أبدع قوله منها:

ويملعب الصدغين مطرود جنة ... زحفت عليه كتائب ابن المنذر[٦]

وله ولم يخرج عما نحن فيه:

زارت وفي كل مرمى لحظ محترس ... وحول كل كناس كف مفترس[٧]

---

(١) نجلاء: واسعة.
(٢) سجوف: مفردها سجف وهو الستر.
(٣) عدوية: نسبة إلى قبيلة عدية.
(٤) المياد: المتمايل.
(٥) قسورة: لبوة أنثى الأسد - جؤذر: البقرة الوحشية المطفل وهي مشهورة بنظرتها العطوفة وعينيها الواسعتين.
(٦) في الأصل: مطرد وجنة: وما أثبتناه أصح ومعناه: الشيطان.
(٧) الكناس: بيت الظبي.

وما أحلى ما قال بعده:

مهما تلا خدها الزاهي الضحى نطقت سيوف آماقها عن آية الحرس

ويعجبني قول أبي الفتوح بن قلاقس:

عقدوا الشعور معاقد التيجان وتقلدوا بصوارم الأجفان
ومشوا وقد هزوا رماح قدودهم هز الكماة عوالي المرّان (١)
وتدرّعوا زرداً فخلت أراقما خلعت ملابسها على الغزلان (٢)

وممن افتنّ في قصيدة كاملة وتفنن، وخلص من تفخيم الحماسة والفخر إلى رقة الغزل وأحسن، القاضي السعيد هبة الله بن سنا الملك رحمه الله، فإنه قسم القصيدة شطرين، وتلاعب في ميدان البلاغة بالفنين، وهذه القصيدة تقف دونها فرسان الحماسة، ويكبو الجواد من فحولها، وينثني من لطائف غزلها من لعبت بلطف شمائله خمر لطف شمولها، وهي:

سواي يخاف الدهر أو يرهب الردى وغيري يهوى أن يكون مخلدا
ولكنني لا أرهب الدهر إن سطا ولا أحذر الموت الزؤام إذا عدا (٣)
ولو مد نحوي حادث الدهر طرفه لحدثت نفسي أن أمد له يدا
توقد عزم يترك الماء جمرة وحلية حلم تترك السيف مبردا
وفرط احتقار للأنام فإنني أرى كل عار من حلا سؤددي سدى (٤)
وأظمأ أن أبدي إلى الماء منة ولو كان لي نهر المجرّة موردا
ولو كان إدراك الهدى بتذلل رأيت الهدى أن لا أميل إلى الهدى
وقدماً بغيري أصبح الدهر أشيباً وبي بل بفضلي أصبح الدهر أمردا (٥)
وإنك عبدي يا زمان وإنني على الكره مني أن أرى لك سيدا
وما أنا راض أنني واطىء الثرى ولي همة لا ترتضي الأفق مقعدا
ولو علمت زهر النجوم مكانتي لخرّت جميعاً نحو وجهي سجدا
وبذل نوالي زاد حتى لقد غدا من الغيظ منه ساكن البحر مزبدا

(١) المرّان: الرماح اللدنة في صلابة، واحدتها مرّانة.

(٢) الأراقم: مفردها أرقم وهي الحية التي فيها سواد وبياض وهي أخبث الحيات.

(٣) الزؤام: الكريه السريع.

(٤) سدى: لا معنى ولا قيمة له.

(٥) الأمرد: من لا لحية له.

ولي قلم في أنملي إن هــززتــه ... فما ضرّني أن لا أهز المهندا[1]
إذا جال فوق الطرس وقع صريره ... فـإن صليـل المشـرفي لـه صـدا

والمخلص من الحماسة والفخر إلى الغزل قوله:

ومن كل شيء قد صحوت سوى هوىً ... أقـام عـذولي بـالمـلام وأقعـدا
إذا وصل مَنْ أهواه لم يك مسعدي ... فليت عذولي كان بالصمت مسعدا
بحب حبيبي من يكــون مفنــداً ... فيا ليتني كنت العذول المفندا[2]
وقــال لقـد آنست نــاراً بخـده ... فقلت وإني ما وجدت بها هدى
وكم لي إلى دار الحبيب التفـاتة. ... تـذكـرني عهـداً قـديمـاً ومعهـدا
ولم أدم ذاك الخدّ باللحظ إنمـا ... عملتُ خلوقاً حين أبصرت مسجداً
يـراقب طـرفي أن يلوح هـلالهـا ... فقـد طالمـا قد قـام حين تعبدا
عبـرت عليهـا واعتبـرت تجلدي ... فيا حسرتي لمـا اعتبرت التجلدا
كـأن بـطرفي مـا بقلبي صبـابـة ... فلم يـر تلك الـدار إلا تقيـدا
وكم لجـوادي وقفة في عـراصها ... تعوّد منهـا جيـده مـا تعــوّدا[3]
تـعــوّد ذاك الجيـد مني أنني ... أصيــره من درّ عيـني مـقـلدا
ويــا رب ليـل بت فيــه وبيننــا ... عنـاق أعـاد العقـد عقـداً مبـدداً
ولـم أجعل الكف الشمال وسـادة ... فبـات على كفي اليمين مـوسـدا
وجــرّدتـه من ثـوبـه وأعــدتـه ... بثـوب عفـافي كـاسيـاً متجـرّدا
وقـرّبني حتى طربت إلى النـوى ... وأوردني حتى صديت إلى الصدا[4]
شهدت بأن الشهد والمسك ريقه ... وما كنت لو لم أختبره لأشهدا[5]
وأن الســلاف البـابليــة لحـظة ... وإلا سلوا إنســانـه كيف عـربـدا

وممن حذا هذا الحذو، ونسج على هذا المنوال، ومشى فيه على طريق ما سلكها أحد قبله، الصاحب بهاء الدين زهير، فإنه كتب إلى كمال الدين بن العديم أبياتاً معناها،

(١) أنملي: مفردها أنملة وهي طرف الأصبع ـ المهند: السيف.
(٢) مفنداً: كاذباً.
(٣) عِراصها: جمع مفرده عرصة. وعرصة الدار ساحته وفناؤه.
(٤) صديت: عطشت وتشوقت ـ الصدا والصدى: رجع الصوت.
(٥) الشهد: جنى النحل.

أنه انتخبه لقضاء حاجة له ولم يؤهل غيره لها، وتخلص منها إلى الغزل بما تستجلي منه عرائس البيان، ويظهر به الافتتان، وهي:

دعوتك لما أن بدت لي حاجة ... وقلت رئيس مثله قد تفضلا
لعلك للفضل الذي أنت ربُّه ... تغار فلا ترضى بأن تتبدلا [1]
إذا لم يكن إلا تحمل مِنَّةٍ ... فمنك وأما من سواك فلا ولا [2]
حملت زماناً عنكم كل كلفة ... وخففت حتى آن لي أن أثقلا
ومن مذهبي المشهور مذ كنت أنني ... لغير حبيب قط لن أتذللا
وقد عشت دهراً ما شكوت لحادث ... بلى كنت أشكو الأغيد المتدللا [3]
وما هِمت إلا للصبابة والهوى ... ولا خفت إلا سطوة الهجر والقلا [4]
أروح وأخلاقي تذوب حلاوة ... وأغدو وأعطافي تسيل تغزلا [5]

وقد طال الشرح، ولكن رأيت الافتنان نوعاً غريباً، فطلبت بالكثرة زيادة إيضاحه. ليستضيء المتأمل في ظلمات الأشكال بنور مصباحه.

وبيت الشيخ صفي الدين:

ما كنت قبل ظبا الألحاظ قط أرى ... سيفاً أراق دمي إلا على قدم

كان المطلوب من الشيخ صفي الدين، في هذا النوع، غير هذا النظم مع عدم تكلفه بتسمية النوع، وأما العميان فإنهم لم ينظموا هذا أيضاً في بديعيتهم، وبيت الشيخ عز الدين:

كان افتناني بثغر راق مبسمه ... صار افتناني بثغر فيه سفك دمي

وبيت بديعيتي:

تغزلي وافتناني في شمائلهم ... أضحى رثا لاصطباري بعد بعدهم

والجمع في افتنان هذا البيت، بين النسيب الخالص والتعزية، وكل من الشطرين مستقل بمعناه، هو جمع غريب، والكناية عن موت الصبر بأن التغزل أضحى رثاء له من الطف الكنايات، ويؤيد ذلك قولي: بعد بعدهم.

---

(١) ربه: صاحبه ـ تغار: من الغيرة.

(٢) مِنَّة: جميل.

(٣) الأغيد: الذي يتمايل في مشيته ويتلوى.

(٤) القلا: الكره والبغض مع الهجر.

(٥) الأعطاف: مفردها عطف وهو من كل شيء جانبه ـ تغزُّلا: استرخاءً وليونة.

ذكر ابن أبي الأصبع، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير» نوعاً يسمى التمريج لم ينظمه أصحاب البديعيات، وهو قريب من الافتنان ولكن بينهما فرق دقيق، لأن الافتنان لا يكون إلا بالجمع بين فنين من أغراض المتكلم، كما تقدّم، والتمريج يخالف ذلك وهو الجمع بين الفنون والمعاني، والله تعالى أعلم.

ذكر الاستدراك

قالوا نرى لك لحماً بعد فرقتنا　　فقلت مستدركاً لكن على وضم[1]

الاستدراك على قسمين: قسم يتقدّم الاستدراك فيه تقرير لما أخبر به المتكلم وتوكيد، وقسم لا يتقدمه ذلك، فمن أمثلة الأول قول القائل:

وإخوان تخذتهم دروعاً　　فكانوها ولكن
وخلتهم سهاما صائبات　　فكانوها ولكن في
وقالوا قد صفت منا قلوب　　لقد صدقوا ولكن من ودادي[2]

وقال ابن أبي الأصبع: لم أسمع، في هذا الباب، أحسن من قول ابن دويدة المغربي يخاطب رجلاً أودع بعض القضاة مالاً، فادعى القاضي ضياعه، وهو:

إن قال قد ضاعت فيصدق أنها　　ضاعت ولكن منك يعني لو تعي
أو قال قد وقعت فيصدق أنها　　وقعت ولكن منه أحسن موقع

وممن تلطف في هذا الباب وأجاد للغاية القاضي الأرجاني، بقوله:

غالطتني إذ كست جسمي ضنا　　كسوة أعرت من اللحم العظاما
ثم قالت أنت عندي في الهوى　　مثل عيني صدقت لكن سُقاما[3]

---

(١) لحماً: وصلاً، واللحم المعروف ـ الوضم: خشبة اللحام التي يقطع عليها اللحم. أي لحماً مقطعاً.

(٢) الوداد: الحب الصادق.

(٣) السقام: المرض والضعف.

ولقد أحسن القائل في شكوى الزمان، بقوله:

ولي فرس من نسل أعوج سابق ولكن على قدر الشعير يحمحم[1]
وأقسم ما قصرت فيما يزيدني علواً ولكن عند من أتقدم

وهذه كلها شواهد القسم الأول من الاستدراك.

وأما شواهد القسم الثاني، وهو الذي لا يتقدّم الاستدراك فيه تقرير ولا توكيد، مثل قول زهير:

أخو ثقة لا يهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله[2]

ومتى لم يكن في الاستدراك نكتة زائدة عن معنى الاستدراك، لتدخله في أنواع البديع، وإلا فلا يعد بديعاً، ولا يخفى على الذوق السليم ما في بيت زهير من الزيادة على معنى الاستدراك، بقوله: ولكنه قد يهلك المال نائله. فإنه لو اقتصر على صدر البيت دل على أن ماله موفور، وتلك صفة ذم[3]، فاستدرك ما يزيل هذا الاحتمال ويخلص الكلام للمدح المحض. وإذا تأمل الذائق بيت الأرجاني، متع ذوقه بحلاوة الأدب من قوله:

ثم قالت أنت عندي في الهوى مثل عيني صدقت لكن سقاما

فالنكتة الزائدة على معنى الاستدراك لا تخفى إلا على من حجب عن ذوق هذا العلم، وهو من شواهد القسم الأول فإنه قرر ما أخبرت به من قولها أنت عندي في الهوى مثل عيني، ثم أكد بقوله: صدقت، ثم نكت بالزيادة على معنى الاستدراك، التنكيت الذي يتطفل النسيم على رقته، ولولاه ما سكن هذا النوع بيتاً بديعياً، ولا تأهل بعد غربته. وأصحاب البديعيات على هذا المنوال نسجوا، وأداروا كؤوس السلافة على أهل الأذواق، ومازجوها بلطف مزاجهم فامتزجوا. والذي أقوله: إن الشيخ صفي الدين حلا في هذا المنهل الصافي مورده، وعلا في هذا السلك البديعي منظمه ومنضده، وبيته:

رجوت أن يرجعوا يوماً وقد رجعوا عند العتاب ولكن عن وفا ذممي

فإنه قرر ما أخبر به قبل الاستدراك، وأكده بقوله: وقد رجعوا، وفي قوله: عند العتاب، تكميل بديعي.

---

(١) الحمحمة: ما يصدر عن الخيل من أصوات وقت المعارك.

(٢) نائله: عطاؤه، وكرمه.

(٣) وتلك صفة ذم: يقصد أنه يحتمل أن تكون صفة ذم لما قد تعني من البخل.

وأما العميان فإنهم ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم، وبيت عز الدين:

فكم حميت بالاستدراك ذا أسف   لكن عن المشتهى والبرء من سقمي

وأما هذا البيت، فإنه عامر بقلق البناء مع عقادة التركيب.

وبيت بديعيتي:

قالوا نرى لك لحماً بعد فرقتنا   فقلت مستدركاً لكن على وضم

وفي إنصاف أهل العلم والذوق السليم ما يغني عن التطويل، في محاسن هذا البيت.

ذكر الطي والنشر

والطي والنشر والتغيير مع قصر　　للظهر والعظم والأحوال والهمم

الطي والنشر هو أن تذكر شيئين فصاعداً، إما تفصيلاً فتنص على كل واحد منهما، وإما إجمالاً فتأتي بلفظ واحد يشتمل على متعدد، وتفوض إلى العقل ردّ كل واحد إلى ما يليق به، لا أنك تحتاج أن تنص على ذلك ثم إن المذكور على التفصيل قسمان: قسم يرجع إلى المذكور، بعده على الترتيب من غير الأضداد، لتخرج المقابلة، فيكون الأول للأول، والثاني للثاني، وهذا هو الأكثر في اللف والنشر والأشهر، وقسم على العكس، وهو الذي لا يشترط فيه الترتيب، ثقة بأن السامع يرد كل شيء إلى موضعه، تقدم أو تأخر.

أما المذكور على الإجمال فهو قسم واحد، لا يتبين فيه ترتيب، ولا يمكن عكسه، ومثاله أن يقول: لي منه ثلاثة: بدر وغصن وظبي. فحصل من هذا أن اللف والنشر على ثلاثة أقسام، وإذا كان المفصل المرتب في اللف والنشر هو المقدّم، نبدأ بشواهده

فمنه بين شيئين قوله تعالى: ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾(١) فالسكون راجع إلى الليل، والابتغاء راجع إلى النهار.

ومنه قول الشاعر:

ألست أنت الذي من ورد نعمته　　وورد راحته أجني وأغترف

---

(١) القصص، ٢٨/ ٧٣

وقد جمع هذا البيت، مع حشمة الألفاظ، بين جناس التحريف والاستعارة واللف والنشر.

وما ألطف قول شمس الدين محمد بن دانيال الحكيم:

ما عاينت عيناي في عطلتي ... أقل من حظي ومن بختي
قد بعت عبدي وحماري وقد ... أصبحت لا فوقي ولا تحتي[1]

ومن غراميات البهاء زهير:

ولي فيك قلب بالغرام مقيد ... له خبر يرويه طرفي مطلقا
ومن فرط وجدي في لماه وثغره ... أعلل قلبي بالعذيب وبالنقا[2]

ومثله قوله:

يا ردفه يا خصره ... من لي بنجد أو تهامه[3]

ومثله قول ابن نباتة:

له قلب ولي دمع عليه ... فهذا قاسيون وذا يزيد[4]

ومثله قوله مع زيادة التورية:

لا تخف عيلة ولا تخش فقرا ... يا كثير المحاسن المختاله
لك عين وقامة في البرايا ... تلك غزالة وذي فتاله[5]

ومثله قوله مع زيادة التورية:

سألته عن قومه فانثنى ... يعجب من إسراف دمعيَ السخي
وأبصر المسك وبدر الدجى ... فقال ذا خالي وهذا أخي

ولابن حيوس بين ثلاثة وثلاثة:

ومقرطق يغني النديم بوجهه ... عن كاسه الملأى وعن إبريقه[6]
فعل المدام ولونها ومذاقها ... من مقلتيه ووجنتيه وريقه

---

(١) لا فوقي ولا تحتي: مثل يضرب في شدة الفقر.

(٢) العذيب. والنقا: مكانين في الصحراء، ويقصد أهل العذيب والنقا.

(٣) الردف: المؤخرة والعجز.

(٤) قاسيون: جبل بالغرب من دمشق.

(٥) غزالة: شمس ـ فتالة: ثمرة العرفط وهو شجر طيب الرائحة.

(٦) المقرطق: لابس القرطق وهو لباس إيراني.

ومثله قول ابن الرومي:

آراؤكم ووجوهكم وسيوفكم ... في الحادثات إذا دجون نجوم[1]
منها معالم للهدى ومصابح ... تجلو الدجى والأخريات رجوم[2]

ومثله قول حميدة الأندلسية وهو:

ولما أبى الواشون إلا فراقنا ... وما لهم عندي وعندك من ثار
غزوناهم من ناظريك وأدمعي ... وأنفاسنا بالسيف والسيل والنار

قال الشيخ شهاب الدين أبو جعفر الأندلسي، نزيل حلب، وقد أورد هذين البيتين في شرحه على بديعية صاحبه، أبي عبد الله محمد بن جابر الأندلسي: إن حميدة كانت من ذوي الألباب، وفحول أهل الآداب، حتى إن بعض المنتحلين تعلق بهذه الأهداب، وادعى نظم هذين البيتين، لما فيهما من المعاني والألفاظ العذاب، وما غره في ذلك إلا بعد ديارها، وخلو هذه البلاد من أخبارها، وقد تلبس بعضهم بشعارها وادعى هذا من أشعارها، وهو قولها:

وقانا لفحة الرمضاء روض ... وقاه مضاعف الظل العميم[3]
تظل غصونه تحنو علينا ... حنو الوالدات على الفطيم
وأسقانا على ظمإ زلالاً ... ألذ من المدامة للنديم
تروع حصاه حالية الغواني ... فتلمس جانب العقد النظيم

فهذه الأبيات نسبوها إلى المنازي من شعرائهم، وركبوا التعصب في جادة ادعائهم، وهي أبيات لم يحكها غير لسانها، ولا رقم بردها[4] غير حسانها، وقد رأيت بعض المؤرخين من أهل بلادنا أثبتوها لها، قبل أن يخرج المنازي من العدم إلى الوجود، ويتصف بلفظه الموجود. انتهى كلام الشيخ شهاب الدين المذكور.

ومنه، بين ثلاثة وثلاثة، قول الشيخ جمال الدين بن نباته، رحمه الله تعالى وعفا عنه آمين:

عرج على حرم المحبوب منتصباً ... لقبلة الحسن واعذرني على سهري

---

(١) دجى: اشتدت ظلمته.

(٢) رجوم: ما يرى من الشهب التي يقال إن الله يرجم بها الشياطين عند محاولتهم التنصت إلى ما يدور في العرش.

(٣) الرمضاء: شدة الحر.

(٤) رقم بردها: وشي وزخرف ثوبها.

وانظر إلى الخال فوق الخد تحت لمى تجد بلالاً يراعي الصبح في السحر[1]

ومنه بين أربعة وأربعة:

ثغر وخد ونهد واحمرار يد كالطلع والورد والرمان والبلح[2]

ومثله قول شمس الدين بن العفيف، رحمه الله تعالى:

رأى جسدي.والدمع والقلب والحشا فأضنى وأفنى واستمال وتيما

ومثله قولي من قصيدة:

من محياه والدلال ومسك الـ ـخال والثغر يا شيوخ البديع
انظروا في التكميل واللف والنشـ ـر وحسن الختام والترصيع

وللشيخ شهاب الدين، أبي جعفر الشارح، المذكور بين خمسة وخمسة، ولكن لم يخل من التعسف، وهو:

ملك يجيء بخمسة من خمسة كفى الحسود بها فمات لما به
من وجهه ووقاره وجواره وحسامه بيديه يوم ضرابه[3]
قمر على رضوى تسير به الصبا والبرق يلمع من خلال سحابه[4]

ولابن جابر ناظم البديعية، بين ستة وستة:

إن شئت ظبياً أو هلالاً أو دجى أو زهر غصن في الكثيب الأملد[5]
فللحظها ولوجهها ولشعرها ولخدها والقد والردف أقصد

صبرنا على الأملد صفة الكثيب، ولكن لم نصبر على دخول القصد، فإنها زيادة أجنبية. وقد جمع قاضي القضاة نجم الدين عبد الرحيم بن البارزي، بين سبعة وسبعة:

يقطع بالسكين بطيخة ضحى على طبق في مجلس لأصاحبه
كبدر ببرق قدّ شمساً أهلة لدى هالة في الأفق بين كواكبه

---

(١) السحر: أضفناها وقد كانت مطموسة غير معروفة ونظنها هي.

(٢) قوله: والبلح: في بعض النسخ والوهج، والبلح تناسب المعنى والروي أيضاً.

(٣) الحسام: السيف.

(٤) رضوى: جبل في الحجاز ـ الصبا: ريح الشمال.

(٥) الكثيب الأملد: التل الرملي الناعم الأملس.

قال شهاب الدين المذكور، في شرح بديعية صاحبه ابن جابر: إن اللف والنشر، في هذين البيتين، غير كامل التفصيل. لأنه نص في اللف على ستة، ونص في النشر على سبعة، وكل منهما راجع إلى منصوص عليه في اللف، إلا الأهلة فإنه راجع إلى الاشطار، وهي غير مذكورة في اللف. قلت: هذا يفهم من قوله: يقطع. قال الشيخ شهاب الدين: قوله: ضحى، في بيت اللف، مطرح لا نظير له في النشر. قلت: ضحى، ليس لها في الحسن نظير، فإنه جعل البطيخة شمساً، وهي أنور من قول صاحبه في بيته: أملد، وأقصد. فإنه لم ينص عليهما في اللف وهما أجنبيان مما نحن فيه.

ووصلوا في الجمع بين اللف والنشر المفصل المرتب، إلى اثني عشر. لكن تكلفوا وتعسفوا وأتوا به في بيتين، ولم تسفر لهم وجوه المعاني المسفرة عن بهجة. ولابن بلدتنا الشيخ علاء الدين بن مقاتل، مالك أزمة الزجل، وقد تقدم ذكره في ما أوردته له من أزجاله على الجناس المقلوب واللفظي، الجمع في اللف والنشر، بين ثمانية وثمانية، مع عدم الحشو والفرار من التعسف وصحة الانسجام.

خـدود وأصـداغ وقـدٌ ومـقـلة ... وثغر وأرياق ولحن ومعـرب[1]
فـورد وسـوسـان وبـان ونـرجس ... وكاس وجريال وجنك ومطرب[2]

ومما سمعت، في هذا النوع، وفيه الجمع بين عشرة وعشرة، قول بعضهم:

شعـر جنين محيـا معـطف كفـل ... صـدغ فم وجنـات نـاظر ثغـر
ليـل صباح هـلال بـانـة ونقـا ... آس أقـاح شـقـيـق نـرجس در

وجل القصد، هنا أن يكون اللف والنشر في بيت واحد خالياً من الحشو وعقادة التركيب، جامعاً بين سهولة اللفظ والمعاني المخترعة. انتهى الكلام على اللف والنشر المفصل المرتب.

وأما القسم الذي هو العكس، أعني غير المرتب، فكقول الشاعر:

كيف أسلو وأنت حـقف وغـصن ... وغـزال لـحـظاً وقـداً وردفـا

فعدم الترتيب ظاهر في البيت، وأما القسم المذكور على الإجمال، فهو قسم واحد

---

(١) اللحن: عدم مراعاة الإعراب في الكلام - والمعرب الفصيح الخالي من اللحن.
(٢) الجريال: شرحه صاحب المعجم الوسيط بالصبغ الأحمر. والذي نعتقده أنه شراب ذو لون أحمر بدل على ذلك ذكر الشاعر للكأس قرينة - الجُنْك؛ الطنبور، آلة من آلات الطرب.

لا يتبين فيه ترتيب ولا عكس، كما تقدم، ومثله قول ابن سكرة في بيت الكافات الشتائية:

جاء الشتاء وعندي من حوائجه سبع إذا القطر عن حاجاتنا حبسا
كن وكيس وكانون وكاس طلا مع الكباب وكس ناعم وكسا[1]

وظريف هنا قول من قال:

جاء الصفاع وعندي من حوائجه سبع إذا الصفع في ميدانه وقفا[2]
نِطع وطرق وزربوك وغاشية وركوة وجراب ناعم وقفا[3]

ففي قوله، بعد ما ذكره من آلاتِ الصفع: وقفاً. غاية في اللطف وقوة في تمكين القافية. انتهى الكلام على اللف والنشر المفصل المرتب وعلى غيره.

وأما أصحاب البديعيات فإنهم ما نظموا إلا المفصل المرتب، لأنه المقدم عند علماء البديع في هذا الباب، ولم يأتوا به إلا في بيت واحد، بحيث يكون مثالاً شاهداً على هذا النوع، وماشياً على سنن الأبيات المفردة المشتملة على أنواع البديع، وبيت صفي الدين غاية في هذا الباب، لما اشتمل عليه من السهولة والرقة وعدم الحشو، وهو قوله:

وجدي حنيني أنيني فكرتي ولهي منهم إليهم عليهم فيهم بهم

والعميان لم يأتوا بهذا النوع إلا في بيتين، مع عقادة التركيب.

ولقد حبست عنان القلم عن الكلام عليهما، لكونهما من جملة مديح النبي ﷺ، وهما:

حيث الذي ان بدا في قومه وحبى عفاته ورمى الأعداء بالنقم[4]
فالبدر في شبهه والغيث جاد لذي محل وليث الشرى قد جال في الغنم

---

(١) الكِنّ: الملجأ ـ الكيس: المال ـ الكانون: ما تشعل فيه النار ـ الكباب: اللحم المفروم «كفتة» ـ الكسُ: الكسيس: وهو لحم يجفف ثم يدق كالسويق ـ وكسا: كساء.

(٢) الصفاع: القتال.

(٣) النطع: بساط من الجلد كان يوضع عليه المحكوم بالإعدام ويقتل بالسيف ـ الطَرق: الترس ـ الزربوك: ما يلبس على الرأس في المعارك ـ الركوة: إناء صغير من جلد يشرب به الماء ويستعمله الفارس في المعركة، والصياد في تجواله ـ الجراب: قِراب السيف ـ القفا: الهرم، دليل الحنكة.

(٤) حبى: حباهُ أعطى ـ عفاته: أصحابه وقاصدوه.

وبيت عز الدين الموصلي:

نشرٌ ويسر وبشر من شذا وندى ... وأوجه فتعرف طي نشرهم

قوله: فتعرف طي نشرهم، ليس له نص في اللف لأنه نص فيه على ثلاثة، وعجز عن ترتيب اللف والنشر في نص اللف، وعلى كل تقدير، فلا بد له من تسمية النوع فسماه، ولكن أتى به فضلة، ولو التزم الشيخ صفي الدين أن يسمي هذا النوع البديعي في بيته، لتجافت عليه تلك الرقة.

فالطيّ والنشر والتغيير مع قصر ... للظهر والعظم والأحوال والهمم

فالطي والنشر، في نص اللف، قبالة الظهر والعظم، والتغيير مع القصر قبالة الأحوال والهمم، هذا مع زيادة العدة على الشيخ عز الدين، وعدم التكلف، ولولا الالتزام بتسمية النوع ومراعاة السهولة والانسجام، وصلت إلى أكثر من هذه العدة.

ذكر الطباق

ووحشةٍ بدّلوا أنسي وقد خفضوا قدري وزادوا علوّاً في طباقهم

المطابقة: يقال لها: التطبيق والطباق، والمطابقة، في اللغة، أن يضع البعير رجله في موضع يده، فإذا فعل ذلك قيل طابق البعير.

وقال الأصمعي: المطابقة أصلها وضع الرجل موضع اليد، في مشي ذوات الأربع.

وقال الخليل بن أحمد: يقال طابقت بين الشيئين، إذا جمعت بينهما على حد واحد. انتهى.

وليس بين تسمية اللغة وتسمية الاصطلاح مناسبة، لأن المطابقة في الاصطلاح: الجمع بين الضدين، في كلام أو بيت شعر، كالإيراد والإصدار، والليل والنهار، والبياض والسواد. وليس في الألوان ما تحصل به المطابقة غيرهما، أعني البياض والسواد، فقد قال الرماني وغيره: البياض والسواد ضدان بخلاف بقية الألوان، لأن كلاً منهما إذا قوي زاد بعداً من صاحبه. انتهى.

وإذا ألحقوا بقية الألوان بالمطابقة فالتدبيج أحق منها بذلك، فإنهم أوردوا، في المطابقة من التدبيج، قول ابن حيوس على جهة الكناية:

فافخر بعم عَمَّ جود يمينه وأب لأفعال الدنية آبي[1]

ببياض عرض واحمرار صوارم وسواد نقع واخضرار رحاب[2]

---

(١) آبي: رافض.

(٢) النقع: ما يثار من الغبار وقت احتدام المعارك.

وقد تقرر أن المطابقة: الجمع بين الضدين عند غالب الناس، سواء كانت من سمين أو من فعلين أو غير ذلك.

قال الأخفش، وقد سئل عنها: أجد قوماً يختلفون فيها فطائفة، وهم الأكثر [يرون]: انها الشيء وضده، وطائفة يزعمون أنها اشتراك المعنيين في لفظ واحد، منهم قدامة بن جعفر الكاتب، وأوردوا في ذلك قول زياد الأعجم:

ونبئتهم يستنصرون بكاهل   وللؤم فيهم كاهل وسنام

فكاهل الأول اسم رجل، والثاني العضو المعروف، فاللفظ واحد والمعنيان مختلفان، وهذا هو الجناس التام بعينه، وقال الأخفش: من قال إن المطابقة اشتراك المعنيين في لفظ واحد، فقد خالف الخليل والأصمعي، فقيل: أوكانا يعرفان ذلك! فقال: سبحان الله! من أعلم منهما بطيبه وخبيثه؟ وما أحسن ما أتى الأخفش في الجواب بالمطابقة.

ومنهم من أدخل المقابلة فيها، وليس بمليح، إذ لم يبق للفرق بينهما محل. فإن السكاكي قال: المقابلة أن تجمع بين شيئين فأكثر وتقابل بالأضداد، ثم إذا شرطت هنا شيئاً شرطت هناك ضده، والمطابقة هي الإتيان بلفظتين، والواحدة ضد الأخرى، وكأن المتكلم طابق الضد بالضد.

ولقد شفى زكي الدين بن أبي الأصبع القلوب، في ما قرره، فإنه قال: المطابقة ضربان: ضرب يأتي بألفاظ الحقيقة، وضرب يأتي بألفاظ المجاز، فما كان بلفظ الحقيقة سمي طباقاً، وما كان بلفظ المجاز سمي تكافؤاً. فمثال التكافؤ، وهو من إنشادات قدامة:

حلو الشمائل وهو مر باسل   يحمي الذمار صبيحة الإرهاق [1]

فقوله: حلو ومر، يجري مجرى الاستعارة، إذ ليس في الإنسان، ولا في شمائله، ما يذاق بحاسة الذوق. ومن أمثلة التكافؤ قول ابن رشيق، وهو حسن:

وقد أطفؤا شمس النهار وأوقدوا   نجوم العوالي في سماء عجاج [2]

---

(١) باسل: عابس.

(٢) العجاج: الغبار الكثيف الناتج عن المعارك ـ العوالي: الرماح.

ومثله: إن هــذا الـربيــع شيء عجيب ... تضحك الأرض من بكاء السمـاء
ذهــب حيــنمــا ذهــبنــا ودر ... حيث درنــا وفضـة في الفضــاء

وما أحلى قول القائل، في هذا الباب:

إذا نحن سرنا بين شرق ومغرب ... تحـرك يقـظان التــراب ونـائمــه

فالمطابقة بين اليقظان، والنائم ونسبتهما إلى التراب على سبيل المجاز، وهذا هو التكافؤ عند ابن أبي الأصبع.

وأما المطابقة الحقيقية التي لم تأت بغير ألفاظ الحقيقة، فأعظم الشواهد عليها قوله تعالى: ﴿وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمات وأحيى﴾[1] وكقول النبي ﷺ، للأنصار رضي الله تعالى عنهم: إنكم لتكثرون عند الفـزع، وتقلون عند الطمع؛ فانظر إلى هذه البلاغة النبوية، والمناسبة التامة ضمن المطابقة.

ومن الشواهد الشعرية، قول الحماسي:

تأخرت أستبقي الحيـاة فلم أجد ... لنفسي حيــاة مثـل أن أتقــدمــا
ولآخر: لئن ســاءني أن نلتني بـإســاءة ... لقـد سرني أني خـطرت ببالـك

ولآخر في وصف فرس، وأجاد:

وأرى الـوحش في يميني إذا مـا ... كــان يـومـاً عنـانــه بشمـالي[2]

والمعجز الذي لا تصل إليه قدرة مخلوق، قوله تعالى: ﴿ومـا يستوي الأعمى والبصير * ولا الظلمات ولا النور * ولا الظل ولا الحرور * وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾[3] فانظر إلى عظم هذه المطابقة وما فيها من الوجازة.

ومن ذلك في الحديث، قول النبي ﷺ: فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة للكبر، ومن الحياة للممات، فوالذي نفسي بيده ما بعد الحياة مستعتب، ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة والنـار. انتهى ما قـررته في المـطابقة، لغة واصطلاحاً، وما أوردته من الفرق بينهما وبين التكافؤ على رأي ابن أبي الأصبع.

---

(١) النجم، ٥٣/ ٤٣.
(٢) العنان: المقود والرسن.
(٣) فاطر، ٣٥/ ١٩ ـ ٢٢.

ولهم مطابقة السلب بعد الإيجاب، وهي المطابقة التي لم يصرح فيها بإظهار الضدين، كقوله تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[1] فالمطابقة حاصلة بين إيجاب العلم ونفيه، لأنهما ضدان ومثله قول البحتري:

يقيض لي، من حيث لا أعلم، النوى ويسري إليّ الشوق من حيث أعلم

فالمطابقة باطنة ومعناها ظاهر، فإن قوله لا أعلم، كقوله جاهل، والسابق إلى هذا امرؤ القيس بقوله:

جزعت ولم أجزع من البين مجزعاً وعزيت قلباً بالكواعب مولعا[2]

فالمطابقة حاصلة بين إيجاب الجزع ونفيه، ومن المستحسن في ذلك قول بعضهم:

خلقوا وما خلقوا لمكرمة فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا وما رزقوا سماح يد فكأنهم رزقوا وما رزقوا

ومثله قول بشر بن هرون، وقد ظهر منه الفرح عند الموت، فقيل له: أتفرح بالموت؟ فقال: ليس قدومي على خالق أرجوه، كمقامي عند مخلوق لا أرجوه. فالمطابقة حاصلة بين إيجاب الرجاء ونفيه. انتهى الكلام على مطابقة السلب بعد الإيجاب.

ولهم إيهام المطابقة، كما لهم إيهام التورية، والشاهد على إيهام المطابقة قول الشاعر:

يبدي وشاحاً أبيضاً من سيبه والجو قد لبس الوشاح الأغبرا[3]

فإن الأغبر ليس بضد الأبيض، وإنما يوهم بلفظه أنه ضده ومثله قول دعبل:

لا تعجبي يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

فالضحك هنا من جهة المعنى ليس بضد البكاء، لأنه كناية عن كثرة الشيب، ولكنه من جهة اللفظ يوهم المطابقة.

ولهم الملحق بالطباق، وهو راجع إلى الضدين كقوله تعالى: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[4] طابق الأشداء بالرحماء، لأن الرحمة فيها معنى اللين، ومثله قوله

---

(١) الزمر، ٣٩/ ٠٩.

(٢) الكواعب: مفردها كاعب: الفتاة إذا نهد ثدياها.

(٣) سيبه: انصبابه وغزارته وسرعته وعطاءه.

(٤) الفتح، ٤٨/ ٢٩.

تعالى: ﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً﴾[1] فالمطابقة بين الغرق ودخول النار، فإن من دخل النار احترق والاحتراق ضد الغرق، ومنه قول الحماسي:

لهم جلّ مالي إن تتابع لي غنى وإن قل مالي لا أكلفهم رفدا[2]

ففي قوله تتابع لي غنى معنى الكثرة، وأما قول أبي الطيب:

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها سـرور محب أو إسـاءة مجـرم

فمتفق عليه أنه من الطباق الفاسد، فإن المجرم ليس بضد للمحب بوجه ما، وليس للمحب ضد غير المبغض انتهى.

وذكروا في آخر الباب: طباق الترديد، وهو أن تردّ آخر الكلام المطابق على أوله، فإن لم يكن الكلام مطابقاً فهو من ردّ الاعجاز على الصدور، ومنه قول الأعشى:

لا يرقع الناس ما أوهوا وإن جهدوا طول الحياة ولا يوهون ما رقعوا[3]

وجل القصد في هذا الباب المطابقة في الحقيقة، التي قررها ابن أبي الأصبع، وتقدم ذلك في أول الباب مع الشواهد عليه، ومثله قول بشار:

إذا أيقظتك حروب العدا فنبـه لهـا عمـراً ثـم نم

ومن لطيف هذا الطباق ما أورده القاضي جلال الدين القزويني، في إيضاحه على تلخيصه، وهو قول القاضي الأرجاني:

ولقـد نـزلت من الملوك بمـاجـد فقـر الـرجـال إليـه مفتـاح الغنى

والذي أقوله إن المطابقة التي يأتي بها الناظم مجردة ليس تحتها كبير أمر، ونهاية ذلك أن يطابق الضد بالضد، وهو شيء سهل، اللّهمّ إلا أن تترشح بنوع من أنواع البديع يُشاركه في البهجة والرونق، كقوله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾[4] ففي العطف، بقوله تعالى: ﴿وترزق من تشاء بغير حساب﴾ دلالة على أن من قدر على تلك

---

(١) نوح، ٧١/ ٢٥.

(٢) الرفد: العون والمساعدة.

(٣) يوهون: يضعفون ويبلون. يرقع الأولى: بمعنى يجمع، ورقعوا: بمعنى اسرعوا.

(٤) آل عمران، ٣/ ٢٧.

الأفعال العظيمة قدر على أن يرزق بغير حساب من شاء من عباده، وهذه مبالغة التكميل المشحونة بقدرة الرب سبحانه وتعالى، فانظر إلى عظم كلام الخالق هنا، فقد اجتمع فيه المطابقة الحقيقية والعكس الذي لا يدرك، لـوجـازته وبلاغته ومبالغة التكميل التي لا تليق بغير قدرته، وبمثل ذلك قول امرىء القيس:

مكـرّ مفرّ مقبـل مـدبـر معـاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

فالمطابقة في الإقبال والإدبار، ولكنه لما قال: معاً، زادها تكميلاً في غاية الكمال، فإن المراد بها قرب الحركة في حالتي الإقبال والإدبار وحالتي الكرّ والفرّ، فلو تـرك المطابقة مجردة من هذا التكميل ما حصل لها هذه البهجة ولا هذا الموقع، ثم إنه استطرد، بعد تمام المطابقة وكمال التكميل، إلى التشبيه على سبيل الاستطراد البديعي، ولم يكن قد ضرب لأنواع البديع في بيوت العرب وتد، ولا امتد له سبب. وقد اشتمل بيت امرىء القيس على المطابقة والتكميل والاستطراد على طريقة[1]، فإن ابن المعتز قال: هو أن يكون المتكلم في معنى فيخرج منه، بطريق التشبيه، إلى معنى آخر، وممن كسا المطابقة ديباجة التورية أبو الطيب المتنبي، حيث قال:

بـرغم شـبيب فـارق السيف كفـه وكـانـا على العـلات يصـطحبـان
كـأن رقاب النـاس قـالت لسيفـه رفـيقـك قـيـسـي وأنت يـمـاني

لعمري لقد رفع أبو الطيب قدر المطابقة، وأزال حقارتها، بمجاورة هذا النوع البديعي الذي عظم عند أهل الأدب قدراً، ومثله قول الصاحب بن عباد في رثاء الوزير كثير بن أحمد:

يقولون قد أودى كثير بن أحمـد وذلـك رزء في الأنام جليـل[2]
فقلت دعـوني والعـلا نبكـه معاً فمثـل كثيـر في الأنـام قليـل

وأبو تمام كساها ديباجة المجانسة بقوله:

بيض الصفائح لا سود الصحائف في متـونهن جـلاء الشـك والـريب

وما أحلى قول الأرجاني من قصيدة:

تعلق بين الهجر والوصل مهجتي فلا أربي في الحب أقضي ولا نحبي[3]

---

(١) على طـريقة التشبيـه.

(٢) أودى: ذهب إلى غير رجعة - رزء: مصيبة - الأنام: الناس - جليل: عظيم.

(٣) أربي: حاجتي - نحبي: قضى نحبه، مات.

فشدّ أزر المطابقة ببديع اللف والنشر، وأهلها بغريب هذا المعنى، بعدما سال رقة، وعلق بخاطري من هذه القصيدة:

فلا تتعجب أنني عشت بعدهم ... فإنهم روحي وقد سكنوا قلبي

ومنها:

وحرف تجوب القاع والوهد والربا ... كحرف مديم الجر والرفع والنصب(١)
نجائب يقدحن الحصى كل ليلة ... كأنّ بأيديها مصابيح للركب(٢)

ومن المطابقة باللف والنشر أيضاً، قول شيخ شيوخ حماة المحروسة:

إن قوماً يلحون في حب ليلى. ... لا يكادون يفقهون حديثا
سمعوا وصفها ولاموا عليها ... أخذوا طيباً وردّوا خبيثا

ومثله قوله، يخاطب العاذل:

أراك بخيلاً بعوني فهبني ... سكوتك عني إذا لم تعني
ذممت الهوى ورجوت السلو ... فأبكيت عيني وأضحكت سني

ومثله قوله:

يا وجوهاً زانت سناها فروع ... حالكات أغنتكم عن حلاكم
لي من حسنكم نهار وليل ... أنعم الله صبحكم ومساكم

ومثله قوله من قصيدة:

توغل حرقتي أجرى دموعي ... فقل ما شئت في دخل وخرج

ومنه قول أبي حفص المطوعي، في الباب:

أو ما ترى نور الخلاف كأنه ... لما بدا للعين نور وفاق

فالمطابقة هنا بزيادة التورية مع الاستعارة البديعة، ويعجبني قوله بعد هذا البيت:

كأكف سنور ولكن نشره ... يسعى بفأر المسك في الآفاق(٣)

وأما سحر البلاغة هنا فقول القاضي الفاضل:

دام صاحي وداده عمر الدهـــــــر جنيناً لسكري النشوان

---

(١) الحرف: الناقة الهزيلة - القاع: الوادي - الوهد - السفوح - الربا: التلال.
(٢) نجائب: جمع مفرده نجيبة، وهي من النوق الكريمة.
(٣) فأر المسك: أو فأرة المسك وعاؤه.

أنظر أيها المتأمل ما أبدع ما أبرز المطابقة في حلل هاتين الاستعارتين الغريبتين، وما ألطف ما أيد معنى المطابقة بقوله بعدها:

وبنات الصدور أوقع فيما　　　زعم المجد من بنات الدنان[1]

فالفاضل أبرز هذه المطابقة في حلل الاستعارة، ولكن من أين للمستعير صحو الوداد، ونشوة السكر، سبحان المانح! ما هذه إلا مواهب ربانية.

وأما الذين تقدم القول بالاقتداء برأيهم في هذا الفن، فإنهم ما أبرزوها إلا في أشعار التورية، فمن ذلك قول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، في موصول:

وناطقة بالنفخ عن روح ربها　　　تعبر عما عندنا وتترجم
سكتنا وقالت للقلوب فأطربت　　　فنحن سكوت والهوى يتكلم

فإنه جمع بين التورية والتضمين والمطابقة.

وما أحلى قول الشيخ شرف الدين بن الفارض، في المطابقة بالتورية، في قوله:

أرج النسيم سرى من الزوراء　　　سحراً فأحيا ميت الأحياء

ومثله قول الوداعي في قصيدة وهو في غاية الحسن:

يفتن بالفاتر من طرفه　　　وريقه البارد يا حار[2]

وما ألطف قول الشيخ شمس الدين الواسطي في دو بيت:

إن ضر مني بجذوة التذكار　　　حبي وبرى عظمي شكرت الباري[3]
فالعاذل في هواي لا عقل له　　　ما أبلد عاذلي وأذكى ناري

ومثله قول سراج الدين الوراق:

وبي من البدو كحلاء الجفون بدت　　　في قومها كمهاة بين آساد[4]
فلو بدت لحسان الحضر فمن لها　　　على الرؤوس وقلن الفضل للبادي

---

(١) بنات الصدور: الأفكار.

(٢) يا حار: ترخيم يا حارث.

(٣) جذوة التذكار: التهابه: والجذوة: الجمرة الملتهبة.

(٤) المهاة: الغزالة.

ومثله قول أبي الحسين الجزار:

أمولاي ما من طباعي الخروج ... ولكن تعلمته من خمولي
أتيت لبابك أرجو الغنى ... فأخرجني الضرب عند الدخول

ومثله قول الوداعي، في مطلع قصيد:

ما كنت أول مغرم محروم ... من باخل بادي النفار كريم[1]

ومثله قول مجير الدين بن تميم:

لما لبست لبعده ثوب الضنا . ... وغدوت من ثوب اصطباري عاريا
أجريت واقف مدمعي من بعده ... وجعلته وقفاً عليه جاريا

وكتبت، من هذا النوع، إلى القاضي كمال الدين بن النجار وكيل بيت المال بدمشق المحروسة:

كمال الدين يا مولاي يا من ... يغير البحر من بذل النوال
أيجمل أن يقول الناس إني ... أتيت لحاجة لم تقضها لي
وأصبح بينهم مثلاً لأني ... أتاني النقص من جهة الكمال

ومثله قول الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله تعالى:

إني إذا آنست هماً طارقاً ... عجلت باللذات قطع طريقه
ودعوت ألفاظ الحبيب وكأسه ... فنعمت بين حديثه وعتيقه

ومثله قوله:

قصدت معاليك أرجو الندى ... وأشكو من العسر داء دفينا
فما كان بيني وبين اليسار ... سوى أن مددت إليك اليمينا[2]

ومثله قوله:

حزني من مهفهف القدر أم ... أسهم اللحظ ما أسدّ وأرشق
كلما قلت يفتح الله بالوصل ... رماني من سحر عينيه يغلق

---

(١) النفار: الحران والغضب.

(٢) اليسار: الغنى.

ومثله قوله:

إن أساء الحبيب قامت بعذر ... وجنة منه فوقها شامات
يا لها وجنة أقابل منها ... حسنات تمحى بها سيئات

ومثله قوله:

قام غلام الأمير يحسب في ... يوم طهور البنين طاووسا[1]
فأنزل الحاضرون من شبق ... وعاد ذاك الطهور تنجيسا[2]

وما ألطف قوله من هذا النوع:

يا غائبين تعللنا لغيبتكم ... بطيب لهو ولا والله لم يطب
ذكرت والكاس في كفي لياليكم ... فالكاس في راحة والقلب في تعب[3]

ومثله قوله في براعة قصيد: يوم صحوٍ فاجعله لي يوم سكر.

وما أحلى ما قال بعده في الشطر الثاني: فأدِرْ كاسي رضاب وخمر.

منها، ولم يخرج عما نحن فيه:

جفن عينيه فاتر مستحيي ... إنما خدّه المشعشع جمري

ومثله قوله من قصيدة:

فريد وهو فتان التثني ... فيا لله من فرد تثنى

وله في روضة من قصيدة:

مطابقة الأوصاف أما نسيمها ... فصح وأما ماؤها فتكسرا

أنظر ما أحسن تصريحه بالنوع هنا، في قوله مطابقة الأوصاف.

ومثله قول الشيخ برهان الدين إبراهيم القيراطي من قصيدة:

بأبي غني ملاحة أشكو له ... فقري فيصبح بالغنى يتطرب

ومنها في هذا النوع:

غدا ينادمني وكأس حديثه ... أشهى إلي من العتيق وأطيب

---

(١) الطهور: الختان.

(٢) أنزل: قذف المني ـ الشبق: هيجان الشهوة وإلحاحها.

(٣) الراحة: باطن الكف والإستراحة.

ومثله قوله:

في جفنه سيف مضاربه ... يا صاح أسبق لي من العذل
وبخدّه والردف لي خبر ... قد سار بين السهل والجبل

ومثله قول الشيخ زين الدين بن الوردي:

تجادلنا أماء الزهر أزكى ... أم الخلاف أم ورد القطاف
وعقبى ذلك الجدل اصطلحنا ... وقد حصل الوفاق على الخلاف

ومثله قول الشيخ بدر الدين بن الصاحب، وهو في غاية الظرف:

كم جار صرف الدهر في حكمه. ... وضرّ بي من حيث بي يعتني
ألبسني من شيبتي حلة ... قلت له والله عريتني

ومنه قول الشيخ صلاح الدين الصفدي، وقد أهدى إلى الشيخ جمال الدين بن نباتة تخفيفة:

أيا فاضلاً تدنو الأفاضل نحوه ... وتشكر في جميع المناقب تصريفه[1]
إذا كنت بالاحسان ثقلت كاهلي ... فلا عجب إن كنت تقبل تخفيفه[2]

ومنه قول الشيخ صفي الدين الحلي من قصيدة:

والريح تجري رخاء فوق بحرتها ... وماؤها مطلق في زي مأسور
قد جمعت جمع تصحيح جوانبها ... والماء يجمع فيها جمع تكثير

ومنه قول المعمار:

أصاب قلبي خطائي ... بلحظه لشفائي
فرحت من فرط وجدي ... أشكو إلى الحكماء
قالوا أصبت بعين ... فقلت من عظم دائي
إن كان هذا صواباً ... فتلك عين الخطاء

وحسن هنا قول البدر يوسف بن لؤلؤ الذهبي:

وحديقة مطلولة باكرتها ... والشمس ترشف ريق أزهار الربا[3]
يتكسر الماء الزلال على الحصى ... فإذا عدا بين الرياض تشعبا

---

(١) تصريفه: تدبيره للأمور.

(٢) التخفيفة: قطعة من القماش رقيقة النسيج تلبس على الرأس ونظنها: «الحطة».

(٣) مطلولة: أصابها الطل وهو الندى.

ومنه قول الشيخ شمس الدين بن الصائغ الحنفي:

بروحي أفدي خاله فوق خده ومن أنا في الدنيا فأفديه بالمال
تبارك من أخلى من الشعر خده وأسكن كل الحسن في ذلك الخال

ومثله قول الشيخ عز الدين الموصلي:

سموا مني مهجتي سعيداً ولي شقاء به يزيد
إذا اجتمعنا يقول ضدي هذا شقي وذا سعيد

وظريف قول جمال الدين عبد الله السوسي:

ورب أقطع يشدو ساروا وما ودعوني[١]
ما أنصفوا أهل ودي واصلتهم قاطعوني

وألطف منه قول الشيخ جلال الدين ابن خطيب داريا:

يا معشر الأصحاب قد عنّ لي رأي يزيل الحمق فاستظرفوه[٢]
لا تحضروا إلا بأخفافكم ومن تثاقل منكم خففوه

ومثله قوله:

تصفحت ديوان الصفي فلم أجد لديه من السحر الحلال مُرامي[٣]
فقلت لقلبي دونك ابن نباتة ولا تتبع الحلي فهو حرامي[٤]

وظريف هنا قول الشيخ بدر الدين البشتكي، وإن لم يكن فيه تورية، فقد صرح باسم النوع من جنس الغزل:

وقالوا يا قبيح الوجه تهوى مليحاً دونه السمر الرشاق[٥]
فقلت وهل أنا إلا أديب فكيف يفوتني هذا الطباق

---

(١) الأقطع: مقطوع اليد.
(٢) عنّ: ظهر وبان.
(٣) مُرامي: قصدي وضالتي.
(٤) حرامي: لص وسارق.
(٥) الرشاق: من الرشاقة، الممشوق القد.

ومن المطابقة بالتورية، قول القاضي بدر الدين بن الدماميني رحمه الله:

بدر إذا شمت فوق الخد عارضه يوماً أرى الصبح بالظلماء مختلطا
وظن أن صواباً هجر عاشقه لما رأى منه شيباً بادياً وخطا[1]

ومن العجيب في هذا النوع، قول شيخنا العلامة شهاب الدين بن حجر، فسح الله في أجله:

خليلي ولى العمر منا ولم نتب وننوي فعال الصالحين ولكنا
فحتى متى نبني بيوتاً مشيدة وأعمارنا منا تهد وما تبنا

وما أحلى قوله فيه:

أتى من أحبائي رسول فقال لي ترفق وهُنْ واخضعْ تفز برضانا[2]
فكم عاشق قاسى الهوان بحبنا فصار عزيزاً حين ذاق هوانا

ومثله قوله:

نأى رقيبي وحبيبي دنا وحسنه للطرف قد أدهشا[3]
آنسني المحبوب يوم اللقا لكن رقيبي فيه ما أوحشا

وما أظرف قوله فيه:

أشكو إلى الله ما بي وما حوته ضلوعي
هد طابق السقم جسمي بنزلة وطلوع

أنظر كيف جمع بين قصر الوزن، وعدم الحشو، وصحة التركيب، والمطابقة بالتورية، وتسمية النوع من جنس الغزل، ومثله قوله:

قال حبي أكتم الهوى خوف لاح وواشيه
كيف أسطيع كتمه وسقامي علانيه

وأنشدني من لفظه لنفسه، ابن مكانس وقد أوقفته في الشرح على هذا النوع، فقال:

يا سادتي والعشق لم يبق لي من بعدكم روحاً ولا حسا
صبحني الهم لهجرانكم والضر لما بنتم مسا

---

(١) وخطا: من وخطه الشيب إذا خالط سواد شعره.
(٢) هُن: أمر من هان: ذلّ.
(٣) نأى: بعُد.

وله: لثغرك طعم ونشر يلذ ونسقى به يا أخا البدر عشقا
فدعنا نمت ونعش في الهوى غراماً وننعم ذوقاً ونشقا[1]

ومثله قوله:

ربِّ خُذْ بالعدل قوماً أهل ظلم متوالي
كلفوني بيع خيلي برخيص وبغال

ونقلت من ديوان والده المقر الفخري:

زارت معطرة الشذا ملفوفة كي تختفي فأبى شذا العطر
يا معشر الأدباء هذا وقتكم فتناظموا في اللف والنشر

ونقلت أيضاً من ديوانه:

لم أنس معشوقة زارت بجنح دجى فبت في مسك أنفاس وطيب سمر
حتى الصباح وعيناها تظن بأن هاروت حل عشاء فيهما وسحر[2]

ونقلت منه ما امتدح به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه:

يا ابن عم النبي إن أناساً قد توالوك بالسعادة فازوا!
أنت للعلم في الحقيقة باب يا إماماً وما سواك مجاز[3]

وقوله:

علقتها معشوقة خالها إن عمها بالحسن قد خصصا
يا وصلها الغالي ويا هجرها لله ما أغلى وما أرخصا

وقلت في هذا المعنى من قصيدة:

وكيف أكتم حباً في هواه ولي من أحمر الدمع فوق الخد تشهير[4]
ونار خديه قلبي أرخصت وغلت لما غدت ولها في القلب تسعير
وقال أغمدت سيف اللحظ عنك فكيف الحال قلت له والله مشهور

---

(١) نشقا: شماً.

(٢) هاروت: أحد الملكين اللذين كانا يعلمان السحر ببابل، كما ورد في قوله تعالى: ﴿يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هروت ومروت﴾ البقرة٢٢/ ١٠٢.

(٣) في هذا البيت إشارة إلى قول النبي: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها».

(٤) تشهير: فضيحة.

وقلت من قصيدة وصرحت باسم النوع:

طابقت رقة حالي بالجفا عبثاً ... فما طباقك إلا رقة وجفا

وقلت من قصيدة:

شرّفونا بمدمع العين عجباً ... ليتهم عند موتنا قبّلونا[1]

وقلت بعده:

حبكم فرضنا وسيف جفاكم ... قد غدا في بعادنا مسنونا

حتى تخلصت إلى مدح أمين الدين، من غزل هذه القصيدة، ولم أخرج عما نحن فيه من المطابقة.

ومن غريب ما وقع لي في هذا النوع قولي من قصيدة:

بدر منير قسا برؤيته ... لكن يرى عند خده شفقه[2]

وقلت من قصيدة:

لي في حماكم أهيف من عامر ... وخراب بيت تصبر بالعامري

سلطان حسن ظاهر لما بدا ... جال الهوى في باطني بالظاهر (ي)

وضفرت شعرك إذ ظفرت بمهجتي ... يفديك محلول العرا من ظافر[3]

وحميت برد الثغر إذ طابقته ... في ضمن تورية بجفن فاتر

أنظر ما أحلى قولي: في ضمن تورية، والمراد المطابقة بالتورية.

وقلت مطابقاً، والتورية ثلاثية:

بمر هجرك عجباً قد قضيت لنا ... وشاهد الحسن بالإحسان حلاك

وكتبت إلى بعض المخاديم بحماة المحروسة حرسها الله تعالى، أطلب منثوراً أبيض فماطلني مدة والمنثور الأبيض عزيز بحماة:

زهر الوعود ذوى من طول مطلكم ... لأنه من نداكم غير ممطور[4]

والعبد قد جهّز المنظوم ممتدحاً ... فطابقوه إذا وافى بمنثور

---

(١) شرق: غصّ.

(٢) شفقة: واحدة الشفق وهو ما يرى من الحمره فوق الأفق عند مغيب الشمس.

(٣) العرا: مفردها عروه، وهي فتحة الزر.

(٤) المطل: إخلاف الوعد والتسويف.

وقلت:

هويت غصناً لأطيار القلوب على ... قوامه في رياض الوجد تغريد
قالت لواحظه أنا نسود على ... بيض الظبا قلت أنتم سود (وا)

وقد طال الشرح، ولكن هذا الطول تنشرح له الصدور، وتعلو به همة الطالب، ولم يرض بعدها بالرخيص من هذا الفن، ويتأيد[1] قولي: إن الذين اقتديت برأيهم ومشيت على سننهم لم يرضوا بالمطابقة المجردة، ولم ينظموها إلا في سلك التورية، وقد أوردت لهم هنا من ذلك ما شنف الأسماع ورقص عند السماع، والكمال لله فإن الشيخ صفي الدين لم يأت بالمطابقة إلا مجردة وبيته:

قد طال ليلي وأجفاني به قصرت ... عن الرقاد فلم أصبح ولم أنم

وبيت العميان مثله، لكنه عامر بالركة والعقادة وهو:

واسهر إذا نام سارٍ وامضِ حيث وني ... واسمح إذا شح نفساً وأسِرْ إن يقم

وبيت عز الدين:

ابكي فيضحك عن در مطابقة ... حتى تشابه منثور بمنتظم

لعمري إن بيت صفي الدين وبيت العميان، يتنزلان عند هذا البيت العامر بالمحاسن منزلة الأطلال البالية، فإن الشيخ عز الدين جمع فيه بين تسمية النوع من جنس الغزل، وبين غرابة المعنى، وحسن الانسجام ورقة النسيب وبديع اللف والنشر، ولم يأتِ كل منهما إلا بمجرد المطابقة. وأما قول العميان في آخر بيتهم: وأسِرْ إن يقم، فهذا اللفظ من بقية ما سقط من حجارة البيت. وبيت بديعتي [هو]:

بوحشة بدّلوا أنسي وقد خفضوا ... قدري وزادوا علواً في طباقهم

فالمطابقة والتورية وتسمية النوع البديعي اجتمعت، هنا في قافية هذا البيت الذي علا بطباقه، وتفيأ أهل البديع بظل رواقه.

---

(١) يتأيد: يتقوى ويتأكد.

ذكر النزاهة

نزهت لفظي عن فحش وقلت هم عرب وفي حيهم يا غربة الذمم[١]

النزاهة ما نظمها أحد في بديعيته إلا صفي الدين الحلي، وقد تقدّم القول أنه ذكر عن بديعيته، أنها نتيجة سبعين كتاباً في هذا الفن. وهو نوع غريب تجول سوابق الذوق السليم في حلبة ميدانه، وتغرد سواجع الحشمة على بديع أفنانه، لأنه هجو في الأصل، ولكنه عبارة عن «الإتيان بألفاظ فيها معنى الهجو الذي إذا سمعته العذراء في خدرها لا تنفر منه» وهذه عبارة عمرو بن العلاء لما سئل عن أحسن الهجو.

وقد وقع من النزاهة في الكتاب العزيز عجائب، منها قوله تعالى: **﴿وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون﴾**[٢] فإن ألفاظ الذم المخبر عنها، في كلام الآية، أتت منزهة عما يقع في غير هذا القسم من الفحش في الهجاء والمرض. هنا عبارة عن إبطان الكفر.

ومن النزاهة البديعية في النظم، قول أبي تمام:

بني فعيلة ما بالي وبالكم وفي البلاد مناديح ومضطرب[٣]
لحاجة لي فيكم ليس يشبهها إلا لجاجكم في أنكم عرب[٤]

---

(١) نزّه: رفع وربأ به.

(٢) النور، ٢٤/ ٤٨ - ٥٠.

(٣) مناديح: متسع.

(٤) اللجاجة: الإلحاح

ومن غريب هذا النوع، قول معبد بن الحسين بن جبارة لرجل كان يدعو قوماً إلى سماع قينة له، ثم انكشف له بعد هذا أنهم كانوا ينالون منها القبيح:

ألم أقل لك إن القوم بغيتهم | في ربة العود لا في رنة العود
لا تأسفن على الشاة التي عقرت | فأنت غادرتها في مسرح السيد[١]

فانظر إلى مصاحبة هذه المعاني ونزاهة ألفاظها عن الفحش.

ومن ذلك قول جرير:

فغض الطرف إنك من نمير | فلا كعباً بلغت ولا كلابا[٢]

وقالوا أحسن ما وقع في هذا الباب قوله أيضاً:

لو أن تغلب جمّعت أنسابها | يوم التفاخر لم تزن مثقالاً[٣]

فانظر إلى هذا الهجو المنكي[٤]، كيف بالغ في تنزيه ألفاظه عن الفحش، وفيه معنى الهزل الذي يراد به الجد، وهو غاية في هذا النوع.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي:

حسبي بذكرك لي ذماً ومنقصة | فيما نطقت فلا تنقص ولا تذم

وقال إنها بالذال المعجمة، فإن جل قصده الذم هنا، والذي أقوله: إن هذا البيت شموس إيضاحه آفلة في غيوم العقادة، وليته استضاء بما قاله جرير ومشى على سنته.

والعميان لم ينظموا هذا النوع، وبيت الشيخ عز الدين نظمه في بديعيته لأجل معارضة الصفي، وقال في بيته يخاطب العاذل:

لقد تفيهقت بالتشديق في عذلي | كيف النزاهة عن ذا الأشدق الخصم[٥]

قد تقرر أن النزاهة هجو، ولكن شرطوا أن لا ينظم هجوها إلا بألفاظ لا تنفر منها العذراء في خدرها. والذي أقوله، وأنا أستغفر الله: إن ألفاظ عز الدين في بيته ينفر منها

---

(١) عقرت: ذبحت ـ السيد: الذئاب.
(٢) نمير وكعب وكلاب: من قبائل العرب.
(٣) المثقال: وزن يساوي عرفاً درهماً ونصف درهم.
(٤) المنكي: القاهر.
(٥) تفيهق: في الكلام: توسع وتنطع به ـ التشديق: مد الكلام.

الجان فكيف حال العذراء! وحاصل القضية، أنه نزه ألفاظه عن النزاهة، ولم يتفيهق ولم يتشدق غيره، وما أحقه بقول القائل:

وما مثله إلا كفارغ حمص خلي من المعنى ولكن يفرقع

وبيت بديعيتي:

نزهت لفظي عن فحش وقلت هم عرب وفي حيهم يا غربة الذمم

وحشمة النزاهة لا تخفى على أهل الذوق السليم والعلم، مع ما فيها من عدم التكليف في الميل عن التعسف. والذي أقوله: إن بيتي في هذا الباب جر أذيال البلاغة مع جرير وشاركه في العذوبة والتباري، ولكن له نبأ في التسمية صدر عن خبير.

ذكر التخيير

تخيروا لي سماع العذل وانتزعوا ... قلبي وزادوا نحولي مت من سقمي

التخيير هو أن يأتي الشاعر ببيت يسوغ فيه أن يقفي بقواف شتى، فيتخير منها قافية يرجحها على سائرها. يستدل بتخييرها على حسن اختياره، كقول الشاعر:

إن الغريب الطويل الذيل ممتهن ... فكيف حال غريب ما له قوت[1]

فإنه يسوغ أن يقال: ما له مال، ما له سبب، ما له أحد، ما له قوت، فإذا تأملت ما له قوت، وجدتها أبلغ من الجميع، وأدل على القافية، وأمس بذكر الحاجة، وأبين للضرورة، وأشجى للقلوب، وأدعى للاستعطاف، فلذلك رجحت على ما ذكرناه.

ومن هذا النوع في الكتاب العزيز، قوله تعالى: **﴿إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين * وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون * واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾**[2] فالبلاغة تقتضي أن تكون فاصلة الآية الأولى، للمؤمنين، لأنه سبحانه وتعالى ذكر العالم بجملته، حيث قال: **﴿السموات والأرض﴾** ومعرفة ما في العالم من الآيات الدالة على أن المخترع قادر عليم حكيم، ولا بد من التصديق أولاً بالصانع، حتى يصح أن يكون ما في المصنوع من الآيات دليلاً على أنه موصوف بتلك الصفات، والتصديق هو الإيمان، وكذلك قوله تعالى في الآية الثانية **﴿لقوم يوقنون﴾** فإن خلق الإنسان، وتدبير

---

(١) طويل الذيل: كناية عن الغني.

(٢) الجاثية، ٤٥/٣ ـ ٥.

خلق الحيوان، والتفكر في ذلك، مما يزيده يقيناً في معتقده الأول، وكذلك معرفة جزئيات العالم، من اختلاف الليل والنهار، وإنزال الرزق من السماء، وإحياء الأرض بعد موتها، وتصريف الرياح، يقتضي رجاحة العقل، ليعلم أن من صنع هذه الجزئيات هو الذي صنع العالم الكلي، بعد قيام البرهان على أن للعالم الكلي صانعاً مختاراً، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون فاصلة الآية الثالثة ﴿لقوم يعقلون﴾ وإن احتيج للعقل في الجميع، إلا أن ذكره هنا أمتن بالمعنى من الأول، ويروى أن أعرابياً سمع شخصاً يقرأ ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله﴾[1] غفور رحيم فقال: ما ينبغي أن يكون الكلام هكذا. فقيل: إن القارىء غلط، والقراءة: ﴿والله عزيز حكيم﴾[2] فقال: نعم، هكذا تكون فاصلة هذا الكلام: فإنه لما عز حكم. وإذا تأملت فواصل القرآن وجدتها كلها لم تخرج عن المناسبة، كقوله تعالى: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر﴾[3] لا يجوز التبديل بينهما. إذ لا يجوز النهي عن انتهار اليتيم، لمكان تهذيبه وتأديبه، وإنما ينهى عن قهره وغلبته، كما لا يجوز أن ينهر السائل، إذا حرم، بل يرده رداً جميلاً.

ويعجبني قول ديك الجن:

قولي لطيفك ينثني عن مضجعي عند المنام

عند الرقاد، عند الهجوع، عند الهجود، عند الوسن.

فعسى أنام فتنطفي نار تأجج في العظام

في الفؤاد، في الضلوع، في الكبود، في البدن.

جسد تقلبه الأكف على فراش من سقام

من قتادٍ، من دموعٍ، من وقودٍ، من حزن.

أما أنا فكما علمت فهل لوصلك من دوام

من معادٍ، من رجوعٍ، من وجودٍ، من ثمن.

. فهذه القوافي المثبتة، يقابل كل بيت بما يليق به منها، والأولى أولى وأرجح.

---

(١) المائدة، ٥/ ٣٨.

(٢) المائدة، ٥/ ٣٨.

(٣) الضحى، ٩٣/ ١٠.

وبيت صفي الدين الحلي رحمه الله تعالى:

عدمت صحة جسمي إذ وثقت بهم فما حصلت على شيء سوى الندم

فلذكر عدمت، في صدر البيت، يليق أن تكون القافية العدم، ولذكر الصحة يليق أن تكون القافية السقم، ، ولذكر الوثوق يليق أن تكون القافية الندم، والبيت في غاية الرقة والانسجام.

وبيت عز الدين:

تخيير قلبي هوى السادات صح به عهـدي وإني لحزني ثـابت الألم

أما تخيير هذا البيت فإني تركته لأهل الذوق السليم، بل تخير البيت بكماله.

ولم ينظم العميان في بديعيتهم هذا النوع.

وبيتي [هو]:

تخيروا لي سماع العذل وانتزعوا قلبي وزادوا نحولي مت من سقمي

فسماع العذل يليق به السأم، وانتزاع القلب يليق به الألم، وزيادة النحول يليق بها السقم، وتقديم السقم هنا لقربه من النحول، ولم يدخل إلى هذا البيت، من الأجانب، قافية.

ذكر الابهام

وزاد إبهام عذلي عاذلي ودجا   ليلي فهل من بهيم يشتفي ألمي[1]

الإبهام، بباء موحدة وهو أن يقول المتكلم كلاماً مبهماً يحتمل معنيين متضادين، لا يتميز أحدهما عن الآخر، ولا يأتي في كلامه بما يحصل به التمييز فيما بعد، بل يقصد إبهام الأمر فيهما.

والإبهام مختص بالفنون، كالمديح والهجاء وغيرهما، ولكن لا يفهم من ألفاظه مدح ولا هجاء، بل يكون لفظه صالحاً للأمرين، ومثاله ما يحكى أن بعض الشعراء هنأ الحسن بن سهل باتصال ابنته بالمأمون، مع من هنأه، فأثاب الناس كلهم وحرمه، فكتب إليه: إن أنت تماديت على حرماني، عملت فيك بيتاً لا تعلم مدحتك فيه أو هجوتك. فاستحضره وسأله عن قوله، فاعترف وقال: لا أعطيك أو تفعل. فقال:

بارك الله للحسن   ولبوران في الختن[2]
يا إمام الهدى ظفر   ت ولكن ببنت من

فلم يعلم ما أراد بقوله: ببنت من، في الرفعة أو في الصغر؟ واستحسن منه الحسن ذلك وناشده: أسمعت هذا المعنى أم ابتكرته؟ فقال: لا والله بل نقلته من شعر شاعر مطبوع، كثير العبث بهذا النوع اتفق أنه فصل قباء[3] عند خياط أعور اسمه زيد، فقال له

(١) البهيم: الشديد الظلمة.
(٢) الختن: من يكون من قبل المرأة، أثناء زواجها، مثل الأب والأخ ـ وزوج الإبنة.
(٣) القباء: ثوب يلبس فوق الثياب: العباءة.

الخياط على طريق العبث به: سآتيك به لا تدري أقباء هو أم دواج[1]. فقال له الشاعر: إن فعلت ذلك لأعملن فيك بيتاً، لا يعلم أحد ممن سمعه، أدعوت لك أم دعوت عليك ففعل الخياط، فقال الشاعر:

خاط لي زيد قباءً ليت عينيه سواء

فما علم أحد، أن الصحيحة تساوي السقيمة أو بالعكس، فاستحسن الحسن صدقه أضعاف استحسانه حذقه. وغالب الناس يسمون الخياط عمراً ويقولون:

خاط لي عمرو قباء ليت عينيه سواء

ولكن نقل زكي الدين بن أبي الأصبع، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير» أن الخياط كان اسمه زيداً، وأورد البيت مصرّعاً مرفوع العروض والضرب، ووجه الرفع ظاهر فيهما.

ولم يتفق للمتأخرين ولا للسلف من قبل، في هذا الابهام، غير البيت المتعلق بالخياط زيد، والبيت المتعلق بالحسن بن سهل، وقد تقدم ذكرهما، وقد عززتهما بثالث لما وقفت على تاريخ زين الدين بن قرناص الحلبي ووجدته قريباً من قباء زيد الخياط، فقلت:

تاريخ زين الدين فيه عجائب وبدائع وغرائب وفنون
فإذا أتاه مناظر في جمعه خبره عني إنه مجنون

وكذلك الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته، وتبعه الشيخ عز الدين الموصلي، لأجل المناظرة، ويأتي الكلام على بيتيهما.

وقد كشفت عنه قناع الأشكال، وأبرزت بدوره المتحجبة في أفق الكمال، فإني كتبت فيه تقريضاً لم أرض بقراضة الذهب أن تكون له رملاً، ولا سبقني إليه أديب، ولا ولد منه على هذا الطريق شكلاً، وما ذاك إلا أنه ورد إلى الديار المصرية، وأنا منشىء دواوين الإنشاء المؤيدي خلد الله ملكه، الشيخ شمس الدين محمد بن ناهض الفقاعي، في شهر شوال سنة ثمانية عشر وثمانمائة، وقد صنف سيرة مشتملة على نظم ونثر للسلطان الملك المؤيد، ولم يكن للمشار إليه إلمام بتعاطي الأدب في مبادي عمره، فسألني أن أكتب له عليها تقريظاً، قبل تقديمها، فامتنعت من ذلك مدة، فدخل علي بمن

---

(١) الدُّوّاج: المعطف الغليظ.

لا تمكن مخالفته، فحسنت له كتابة شيخنا القاضي بدر الدين بن الدماميني أولاً، فتوجه إليه فالتزم بالأيمان المغلظة، أنه لا يكتب له إلا إذا كتبت له، فلزمتني الكتابة من وجوه، فكتبت له هذا التقريظ الذي صلّت البلغاء خلفه، فإنه للمحاسن جامع، وأوضحت طريقه، فضاع[1] نشره[2] الذي كان من غير تورية ضائع، وهو:

وقفت على قواعد الأدب من هذه السيرة الناهضية، فوجدت مطرب لحنها قد أعرب عن التنكيت لأهل النكتب الأدبية، ونويت معها سلوك الأدب لاحتشامها بالصفات المؤيدية، فإنها ما قوبلت بأدب إلا تقوت بسلطانها، ولا جارتها سيرة مطولة إلا كانت قاصرة عن الجري في ميدانها، ولا ذكرت التواريخ المقدمة معها إلا تأخرت وكبت خلفها، ولا ناظرها ذو قصص إلا ثقل عليه أمرها ونظر إلى قصصه فاستخفها، ولا بالغ أهل التقاريض في تقاريضهم إلا وكانت دونها، واستحق لها هذا الوصف في ذمة أهل الأدب فاستوفت منه ديونها، فلو نظر الصفدي إلى هذا التاريخ، وراجع النظر لسلخ جلده، أو تصفحه الكتبي لعدد على تاريخه وما عده، أو كاثره ابن كثير لرأى نقصه متزايداً عنده، أو عاصره ابن خلكان لقال لم أمازج شراب الفقاعي، بخلي فإن عنده حمضة وبرده، أو لمحه الذهبي وموه بتاريخه لقيل له هذا ما ينطلي معه، وعلم أن خلاصة الذهب تظهر بالسبك، فهضم من جانبه ووضعه، ولو أدركه البديع لرمى بديعه وعلم أنه بدعة، أو لحقه الوهراني لرآه في المنان إن حصل له بعد مطالعته هجعة، نسب هذا التأليف إلى الدولة المؤيدية فصار له على كل أهل الأرض صوله، فلو ناظره مؤلف بمجلد لقلنا: هذا جراب الدولة تحمس في شعره، وتغالى فألقى لنا في سوق الكلام رخصه، ولو زايده أبو تمام لتحقق عجزه وارانا بنفسه نقصه، نعم هذه الأشعار التي ما زاحمها شاعر بديوانه إلا تلت عليه بعد الزلزلة الواقعه، وتقوم القيامة وهي إلى الحشر مرمية على القارعة، ولقد أقام أوزانها بالقسط، ولكن رجحها على القيراطي بفضله، ونقص عنها الراجح الحلي، لأن فيها زيادة على مثله، فيا له من شعر قصر عن بحره الطويل كل معارض، وكيف لا وناظمه ذو همة علية وناهض وابن ناهض، وقد وقف ابن حجة وقوف معترف أن عنده في نظمه وقفه، وسيكتب المقر البدري على اعترافه أنه قاضي الأدب وإمامه الذي صلّت البلغاء خلفه، وفتحت لعلماء الأدب هذا الباب، وأرجو أن يكون فتحاً مبيناً، فإن رضوني براعة بحسن الختام، وإذا حصل العلل من هذا النهر روينا، نعم وقفت وغير خاف عن علومهم الكريمة أن شرط الواقف ما يهمل، وامتثلت

---

(١) ضاع: فاح وانتشر.

(٢) نشره: رائحته الطيبه، عطره.

مراسيم المصنف مع سلوك الأدب الذي يذوقه من له فيه أعذب منهل، والله يجمعنا على هذا الشرب لتحلو موارده بالموارده، ولا يحجبنا عن الكلام الذي يحسن السكوت عليه وتتم به الفائدة.

وكتب، بعد ذلك، سيدنا القاضي بدر الدين المشار إليه: وقفت أنا ولا أكاد أثبت نظري لشدة الخجل، وسألت المهلة في وصف هذه الألفاظ، فإذا هي قد جاءت على عجل، فقلت: أما المقام الشريف الممدوح عز نصره، ولا زالت تفخر بدولته القاهرة مصره، فملك مد على الرعية جناح العدل، وحمى بيضة الإسلام، وتواردت على تجريح عداته وتعديل صفاته السنة السيوف والأقلام، وسار على أقوم طريق، فأذكرنا السيرة العمريه، وطلع في سماء الكواكب كالبدر، فقل ما شئت في الطلعة القمريه، ودعا إلى نسك طاعته فلبته في ذلك الموقف النفوس، ونادى على أعدائه منادي الحتف فأرانا كيف يكون الترخيم بحذف الرؤس، ناهيك بها مناقب سرّت القلوب، وسارت ونافست النجوم جواهر الألفاظ في مدحها فغارت، وشملت البرايا بالمن والمنح، وقابلت المسيء بالعفو والصفح، حماها الله تعالى من الغير، وجعل صفاتها الشريفة جمال الكتب والسير.

وأما منشيء السيرة، فماذا أقول وقد رأيت الخطب جليلاً، وماذا أصف وقد حملني العجز عبئاً ثقيلاً، هو كبير أناس، مزمل[1] من البلاغة بأنواع وأجناس، يأتم به الهداة كأنه علم، وتروم الأدباء المقايسة به فيقاسون ولكن من شدة الألم، له في الأدب صريمه وشهامه، وفراهة تجريه إلى المقامات الرائقة فلا تعتريه سآمه[2]، ما هم بتركيب معنى إلا وشرح الصدور بذلك الهم[3]، ولا شن فارس فكره غارة إلا وتم منها على بيوت الشعراء ما تم. طالما أظهر برغم أنوف الحسدة في المجالس فضله، وصعبت الآداب على غيره لكنها أصبحت عليه سهله، وعقل غرائب نكته عما سواه فللّه ما أبدع عقله، كدّر عيش الحلي بما ابتدعه من العجائب، ولا ينكر لمثله تكدير الصفي، واكتفى في ميدان البراعة بجواد فكره الذي جال وهو مكر مفر، وهكذا يكون المكتفي أتى في تاريخه بألفاظ لو رآها ابن الأثير لتأثر، وابن سعيد لتعثر، وابن بسام لأصيب منها بالقارعة فعبس وتولى، أو الحجازي لرمي منها بالداهية التي هدمت ما بناه، وثقلت عليه حملاً، وكتب خطاً لو لمحه ابن مقلة لأصيب منه بنظره، أو ابن البواب لهتك ستره، وجاء بأدب لو وازن أحد به الراجح الحلي، لما أقام له وزناً ولا رجحه، ولو تأمل المليحي ملاحة لفظه الذي ما مرَّ

---

(١) مزمل: ملتف.

(٢) سآمه: ملل.

(٣) الهم: البدأ: من هم بالشيء إذا بدأ به.

مثله بالذوق إلا قال لسان التعجب ما أملحه، ولو قيس به ابن الرومي المتعاظم لأنشد الناظم:

ولــو أني بليت بهــاشــمي ... خؤولتـه بنـو عبـد المـدان
لهـان عليَّ مـا ألقى ولكن ... تعالوا وانظروا بمن ابتلاني

ولو تشبه به مادح كافور[1] لعاد من برده بكبد حرا، ولو كلف مجاراته صاحب القطر النباتي لقال ربنا أفرغ علينا صبراً، ولو تعرض ديك الجن لعزائمه في الأدب لما زادته إلا خبالاً[2]، ولرأى سطوراً تتوالد منها المعاني العجيبة والليالي كما علمت حبالى، ولو أصبح ابن قادوس فخاراً بمثل أدبه لقلنا له حسبه أن يدور في الدولاب، ولو تسرح الزغاري إلى تصيد معانيه الشاردة لقطعت عليه أذناب الكلاب، ولو تسلق المعمار عليها لعلم أنه ينحت من الجبال بيوتاً، ولو رآه أبو نواس لقال هذا الذي نقل الأدب خبراً وعلم من أين يؤتى، ولو عورض به ابن مماتي لطال على قريحته الميتة النحيب، أو ذكر الصابي لقال الذوق السليم ليس لعصرنا من صاب سوى هذا الأديب، ولو أدرك آدابه الحكيم ابن دانيال لعلم أنه ما تخيل نظيرها في الوهم، ولا تصور مثلها في الخيال، وإذا كان الأمر كما قال حسان بن ثابت الأنصاري:

وإنما الشعر عقـل المرء يعـرضه ... على البـرية إن كَيَسـاً وإن حمقا

فما أوفر عقل هذا الشاعر وأوفاه، وما أقدره على تخيل المعاني الغريبة وأقواه، وما أحمق من قاسه على قرنائه من هذه الصناعة التي تعاطاها بسواه، كم تصور معنى في الذهن فأبرزه في الخارج أغرب الأشياء أسلوباً، وكم ركب جناساً إذا ذكر البستي عنده قال الأدب دعنا من تركيبه للجناس مقلوباً.

ولقد كنت أرتجي باباً أدخل منه للتقريض، ففتح لي المقر التقوي باباً مرتجاً، ونهج الطريق إلى المدح فاقتفيت آثاره واهتديت حيث رأيت منهجاً، أبقاه الله لإبهام يوضحه، وفساد عاجز يصلحه، والله تعالى يحفظ على منشىء هذه السيرة قريحته التي هي لعجائب الأدب حائزه، ويجعله ممن يسرح في رياض الصدقات الشريفة بما يسوقه إليه من وفور الجائزه.

---

(1) مادح كافور: هو المتنبي وقصيدته في مدح كافور الأخشيدي مشهورة مطلعها:

عيـد بأيـة حـال عـدت يـا عيـد ... بمـا مضـى أم لأمـرٍ فيـك تـجـديـد

(2) الخبال: اختلاط العقل

وألح المصنف بعد ذلك على المقر المجدي فضل الله بن مكانس، فكتب: يا لطيف نظرت هذه السيرة التي يعرض عنها المعارض، وينزو مؤلفها في رياض الأدب على بكر من سوام المعاني وفارض[1]، فوجدته قد نهض بعبء ثقيل من الكلام وقام. وأوقف البلغاء في مقام العجز، ويعذر العاجز، إذ شرفها بذكر مولانا السلطان في هذا المقام، خلد الله ملكه الشريف، وعم بعدله المبسوط مدائن فضل ذات ظل وريف. وجعل أيامه الزاهرة تواريخ السعود، ومغانم الوفود، ومواسم الكرم والجود، وثبت قواعد سلطانه على التخوم، ورفع جنابه المعظم على الأفلاك حتى تسير لخدمته ممنطقات بمناطق[3] النجوم، وأعز دولته عزاً يذل له الدبر والأملس[2]، وتلبس أثوابه في الأرض، ويخص محله الرفيع من تلك الأفلاك بالأطلس[4]، هنالك ينحني الهلال لتقبيل أقدامه، ويمتد كف الثريا لاستجداء صوب[5] غمامه، ويتضاءل كل منهما فيصير هذا نعل فرسه وهذا حلية لجامه، وملكه رقاب العباد، وأمضى أحكام سيوفه في رقاب أهل العناد، حتى يشهد الدين أنه قام بحقوقه نافلة[6] وفرضا، وسعى في مراضي الله فزلزل ديار الكفار سماء وأرضاً، ضاعف الله ثواب عمله المقبول، وأنشد بشكره لسان العالم حتى ينطق ويقول:

السيد المالك الملك المؤيد سيـــــف الدين شيخ حوى العليا وأرضاها
وشيد الدين والدنيا ببيض ظبا إن لم تضاه به في الحرب أمضاها[7]

ثم كررت النظر فيها، واستنهضت القلم للكتابة عليها حسب سؤال منشيها، فنكس القلم من الخجل رأسه، وصعد من صريره[8] أنفاسه، وقال: لست ممن يجيد في هذا التقريض عباره، ولا ينهض في وصف ما جاء به هذا الرجل من متين كلمه الذي أفحم الفحول فكأنما ألقمهم حجاره، فلقد ترفع قلمه في أرض قرطاسه وسما، وأتى من الرقيق بشيء يحسبه الظمآن ما[9]، وقذف الرعب في القلوب بذكر الوقائع فورمت خوفاً، وشكت

---

(١) الفارض: من النوق التي كبرت، ومن الكلام القديمة.
(٢) مناطق: واحدتها منطقه: وهي ما يشد حول الخصر من قماش وغيره.
(٣) الدبر والأملس: الوضيع والشريف.
(٤) الأطلس: نسيج من الحرير.
(٥) صوب غمامه: مطره.
(٦) النافلة: الصلاة الزائدة على الواجب، تجمع على نوافل.
(٧) الظبا: مفردها ظبة السيف وهي حده.
(٨) صرير القلم: صوته عند الكتابة.
(٩) ما: ترخيم ماء.

مما قذف بها ورماً، فلو وازنه القيراطي لثقل في الحقيقة عليه، أو حام على حمى ابن أبي حجلة لفرّ طائراً من بين يديه، أو جلا على ابن نباتة سلاف نظمه، لم يقل إليَّ، بكاسك الأشهى إليَّ، أو أورى زنده مع الشواء لأحرق قلبه، ولم يستحسن منه شيئاً أو عاصر ابن الساعاتي لم يلتذ بطيب المنام، أو جارى النصير الحمامي لألقى شعره في سرب الحمام، أو تقدم لزمان أبي تمام وناظره، لعلم الناس أنه غير لبيب، وقال له علماء البديع هذا ضدك يا حبيب[1]، أو ابن حجاج لأظهر فساد عقله السخيف، ورمى بجميع ما قاله في الكنيف[2]، فهو أولى منهم بما جره الفضل وجذب، وأحق وإن اشتهرت فضائلهم أن يشتهر بالأدب، فإنه لو كلف الغريب من القول لأتى به على كنهه، أو أقام الاعتذار عن قبيح لقام العذر عما جاء به وذهب على وجهه، ولو تصدى لتهجين[3] حسن، لزان بما يملأ الطروس من ذلك وشحن، أو حاجج بالباطل من يعرب عن الحق لنهض بحجته واستمر يلحن، فسبحان من أقدره على ما تقصر عن إدراكه الأفهام، وتعجز عن تصوره عقول الأنام.

ولقد استعفاه القلم عن الكتابة خشية من عرض فضائحه، وسأله طيّ هذه الصحيفة خوفاً من نشر قيائحه[4]، فأبى إلا إظهار المكتوم وفض المختوم، فيا خجلتاه لما كتب، ويا فضيحتاه إذا لام الفاضل على ما جاء به وعتب، ولكنه جرى خلف الجوادين السابقين، واقتدى بإمامتهما التي اعترف الأفاق أنها ملأت الخافقين[5] أبقاهما الله مدى الزمان، وإسبغ عليهما غطاء الفضل، وبلغهما غاية الأماني يوم الخوف والأمان، وأمتع بجناب منشئها الأحباب، وأقرّ به أعين الإخوان، وبسط به أنفس الأصحاب، وألهمنا أجمعين تجنب ما خفي علينا من عوراتنا، وكشف حجب قلوبنا، بمنه وكرمه.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي:

ليت المنية حالت دون نصحك لي ... فيستريح كلانا من أذى التهم

هذا البيت ليس له نظير في هذا الباب، فإنه اشتمل على الرقة والسهولة والانسجام وما زاده حسناً إلا تقويته بليت، التي استعان بها الشاعر في إبهام بيته على زيد الخياط،

---

(١) حبيب: هو إسم أبي تمام.
(٢) الكنيف: لغة في المرحاض: مكان الخلاء.
(٣) تهجين: تقبيح.
(٤) قيائحه: جمع مفرده قيح وهو الوسخ الذي يتجمع في الجرح عند التهابه.
(٥) الخافقين: المشرق والمغرب.

فإن الشيخ صفي الدين لما قال لعاذله: ليت المنية حالت دون نصحك لي، حسن إبهامه بقوله: فيستريح كلانا من أذى التهم، وصار الأمر مبهماً بينه وبين العاذل.

وبيت الشيخ عز الدين، في بديعيته، يخاطب فيها العاذل:

أبهمت نصحي مشيراً بالأصابع لي   ليت الوجود رمى الإبهام بالعدم

وهذا الإبهام هنا يشار إليه بالأصابع، وتعقد عليه الخناصر، فإن الشيخ عز الدين رحمه الله تعالى أجاد فيه إلى الغاية، ولم يتفق له في نظم بديعيته بيت نظيره، ولا اتفق لغيره ممن نظم بديعية، فإنه جمع بين السهولة والانسجام والتصوير والتورية البارزة في أحسن القوالب، بتسمية نوع الإبهام الذي هو المقصود، ولعمري إنه بالغ في عطف القلوب بهذا السحر الحلال. ولم ينظم العميان في بديعيتهم هذا النوع، وبيت بديعيتي:

وزاد إبهام عذلي عاذلي ودجا   ليلي فهل من بهيم يشتكي ألمي

فإن الإبهام هنا بين بهيم الليل وبين العاذل، فإن اشتراك البهيم صالح لهما، ولكن لم يحصل التمييز لأحدهما عن الآخر، كما وقع الشرط بين الأمر بينهما مبهماً، ولا يعلم من هو المقصود منهما، وهذا هو الفرق بين الإبهام والتورية، إذ المراد من التورية المعنى البعيد المورى عنه بالقريب.

ذكر إرسال المثل

وكم تمثلت إذ أرخوا شعورهم وقلت بالله خلوا الرقص في الظلم

إرسال المثل نوع لطيف في البديع، ولم ينظمه في بديعيته غير الشيخ صفي الدين، وهو عبارة عن أن يأتي الشاعر، في بعض بيت، بما يجري مجرى المثل، من حكمة أو نعت أو غير ذلك مما يحسن التمثل به، كقوله تعالى: ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾[1] وقوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مرَّ السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾[2] وقوله تعالى: ﴿صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة﴾[3] وقوله تعالى: ﴿إن أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾[4].

ومما جاء من ذلك في السنة الشريفة، قوله ﷺ: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. وقوله ﷺ: لا ضرر ولا ضرار. وقوله ﷺ: خير الأمور أوساطها. وقوله ﷺ: المرء مع من أحب. وقوله ﷺ: المستشار مؤتمن وهو بالخيار ما لم يتكلم. وقوله ﷺ: ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً يوم القيامة. وقوله ﷺ: البلاء موكل بالمنطق.

وقد احتوى كتاب أبي أحمد العسكري على كثير من هذا الباب، ومن أمثلته في الشعر قول زهير:

وهل ينبت الخطمي إلا وشيجة وتغرس إلا في منابتها النخل[5]

---

(١) النجم، ٥٣/ ٥٨.

(٢) النمل، ٢٧/ ٨٨.

(٣) البقرة، ٢/ ١٣٨.

(٤) الإسراء، ١٧/ ٧.

(٥) الخطمي: نبات ليفي يتداوى به ـ والوشيجة: الألياف

ومثله قول النابغة:

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أي الرجال المهذب

ومثله قول بشار:

فعش واحداً أوْ صِلْ أخاك فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه[1]

وما أحلى ما قال بعده:

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه[2]

وقول أبي تمام:

فلو صورت نفسك لم تزدها ... على ما فيك من كرم الطباع

وكقوله:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأوّل

وذكر ابن أبي الأصبع، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير» إنه استخرج أمثال أبي تمام من شعره، فوجدها تسعين نصفاً وثلثمائة بيت وأربعة وخمسين بيتاً، واستوعب أمثال أبي الطيب المتنبي، فوجدها مائة نصف وثلاثة وسبعين نصفاً وأربعمائة بيت، ولكنه أخرج من أمثال أبي الطيب ما ولده من أمثال أبي تمام، وصدر الجميع بما وقع في الكتاب العزيز من الأمثال، بزيادات على ذلك، وهي أمثال الأشعار السنية والحماسة وأمثال أبي نواس، بعد أن ألحق أمثال القرآن بأمثال دواوين الإسلام السنية، وختم الجميع بأمثال العامة في كتاب الأمثال له.

ومما سار من أمثال الطغرائي، في لامية العجم، قوله:

حب السلامة يثني عزم صاحبه ... عن المعالي ويغري المرء بالكسل
لو أن في شرف المأوى بلوغ منى ... لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل[3]
أعلل النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل
وعادة النصل أن يزهى بجوهره ... وليس يعمل إلا في يدي بطل
ما كنت أوثر أن يمتد بي زمني ... حتى أرى دولة الأوغاد والسفل[4]

(١) مقارف الذنب: مرتكبه.

(٢) القذى: الكدر.

(٣) دارة الحمل: من منازل الشمس.

(٤) الأوغاد: السوقة من الناس، واللئام الأخساء.

هـذا جزاء امـرىء أقرانـه درجوا ... من قبله فتمنى فسـحـة الأجـل
وإن علاني من دوني فلا عجب ... لي أسوة بانحطاط الشمس عن زحل
فاصبر لها غير محتـال ولا ضجر ... في حادث الدهر ما يغني عن الحيل[1]
أعدى عدوك أدنى من وثقت بـه ... فحاذر الناس واصحبهم على دخل[2]
وإنما رجـل الـدنيا وواحـدهـا ... من لا يعول في الدنيا على رجل[3]
يـا وارداً سؤر عيش كله كـدر ... أنفقت صفوك في أيامك الأول[4]
فيم اقتحـامك لـج البحر تـركبـه ... وأنت تكفيك منه مصة الوشل[5]
ملك القناعة لا يخشى عليه ولا ... يحتاج فيه إلى الأنصار والخول[6]
تـرجو البقـاء بـدار لا بقـاء لهـا ... فهـل سمعت بـظل غيـر منتقـل
ويـا أمينـاً على الأسـرار مـطلعـاً ... اصمت ففي الصمت منجاة من الزلل[7]

وممن سار في مجرى هذه القصيدة ووزنها، أبو الطيب المتنبي في قصيدته التي أولها:

أجاب دمعي وما الداعي سوى طلل ... دعا فلباه قبـل الركب والإبـل[8]
ومـا صبـابـة مشتـاق على أمـل ... من اللقـاء كمشتـاق بـلا أمـل
والهجـر أقتـل لي ممـا أراقبـه ... أنـا الغريق فمـا خوفي من البلل
قـد ذقت شـدة أيـامي ولـذتهـا ... فما حصلت على صاب ولا عسل[9]
خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به ... في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

أنظر إلى محاسن هذين الفحلين إلى الغاية التي تمثلا بها في الشمس وزحل، وتأخر سوابق الأفهام عن معرفة السابق منهما إلى الغاية، ومنها قوله:

وقد وجدت مكان القول ذا سعة ... وإن وجـدت لسانـاً قـائـلاً فقُـلِ
لعـل عتبـك محمـود عـواقبـه ... فـربمـا صحت الأجسـام بـالعلل

---

(١) حادث: جديد.
(٢) الدخل: الحذر. ومداخلة الشك.
(٣) يعّول: يتكل.
(٤) السؤر: البقية الباقية من الشيء.
(٥) الوشل: الماء القليل.
(٦) الخول: الإماء والعبيد.
(٧) الزلل: الخطأ.
(٨) الطلل: الأثر.
(٩) الصاب: شراب مرٌّ.

لأن حلمك حلم لا تكلفه ليس التكحل في العينين كالكحل[١]
وما ثناك كلام الناس عن كرم ومن يسد طريق العارض الهطل

وقد عن لي أن أجمع هنا ما حلا بذوقي من أمثال أبي الطيب المتنبي، وإن كان فيها ما ولده من شعر أبي تمام، كما ذكره ابن أبي الأصبع، فإن القصد أن نصيرها عمدة لأهل الإنشاء إذا أوردوها في الوقائع التي تليق بها على اختلاف أنواعها، فمن ذلك قوله:

إذا صديق نكرت جانبه لم تعيني في فراقه الحيل
في سعة الخافقين مضطرب وفي بلاد من أختها بدل

وقوله من قصيدة:

أشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا[٢]

وقوله من قصيدة:

ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام[٣]
كل حلم أتى بغير اقتدار حجةٌ لاجئٌ إليها اللئام
من يهن يسهل الهوان عليه ما لجُرح بميت إيلام
خير أعضائنا الرؤوس ولكن فضلتها بقصدك الأقدام

وقوله: ما كل من طلب المعالي نافذاً فيها ولا كل الرجال فحولا
تلف الذي اتخذ الجراءة خلة وعظ الذي اتخذ الفرار خليلا[٤]

وقوله: ومكايد السفهاء واقعة بهم وعداوة الشعراء بئس المقتنى

ويعجبني قوله في الهجو، وهو مما نحن فيه:

فلو كنت امرأ تهجى هجونا ولكن ضاق قطر عن مسير[٥]

---

(١) الكحل: سواد في محجر العين إذ تبدو وكأنها مكحلة بالكحل.
(٢) الزلالا: الصافي من كل كدر.
(٣) يغبط: يحسد ـ الحمام: الموت.
(٤) تلف: هلك ـ خلة: خصلة وهي واحدة الخصال. كما أن خلة واحدة الخلال.
(٥) القطر: البلد.

وقوله: فقر الجهول بلا لب إلى أدب ... فقر الحمار بلا رأس إلى رسن
قد هوّن الصبر عندي كل نازلة ... ولين العزم خد المركب الخشن[1]
لا يعجبن مضيماً حسن بزته ... وهل تروق دفيناً جودة الكفن[2]

وقال من أبيات قوله:

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا ... فلما دهتني لم تزدني بها علما
وكنت قبيل الموت أستعظم النوى ... فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى
فلا عبرت بي ساعة لا تعزني ... ولا صحبتني مهجة تقبل الظلما

وقوله أيضاً:

وأنا الذي اجتلب المنية طرفه ... فمن المطالب والقتيل القاتل
أنعم ولذ فللأمور أواخر ... أبداً كما كانت لهن أوائل
للهو آونة تمر كأنها ... قبلٌ تزوّدها حبيب راحل
جمح الزمان فما لذيذ خالص ... مما يشوب ولا سرور كامل[3]
وإذا أتتك مذمتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأني فاضل[4]

وقال من قصيدة، وهي أبلغ ما يكون في المدح:

أعيا زوالك عن محل نلته ... لا تخرج الأقمار من هالاتها[5]

وقال من قصيدة:

وأشجع مني كل يوم سلامتي ... وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر
ذر النفس تأخذ وسعها قبل بينها ... فمفترق جاران دارهما عمر[6]
ومن ينفق الساعات في جمع ماله ... مخافة فقر فالذي فعل الفقر
وأستكبر الأخبار قبل لقائه ... فلما التقينا صغر الخَبَرُ الخُبْرُ
وإني رأيت الضر أحسن منظراً ... وأهون من مرأى صغير به كِبر[7]

---

(١) النازلة: المصيبة تنزل بالإنسان.
(٢) مضيماً: مقيماً على الضيم وهو الغم والحزن.
(٣) جمح: جار وحاد عن جادة الصواب ـ خالص: لا يشوبه كدر.
(٤) ناقص: إنسان ناقص، وكل إنسان ناقص.
(٥) هالاتها: واحدتها هالة، وهي ما يحيط بالقمر كالدائرة من النور.
(٦) ذر: اترك ـ البين: الموت والفراق.
(٧) الكبر: الكبرياء والتكبر.

ويعجبني من المديح منها (شعر):

وما أنا وحدي قلت ذا الشعر كله ... ولكن لشعري فيك من نفسه

وقال من قصيدة:

وما ليل بأطول من نهار ... يظل بلحظ حسادي مشوبا
ولا موت بأنقص من حياة ... أرى لهم معي فيها نصيبا
عرفت نوائب الحدثان حتى ... لو انتسبت لكنت لها نقيبا(١)

وما أظرف ما قال منها:

وشيخ في الشباب وليس شيخاً ... يسمي كل من بلغ المشيبا
قسا فالأُسْدُ تفزع من يديه ... ورق فنحن نفزع أن يذوبا

وقال من قصيدة، وهي التي ذكروا أنه ادعى فيها النبوة:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى ... عدوّاً له ما من صداقته بدّ(٢)

وقال من قصيدة:

قد كنت أشفق من دمعي على بصري ... فاليوم كل عزيز بعدكم هانا (٣)
إذا قدمت على الأهوال شيعني ... قلب إذا شئت أن يسلاكم خانا
أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني ... ولا أعاتبه صفحاً واهوانا
وهكذا كنت في أهلي وفي وطني ... إن النفيس عزيز حيثما كانا (٤)
لا أشرئب إلى ما لم يفت طمعاً ... ولا أبيت على ما فات حسرانا (٥)
ولا أسر بما غيري الحميد به ... ولو حملت إليَّ الدهر ملآنا

وقوله من قصيدة:

فما لي وللدنيا طِلابي نجومها ... ومسعاي منها في شدوق الأراقم (٦)

---

(١) النقيب: السيد.
(٢) نَكَدٌ: تنغيص العيش.
(٣) أُشفِقُ: اخاف.
(٤) النفيس: العزيز والغالي والثمين.
(٥) أشرئب: أمد عنقي لأتطلع ـ حسراناً: تحسراً.
(٦) طلابي: أي ما أطلب ـ شدوق: جمع مفرده شدق وهو الفم أو شطره ـ الأراقم: من الحيات، أخبثها: مفردها أرقم.

من الحلم أن يستعمل الجهل دونه — إذا اتسعت في الحلم طرق المظالم[١]
ومن عرف الأيام معرفتي بها — وبالناس روّى سيفه غير راحم
ولولا احتقاري الأُسْدَ شبّهتُها بهم — ولكنهـا معدودة في البهـايم[٢]
وكاد سروري لا يفي بندامتي — على تركه في عمري المتقادم

وقال من قصيدة:

وأحسب أني لو هويت فراقكم — لفارقتكم والدهر أخبث صاحب
فيا ليت ما بيني وبين أحبتي — من البعد ما بيني وبين المصائب[٣]
يهون على مثلي إذا رام حاجة — وقوع العوالي دونها والقواضب[٤]
كثير حياة المرء مثل قليلها — يزول وباقي عيشه مثل ذاهب
بأي بلاد لم أجر ذوائبي — وأي مكان لم تطأه ركائبي[٥]

وتخلص إلى مديح طاهر، ولكنه أتى في تخلصه بالعجائب، فقال:

كأنّ رحيلي كان من كف طاهر — فأثبت كوري في ظهور المواهب[٦]

ما يقول: أثبت كوري في ظهور المواهب، إلا المتنبي.

ومن أبياته التي سارت أمثالاً قوله:

إذا غامرت في شرف مروم — فلا تقنع بما دون النجوم[٧]
فطعم الموت في أمر حقير — كطعم الموت في أمر عظيم
وكل شجاعة في المرء تغني — ولا مثل الشجاعة في الحليم
وكم من عائب قولاً صحيحاً — وآفته من الفهم السقيم[٨]
ولكن تأخذ الأسماع منه — على قدر القرائح والفهوم

---

(١) الحلم: العقل.
(٢) البهايم: والبهائم: الدواب.
(٣) إشارة إلى إنعدام البعد بينه وبين المصائب، فهو يتمنى انعدام هذا البعد بينه وبين الأحبة.
(٤) رام: أراد وقصد - العوالي والقواضب: الرماح والسيوف.
(٥) ذوائبي: مفردها ذؤابة، وهي من الرحل، الجلدة المعلقة على آخره. ومن النعل، ما يلامس الأرض، ومن الشعر: الناصية وهي مقدم شعر الرأس - ركائبي: مفردها ركاب وهو ما يركب.
(٦) الكور: الرّحل بأداته.
(٧) مروم: مقصود لعلوه.
(٨) الآفه: المرض.

وقال من قصيدة:

والهم يحتــرم الجسيم مخافــة ... ويشيب نـاصية الصبي ويهـرم[1]
ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاء منعم[2]
لا تخـدعنـك من عــدوٍّ دمعـة ... وارحم شبابك من عـدوك تُرحَم

وما أعظم ما قال بعده:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى ... حتى يـراق على جـوانبـه الـدم
والظلم من شيم النفوس فإن تجد ... ذا عـفـة فـلعـلة لا يـظلم
ومن البليـة عذل من لا يـرعوي. ... عن جهله وخطاب من لا يفهم[3]
والـذل يظهـر في الـذليـل مـودّة ... وأودّ مـنـه لـمـن يـود الأرقـم
ومن العـداوة مـا ينـالـك نفعـه ... ومن الصـداقة مـا يضـر ويؤلم
أفعــالُ مَنْ تَلِدِ الكـرامُ كـريمـة ... وفعــال من تَلِدِ الأعـاجمُ أعجم

وقوله:

كريشة بمهب الريح ساقطة ... لا تستقر على حال من القلق

ويعجبني قوله من أبيات، يتمثل بها في كثرة الإحسان المفرط:

ولم تملل تفقدك الموالي ... ولم تذمم أياديك الجساما
ولكن الغيـوث إذا تـوالت ... بأرض مسافـر كره المقاما
وصار أحب ما يهـدى إليه ... لغير قلى وداعك والسلاما[4]

وقال: والغنى في يد اللئيم قبيح ... قدر قبح الكريم في الإملاق[5]

وقال من قصيدة:

وقـد يتـزيـا بـالهـوى غيـر أهله ... ويستصحب الإنسان من لا يلائمه

---

(١) يُهرِم: يصيب بالكِبَر.

(٢) وقد وري هذا البيت كما يلي:

ذو العقـل يشقى في النعيم بعقله ... وأخـو الجهـالـة في الشقـاوة ينعم

(٣) ارعوى: عاد إلى رشده وتاب: وارتد عن غوايته.

(٤) القلى: الكره والهجر.

(٥) الإملاق: الفقر الشديد المدقع.

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها ... وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه[1]
وما استغربت عيني فراقاً رأيته ... ولا علمتني غير ما أنا عالمه

وقوله: وإذا كانت النفوس كبارا ... تعبت في مرادها الأجسام

وقال من قصيدة:

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا ... فأهون ما تمر به الوحول

وقوله: رماني الدهر بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبال[2]
فصرت إذا أصابتني سهام ... تكسرت النصال على النصال

وقوله: يراد من القلب نسيانكم ... وتأبى الطباع على الناقل
ولو زلتم ثم لم أبككم ... بكيت على حبي الزائل

وقوله: هل الولد المحبوب إلا تعلة ... وهل جلوة الحسناء إلا أذى البعل[3]
وقد ذقت حلواء البنين على الصبا ... فلا تحسبني قلت ما قلت عن جهل
وما الدهر أهل أن تؤمل عنده ... حياة وإن يشتاق فيه إلى النسل

وقال: إذا ما الناس جربهم لبيب ... فإني قد أكلتهم وذاقا

وقوله: فما ترجّي النفوس من زمن ... أحمد حاليه غير محمود

وقوله: ووجه البحر يعرف من بعيد ... إذا يسجو فكيف إذا يموج[4]

وقال: ليس الجمال لأنف صح مارنه ... أنف العزيز بقطع العز يجتدع[5]
من كان فوق محل الشمس موضعه ... فليس يرفعه شيء ولا يضع[6]
إن السلاح جميع الناس تحمله ... وليس كل ذوات المخلب السبع

وقوله مفتخراً:

وإنا إذا ما الموت صرح في الوغى ... لبسنا إلى حاجاتنا الضرب والطعنا

وقوله: أهم بشيء والليالي كأنها ... تطاردني عن كونه وأطارد
وحيد من الخلان في كل بلدة ... إذا عظم المطلوب قل المساعد

---

(١) بلا: في الأصل وردت: بلاء، وما أثبتناه أصح، لأنها مصدر بلي ـ الشحيح: البخيل.
(٢) الغشاء: الغطاء وهذه أليق بالمعنى لأن الغشاء ينم عن الشفافية وهذه لا تكون في النبال.
(٣) الجلوة: ما يكون ليلة العرس من دوران العروس مادة يديها وعلى العريس أن يضع في كفها مبلغاً من المال في كل دورة، بينما إحداهن تغني أغنية خاصة ـ البعل: الزوج.
(٤) يسجو: يسكن ويهدأ.
(٥) المارن: عَظْمُ الأنف ـ جدع الأنف: قطعه.
(٦) يضع: يحط من قدره ومكانته.

ولكن إذا لم يحمل القلب كفه … على حالة لم يحمل الكف ساعد

منها: بذا قضت الأيام ما بين أهلها … مصائب قوم عند قوم فوائد

وكل يرى طرق الشجاعة والندى … ولكن طبع النفس للنفس قائد

فإن قليل الحب بالعقل صالح … وإن كثير الحب بالجهل فاسد

وقوله: وما كل وجه أبيض بمبارك … ولا كل جفن ضيق بنجيب[1]

كأن الردى عادٍ على كل ماجد … إذا لم يعوذ مجده بعيوب[2]

ولولا أيادي الدهر في الجمع بيننا … غفلنا فلم نشعر له بذنوب

فرب كئيب ليس تندى جفونه … ورب كثير الدمع غير كئيب

وفي تعب من يجحد الشمس ضوءها … ويجهد أن يأتي لها بضريب[3]

وقوله: ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت … على عينه حتى يرى صدقها كذبا

ومن تكن الأسد الضواري جدوده … يكن ليله صبحاً ومطعمه غصبا[4]

ولست أبالي بعد إدراكي بالعلا … أكان تراثاً ما تناولت أم كسبا

ويعجبني، من هذه القصيدة، قوله في مديح سيف الدولة وقد كسر الدمستق[5] على مرعش:

أتى مرعشاً يستقرب البعد مقبلاً … وأدبر إذ أقبلت تستبعد القربا

كذا يترك الأعداء من يكره القنا … ويقفل من كانت غنيمته رعبا

مضى بعدما التف الرماحان ساعة … كما يلتقي الهدب في الرقدة الهدبا

ولكنه ولى وللطعن سورة … إذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا[6]

فحب الجبان النفس أوردها البقا … وحب الشجاع الحرب أوردها الخربا[7]

وما أحلى ما قال بعده:

ويختلف الرزقان والفعل واحد … إلى أن ترى إحسان هذا لذا ذنبا

---

(١) نجُب: نجابة حمُد في نظره، أو في قوله وفعله.

(٢) عوّذ: حمى.

(٣) ضريب: شبيه.

(٤) الضواري: مفردها ضاري وهو المفترس.

(٥) الدمستق: لقب كان لقائد جيوش الروم - ومرعش: حصن.

(٦) سورة: هيجان وغضب.

(٧) الخربا: الهلاك.

ومن أنصاف مطالعه التي يتمثل بها الناس: * واحرُّ قلباه ممن قلبه شبم[1] *

ونصفه الثاني لأجل تمام شخص المطلع: * ومن بجسمي وحالي عنده سقم *.

ويعجبني من هذه القصيدة قوله، يخاطب سيف الدولة ويشير إليه أنه سمع فيه كلام الأعداء، وقد أحضرهم لمواجهته ولم يخرج عن إرسال المثل:

يا أعدل الناس إلا في معاملتي ... فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
أعيذها نظرات منك صادقة ... أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم[2]
وما انتفاع أخي الدنيا بناظره ... إذا استوت عنده الأنوار والظلم

ومما سار من أمثالها قوله:

إذا رأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث مبتسم[3]
يا من يعز علينا أن نفارقهم ... وجداننا كل شيء بعدكم عدم
إن كان سركم ما قال حاسدنا ... فما لجرح إذا أرضاكم ألم
وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة ... إن المعارف في أهل النهى ذمم[4]
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم ... ويكره الله ما تأتون والكرم

ومنها وليس لمثله مثيل:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وما أحلى ما قال بعده:

شر البلاد مكان لا صديق به ... وشر ما يكسب الإنسان ما يصم[5]

وقال من أبيات:

وإن كان ذنبي كل ذنب فإنه ... محا الذنب كل المحو من جاء تائبا

وقال من قصيدة:

وما كمد الحساد شيئاً قصدته ... ولكنه من يزحم البحر يغرق[6]
وإطراق طرف العين ليس بنافع ... إذا كان طرف القلب ليس بمطرق

---

(١) شبم: باردٌ قليل الحس.

(٢) أُعيذها: تعبير يفيد الرقية، وهو بمعنى احميها بالتعاويذ.

(٣) روي بالفعل: يبتسم.

(٤) النُهى: العقول ـ الذمم: العهود، كناية عن حفضها وعدم نسيانها.

(٥) يصم: يبقى وصمة وعلامة إلى آخر الدهر.

(٦) الكمد: الغيض ـ أو الغم والحزن.

وقوله:

لولا مفارقة الأحباب ما وجدت　　لها المنايا إلى أرواحنا سبلا

وقوله:

لا بقومي شرفت بل شرفوا بي　　وبنفسي فخرت لا بجدودي

وما أحلى ما قال من غزلها:

أي يوم سررتني بوصال　　لم ترُعْني ثلاثة بصدود

منها:

أين فضلي إذا قنعت من الدهـ　　ـر بعيش معجل التنكيد[1]

عش عزيزاً أو مت وأنت كريم　　بين طعن القنا وخفق البنود[2]

وقال من قصيدة:

وعذلت أهل العشق حتى ذقته　　فعجبت كيف يموت من لا يعشق

وقوله من قصيدة:

تحقر عندي همتي كل مطلب　　ويقصر في عيني المدى المتطاول

وما أحلى ما قال بعده:

وما زلْت طوداً لا تزول مناكبي　　إلى أن بدت للضيم فيَّ زلازل[3]

وله من قصيدة:

ليس التعلل بالآمال من أربي　　ولا القناعة بالإقلال من شيمي[4]

ولا أظن بنات الدهر تتركني　　حتى تسد عليها طرقها هممي

وما ألطف ما قال منها:

أرى أناساً ومحصولي على غنم　　وذكر جودٍ ومحصولي على الكلم

لقد تصبرت حتى لات مصطبر　　فالآن أقحم حتى لات مقتحم[5]

---

(١) التنكيد: التكدير والتنغيص.

(٢) البنود: الرايات والأعلام الكبيرة.

(٣) الطود: الشامخ المتعالي ـ والمناكب: جمع مفرده منكب وهو الموضع.

(٤) الأرب: الحاجة والمطلب ـ الشيمة: الخصلة والعادة.

(٥) لات مصطبر، ولات مقتحم. أي لات وقت اصطبار ولات مكان الاقتحام ولات بمعنى، عزّ وندر وقل.

وقال: وكاتم الحب يوم البين منهتك ... وصاحب الدمع لا تخفى سرائره [١]

وقوله: إذا قيل رفقاً قال للحلم موضع ... وحلم الفتا في غير موضعه جهل

وقال من قصيدة:

فموتي في الوغى عيشي لأني ... رأيت العيش من أرب النفوس

وقال من أخرى:

إن ترمني نكبات الدهر عن كثب ... ترمي امرأ غير رعديد ولا نكس [٢]

وقال: خير الطيور على القصور وشرها ... يأوي الخراب ويسكن الناووسا [٣]

وقال أيضاً: يخفي العداوة وهي غير خفية ... نظر العدو بما أسر يبوح

وقال أيضاً: وهبني قلت هذا الصبح ليل ... أيعمى العالمون عن الضياء

وقال أيضا: وشغل النفس عن طلب المعالي ... يبيع الشعر في سوق الكساد

ومنها: وما ماضي الشباب بمسترد ... ولا يوم يمر بمستعاد

متى لحظت بياض الشيب عيني ... فقد وجدته منها في السواد

وما العضب الطريف وإن تقوى ... بمنتصف من الكرم التلاد [٤]

فإن الجرح يدمي بعد حين ... إذا كان البناء على فساد

وكيف يبيت مضطجعاً جبانٌ ... فرشت لجنبه شوك القتاد [٥]

وما أحلى قوله من قصيدة:

إني وإن لمت حاسديَّ فما ... انكر أني عقوبة لهم

كفاني الذم أنني رجل ... أكرم مال ملكته الكرم

وما أحلى ما قال بعده:

يجني الغنى للئام لو عقلوا ... ما ليس يجني عليهم العدم

وقال أيضاً: خليلك أنت لا من قلت خلي ... وإن كثر التجمل والكلام

ولو لم يعل إلا ذو محل ... تعالى الجيش وانحط القتام [٦]

---

(١) سرائر: مفردها سريره وهي دخيلة النفس.

(٢) رعديد: الذي يرتجف في المعركة، الجبان ـ والنكس: الذليل، اي الذي ينكس رأسه ويطأطئه.

(٣) الناووس: مقبرة النصارى، وهي معربة.

(٤) العضب الطريف: السيف القاطع الحديث الصنع ـ التلاد جمع مفردها تليد وهو القديم الموروث ضد الطريف.

(٥) القتاب: شجر صلب له شوك كالإبر.

(٦) القتام: الغبار المتصاعد أثناء المعركة.

وما أحلى قوله منها:

تلذ لـه المـروءة وهـي تؤذي ... ومـن يعشق يـلذ لـه الـغـرام

ومما سار من أمثالها:

لقـد حسنت بك الأيـام حتى ... كأنـك في فم الـدنيا ابتسـام
تـروع ركـانـة وتـذوب ظـرفاً ... فمـا نـدري أشيـخٌ أم غلام(١)

وقال من قصيدة:

أظمتني الـدنيـا فلمـا جئتهـا ... مستمطراً أمطرت عليَّ مصـائبا

وقال منها: خذ من ثناي عليك ما أسطيعه ... لا تلزمني في الثنـاء الـواجبـا(٢)

وقال من غيرها:

ومن لبـه مع غيـره كيف حـالـه ... ومن سره في جفنه كيف يكتم(٣)

وقوله: أنا صخرة الوادي إذا ما زوحمت ... وإذا نُـطقتُ فـإنني الجـوزاء(٤)
وإذا خفيت على الغبي فعـاذر ... أن لا تـراني مقـلة عميـاء(٥)
إن الكـريـم إذا أقـام بـبلدة ... سـال النضـار بهـا وقـام المـاء

وقال من قصيدة:

لا تعـذل المشتـاق في أشـواقـه ... حتى يكـون حشاك في أحشـائه

وما أحلى ما قال بعده:

إن القتيـل مضـرجـاً بـدمـوعـه ... مثـل القتيل مضـرجاً بـدمائـه (٦)

وما أحلى ما قال من قصيدة:

إذا مـا قـدرت عـلى نـطفـة ... فـإنـي عـلى تـركـهـا أقـدر
أصـرّف نـفسي كمـا أشتهـي ... وأمـلكـهـا والـقـنـا أحـمـر

---

(١) ركانة: شدة ورزانة.
(٢) أسطيعه: لغة في أستطيعهُ.
(٣) اللب: العقل.
(٤) الجوزاء: أحد الأبراج الفلكية.
(٥) عاذر: لا ألوم ولا أعنف. أجد العذر.
(٦) مضرجاً: ملطخاً.

ويطربني من مديحها قوله منها أيضاً:

كفتك المروءة ما تتقي ... وآمنك الود ما تحذر
وقال: فلا تطمعن من حاسد في مودة ... وإن كنت تبديها له وتنيل [1]
يهون علينا أن تصاب جسومنا ... وتسلم أعراض لنا وعقول
وقوله: وما أخصك في برء بتهنئة ... إذا سلمت فكل الناس قد سلموا
وقال: ومن يجعل الضرغام للصيد بازه ... تصيده الضرغام فيما تصيدا [2]
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم ... ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا

وما أحلى ما قال بعده:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا ... مضر كوضع السيف في موضع الندى

ويعجبني منها في افتخاره:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي ... إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمراً ... وغنى به من لا يغني مغردا

ومن أمثالها:

فدع كل صوت بعد صوتي فإنني ... أنا الصائح المحكي والآخر الصدى [3]
وقيدت نفسي في ذراك محبة ... ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا

ولقد أجاد في مديحها بقوله:

إذا سأل الإنسان أيامه الغنى ... وكنت على بعد جعلتك موعدا

ومن الأمثال السائرة مطلع هذه القصيدة: لكل امرىء من دهره ما تعودا.

وقال من قصيدة:

وما التيه ظني فيهم غير أنني ... بغيض إليَّ الجاهل المتغافل [4]

---

(١) أنال: بذل وأعطى.

(٢) الضرغام: الأسد الغضنفر ـ الباز: طائر معروف يستعمل في الصيد: الباشق.

(٣) روي: أنا الصادح المحكي: والصادح هو البلبل المغرد ـ والمحكي: الذي قُلِّدَ ويُقلَّد. ويتشبه به.
والصدى: رجع الصوت.

(٤) التيه: الضياع.

وقوله: وكيف يتم بأسك في أناس تصيبهم فيؤلمك المصاب

وما ألطف ما قال بعده:

ترفق أيها المولى عليهم فإن الرفق بالجاني عتاب[1]
وما تركوك معصية ولكن يعاف الورد والموت الشراب[2]
وما جهلت أياديك البوادي ولكن ربما خفي الصواب
وكم ذنب يولده دلال وكم بعد يولده اقتراب
وجرم جره سفهاء قوم وحل بغير جارمه العذاب

ومن مطالعه التي سارت أمثالاً:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام الكرا.

ويعجبني من مديحها:

إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً مضى قبل أن تلقي عليه الجوازم
وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم[4]

وقال من قصيدة:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرائم

وقال من غيرها:

وما الحسن في وجه الفتى شرف له إذا لم يكن في فعله والخلائق[5]

وقال من قصيدة:

وما في سطوة الأرباب عيب ولا في زلة العبدان عار[6]

(١) ترفق: تمهل ـ الجاني: المذنب.

(٢) يعاف: ينفر من الشيء ويمقته.

(٣) وقد روى: المكارم وهي أصح: فالكرائم: مفردها كريمة، وهي الإبن والمكارم، مفردها مكرمة: وهي العمل الجيد الكريم.

(٤) الردى: الموت.

(٥) الخلائق: جمع خليقه وهي السجية والخلق الحسن.

(٦) السطوة: السيطرة ـ الأرباب: الملوك والأصحاب ـ العبدان: جمع عبد.

وقال من قصيدة:

وإذا لم تجد من الناس كفؤاً ... ذاتُ خدر أرادت الموت بعلا
وإذا الشيخ قال أف فما مل ... حياة وإنما الضعف ملا
آلة العيش صحة وشباب ... فإذا وليا عن المرء ولى

وما أحلى ما قال بعده:

أبداً تسترد ما تهب الدنـ ... ـيا فيا ليت جودها كان بخلا

وقال من قصيد:

رب أمر أتاك لا تحمد الفعا ... ل فيه وتحمد الأفعالا
وإذا ما خلا الجبان بأرض ... طلب الطعن وحده والنزالا

ومن أنصافها: هكذا هكذا وإلا فلا لا.

وقال من قصيدة مطلعها:

الرأي قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهي المحل الثاني
ولربما طعن الفتى أقرانه ... بالرأي قبل تطاعن الأقران[(1)]
لولا العقول لكان أدنى ضيغم ... أدنى إلى شرف من الإنسان
ولما تفاضلت النفوس ودبرت ... أيدي الكماة عوالي المران[(2)]
وإذا الرماح شغلن مهجة ثائر ... شغلته مهجته عن الإخوان

وقال أيضاً:

وإذا خامر الهوى قلب صب ... فعليه لكل عين دليل[(3)]
وكثير من السؤال اشتياق ... وكثير من رده تعليل
ما الذي عنده تدار المنايا ... كالذي عنده تدار الشمول[(4)]

وقال من قصيدة:

ومن تفكر في الدنيا ومهجته ... أقامه الفكر بين العجز والتعب

---

(١) الأقران: الأصحاب والأنداد.

(٢) الكماة: الفرسان. مفردها كميّ - المرّان: الرماح اللدنة في صلابة.

(٣) خامر القلب: داخَلَه - الصب: المغرم المراهق.

(٤) الشمول: الخمرة إذا بُرّدت.

ومن مطالعه التي سارت أمثالاً:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا ... وحسب المنايا أن يكنّ أمانيا

وقوله منها:

إذا كنت ترضى أن تعيش بذلة ... فلا تستعدن الحسام اليمانيا
وللنفس أخلاق تدل على الفتى ... أكان سخاء ما أتى أم تساخيا
إذا الجود لم يرزق خلاصاً من الأذى ... فلا الحمد مكسوباً ولا المال باقيا
خلقت ألوفاً لو رددت إلى الصبا ... لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

ومن أنصافها السائرة: ومن قصد البحر استقلّ السواقيا[1]

وقال أيضاً:

فارم بي ما أردت مني فإني ... أسد القلب آدمي الرواء[2]
وفؤادي من الملوك وإن كا ... ن لساني يرى من الشعراء

وقال من قصيدة:

فما الحداثة عن حلم بمانعة ... قد يوجد الحلم في الشبان والشيب[3]

ويعجبني من مديحها:

كأن كل سؤال في مسامعه ... قميص يوسف في أجفان يعقوب
إذا اعترته أعاديه بمسألة ... فقد عرته بجيش غير مغلوب[4]

وقال أيضاً:

وأتعب خلق الله من زاد همه ... وقصر عما تشتهي النفس وجده
فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ... ولا مال في الدنيا لمن قلّ مجده

وما أحلى ما قال بعده:

وفي الناس من يرضى بميسور عيشة ... ومركوبه رجلاه والثوب جلده
ولكن قلباً بين جنبي ما له ... مدى ينتهي بي في مراد أجده

وقال: إذا حللت مكاناً بعد صاحبه ... جعلت فيه على ما قبله تيها[5]

---

(١) استقل: وجدها قليلة. والسواقي: مفردها ساقية، وهي النهير الصغير.
(٢) أسد القلب: لي قلب أسد ـ آدمي الرواء: لي جسم إنسان.
(٣) الحداثة: صغر السن.
(٤) اعترته: غشيته.
(٥) التيه: الفخر.

وقوله: وما منزل اللذات عندي بمنزل إذا لم أبجل عنده وأكرّم[1]

منها: إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

وعادى محبيه بقول عداته وأصبح في ليل من الشك مظلم

أصادق نفس المرء من قبل جسمه وأعرفها من فعله والتكلم

وأحلم عن خلي وأعلم أنه متى أجزه حلماً من الجهل يندم

وما كل ناوٍ للجميل بفاعل ولا كل فعال له بمتمم

لمن تطلب الدنيا إذا لم ترد بها سرور محب أو إساءة مجرم

منها: رضيت بما ترضى به لي محبة وقدت إليك النفس قود المسلم

وقوله: وإذا الحلم لم يكن في طباع لم يحلّم تقدم الميلاد[2]

وإذا كان في الأنابيب خلف وقع الطيش في صدور الصعاد

وقوله: وما الخيل إلا كالصديق قليلة وإن كثرت في عين من لا يجرب

وكل امرىء يولي الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب

منها وأجاد إلى الغاية:

واظلم أهل الظلم من بات حاسداً لمن بات في نعمائه يتقلب

وقال من قصيدة:

لا تلق دهرك إلا غير مكترث ما دام يصحب فيه روحك البدن

فما يديم سروراً ما سررت به ولا يرد عليك الفائت الحزن

ما كل ما يتمنى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن

رأيتكم لا يصون العرض جاركم ولا يدرّ على مرعاكم اللبن

جزاء كل قريب منكم ملل وحظ كل محب منكم ضغن[3]

وتغضبون على من نال رفدكم حتى يعاقبه التنغيص والمنن[4]

وقال من قصيدة:

ومراد النفوس أهون من أن تتعادى فيه وأن تتعانى

---

(١) أبجل: أعظم.

(٢) لم يحلّم تقدم الميلاد: لا يعقّل الكبر في السن.

(٣) الضغن: والضغينة: الحقد والبغضاء.

(٤) الرفد: العون والعطاء ـ التنغيص: تكدير العيش ـ المنن: جمع مِنّه: وهي الحديث عن العطاء من قبل المعطي.

غير أن الفتى يلاقي المنايا — كالحات ولا يلاقي الهوانا[1]
ولو أن الحياة تبقى لحيّ — لعددنا أضلنا الشجعانا
وإذا لم يكن من الموت بد — فمن العجز أن تكون جبانا[2]

وله من قصيدة:

ولله سر في علاك وإنما — كلام العدا ضرب من الهذيان[3]

وقال: لولا المشقة ساد الناس كلهم — الجود يفقر والأقدام قتال
وقال: ومن يجد الطريق إلى المعالي — فلا يذر المطيّ بلا سنام[4]

وما أحلى ما قال بعده:

ولم أر في عيوب الناس نقصاً — كنقص القادرين على التمام
وملني الفراش وكان جنبي — يمل لقاءه في كل عام

ومن اختراعاته المخترعة قوله منها، ويشير إلى حمى أصابته وكانت تغشاه إذا أتى الليل

وزائرتي كأن بها حياءً — فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا — فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها — فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتني غسلتني — كأنا عاكفان على حرام[5]
كأن الصبح يطردها فتجري — مدامعها بأربعة سجام[6]
أراقب وقتها من غير شوق — مراقبة المشوق المستهام
وتصدق وعدها والصدق شر — إذا ألقاك في الكرب العظام[7]
فإن أمرض فما مرض اصطباري — وإن أحمم فما حم اعتزامي
وإن أسلم فما أبقى ولكن — سلمت من الحُمام إلى الحمام[8]

---

(١) كالحات: مظلمات مدلهمات، عابسات ـ الهوان: الذل.
(٢) روي: أن تموت جباناً. والمثبت أصح.
(٣) الهذيان: التكلم بكلام غير معقول لمرض.
(٤) يذر: يترك ـ المطي: ما يركب ـ السنام: الحدبة التي تعلو ظهر البعير ويقصد: بلا ركوب السنام.
(٥) عكف: ألزم نفسه بالأمر وداوم عليه.
(٦) سجام: شديدة الإنصباب.
(٧) الكرب العظام: الضائقات الكبيرة.
(٨) الحُمام: الحمى. الحِمام: الموت.

وقوله:

وللسـر مني موضـع لا ينالـه ... نـديم ولا يفضي إليـه شـراب
ومـا العشق إلا غِـرة وطمـاعـة ... يعـرض قلب نفسـه فيُصـاب (١)
أعز مكان في الدنا ظهـر سابـح ... وخير جليس في الزمان كتاب (٢)

منها في المديح قوله في كافور:

تجـاوز قـدر المـدح حتى كـأنـه ... بـأحسن مـا يثني عليـه يعـاب
إذا نلت منـك الود فـالكـل هين ... وكـل الذي فـوق التـراب تـراب

وما أحلى ما قال بعده:

ومـا كنت لولا أنت إلا مهـاجـراً ... لـه كـل يـوم بـلدة وصحـاب

من اقتضى بسوى الهنديّ حاجته ... أجاب كل سؤال عن هل بلم (٣)

منها:

ولم تـزل قلة الإنصـاف قـاطعـة ... بين الرجال ولو كانوا ذوي رحم
لا تشتكـون إلى خلق فتشمتهـم ... شكوى الجريح إلى العقبان والرخم (٤)
وكن على حـذر للنـاس تستـره ... ولا يغـرك منهم ثـغـر مبتسـم

منها:

أتى الـزمـان بنـوه في شبيبتـه ... فـسـرهم وأتـينـاه عـلى الهـرم
سبحان خالق نفسي كيف لـذتها ... فيمـا النفـوس تـراه غـايـة الألم

ومن أمثاله التي سارت في هجو كافور، قوله:

العبـد ليس لحـر صـالـح بـأخ ... لـو أنه في ثيـاب الخز مـولود (٥)
لا تشتـر العبد إلا والعصى معـه ... إن العبيـد لأنجـاس منـاكيـد (٦)

---

(١) غرة: اغترار.

(٢) ظهر سابح: ظهر حصان، وروي: سرج سابح.

(٣) الهندي: السيف.

(٤) العقبان: جمع عقاب وهو طائر من الجوارح ـ الرخم: جمع رخمة وهو طائر من الجوارح الكبيرة.

(٥) الخز: الحرير الخالص.

(٦) أنجاس: مفردها نجس وهو القذر ـ مناكيد: مفردها نَكِد وهو قليل الخير.

ما كنت أحسبني أبقى إلى زمن يسيء بي فيه كلب وهو محمود
من علم الأسود المخصيَّ مكرمة أقومه البيض أم آباؤه السود[1]

ومن أمثاله:

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

ومن أنصافه التي سارت أمثالاً: ولا بد دون الشهد من إبر النحل.

وقال من قصيد:

قد كنت أحذر بينهم من مثل ذا لو كان ينفع خائفاً ان يحذرا
أعطى الزمان فما قبلت عطاءه. وأراد بي فأردت أن أتخيرا

وقال من قصيدة:

وقد يتقارب الوصفان جدا وموصوفاهما متباعدان

وقوله: نحن بنو الموتى فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه
تبخل أيدينا بأرواحنا على زمان هي من كسبه
لو فكر العاشق في منتهى حسن الذي يسبيه لم يسبه
يموت. راعي الضأن في جهله ميتة جالينوس في طبه
وغاية المفرط في سلمه كغاية المفرط في حربه
فلا قضى حاجته طالب فؤاده يخفق من رعبه

وقال من قصيد:

إذا اشتبكت دموع في خدود تبين من بكى ممن تباكى

ولقد رأيت، هنا في هذا القدر الذي أوردْته من شعر أبي الطيب، من إرسال المثل ما تطيب به الأذواق، وتجول به فرسان الإنشاء بالحمر من جياد الأقلام في ميادين الأوراق، وعلى كل تقدير فما لأبي الطيب في حكمه وأمثاله نظير.

وهنا نكتة لطيفة وهي أن صلاح الدين الصفدي كان مذهبه تقديم أبي الطيب المتنبي على أبي تمام، وهو مذهب أبي العلاء المعري، فإنه سمى ديوانه بعدما شرحه معجز أحمد فاتفق أن صلاح الدين اجتمع بابن نباتة، بالديار المصرية، وذاكره في أبي

---

(١) الأسود المخصي: كافور وكان عبداً مخصياً إذ كان العبيد يخصون لأنهم كانوا يخدمون النساء.

الطيب وأبي تمام فوجده على مذهبه، واجتمعا بعد ذلك بالشيخ أثير الدين أبي حيان، وذاكراه في ذلك فقدَّم أبا تمام، فلاماه على ذلك، فقال أنـا لا أسمع لوماً في حبيب. انتهى.

ومذهبي في ذلك مذهب الشيخ صلاح الدين ومذهب الشيخ جمال الدين، وإن كان الشيخ أثير الدين ما سمع في حبيبه لوماً، وخالف من لامه فيه، وفند[1] فمن المستحيل رجوع أبي بكر عن حب أحمد، وقد عن لي أن أورد هنا ما سارت في الخافقين حكمه وأمثاله، وانقاد أهل الذوق السليم لطاعته لما ورد عليهم مثاله، وهو تأليفي الذي وسمته «بتغريد الصادح» وما ذاك إلا أن سيدنا ومولانا قاضي القضاة صدر الدين بن الأدمي، نور الله ضريحه وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه، كان يقول: أود أن أنتزع من الصادح والباغم[2] أرجوزة مشتملة على أمثلة مرقصة وحكم بديعة، بشرط أن يكون البيت منسجماً مع الذي قبله والذي بعده، ولم يتيسر لي ذلك لصعوبة المسلك، انتهى.

ولما قدر الله تعالى ما قدّره من الاختفاء بدمشق، سنة ثلاث عشرة وثمانمائة عند حلول الملك الناصر بها، وأنا في خدمة المقر الأشرف القاضوي محمد بن البارزي الجهني الشافعي، صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، كان الصادح والباغم بين كتبه فنظر فيه يوماً، وذكر قول قاضي القضاة صدر الدين، ورسم لي بذلك، فانتزعت له هذه الأرجوزة التي سارت غرر أمثالها، ولم يسمح الزمان لمؤلف بمثالها، ومن سافر فيها نظره وكان الذوق السليم رفيقه، علم أنها تضرب بها الأمثال على الحقيقة، وسميتها بتغريد الصادح، وصدرتها من نظمي بأبيات تقوم مقام الديباجة والخطبة هي:

الحمد لله الذي هذّبنا	واختارنا للعلم إذ أدبنا
فإن للآداب فضلاً يذكر	فلا تخاطب كل من لا يشعر
يا مدّعي الحكمة في كلامه	ومن يروم السحر في نظامه[3]
خذ حكماً وكلها أمثال	ليس لها في عصرنا مثال
ألفها ابن حجة للنُجبا	لأن فيها رأس مال الأدبا[4]
واختارها من مفردات الصادح	فكان ذا من أكبر المصالح
من كل بيت إن تمثلت به	سكنت من سامعه في قلبه

(١) فنّد: بين الأسباب.

(٢) الباغم: صاحب الصوت الرخيم.

(٣) يروم: يقصد.

(٤) النجبا: ترخيم نجباء مفردها النجيب وهو الذكي.

وقد تهجمت على الشريف لكنني خاطبت بالمعروف
وجئت من كلامه بنبذة تجلب للسامع كل لذة
وترفع الأديب إن تمثلا بها إذا خاطب أرباب العلا
من حكم تتبعها وصايا مقبولة من أحسن السجايا
من أوّل وأوسط وآخر جمعتها جمع أديب شاعر
حتى دنا البعيد للقريب وانتظم البديع بالغريب
وانسجمت في جمعها أرجوزه بديعة غريبة وجيزه
وكل من أنكر ما أحكمت في ترتيبها يكون غير منصف
فلينظر الأصل ليعرف السببه ويعترف إن كان من أهل الأدب
أول ما يرغب في استهلاله من نظمه المحكم في مقاله

وهذا أوّل الصادح والباغم:

العيش بالرزق وبالتقدير وليس بالرأي ولا التدبير
في الناس من تسعده الأقدار وفعله جميعه إدبار

ومن هنا يأتي هذا التأليف جميعه على هذا النمط، وما أردت بهذا التنبيه إلا يقظة المتأمل:

من عرف الله أزال التهمه وقال كل فعله للحكمة
من أنكر القضاء فهو مشرك إن القضاء بالعباد أملك
ونحن لا نشرك بالله ولا نقنط من رحمته إذ نبتلي(١)
عار علينا وقبيح ذكر أن نجعل الكفر مكان الشكر
وليس في العالم ظلم جاري إذ كان ما يجري بأمر الباري
وأسعد العالم عند الله من ساعد الناس بفضل الجاه(٢)
ومن أغاث البائس الملهوفا أغاثه الله إذا أخيفا
إن العظيم يدفع العظيما كما الجسيم يحمل الجسيما
فإن من خلائق الكرام رحمة ذي البلاء والأسقام(٣)
وإن من شرائط العلوّ العطف في البؤس على العدوّ

---

(١) نبتلي: نصاب بالمصائب امتحاناً وتجريباً.

(٢) الجاه: كثرة المال والغنى.

(٣) الأسقام: الأمراض.

وقد علمت واللبيب يعلم بالطبع لا يرحم من لا يرحم[1]
فالمرء لا يدري متى يمتحن فإنه في دهره مرتهن
وإن نجا اليوم فما ينجو غدا لا يأمن الآفات إلا ذو الردى
لا تغترر بالحفظ والسلامه فإنما الحياة كالمدامه
والعمر مثل الكاس والدهر القذر والصفو لا بدّ له من الكدر

أنظر أيها المتأمل كيف اتبعت قوله: فإنما الحياة كالمدامه، بقوله: فالعمر مثل الكاس. وإذا نظرت إلى آخر البيت رأيت الاتفاق العجيب، منها:

وكل إنسان فلا بدّ له من صاحب يحمل ما أثقله
جهد البلاء صحبة الأضداد فإنها كيٌّ على الفؤاد[2]
أعظم ما يلقى الفتى من جهد أن يبتلى في جنسه بالضد
فإنما الرجال بالإخوان واليد بالساعد والبنان
لا يحقر الصحبة إلا جاهل أو مارق عن الرشاد غافل[3]
صحبة يوم نسب قريب وذمة يحفظها اللبيب
وموجب الصداقة المساعده ومقتضى المودّة المعاضده
لا سيما في النوب الشدائد والمحن العظيمة الأوابد[4]
فالمرء يحيى أبداً أخاه وهو إذا ما عدّ من أعداه
وإن من عاشر قوماً يوماً ينصرهم ولا يخاف لوما
وإن من حارب من لا يقوى لحربه جر إليه البلوى
فحارب الأكفاء والأقرانا فالمرء لا يحارب السلطانا
واقنع إذا حاربت بالسلامه واحذر فعالاً توجب الندامه
فالتاجر الكيس في التجاره من خاف في متجره الخساره[5]
يجهد في تحصيل رأس ماله ثم يروم الربح باحتياله
وإن رأيت النصر قد لاح لكا فلا تقصر واحترز أن تهلكا
واسبق إلى الأجود سبق الناقد فسبقك الخصم من المكايد[6]

(١) اللبيب: الذكي الماهر.
(٢) كي: لذع.
(٣) المارق: الخارج ـ الرشاد: الهدى.
(٤) الأوابد: العظيمة. النوب: المصائب.
(٥) الكيِّس: اللبق الماهر.
(٦) الناقد: الذي يحسن التمييز بين الجيد والرديء ـ المكايد: مفردها مكيدة وهي الحيلة.

وانتهـز الفـرصـة إن الفـرصـه ... تصيـر إن لم تنتهـزهـا غصـه
كـم نـظر الـغـالـب ي فـتـرك ... عنـه التوقي واستهـان فهلك[1]
ومن أضـاع جنـده فـي السـلم ... لم يحفـظوه في لقـاء الخصم
وإن مـن لا يـحـفظ الـقـلوبـا ... يخـذل حين يشهـد الحـروبـا
والجنـد لا يرعـون من أضـاعهم ... كـلا ولا يحمـون من أجـاعهم
وأضـعف الـملوك طـراً عـقـدا ... من غـره السلم فـأقصى الجنـدا
والحـزم والتـدبيـر روح العـزم ... لا خيـر في عـزم بغيـر حـزم
والحزم كل الحـزم في المطاولـة ... والصبر لا في سرعة المزاولـه[2]
وفي الخـطوب تـظهـر الجـواهـر ... مـا غلب الأيـام إلا الصـابـر
لا تـيـأسـن مـن فـرج ولـطف ... وقسوة تـظهـر بـعـد ضـعـف
فـربمـا جـاءك بعـد اليـاس ... روح بـلا كـدّ ولا التمـاس[3]
في لمحـة الطرف بكـاء وضحك ... ونـاجـذ بـاد ودمع ينسفـك[4]
تـنـال بـالـرفق وبـالـتـأني ... مـا لم تنـل بـالحرص والتعني
مـا أحسن الثبـات والتجـلدا ... و الـحـيـرة والـتـبـلدا
ليس الفتى إلا الـذي إن طـرقـه ... خـطب تـلقـاه بـصـبـر وثقـه
إذا الـرزايـا أقبلت ولـم تقـف ... فثم أحـوال الـرجـال تـختـلف
وكـم لـقـيـت لـذة فـي زمـنـي ... فـاصبـر الآن لهـذي المحـن
فـالـمـوت لا يكـون إلا مـرة ... والمـوت أحلى من حيـاة مـره
إنـي من الـمـوت على يـقـيـن ... فـاجـهـد الآن لمـا يـقيـني[5]
صبـراً على أهـوالهـا ولا ضجـر ... وربـمـا فـاز الفـتى إذا صبـر
لا يجـزع الحـر من المصـائب ... كـلا ولا يـخـضـع لـلـنـوائب
فـالحـر للعبء الثقيـل يحمـل ... والصبر عنـد النـائبـات يجمـل
لـكـل شـيء مـدة وتـنـقـضـي ... مـا غـلب الأيـام مـن رضـي

قـد صـدق القـائـل فـ الكـلام ... لـيس الـنـهـى بـعـظم العـظام
لا خـيـر في جسـامـة الأجـسـام ... بـل هـو في العقـول والأفهـام
فـالخيـل لـلحـرب وللجـمـال ... والإبـل لـلحـمـل ولـلتـرحـال

---

(١) التوقي: الاحتراس.

(٢) المزاولة: الممارسة.

(٣) الكد: التعب ـ الالتماس: طلب الشيء ممن هو فوقك رتبة.

(٤) الناجذ: الناب والسن.

(٥) يقيني: من وقى؛ حمى.

لا تحتقر شيئاً صغيراً محتقر فربما أسالت الدم الإبر
لا تحرج الخصم ففي إحراجه جميع ما تكره من لجاجه[1]
لا تطلب الفائت باللجاج وكن إذا كويت ذا إنضاج[2]
فعاجز من ترك الموجودا طماعة وطلب المفقودا
وفتش الأمور عن أسرارها كم نكتة جاءتك مع اظهارها
لزمت للجهل قبيح الظاهر وما نظرت حسن السرائر
ليس يضر البدر في سناه إن الضرير قض لا يراه
كم حكمة أضحت بها المحافل نافقة وأنت عنهما غافل
ويغفلون عن خفي الحكمه . ولو رأوها لأزالوا التهمه
كم حسن ظاهره قبح وسمج عنوانه مليح[3]
والحق قد تعلمه ثقيل يأباه إلا نفر قليل
فالعاقل الكامل في الرجال لا ينثني لزخرف المقال
إن العدوّ قوله مردود وقلما يصدق الحسود
لا تقبل الدعوى بغير شاهد لا سيما إن كان من معاند
أيؤخذ البريء بالسقيم والرجل المحسن باللئيم
كذاك من يستنصح الأعادي يردونه بالغش والفساد[4]
إنَّ أكلَّ من ترى أذهانا من حسب الإساءة الإحسانا[5]
فادفع إساءة العدا بالحسنى ولا تخل يسراك مثل اليمنى
وللرجال فاعلمن مكايد وخدع منكرة شدائد
فالندب لا يخضع للشدائد قط ولا يغتاظ بالمكايد[6]
فرقّع الخرق بلطف واجتهد وامكر إذا لم ينفع الصدق وكد
فهكذا الحازم إذ يكيد يبلغ في الأعداء ما يريد
وهو بريء منهم في الظاهر وغيره مختضب الأظافر[7]

(١) اللجاجة: التمادي في العناد.
(٢) اللجاج: الإلحاح.
(٣) السمج: القبيح الذي لا يطاق.
(٤) يردونه: يهلكونه من أردى: أهلك.
(٥) أكلُّ: من الكلال وهو الفساد.
(٦) الندب: الذي ينتدب لقضاء الحاجة والنجدة ـ يغتاظ: يغضب ويثور.
(٧) مختضب: مدهون، مصبوغ.

والشهم من يصلح أمر نفسه ... ولو بقتل ولده وعرسه
فإن من يقصد قلع ضرسه ... لم يعتمد إلا صلاح نفسه
وإن من خص اللئيم بالندا ... وجدته كمن يربي أسدا[1]
وليس في طبع اللئيم شكر ... وليس في أصل الدنيء نصر
وإن من ألزمه وكلفه ... ضدّ الذي في طبعه ما أنصفه
كذاك من يصطنع الجهالا ... ويؤثر الأرذال والأنذال[2]
لو أنكم أفاضل أحرار ... ما ظهرت بينكم الأسرار
إن الأصول تجذب الفروعا ... والعرق دساس إذا أطيعا[3]
ما طاب فرع أصله خبيث ... ولا زكا من مجده حديث
قد يدركون رتباً في الدنيا ... ويبلغون وطراً من بغيا
لكنهم لا يبلغون في الكرم ... مبلغ من كاب له فيها قدم
وكل من تمايلت أطرافه ... في طيها وكرمت أسلافه
كان خليقاً بالعلا وبالكرم ... وبرعت في أصله حسن الشيم[4]
لولا بنو آدم بين العالم ... ما بان للعقول فضل العالم
فواحد يعطيك فضلاً وكرم ... فذاك من يكفره فقد ظلم
وواحد يعطيك للمصانعة ... أو حاجة له إليك واقعه[5]
لا تشرهنْ إلى حطام عاجل ... كم أكلة أودت بنفس الآكل
واحذر أخي يا فتى من الشره ... وقس بما رأيته ما لم تره[6]
فليس من عقل الفتى أو كرمه ... إفساد شخص كامل لقرمه[7]
فالبغي داء ماله دواء ... ليس لملك معه بقاء
والبغي فاحذره وخيم المرتع ... والعجب فاتركه شديد المصرع
والغدر بالعهد قبيح جدّا ... شر الورى من ليس يرعى العهدا

---

(١) الندا: العطاء والهبة والكرم.
(٢) يصطنع: يستعملهم على أعماله.
(٣) دساس: مؤثر. وهو من قول النبي محمد (ص) في علم الوراثة: «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس».
(٤) خليقاً: جديراً.
(٥) المصانعة: التزلف، والمداهنة والمداراة.
(٦) الشره: النهم في الأكل وشدة الجشع والطمع.
(٧) قرمه: شهوته ورغبته.

عنـد تمـام الأمـر يبدو نقصـه		وربمـا ضـر الحـريص حرصـه
وربمـا ضـرك بعض مـالكـا		وسـاءك المحسن من رجـالكـا
فـالمرء يفـدي نفسـه بـوفـره		عسـاه أن ينجو بـه من أسره

تمت، وختمها شيخنا رحمه الله بقوله:

لا تعـطين شيئاً بغيـر فـائـده		فـإنها من السجايا الفاسـده
هـذا الـذي ألفتـه واختـرتـه		من رجـز الشـريف وانتخبتـه
وحـرمـة الآداب يـا أهـل الأدب		إن الشـريف قـد أتـانـا بـالعجب
قلنـا جميعاً إذ سمعنـا رجـزه		كم قـد أتى محمـد بمعجـزه
من كـل بيت شـطره قصيـد		وكـلنـا لـبـيـتـه عـبـيـد
فـرحـمـة الله لـه في الآخـره		خـاتمـة مـع الهبات الـوافـره
ثـم الـصـلاة والسـلام دائـمـا		على الـذي للرسل جاء خـاتمـا

انتهى ما أوردته من أمثال أبي الطيب المتنبي، وأمثال الصادح والباغم، ولم أقصد بذلك إلا أخذ ما يحتاج المتأدب إليه، في إرسال المثل على أنواعه، خصوصاً أهل الإنشا فإنه حلية جولانهم، وعمدة فرسانهم، وبيت الشيخ صفي الدين في بديعيته:

رجوتكم نصحاء في الشدائد لي		لضعف رشديَ واستسمنت ذا ورم

فقوله: استسمنت ذا ورم من الأمثال السائرة، ولم ينظم العميان في بديعيتهم هذ النوع، وبيت الشيخ عز الدين في بديعيته:

أنـوار بهجتـه إرسـالهـا مثـلا		يلوح أشهـر من نـار على عَلَمِ

فقوله: أشهر من نار على علم، من الأمثال السائرة. وبيتي:

وكم تمثلت إذ أرخـوا شعـورهم		وقلت: بالله خلوا الرقص في الظُّلَمِ

فالرقص في الظلم من الأمثال السائرة، ولكن قولي لهم بعد إرخاء الشعور: خلوا الرقص في الظلم، لا يخفى على الحذاق من أهل الأدب.

ذكر التهكم

ذل العذول بهم وجدا فقلت له تهكما أنت ذو عز وذو شمم

التهكم نوع عزيز في أنواع البديع، لعلوّ مناره، وصعوبة مسلكه، وكثرة التباسه بالهجاء في معرض المدح، وبالهزل الذي يراد به الجد، ويأتي الفرق بينهما بعد إيضاح حد.

والتهكم، في الأصل، التهدم. يقال: تهكمت البئر، إذا تهدمت وتهكم عليه إذا اشتد غضبه، والمتهكم المحتقر. قال أبو زيد: تهكمت غضبت وتهكمت تحقرت، وعلى هذا يكون المتهكم لشدة الغضب قد أوعد بالبشارة، أو لشدة الكبر أو لتهاونه بالمخاطب قد فعل ذلك، فهذا أصله في الاستعمال.

وفي المصطلح هو عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في مكان الوعيد، والمدح في معرض الاستهزاء، فشاهد البشارة في موضع الإنذار قوله تعالى: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً﴾[1] وشاهد المدح في معرض الاستهزاء، بلفظ المدح، قوله تعالى: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾[2] قال الزمخشري: إن في تأويل قوله تعالى له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله تهكماً، فإن المعقبات هم الحرس من حول السلطان يحفظونه، على زعمه، من أمر الله على سبيل التهكم، فإنهم لا يحفظونه من أمره في الحقيقة إذا جاء، والله أعلم. ومنه قوله تعالى: ﴿قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين﴾[3] فقوله إيمانكم تهكم.

---

(١) النساء، ٤/ ١٣٨.

(٢) الدخان، ٤٤/ ٤٩.

(٣) البقرة، ٢/ ٩٣.

ومن التهكم في السنة الشريفة، قوله ﷺ: بشر مال البخيل بحادث أو وارث.

وشاهد المدح في موضع الاستهزاء، من النظم، قول ابن الذروي في ابن أبي حصينة من أبيات:

لا تظنن حدبة الظهر عيباً ... فهي في الحسن من صفات الهلال
وكذاك القسي محدودبات ... وهي أنكى من الظبا والعوالي[1]
وإذا ما علا السنام ففيه ... لقروم الجمال أيّ جمال[2]
وارى الانحناء في مخلب البا ... زي ولم يعد مخلب الريبال[3]
كوّن الله حدبة فيك إن شئت ... من الفضل أو من الأفضال
فأتت ربوة على طود علم ... وأتت موجة ببحر نوال
ما رأتها النساء إلا تمنت ... أن غدت حلية لكل الرجال

وما أحلى ما ضمنها بقوله:

وإذا لم يكن من الهجر بدّ ... فعسى أن تزورني في الخيال

وقول ابن الرومي:

فيا له من عمل صالح ... يرفعه الله إلى أسفل

وقيل إن أظرف ما نظم في التهكم قول حماد عجرد:

فيا ابن طرح يا أخا ... الحلس ويا ابن القتب[4]
ومن نشا والده ... بين الربا والكثب
يا عربي يا عربي ... يا عربي يا عربي

وهذا النوع، أعني التهكم، ذكر ابن أبي الأصبع في كتابه «تحرير التحبير» أنه من مخترعاته، ولم يره في كتب من تقدمه من أئمة البديع، والعميان لم ينظموه في بديعيتهم.

---

(١) أنكى: أشد فتكاً وأعمق جرحاً ـ الظبا: مفردها ظبة وهي حد السيف وشفرته ـ العوالي: الرماح.

(٢) علا السنام: إرتفع السنام وهو الحدبة الموجودة في ظهر البعير ـ قروم: مفردها قَرْم وهي العظيم الكبير.

(٣) الريبال: الرئبال، الأسد، الذئب.

(٤) الطرح: المولود قبل أوانه ـ الحلس: الجوهر الثمين الذي يبقى مكنوناً لا يخرج ـ القتب: الرحل، أي المولود على رحل البعير.

وقنع الشهاب محمود، في كتابه المسمى «بحسن التوسل»، من أشجار معاليه بالشميم فإنه ذكر بعض شواهده، ولم يأت له بحد تمشي الأفهام فيه على صراط مستقيم، ولكن ابن أبي الأصبع أزال بكارة أشكاله، وكان أبا عذرته وأرضع الأذواق لبان فهمه، وكان فارس حلبته، وقال: الفرق بينه وبين الهزل الذي يراد به الجد: أن التهكم ظاهره جد وباطنه هزل، وهو ضد الأول، لأن الهزل الذي يراد به الجد يكون ظاهره هزلاً وباطنه جداً.

وذكر بعضهم الفرق بين التهكم والهجاء في معرض المدح، فقال: الفرق بينهما التصريح بلفظة في الأخر يخالف معناها معنى الالتزام في الكلام الأول، وهو في هذا دون الأول.

والشيخ صفي الدين نظم التهكم في بديعيته، ولكن ما أسكن بيته قرينة صالحة لبيانه، ولا غردت حمائم الإيضاح على أفنانه، وبيته:

محضتني النصح إحساناً عليَّ بلا   غش وقلدتني الإنعام فاحتكم

ولم يظهر لي من هذا البيت غير صريح المدح والشكر، ولم أجد فيه لفظة تدل على الحقارة والاستهزاء، ولا على البشارة في موضع الإنذار، ولا على الوعد في موضع الوعيد، ولم يشر في بيته إلى نوع من هذه الأنواع، وقد تقدم أن العميان لم ينظموه في بديعيتهم، وبيت الشيخ عز الدين:

لقد تهكمت فيما قد منحتك من   قولي بأنك ذو عز وذو كرم

فالشيخ عز الدين ذكر في بيته أنه تهكم على العذول، لما خاطبه بلفظ العز والكرم، ولكنه لم يأت بصيغة التهكم وبيتي:

ذل العذول بهم وجداً فقلت له   تهكما أنت ذو عز وذو شمم

فخطاب العذول هنا بلفظ العز والشمم بعد وقوف العاذل في موقف الذل هو التهكم بعينه.

ذكر المراجعة

قال اصطبر قلت صبري ما يراجعني   قال احتمل قلت من يقوى لصدهم

المراجعة ليس نحتها كبير أمر، ولو فوض إليَّ حكم في البديع ما نظمتها في أسلاك أنواعه، وذكر ابن أبي الأصبع إنها من اختراعاته، وعجبت من مثله كيف قربها إلى الذي استنبطه من الأنواع البديعة الغريبة، كالتهكم والافتنان والتدبيج والهجاء في معرض المدح والاشتراك والألغاز والنزاهة، ومنهم من سمى هذا النوع، أعني المراجعة، السؤال والجواب، وهو أن يحكي المتكلم مراجعة في القول، ومحاورة في الحديث بينه وبين غيره، بأوجز عبارة وأرشق سبك، وألطف معنى، وأسهل لفظ، إما في بيت واحد أو في أبيات، كقول عمر بن أبي ربيعة:

بينما ينعتنني أبصرنني   مثل قيد الرمح يعدو بي الأغر(١)
قالت الكبرى: ترى من ذا الفتى   قالت الوسطى لها: هذا عمر(٢)
قالت الصغرى وقد تيمتها: قد عرفناه وهل يخفى القمر(٣)

---

(١) ينعتني: يصفني، يعدو: يركض ـ الأغر: الحصان الأبيض الذي في جبهته غرة وقد روي هذا البيت كما يلي:

بينما يذكرنني أبصرنني   دون قيد الميل يعدو بي الأغر

(٢) وهذا البيت روي: قالت الكبرى أتعرفن الفتى . وهذا البيت أنسب للإجابة في البيت الثالث: قد عرفناه

(٣) تيمتها: جعلتها تحبني وتتعلق بي.

قال ابن أبي الأصبع، لما أورد هذه الأبيات، واستشهد بها على هذا النوع، في كتابه المسمى بتحرير التحبير: إن هذا الشاعر عالم بمعرفة وضع الكلام في مواضعه، وما ذاك إلا أن قوافي الأبيات لو أطلقت لكانت مرفوعة، وأما بلاغته في الأبيات فإنه جعل التي عرفته وعرّفت به وشبهته تشبيهاً يدل على شغفها به، هي الصغرى، ليظهر بدليل الالتزام أنه فتيّ السن إذ الفتية من النساء لا تميل إلا إلى الفتى من الرجال غالباً، وختم قوله بما أخرجه مخرج المثل السائر موزوناً، ولا يقال إنما مالت الصغرى إليه دون أختيها لضعف عقلها وقلة تجربيها، فإني أقول إنه تخلص من هذا المدخل بكونه أخبر أن الكبرى التي هي أعقلهن، ما كانت رأته قبل ذلك، وإنما كانت تهواه على السماع، فلما رأته وعلمت أنه ذلك الموصوف لها، أظهرت من وجدها به على مقدار عقلها، ما أظهرت من سؤالها عنه، ولم تتجاوز ذلك وقنعت بالسؤال عنه، وقد علمته بلذة السؤال وبسماع اسمه، وأظهرت تجاهل العارف الذي موجبه شدة الوله، والعقل يمنعها من التصريح، وأما الوسطى فسارعت إلى تعريفه باسمه العلم فكانت دون الكبرى في الثبات، وأما الصغرى فمنزلتها في الثبات دون الأختين، لأنها أظهرت في معرفة وصفه ما دل على شدة شغفها به، فكل ذلك وإن لم يكن كذلك فألفاظ الشاعر تدل عليه. انتهى كلام ابن أبي الأصبع.

ومن جيد أمثلة هذا النوع قول أبي نواس:

قال لي يوماً سليما ... ن وبعض القول أشنع[1]
قال صفني وعليا ... أينا أبقى وأنفع
قلت إني إن أقل ما ... فيكما بالحق تجزع
قال كلا قلت مهلاً ... قال قل لي قلت فاسمع
قال صفه قلت يعطي ... قال صفني قلت تمنع

ومثله قول البحتري:

بت أسقيه صفوة الراح حتى ... وضع الرأس مائلاً يتكفا[2]
قلت عبد العزيز تفديك نفسي ... قال لبيك قلت لبيك ألفا
هاكها قال هاتها قلت خذها ... قال لا أستطيعها ثم أغفى[3]

---

(١) أشنع: ثقيل.

(٢) يتكفا: يتمايل.

(٣) هاكها: انظرها.

وعلماء البديع أجمعوا على استحسان قول وضاح اليمن، من أبيات:

قالت ألا لا تلجن دارنا ... إن أبانا رجل غائر[1]
قلت فإني طالب غرة ... منه وسيفي صارم باتر
قالت فإن البحر ما بيننا ... قلت فإني سابح ماهر
قالت فإن القصر عالي البنا ... قلت فإني فوقه طائر
قالت أليس الله من فوقنا ... قلت بلى وهو لنا غافر
قالت فقد أعييتنا حيلة ... فأت إذا ما هجع السامر[2]
واسقط علينا كسقوط الندى ... ليلة لا ناهٍ ولا آمر

وظريف هنا قول بعضهم:

قالت لقد أشمت بي حُسّدي ... مذ بحت بالسر لهم معلنا
قلت أنا! قالت وإلا فمن ... قلت أنا قالت وإلا أنا

وهي أبيات طويلة جميعها على هذا المنوال منسوج، ولكن اكتفيت بالتمثيل منها على هذا القدر.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي:

قالوا اصطبر قلت صبري غير متبع ... قالوا اسلَهُم قلت وذي غير منصرم[3]

ولم ينظم العميان في بديعيتهم هذا النوع، وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعيته:

راجعت في القول إذ أطلقت سلوتهم ... قال اسلهم قلت سمعي عنك في صمم

والمراجعة إن لم تتكرر، لم يبق لها في القلوب حلاوة، ولا يطابق اسمها مسماه، وقد تقدم قول الشاعر وتكراره في قوله:

قلت أنا قالت وإلا فمن ... قلت أنا قالت وإلا أنا

وعز الدين لم يكرر مراجعته، ولم يأت بها إلا في مكان واحد، والذي أقوله إنه ما

---

(١) ولج: دخل سراً ـ الغائر: النائم في وسط النهار.
(٢) هجع: رقد ونام.
(٣) أسلهم: أمر من سلا: نسي.

مدّه عن ذلك إلا اشتغاله بتسمية النوع، ولكن ليته لو دخل إلى سوق الرقيق، وبيت بديعيتي:

قال اصطبر قلت صبري ما يراجعني   قال احتمل قلت من يقوى لصدهم

وهذا البيت متعلق ببيت التهكم الذي قبله، وهو البيت المبني على خطاب العاذل وهو:

ذل العذول بهم وجداً فقلت له   تهكماً: أنت ذو عز وذو شمم

ذكر التوشيح

توشيحهم بملا تلك الشعور إذا لفوه طياً يعرّفنا بنشرهم

اتفق علماء البديع على أن التوشيح: أن يكون معنى أول الكلام دالاً على لفظ آخره، ولهذا سموه التوشيح فإنه ينزل فيه المعنى منزلة الوشاح، وينزل أول الكلام وآخره منزلة محل الوشاح من العاتق والكشح اللذين يجول عليهما الوشاح، وهذا النوع فرّعه[1] قدامة من ائتلاف القافية، مع ما يدل عليه سائر البيت، وقال فيه: التوشيح هو أن يكون في أول البيت معنى، إذا فهم فهمت منه قافية البيت، بشرط أن يكون المعنى المقدم بلفظه، من جنس معنى القافية بلفظه.

وأورد ابن أبي الأصبع في «تحرير التحبير» من أعظم الشواهد على هذا قوله تعالى: ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾[2] فإن في معنى اصطفاء المذكورين، ما يعلم منه الفاصلة، لأن المذكورين نوع من جنس العالمين.

ومن الأمثلة الشعرية، قول الراعي النميري:

فإن وزن الحصى فوزنت قومي وجدت حصى ضريبتهم رزينا[3]

فإن السامع إذا فهم أن الشاعر أراد المفاخرة برزانة الحصى، وتحقق أن القافية

---

(١) فرّعه: جعله فرعاً.

(٢) آل عمران، ٣/ ٣٣.

(٣) الضريبة: السجية - رزين: للمذكر والمؤنث: ثقيلاً.

مجردة مطلقة رويها النون، وحرف إطلاقها الألف، ورأى في صدر البيت ذكر الزنة، تحقق أن تكون القافية رزيناً ليس إلا.

ومن عجائب أمثلة هذا النوع ما حكي عن عمر بن أبي ربيعة أنه أنشد عبد الله بن العباس رضي الله عنهما:

تشط(١) غداً دار جيراننا. فقال له عبد الله: وللدار بعد غد أبعد

فقال عمر: هكذا والله قلت: فقال عبد الله بن العباس: وهكذا يكون.

ويقرب من هذه القصة قصة عديّ بن الرقاع، حين أنشد الوليد بن عبد الملك، بحضرة جرير والفرزدق، قصيدته التي مطلعها: «عرف الديار توهماً فاعتادها» حتى انتهى إلى قوله: «تزجي أغن كأن إبرة روقه(٢)». ثم شغل الوليد عن الاستماع، فقطع عديّ الإنشاد، فقال الفرزدق لجرير: ما تراه يقول! فقال جرير: أراه يستلب بها مثلاً. فقال الفرزدق: إنه سيقول: قلم أصاب من الدواة مدادها. فلما عاد الوليد إلى الاستماع، وعاد عديّ إلى الإنشاد، قال البيت. فقال الفرزدق: والله لما سمعت صدر بيته رحمته، فلما أنشد عجزه انقلبت الرحمة حسداً.

قال زكي الدين بن أبي الأصبع: الذي أقوله إن بين ابن العباس وبين الفرزدق، في استخراجهما العجزين، كما بينهما في مطلق الفضل، وفضل ابن عباس رضي الله عنهما معلوم، وأنا أذكر الفرق: فإن بيت عدي بن الرقاع من جملة قصيدة تقدم مطلعها مع معظمها، وعلم أنها دالية مردفة بألف، وهي من وزن قد عرف، ثم تقدم في صدر البيت ذكر ظبية تسوق خشفاً لها، قد أخذ الشاعر في تشبيه طرف قرنه بالقلم في سواده، وهذه القرائن لا تخفى على أهل الذوق الصحيح أن فيها ما يدل على عجز البيت، بحيث يسبق إليه من هو دون الفرزدق من حذاق الشعراء، وبيت عمر بيت مفرد لم تعلم قافيته من أي ضرب هي من القوافي، ولا رويه من أي الحروف، ولا حركة رويه من أي الحركات، فاستخراج عجزه ارتجالاً في غاية العسر ونهاية الصعوبة، لولا ما أمد الله تعالى به هؤلاء الأقوام من المواد التي فضلوا بها عن غيرهم. انتهى كلام ابن أبي الأصبع.

وبين التوشيح والتصدير فرق ظاهر مثل الصبح، ولم يحصل الالتباس إلا لكون كل منهما يدل صدره على عجزه، والفرق أن دلالة التصدير لفظية، ودلالة التوشيح معنوية،

---

(١) تشط: تبعد.

(٢) تزجي تسوق ـ الأغن: الخشف وهو ولد الظبية ذي الصوت الذي فيه غُنّة ـ الإبرة: الطرف ـ روقه: قرنه.

والفرق بين التوشيح والتمكين أيضاً أن التوشيح قد تقدم أنه لا بد أن يتقدم قافيته معنى يدل عليها، والتمكين بخلاف ذلك.

والعميان لم ينظموا أنواع التوشيح في بديعيتهم، وبيت صفي الدين:

هم أرضعوني ثدي الوصل حافلة فكيف يحصل منها ـالٍ منفطمي[1]

فقصيدة صفي الدين قد علم أنها ميمية، وقد مرَّ على السامع منها عدة أبيات، وقد صدر بيت التوشيح بذكر الرضاع والثدي، فما يخفى أن تكون القافية منفطماً إلا على كل أجنبي من هذا العلم. ولقد برز في حسن هذا التركيب باستجلاب الرقة على من تقدمه.

وبيت الشيخ عز الدين:

نومي وعقلي بتوشيح الهوى سلبا فبت صبا بـلا حُلم ولا حِـلم

قال في شرحه: الهوى وشحني برداه غطاني، فسلب نومي وعقلي فصرت بلا حلم ولا حلم. وهذه عبارته بنصها.

وبيتي: توشيحهم بملا تلك الشعـور إذا لفـوه طياً يعـرفـنـا بنشـرهـم

هذا النوع أعني التوشيح يفتقر الناظم إلى قدح زناد الفكر في سبك معانيه، مع الملكة والبسطة في علم الأدب وحسن التصرف، لا سيما إذا التزم بتسمية النوع، وأبرز التسمية منتظمة في سلك التورية من جنس الغزل، فتسمية النوع هنا قد عرفت والإتيان في هذا البيت بلفظة الملا، هو الذي رشح جانب التوشيح الجائل على العاتق والكشح، وأما توشيح الهوى في بيت الشيخ عز الدين، فلم ينسج على منوال مقبول، لأن استعارة الوشاح للهوى المقصور الذي هو الغرام، لم يفهم منها شيء يقرب من التشبيه، فإن علماء البديع قالوا: الاستعارة هي ذكر الشيء باسم غيره، وإثبات ما لغيره له لأجل المبالغة في التشبيه. وعلى هذا التقدير تكون استعارة الملا للشعور، في حالة توشيح الأحباب بها، هي الاستعارة التي يستعار منها المحاسن الأدبية، فإن حسن التشبيه قد غازل بعيون كماله غزلها، والتصريح في البيت، بلفظ اللف والنشر والطي، يعرفه من له أدنى ذوق، مع أني ما اكتفيت بذلك حتى قلت بعد اللف والطي: تعرفنا، وتعرفنا فيها الاشتراك بين المعرفة والعرف، فإذا تقرر أن القافية ميمية، ما يتصور في ذوق أن تكون القافية غير نشرهم، وقد اجتمع في هـذا البيت من أنواع البـديع: التـورية، وحسن الاستعارة، والترشيح، والمطابقة، والبسط، والانسجام، والتمكين، والسهولة، والتوشيح الذي هو العمدة. والله أعلم بالصواب.

(١) حافلة: ملأى.

ذكر تشابه الأطراف

شابهت أطراف أقوالي فإن أهم　　　أهم إلى كل وادٍ في صفاتهم[1]

هذا النوع الذي سموه تشابه الأطراف، هو أيضاً مثل المراجعة التي تقدمت، ليس في كل منهما كبير أمر. وتالله ما خطر لي يوماً، ولا حسن في الفكر أن ألحق طرفاً من تشابه الأطراف بذيل من أبيات شعري، ولكن شروع المعارضة ملتزم، وتشابه الأطراف هو أن يعيد الناظم لفظة القافية في أول البيت الذي يليها، وهذا النوع كان اسمه التسبيغ، بسين مهملة وغين معجمة، وإنما ابن أبي الأصبع قال: هذه التسمية غير لائقة بهذا المسمى، فسماه تشابه الأطراف، فإن الأبيات فيه تتشابه أطرافها. وأحسن ما وقع في هذا النوع، قول أبي نواس:

خزيمة خير بني خازم　　　وخازم خير بني دارم
ودارم خير تميم وما　　　مثل تميم في بني آدم

ولما كان هذا النوع لا يأتي إلا في بيتين، والشيخ عز الدين لما التزم أن يأتي به، لأجل التورية بالتسمية، في بيت واحد، شطر البيت شطرين، وجعل كل شطر بمنزلة بيت كامل، وأعاد لفظ القافية في الشطر الثاني، فجاء به في غاية اللطف. فإن الشيخ صفي الدين أورد قبله بيت الاكتفاء، ويأتي الكلام عليه في موضعه، وإنما المراد هنا معرفة تشابه الأطراف، وهو:

قالوا ألم تدر أن الحب غايته　　　سلب الخواطر والألباب قلت لم
لم أدر قبل هواهم والهوى حرم　　　أن الظباء تحل الصيد في الحرم

(١) أهم: من الهيام وهو الضياع من العشق والجنون.

تشابه الأطراف بين لم ولم، في آخر البيت الأول وأول الثاني.

وبيت الشيخ عز الدين:

أطـرافك اشتبهت قـولاً متى تلم تلم فتى زائـد البلوى فلم يـلم

أما قوله أطرافك اشتبهت يضيق الكلام فيه.

وبيت بديعيتي:

شـابهت أطراف أقـوالي فإن أهم أهم إلى كـل واد في صفـاتهم

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم، ويا ليتني كنت معهم.

ذكر التغاير

أغاير الناس في حب الرقيب فمذ   أراه ابسط آمـالي بقـربهـم

التغاير: سماه قوم التلطف، وهو أن يتلطف الشاعر بتوصله إلى مدح ما كان قد ذمه، هو أو غيره. فأما مدح الإنسان ما ذمه غيره، فإن الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه أتى فيه بما يمتزج صافي مشربه بالأرواح، وينقلنا ببديع بلاغته من الإبهام إلى الإيضاح. فمن ذلك خطبته التي مدح فيها الدنيا، مغايراً لأمثاله في ذمها، حيث قال:

أيها الذام للدنيا، المغتر بغرورها، بم تـذمها، أنت المتجرىء عليها أم هي المتجرئة عليك، متى استهونك أم متى غرتك، أبمصارع آبائك من البلى، أم بمضاجع أمهـاتك تحت الثرى، كم عللت ولديـك، وكم مرضت والـديك تبغي لهم الشفـاء وتستوصف لهم الأطباء، لم ينفع أحدهم إشفاقك، ولم تشف لهم بطبك، ولم تدفع عنهم بقوتك، قد مثلت لك بهم الدنيا نفسك، وخيلت لك بمصرعهم مصرعك، إن الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباب الله، ومصلى ملائكته، ومهبط وحي الله، ومتجر أوليائه، اكتسبوا منها الرحمة، وربحوا منها الجنة، فمن ذا يذمها وقد أذّنت ببنيها ونادت بفراقها ونعت نفسها وأهليها، فمثلت لهم ببلائها البلى، وشوقتهم بسرورها إلى السرور، وراحت بعافية، وابتكرت بفجيعة، ترغيباً وترهيباً، فذمها رجال غداة الندامة، وحمدها آخرون ذكّرتهم الدنيا فذكروا، وحدثتهم فصدقوا، ووعظتهم فاتعظوا.

ونظم ابن أبي الأصبع معاني هذه الخطبة فقال:

سن يـذم الـدنيـا بـظلم فـإني — بـطريق الإنصـاف اثني عليهـا
وعـظتنـا بـكـل شـيء وإنـا — حين جدّت بالوعظ من مصطفيها
نصحتنا فلم نـر النصـح نصحاً — حين أبـدت لأهلها مـا لـديهـا
أعلمتنـا أن المـآل يقينـاً — للبلى حين جددت عصريها[1]
كم أرتنا مصارع الأهل والأحباب — لـو نـستفيـق يـومـاً إليـهـا
يوم بـؤس لـهـا ويـوم رخـاء — فتـزود مـا شئت من يـوميهـا
وتـيـقـن زوال ذاك وهـذا — تسـل عمـا تـراه من حـادثيهـا
دار زاد لـمـن تـزود منـهـا — وغـرور لمن يميْـل إليـهـا
مهبط الوحي والمصلى الذي كم — عفـرتِ صـورة بهـا خـديهـا[2]
متجر الأولياء قد ربحوا الجنة — منـهـا وأوردوا عـينـيـهـا
رغـبـت ثـم رهـبـت لـيـرى — كـل لبيب عقباه في حـالتيهـا
وإذا أنـصـفـت تـعـين أن يـثـ — ـني عليهـا ذو البـر من ولـديهـا

فأما من ذم ما مدحه الناس قاطبة، فابن الرومي، فإنه ذم الورد وهو مشهور، ووصف البحتري يوم الفراق بالقصر، وقد أجمع الناس على طوله، فقال:

ولقد تأملت الفـراق فلم أجد — يـوم الفراق على امرىء بطويـل
قصـرتْ مسـافتـه على متـزود — منـه لـوهن صبـابـة وغليـل[3]

وهذا النوع، أعني المغايرة، أورده الحريري في المقامة الدينارية، وبالغ في مدح الدينار وذمه، فقال في مدحه:

أكـرم بـه أصفـر راقت صفـرتـه — جـوّاب آفـاق تـرامت سفـرتـه[4]
مـأثـورة سـمعـتـه وشـهـرتـه — قـد أودعت سـر الغنى أسـرتـه
وقـارنت نجح المسـاعي خطرتـه — وحـبـبـت إلـى الأنـام غـرتـه
كـأنـمـا من القـلوب نقـرتـه — بـه يصول من حـوتـه صـرتـه[5]

---

(1) المآل: المصير.
(2) الصورة: المرّة.
(3) الوهن: القلة والضعف.
(4) الجوّاب: الكثير التجوال والسفر ـ سفرته: بفتح الراء واحدة السفر.
(5) نقرته: نقشه.

وإن تفـانت أو تـوانت عشـرتـه ... يـا حبـذا نضـاره ونضـرتـه
وحبـذا مغـنـاتـه ونـصـرتـه ... كم آمـر بـه استتبـت أمـرتـه
ومتـرف لـولاه دامت حسـرتـه ... وجيش هـم هـزمـتـه كـرَّتـه
وبـدر تـم أنـزلـتـه بـدرتـه ... ومستشيط تتلظى جمـرتـه[1]
أسـرُ نجـواه فـلانت سـرتـه ... وكـم أسيـر أسلمتـه أسـرتـه
أنـقـذه حتى صفـت مسـرَّتـه ... وحق مـولى أبـدعتـه فـطرتـه
لولا التقى لقلت جلت قدرته

وقال في ذمه:

تبـاً لـه من خـادع ممـاذقْ ... أصفـر ذي وجهين كـالمنـافق[2]
يبـدو بـوصفين لـعين الـرامق ... زينـة معشـوق ولـون عـاشق[3]
وحبـه عنـد ذوي الـحقـائق ... يدعو إلى ارتكاب سخط الخالق
لـولاه لم تقـطع يمين سـارق ... ولا بـدت مظلمـة من فـاسق
ولا اشمـأز بـاخـل من طـارق ... ولا شكا الممطول مطل العائق
ولا استعيـذ من حسـود راشق ... وشـر مـا فيـه من الخـلائق
أن ليس يغني عنك في المضائق ... إلا إذا فـر فـرار الأبـق[4]
واهـاً لمن يقـذفـه من حـالق ... ومن إذا نـاجاه نجوى الوامق[5]
قـال لـه قـول المحق الصـادق ... لا رأي في وصلك لـي ففـارق

ومن المغايرة، تفضيل القلم على السيف، إذ المعتاد عكس ذلك، كقول ابن الرومي:

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت ... له الرقاب ودانت خوفه الأمم[6]
فالموت والموت لا شيء يعادلـه ... ما زال يتبع ما يجري بـه القلم
كذا قضى الله في الأقلام إذ بريت ... إن السيوف لها مذ أرهفت خدم[7]

---

(١) البدرة: الصرَّة فيها الدنانير ـ مستشيط: غاضب ـ تتلظى: تشتعل وتلتهب.
(٢) المماذق: الذي لا يخلص الود لأحد.
(٣) الرامق: الناظر إذا أحد النظر.
(٤) الأبق: الهارب.
(٥) الحالق: من الجبال والأمكنة: العالي المنيف.
(٦) دان: خضع وذل.
(٧) أرهف السيف: أجاد شحذه وسنّه.

وغاير المتنبي ذلك وقال:

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي   المجد للسيف ليس المجد للقلم

والمغايرة هنا مليحة، لكن المعنى مأخوذ من قول أبي تمام: السيف أصدق إنباء من الكتب، والمعنى في قول أبي تمام أبلغ، فإن ابن أبي الأصبع قال: لم يرض أبو تمام أن يقول السيف أصدق إنباء من القلم، حتى قال من الكتب التي لا تكتب إلا بالأقلام والدواة والقرطاس، والكاتب المطلق اليد واللسان والجنان، فالحظ الفرق بينه وبين كلام المتنبي. انتهى كلام ابن أبي الأصبع.

وقد عن لي هنا أن أرفع للمتأخرين في التقديم رأيه، ليعلم المنكر الفرق بين البداية والنهاية، فإن الشيخ جمال الدين أظهر في المغايرة بين السيف والقلم ما صدق به قول القائل[1]:

وإني وإن كنت الأخير زمانه   لآت بما لم تستطعه الأوائل

من ذلك قوله، في رسالة المفاخرة بينهما والمغايرة في مدح كل واحد منهما وذمه: فبرز القلم بإفصاحه ونشط لارتياحه، ورقي من الأنامل على أعواده وقام خطيباً بمحاسنه في حلة مداده، والتفت إلى السيف فقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم * ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون﴾[2] الحمد لله الذي علم بالقلم، وشرفه بالقسم، وخط به ما قلّ وقسم، وصلى الله على سيدنا محمد الذي قال جف القلم بما هو كائن، وعلى آله وصحبه ذوي المجد المبين وكل مجد بائن، صلاة واضحة السطور، فائحة من أدراج الصدور، ما نقلت صحف البحار غواديها، وكتبت أقلام النور على مهارق[3] الدياجي حكمة باريها، أما بعد.

فإن القلم منار الدين والدنيا، ونظام الشرف والعليا، ومجاديح[4] سحب الخير إذا احتاجت الهمم إلى السقيا، ومفتاح باب اليمن المجرب إذا أعيا، وسفير الملك المحجب وعذيق[5] الملك المرجب[6]، وزمام أموره السائرة، وقادمة أجنحته الطائرة،

(١) هو بشار بن برد.

(٢) القلم، ٦٨/ أو ٢.

(٣) مهارق: صفحات (فارسية).

(٤) المجاديح الأنواء، مفردها مجدح.

(٥) عذيقها: تصغير عذق للتظرف والمذق هو أفضل من قام بالأمر.

(٦) المرّجب: المهيب المعظم.

ومطلق أرزاق عفاته (١) المتواترة، وأنملة الهدى المشيرة إلى ذخائر الدنيا والآخرة، به رقم كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل، وسنة نبيه ﷺ التي تهذب الخواطر الخواطل (٢)، فبينه وبين من يفاخره الكتاب والسنة، وحسبه ما جرى على يده الكريمة من منه، وفي مراضي الدول عونة للشائدين، ويعين الله في ليالي النفس تقلب وجهه في الساجدين. إن نظمت فرائد العلوم فإنما هو سلكها، وإن علت أسرة الكتب فإنما هو ملكها، وإن رقمت برود البيان فإنما هو جلالها، وإن تشعبت فنون الحكم فإنما هو أمانها ومآلها، وإذا انقسمت أمور الممالك فإنما هو عصمتها وثمالها، وإن اجتمعت رعايا الصنائع فإنما هو إمامها المتلفع بسواده، وإن زخرت بحار الأفكار فإنما هو المستخرج دررها من ظلمات مداده، وإن وعد أوفى بجنب النفع، وإن أوعد أخاف كأنما يستمد من النقع(٣).

هذا وهو لسان الملوك المخاطب، ورسيلها لأبكار الفتوح والخاطب، والمنفق في تعمير دولها ومحصول أنفاسه، والمتحمل أمورها الشاقة على عينه وراسه، والمتيقظ لجهاد أعدائها والسيف في جفنه نائم، والمجهز لبأسها وكرمها جيشي الحروب والمكارم، والجاري بما أمر الله من العد والإحسان، والمسود الناصر فكأنما هو لعين الدهر إنسان، طالما ذب عن حرمها فشد الله أزره، ورفع ذكره، وقام في المحامات عن دينها أشعث أغبر، لو أقسم على الله لأبرَّه، وقاتل على البعد والصوارم في القرب، وأوتي من معجزات النبوة نوعاً من النصر بالرعب، وبعث جحافل السطور فالقسي دالات، والرماح الفات، واللامات لامات، والهمزات كواسر الطير التي تتبع الجحافل، والأتربة عجاجها المحمر من دم الكلى والمفاصل، فهو صاحب فضيلتي العلم والعلم، وساحب ذيلي الفخار في الحرب والسلم، لا يعاديه إلا من سفه نفسه، ولبس لبسه وطبع على قلبه، وفل الجدال من غربه(٤)، وخرج في وزن المعارضة عن ضربه. وكيف يعادى من إذا كرع في نقسه(٥) قيل ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾(٦)، وإذا ذكر شانئه(٧) السيف قيل ﴿إن

---

(١) العفات: العطايا.

(٢) الخواطل: الضالة.

(٣) النقع: المستنقع، أو السم الناقع وهو القاتل البالغ. والغبار الكثيف في الجو.

(٤) غرب الشيء: حدّه.

(٥) كرع: مد عنقه وشرب الماء بفمه دون واسطة ـ النِّقْس: المداد الذي يكتب به وإناؤه.

(٦) الكوثر، ١٠٨/ ١ والكوثر: فسرهُ بعضهم بنهر في الجنة، ورأى آخرون أن الكوثر كثرة الذرية وهذا هو الأصح على ما نرى للقرينة الدالة عليه وهو قوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ أي الذي لا عقب له ولا ذرية.

(٧) الشانيء: المبغض، الكاره.

شانئك هو الأبتر﴾[1] أقول قولي هذا وأستغفر الله من الشرف وخيلائه، والفخار وكبريائه، وأتوكل على الله فيما حكم، وأسأله التدبير فيما جرى به من القلم، ثم أكتفي بما ذكره من أدواته، وجلس على كرسي دواته، متمثلاً بقول القائل:

قلم يفل الجيش وهو عرمرم والبيض ما سلت من الأغماد[2]
وهبت له الآجام حين نشابها كرم السيول وصولة الآساد[3]

فعند ذلك نهض السيف قائماً عجلا، وتلمظ[4] لسانه للقول مرتجلاً، وقال: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم... وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليَعْلَمَ مَنْ يَنْصُرُهُ ورُسُلَه بالغيب إن الله قوي عزيز﴾ [5] الحمد لله الذي جعل الجنة تحت ظلال السيوف، وشرَّع حدها في ذوي العصيان فأغصَّتهم بماء الحتوف، وشيد مراتب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص [6] وعقد مرصوف [7]، وأجناهم من ورق حديدها الأخضر ثمار نعيمها الدانية القطوف، وصلى الله على سيدنا محمد هازم الألوف، وعلى آله وصحبه الذين طالما محوا بريق بريق الصوارم سطور الصفوف، صلاة عاطرة في الأنوف، حالية بها الأسماع كالشنوف [8]، وسلم.

أما بعد، فإن السيف زند الحق الوري وزنده القوي [9] وحده الفارق بين الرشيد والغويّ، والنجم الهادي إلى العز وسبيله، والثغر الباسم عن تباشير فلوله، به أظهر الله الإسلام وقد جنح خفاء، وجلى شخص الدين الحنيفي وقد جمح جفاء، وأجرى سيوفه بالأباطح، فأما الحق فمكث والباطل فذهب جفاء[10]، وحملته اليد الشريفة النبوية، وخصته على الأقلام بهذه المزية، وأوضحت به للحق منهاجاً، وأطلعته في ليالي النقع والشك سراجاً وهاجاً، وفتحت باب الدين بمصباحه حتى دخل فيه الناس أفواجاً، فهو ذو

---

(١) الكوثر، ١٠٨/ ٣ والأبتر: هو من لا عقب له ولا ذرية من الذكور.

(٢) عرمرم: الجيش الكبير الجرار ـ البيض: السيوف ـ سُلّت: سحبت وهيئت للقتال. والأغماد: جمع مفرده غمد وهو موضع السيف.

(٣) الأجام: جمع مفرده أجمة وهو التلة إذا كثر فيها الشجر والتف ـ نشا: ترخيم نشأ ـ الصولة: السطوة

(٤) تلمظ: اللسان، خرج من مكانه وتحرك.

(٥) الحديد، ٥٧/ ٢٥.

(٦) مرصوص: متماسك.

(٧) مرصوف: منظّم.

(٨) الشنوف: الأقراط أو الحلق الذي تتزين به الفتاة.

(٩) الزند: القادح للنار وموصل الذراع بالكف ـ الوريّ: الذي خرجت ناره.

(١٠) الجفاء: ما يقذف به السيل من غثاء وزبد، أي لا فائدة فيه.

الرأي الصائب، وشهاب العزم الثاقب، وسماء العز التي زينت من آثاره بزينة الكواكب، والحد الذي كأنه ماء دافق يخرج، عند قطع الأجساد، من بين الصلب والترائب[1] ، لا تجحد اثاره، ولا ينكر قراره، إذا اشتبت في الدجى والنقع ناره، يجمع بين الحالتين البأس والكرم، ويصاغ في طوق الحليتين، فهو إما طوق في نحور الأعداء وإما خلخال في عراقيب[2] أهل النقم، ويحسم به أهواء الفتن المضلة، ويحذف بهمته الجازمة حروف العلة، وإذا انحنى في سماء القتام بالضرب، فقل يسألونك عن الأهلة، فهو القوي الاستطاعة، الطويل المغمر إذا قصف سواه في ساعة، فما أولاه بطول الإحسان، وما أجمل ذكره في أخبار المعمرين ومقاتل الفرسان، كأن الغيث في غمده للطالب المنتجع، وكأنه زناد يستضاء به، إلا أن دفع الدماء شرره الملتمع، كم قد مد فأدرك الطلاب، ودعا النصر بلسانه المحمر من أثر الدماء فأجاب، وتشعبت الدول لقائم نصره المنتظر، وحازت أبكار الفتوح بحده الذكر، وغدت أيامها به ذات حجول معلومة وغرر[3]، وشدت به الظهور، وحمدت علائقه في الأمور، واتخذته الملوك حرزاً لسلطانها، وحصناً على أوطانها وقطانها[4]، وجردته على صروف الأقدار في شانها، ونـدب فما أعيت عليه المصالح، وباشر اللمم، فهو على الحقيقة بين الهدى والضلال، فرق واضح، وأغاث في كل فصل فهو إما لغمده سعد الأخبية، وإما لحامله سعد السعود وأما لضده سعد الذابح، يجلس على رؤوس الأعداء قهراً، ويشرح أنباء الشجاعة قائلاً للقلم: ﴿**ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً**﴾[5]، وهل يفاخر من وقف الموت على بابه، وعض الحرب الضروس بنابه، وقذفت شياطين القراع بشهبه، ومنح آيات شريفة منها طلوع الشمس من غربه، ومنها أن الله أنشأ برقه، فكان للمارد مصرعاً وللرائد مرتعاً ﴿**ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً**﴾[6] كم اتخذ من جسدٍ طرساً، وكتب عليه حرفاً لا ينسى فيه للألباب عبرة، وللأذهان السابحة غمرة بعد غمرة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم من لفظ يجمح، ورأي إلى الخصام يجنح،

---

(١) الصُلب: من الرجل مكان في ظهره يحفظ فيه نسله. ويقال هو عظم ذو فقار يمتد من الكاهل إلى أسفل الظهر ـ الترائب: عظام الصدر مفردها تريبة.

(٢) الخَلخَال: حلية تلبس في الرجل فوق العرقوب ـ والعرقوب: هو ملتقى عظم الساق والقدم ويبدو بارزاً في جانبي القدم نجمع على عراقيب.

(٣) حجول وغرر: علامات وبدايات.

(٤) قطانها: سكانها والمقيمين فيها.

(٥) الكهف، ١٨/ ٨٢.

(٦) الروم، ٣٠/ ٢٤.

ولسان يحوجه اللدد[١] إلى أن يخرج فيجرح، وأتوكل عليه في صد الباطل وصرفه، وأسأله الإعانة على كل باحث عن حتفه بظلفه ثم اختفى في بعض الخمائل، وتمثل بقول القائل:

سل السيف عن أصل الفخار وفرعه ... فإني رأيت السيف أفصح مقولا

فلما وعى القلم خطبته الطويلة الطائلة[٢]، ونشطته الجليلة الجائلة، وفهم كتابته وتلويحه وتعريضه بالذم وتصريحه، وتعديله في الحديث وتجريحه[٣]، استغاث باللفظ النصير، واحتد وما أدراك ما حدَّة حدِّه القصير وقام في دواته وقعد، واضطرب على وجه القرطاس وارتعد، وعدل إلى السب[٤] الصراح، ورأى أنه إن سكت تكلم ولكن بأفواه الجراح، فانحرف إلى السيف وقال: أيها المعتز بطبعه، المغتر بلمعه، الناقض حبل الإنس بقطعه، الناسخ بهجيره من ظلال العيش فيأ السراب الذي ﴿يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾[٥] الحبيس الذي طالما عادت عليه عوائد شره الكمين، الإبليس الذي لو أمر لي بالسجود لقال: ﴿خلقتني من نار وخلقته من طين﴾[٦] أتعرض بسيِّي، وتتعرض لمكايد حربي ألست ذا الخدع البالغة، والحرب خدعة، والمنن النافعة، ولا خير فيمن لا تبغي الأنام نفعه، ألست المسوَّد[٧] الأحق بقول القائل:

نفس عصام سوَّدت عصاما ... وعلمته الجود والإقداما[٨]

أتفاخرني وأنا للوصل وأنت للقطع، وأنا للعطاء وأنت للمنع، وأنا للصلح وأنت للضراب، وأنا للعمارة وأنت للخراب، وأنا المعمر وأنت المدمر، وأنت المقلد وأنا صاحب التقليد، وأنت العابث وأنا المجوَّد ومن أولى من القلم بالتجويد، فما أقبح شبهك، وما أشنع يوماً ترى فيه العيون وجهك، أعلى مثلي يشق[٩] القول، ويرفع

---

(١) اللدد: الخصام.

(٢) الطائلة: القوية البليغة.

(٣) التعديل والتجريح: التصويب والتخطئة.

(٤) السب الصراح: الشتم الصريح الخالص.

(٥) النور، ٢٤/ ٣٩.

(٦) الأعراف، ٧/ ١٢ وص، ٣٨/ ٧٦.

(٧) المسوَّد: السيِّد.

(٨) الجود والإقداما: الكرم والشجاعة. وقد روي: الجد والإقداما. والجود أصح، لتلازم الصفتين، الكرم والشجاعة.

(٩) يشق: يصعب.

الصوت والصولج[1]، وأنا ذو اللفظ المكين، وأنت ممن دخل تحت قوله تعالى: ﴿أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين﴾[2] فقد تعديت حدك، وطلبت ما لم تبلغ به جهدك، هيهات أنا المنتصب لمصالح الدول وأنت في الغمد طريح، والمتعب في تمهيدها وأنت غافل مستريح، والساهر وقد مهد لك في الغمد مضجع، والجالس عن يمين الملك وأنت عن يساره فأي الحالتين أرفع، والساعي في تدبير حال القوم، والمغني لنفعهم العمر إذا كان نفعك يوماً أو بعض يوم، فاقطع عنك أسباب المفاخرة، واستر أنيابك عند المكاشرة، فما يحسن بالصامت محاورة المفصح، والله يعلم المفسد من المصلح، على أنه لا ينكر لمثلك التصدي، ولا يستغرب منه على مثلي التعدي، ما أنا أول من أطاع الباري وتجرأت عليه، ومددت يد العدوان إليه، أولست الذي قيل فيه:

شيخ يرى الصلوات الخمس نافلة   ويستحل دم الحجاج في الحرم

قد سلبت الرحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء، وجلبت القوة فكم هيجت سبة حمراء[3]، وأثرت دهماء، وخمشت الوجوه، وكيف لا وأنت كالظفر كوناً، وقطعت اللذات، ولم لا وأنت كالصبح لوناً، أين بطشك من حلمي، وجهلك من علمي، وجسمك من جسمي:

شتان ما بين جسم صيغ من ذهب   وذاك جسمي وجسم صيغ من بهق[4]

أين عينك الزرقاء من عيني الكحيلة، ورؤيتك الشنعاء من رؤيتي الجميلة، أين لون الشيب من لون الشباب، وأين نذير الأعداء من رسول الأحباب، هذا وكم أكلت الأكباد غيظاً، وحميت الأضغان[5] قيظاً وشكوت الصدأ فسقيت ولكن بشواظ[6] من نار، وأخنت عليك الأيام حتى انتعل بأبعاضك[7] الحمار، ولولا تعرضك إليّ لما وقعت في المقت، ولولا إساءتك لما كنت تصقل في كل وقت، فدع عنك هذا الفخر المديد،

---

(١) الصّول: عصا الملك، وهي الصّوْلجان.

(٢) الزخرف، ٤٣/ ١٨.

(٣) سبة حمراء: شتماً يوصل إلى الحرب. والدهماء: الحرب.

(٤) البهَق: مرض جلدي يترك على الجلد بقعاً بيضاء.

(٥) الأضغان: مفردها ضغينة، وهي الاحقاد.

(٦) شواظ: قطع من الحديد حامية، شظايا.

(٧) أخنت عليك الأيام: أي جارت عليك وأتعبتك ـ انتعل: لبس في رجله أبعاضك: جمع مفرده بعض. أقسام منك.

وتأمل وصفي إذا ﴿كشف عنك الغطاء فبصرك اليوم حديد﴾[1] وافهم قول ابن الرومي:

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت ... له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت والموت لا شيء يعادله ... ما زال يتبع ما يجري به القلم
بذا قضى الله في الأقلام إذ بريت ... إن السيوف لها مذ أرهفت خدم

فعند ذلك وثب السيف على قده، وكاد الغضب يخرجه عن حده، وقال أيها المتطاول على قصره، والماشي على طريق غروره، والمتعرض مني إلى الدمار، والمتحرش بي فهو كما تقول العامة: ذنبه قش ويحترس بالنار، لقد شمرت عن ساقك حتى أغرقتك الغمرات، وأتعبت نفسك فيما لا تدرك إلى أن أذهبها التعب حسرات، أولست الذي طالما أرعش السيف للهيبة عطفك، ونكس للخدمة رأسك وطرفك، وأمر بعض رعيته وهو السكين فقطع قفاك وشق أنفك، ورفعك في مهمات خاملة وحطك وجذبك للاستعمال وقطك[2]، فليت شعري كيف جسرت، وعبست على مثلي وبسرت[3]، وأنت السوقة وأنا الملك، وأنا الصادق وأنت المؤتفك[4]، وأنت لصون الحطام وأنا لصون الممالك، وأنت لحفظ المزارع وأنا لحفظ المسالك، وأنت للفلاحة وأنا للفلاح، وأنت حاطب الليل من نفسه[5] وأنا ساري الصباح، وأنا الباصر وأنت الأرمد، وأنا المخدوم الأبيض. وأنت الخادم الأسود، وأقسم بمن صير في قبضتي أنواع اليمن المسخرة، وجعل شخصك وشخصي كقوله تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾[6] إنك عن بلوغ قدري لأذل رتبة، وعن بري كفي لأخيب طلبة، فإني لا أنكر قول بعض أربابك، حيث قالوا:

أف لرزق الكتبه ... أف له ما أصعبه
يرتشف الرزق به ... من شق تلك القصبه
يا قلماً يرفع في الطـ ... ـرس لوجهي ذنبه
ما أعرف المسكين إلا ... كاتباً ذا متربه[7]

---

(١) ق، ٥٠/ ٢٢.
(٢) قطك: بتشديد الطاء: براك.
(٣) المؤتفك: الكاذب.
(٤) بسر: قطب حاجبيه.
(٥) حاطب الليل: مدلهم الليل ـ والنفس: المداد وأداته.
(٦) الإسراء، ١٧/ ١٢.
(٧) المتربة: الحاجة والفقر.

إن عاينت الديوان وقعت في الحساب والعذاب، أو البلاغة سحرت وبالغت فأنت ساحر كذاب، أو فخرت بتقييد العلوم فما لـك منها سوى لمحة الـطرف، أو برقم المصاحف فإنك تعبد الله على حرف[1]، أو جمعت عملاً فإنما جمعك للتكسير، أو رفعت إلى طرفك رجع البصر خاسئاً وهو حسير، وهل أنت في الدول إلا خيال تكتفي الهمم بطيفه، أو أصبع يلعق بها الرزق إذا أكل الضارب بقائم سيفه، وساع على رأسه قل ما أجدى، وسار ربما أعطى قليلاً وأكدى[2]. ثم وقف وأكدى، أين أنت من حظي الأسنى وكفي الأغنى، وما خصصت به من الجوهر الفرد إذا عجزت أنت عن العرض الأدنى، كم برزت فما أغنيت في مهمه، وكم خرجت من دواتك لتسطير سيئة، فخرجت كما قيل من ظلمة إلى ظلمة، وهب أنك كما قلت مفتوق اللسان، جريء الجنان، مداخلٍ بمخلبك بين ذوي الاقتناص، معدود من شياطين الدول وأنت في الطرس والنقس بين بناء وغواص، فلو جريت خلفي إلى أن تحفى، وصحت بصريرك إلى أن تخفت وتخفى، فما كنت مني إلا بمنزلة المدرة[3] من السماك الرامح، والبعرة على تيار الخصم الطافح، فلا تعد نفسك بمعجزي فإنك ممن يمين[4]، ولا تحلف لها أن تبلغ مداي فليس لمخضوب البنان يمين، ومن صلاح نجمك أن تعترف بفضلي الأكبر، وتؤمن بمعجزتي التي بعثت منك إلى الأسود والأحمر لتستوجب حقاً، وتسلم من نار حر تلظى لا يصلاها[5] إلاّ الأشقى إن لم يتضح لرأيك إلا الإصرار، وأبت حصائد لسانك إلا أن توقعك في النار، فلا رعى الله عزائمك القاصرة، ولا جمع عقارب ليل نفسك التي إن عادت فإن نعال السـيوف لها حاضرة، ثم قطع الكلام وتمثل بقول أبي تمام:

السيف أصدق إنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في ... متونهن جلاء الشك والريب

فلما تحقق تحريف القلم حرجه، وفهم مقدار الغيظ الذي أخرجه، وسمع هذه المقالة التي يقطر من جوانبها الدم، ورأى أنه هو البادي بهذه المناقشة والبادي أظلم،

---

(١) تعبد الله على حرف: سريع الإرتداد ضعيف الإيمان.

(٢) أكدى: عنَف ومنَن.

(٣) السماك الرامح: نجم نير في الجهة الشمالية، ويقابله السماك الأعزل في الجنوب. وهو أيضاً نجم قطبي نير ـ المدرة: الطينة.

(٤) يمين: يكذب ـ ويمين الثانية: بمعنى القسم.

(٥) يصلاها: يحترق بها.

رجع إلى خداعه وتنحى عن طريق قِراعه[1]، وعلم أن الدهر دهره، والقدر على حكم الوقت قدره، وأنه أحق بقول القائل:

لحنها معرب وأعجب من ذا ... أن إعراب غيرها ملحون[2]

فالتفت إليه وقال: أيها المتلهب في قدحه[3]، والخارج عما نسب إليه من صفحه، ما هذه الزيادة في السباب، والتطفيف في كيل الجواب، وأين علم الشيوخ عند جهل الشباب، أما كان الأحسن بك أن تترك هذا الرفث[4]، وتعلم[5] أخاك على الشعث[6] وتحلم كما زعمت أنك السيد، وتزكو على الغيظ كما يزكو على النار الجيد، أما تعلم أني معينك في تشييد الممالك، ورفيقك فيما تسلكه لنفعها من المسالك، أما أنا وأنت للملك كاليدين، وفي تشييده كالركنين الأشدين؛ وما أراك عبتني في الأكثر إلا بتحول جسدي الذي ليس خلقه علي، وضعفه الذي ليس أمره إليّ، على أن أشهى الخصور أنحفها[7]، وأقوى الجفون أضعفها، وأزكى النسيمات أعلها وأدنفها[8]، وهذه سادات العرب تعد ذلك من فضلها الأظهر وحسنها الأشهر، ولو أنك تقول بالفصاحة ونقف في هذه الساحة، لأسمعتك في ذلك من أشعارهم وأتحفتك بما يفخرون به من آثارهم، وكذلك عيبك سواد خلقتي التي:

أكسبها الحب حلية صبغت ... صبغة حب القلوب والحدق[9]

فيا لله ويا للحجر الأسود من هذه الحجة البائره، والكرة الخاسره، وعلى هذه النسبة ما عبتني به من فقر الأنبياء وذل الحكماء، على أن إطلاقات معروفي معروفة، وسطوات

---

(١) قراعه: قتاله، ومنها مقارعة الأبطال، قتالهم ومنازلتهم.

(٢) اللحن: الخطأ في النحو عند الكلام.

(٣) قدحه: ذمه.

(٤) الرفث: الفحش.

(٥) هكذا وردت ونظنها «وتلم» وهي من بيت للنابغة:

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أي الرجال المهذب

(٦) الشعث: التفرق.

(٧) أنحفها: أكثرها نحافة أي أدقها.

(٨) أعلها وأدنفها: أكثرها نعومة ومدعاة للسكون والهدوء والدنف: السُكر.

(٩) حب القلوب: سويداؤها ـ والحدق: جمع مفرده حدقه وهي سواد العين.

أمري في وجوه الأعداء المكسوفة مكشوفة، فأستغفر الله مما فرط في مقالك، والتفويض من عوائد احتمالك، فلا تشمت بنا الأضداد ولا تسلط بفرقتنا المفسدين في الأرض إن الله لا يحب الفساد، واغضض الآن من خيلائك بعض هذا الغض، ولا تشك أني قسيمك ولو قيل لك يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض، وإن أبيت إلا أن تهدد وتجرد الشغب وتحدد، فاذكر محلنا من اليد الشريفة السلطانية الملكية المؤيدية، أيد الله نعمها وجازى بالإحسان شيمها، وأيقظ في الآجال والآمال سيفها وقلمها، ولا عطل مشاهد المدح من أنسها، ولا أخلى قرائض الباس والكرم من قيام خمسها، فأقسم من بأسه بالليل وما وسق، ومن بشر طلعته بالقمر إذا اتسق [1] لو تجاور الأسد والظباء بتلك اليد لوردا بالأمن في منهل، ورتعا في روض لا يجهل، ولو لجأ إليها النهار لما راعه بمشيئة الله الليل بزجر، أو الليل لما غلب على خيطه الأسود الخيط الأبيض من الفجر، وعلى ذلك فما ينبغي لنا بين تلك الأنامل غير سلوك الأدب، والمعاضدة على محو الأزمات والنوب، والاستقامة على الحق ولا عوج، والحديث من تلك الراحة عن البحر ولا حرج، هذه نصيحتي إليك والدين النصيحة، والله تعالى يطلعك على معاني الرشد الصريحة، ويجعل بينك وبين الغي [2] حجاباً مستوراً، وينسيك ما تقدم من القول وكان ذلك في الكتاب مسطوراً.

فعند ذلك نكس السيف طرفه، وقبل خديعة القلم قائلاً لأمرٍ ما جدع قصير أنفه، وأمسك عن المشاغبة خيفة الزلل، فإن السيوف معروفة بالخلل، ثم قال: أيها الضعيف الجبار، البازغ في ليل المداد نجماً وكم في النجوم غرّار، لقد تظلمت من أمر أنت البادي بظلمه، وتسوّرت إلى فتح باب أنت السابق إلى فتح ختمه، وقد فهمت الآن ما ذكرت من أمر اليد الشريفة ونعم ما ذكرت، وأحسن بما أشرت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، وقد تغافلت عن قولك الأحسن، ورددتك إلى أمك الدواة كي تقرَّ عينها ولا تحزن، وسألت الله تعالى أن يزيد محاسن تلك اليد العالية تماماً على الذي أحسن فإنها اليد التي:

لو أثر التقبيل في يد منعم لمحا براجم كفها التقبيل [3]

والراحة التي:

تسعى القلوب لغوثها ولغيثها فيجيبه التأمين والتأميل [4]

---

(١) اتسق: اعتدل وتم.

(٢) الغي: الغواية والإغترار والانحراف.

(٣) البراجم: مفاصل الأصابع واحده: بُرْجُم.

(٤) الغوث: النجدة ـ الغيث: العطاء ـ التأمين: الأمان ـ التأميل: الأمل.

والأنامل التي علمها الله بالسيف والقلم ومكنها من رتبتي العلم والعلم، ودارك بكرمها آمال العفاة بعد أن ولا ولم، ولولا أن هذا المضمار يضيق عن وصفه السابق إلى غاية الخصل، ومجده الذي إذا جَر ذيله ودّ الفضل لو تمسك منه بالفضل، لأطلت الآن في ذكر مجدها الأوضح، وأفصحت، في مدحها ولا ينكر لمثلها إن أنطقت الصامت فأفصح، ثم إنك بعدما تقدَّم من القول المزيد، والمجادلة التي عز أمرها على الحديد، أقررت أنت أننا للملك كاليدين ولم تقر أينا اليمين، وفي آفاقه كالقمرين ولم تذكر أينا الواضحة الجبين، وما يشفي ضناي ويروي صداي إلا أن يحكم بيننا من لا يردّ حكمه، ولا يتهم فهمه، فيظهر أينا المفضول من الفاضل، والمخذول من الخاذل، ويقصر عن القول المناظر ويستريح المناضل، وقد رأيت أن يحكم بيننا المقام الأعظم، الذي أشرت إلى يده الشريفة، وتوسلت بمحاسنها اللطيفة، فإنه مالك زمامنا ومنشىء غمامنا ومصرف كلامنا وحامل أعبائنا، الذي ما هوى للهوى، وصاحب أمرنا ونهينا، وتالله ما ضل صاحبكم وما غوى، ليفصل الأمر بحكمه، ويقدّمنا إلى مجلسه الشريف فيحكم بيننا بعلمه، فقدّم خيرة الله على ذلك الاشتراط، وقل بعد تقبيلنا الأرض له في ذلك البساط: خصمانِ بغى بعضنا على بعض، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط. فنشط القلم فرحاً، ومشى في أرض الطرس مرحاً، وطرب لهذا الجواب وخر راكعاً وأناب، وقال سمعاً وطاعة، وشكر الله على هذه الساعة: «يا برد ذاك الذي قالت على كبدي».

الآن ظهر ما تبغيان، وقُضي الأمر الذي فيه تستفتيان، وحكم بيننا الرأي المنير، ونبأنا بحقيقة الأمر ولا ينبئك مثل خبير، ثم تفاصلا على ذلك، وتراضيا على ما يحكم به المالك، وكانوا أحق بها وأهلها وانتبه المملوك من سنة فكره، وطالع بما اختلج سواد هذه الليلة في سرّه، والله تعالى يديم أيام مولانا السلطان التي هي نظام المفاخر، ومقام المآثر، وغوث الشاكي وغيث الشاكر، ويمتع بظلال مقامه الذي لا تكسر الأيام مقدار ما هو جابر، ولا تجبر ما هو كاسر، إن شاء الله تعالى.

تمت رسالة الشيخ جمال الدين التي كشف بها عن قناع المغايرة، وأتى فيها بكل مثال ليس له مثيل، ووسمها بصاحب حماة فأطاعه عاصي الأدب، ووهب الله له على الكبر إسماعيل.

نرجع إلى أبيات البديعيات فبيت الشيخ صفي الدين:

فالله يكلؤ عذالي ويلهمهم ... عذلي فقد فرجوا كربي بذكرهم[1]

---

(١) كلا: حمى وحرس.

الشيخ صفي الدين غاير الناس في الدعاء لعذاله، وما ذاك إلا أن العذول ما برح ممتزجاً بذكر الأحباب، فكلما كرروا عذله وذكروا أحبابه فرجوا كربه بذلك الذكر.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين في بديعيته:

تغاير الحال حتى للنوى فئة   أصبحت منتظراً أيام وصلهم

أما الشرح في نوع المغايرة فقد طال. والكلام في بيت عز الدين يضيق عنه المجال؛ فإنه نظم المغايرة ولكن غاير بها الأفهام، وما أرانا من عقادة بيته غير الإبهام.

وبيت بديعيتي:

أغاير الناس في حب الرقيب فمذ   أراه أبسط آمالي بقربهم[1]

الناس قد أجمعوا على ذم الرقيب وغايرتهم في مدحه لمعنى، وما ذاك إلا أنني لما أراه أتحقق أنه ما تجرد للمراقبة إلا وقد علم بزيارة الحبيب، فانظر إلى حسن المغايرة وغرابة المعنى وحسن التركيب.

(١) الرقيب: المراقب الواشي.

ذكر التذييل

والله ما طال تذييل اللقاء بهم يا عاذلي وكفى بالله في القسم

التذييل، هو أن يذيل الناظم أو الناثر كلاماً، بعد تمامه وحسن السكوت عليه، بجملة تحقق ما قبلها من الكلام، وتزيده توكيداً وتجري مجرى المثل، بزيادة التحقيق.

والفرق بينه وبين التكميل، أن التكميل يرد على معنى يحتاج إلى الكمال. والتذييل لم يفد غير تحقيق الكلام الأول وتوكيده. ومن أعظم الشواهد عليه قوله تعالى: ﴿**وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً**﴾[1] فالجملة الأخيرة هي التذييل الذي خرج كلامه مخرج المثل السائر. ومثله قوله تعالى: ﴿**ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور**﴾[2] فالجملة الأخيرة، هي تذييل خرج في الكلام مخرج الأمثال التي ليس لها مثيل، وقوله تعالى: ﴿**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله**﴾[3] ففي هذه الآية الشريفة تذييلان: أحدهما قوله تعالى: وعداً عليه حقاً، فإن الكلام كان قد تم قبل ذلك وحسن السكوت عليه، والآخر قوله تعالى: ومن أوفى بعهده من الله، فخرج هذا الكلام مخرج المثل السائر.

ووقع ذلك في السنة الشريفة، وهو قول النبي ﷺ: من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، وإن عملها كتبت له عشراً ومن همَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه،

---

(١) الإسراء، ١٧/ ٨١.

(٢) سبأ، ٣٤/ ١٧.

(٣) التوبة، ٩/ ١١١.

وإن عملها كتبت عليه سيئة واحدة، ولا يهلك على الله إلا هالك. فقوله ﷺ: لا يهلك على الله إلا هالك، هو التذييل الذي تتعلق البلاغة بأذياله، وخرج الكلام فيه مخرج الأمثال، وهذا التذييل انفرد بإخراجه مسلم ومن هذا الباب قول النابغة:

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أي الرجال المهذب

اتفق أهل البديع على أن قوله: أي الرجال المهذب، من أحسن تذييل وقع في شعر، لأنه خرج مخرج المثل ومثله قول بعض العرب:

ودعـوا نـزال فكنت أوّل نـازل ... وعـلام أركبـه إذا لم أنـزل[1]

فعجز هذا البيت كله تذييل، وهو في غاية الكمال، ولقد أحسن بعضهم في هذا الباب، حيث قال:

صدقتك الود أبغي الوصال ... وليس المكـاذب كالصـادق
فجـازيتموني بـطول البعـاد ... وكم أخجل الحب من واثق

فكل من عجزي البيتين تذييل، وخرج الكلام فيهما مخرج المثل، وأحسن منه قول الحطيئة:

نزور فتى يعطي على الحمد ماله ... ومن يعط أثمـان المحامـد يحمد

فإن عجز البيت كله تذييل خرج مخرج المثل، وصدر البيت استقل بالمعنى المراد على انفراده، وفيه أيضاً مع اتصاله بـالعجز تعـطف حسن في قولـه: يعطي ويعط، وبالتعطف صار بين العجز والصدر ملاحمة وملاءمة شديدة ورابطة وثيقة، قال ابن أبي الأصبع: عجز هذا البيت، إذا انفرد، استقل مثلاً وتذييلاً، كما أن الصدر إذا انفرد استقل بالمعنى المقصود، من جملة البيت، والغرض المطلوب من التمثيل أيضاً، وقل أن يوجد بيت بين صدره وعجزه مثل هذا التلاحم، على استقلال كل قسم بنفسه وتمام معناه ولفظه، ومن التذييل الحسن قول أبي الشيص:

وأهنتني فأهنت نفسي عامدا ... ما من يهون عليك ممن يكرم

فعجز البيت كله تذييل، في ضمنه مطابقة، لذكره الهوان والكرامة. ومن بديع التمثيل قول ابن نباتة السعدي:

لم يبق جـودك لي شيئـاً أؤمله ... تـركتني أصحب الدنيـا بلا أمـل

---

(١) نزال: إسم فعل أمر بمعنى إنزل للقتال.

فإنه استوفى ما أراده من المدح في الشطر الأول، ثم احتاج إلى تتميم البيت، وأراد إتمامه بتكرار المعنى المتقدّم فيه استحساناً وتوكيداً، فأخرجه مخرج المثل السائر، حيث قال: تركتني أصحب الدنيا بلا أمل، ليحصل ما أراده من التوكيد وزيادة المعنى، لأن المدح إذا خرج مخرج المثل كان أسير في الأرض. قال ابن أبي الأصبع هذا البيت إن نظر فيه إلى قول أبي الطيب المتنبي:

تمسي الأمانيُّ صرعى دون مبلغه فما يقول لشيء ليت ذلك لي[1]

فبيت ابن نباتة أفضل من بيت المتنبي، لأنه أحسن الأدب مع ممدوحه، إذ لم يجعله في حيز من يتمنى شيئاً وجعل في قدرته وجوده ما يُبلغ مادحه كل أمنية، فلم يبق له أمل، وإن كان في بيت المتنبي زيادة من جهة المبالغة، في قولـه: دون مبلغه، واستعارة في اللفظ، بقوله: تمسي الأماني صرعى، ففي بيت ابن نباتة أن كل ما جعله المتنبي لممدوحه، جعله ابن نباتة لمادحه، مع زيادة المبالغة في المدح، بكونه أخرجه مخرج المثل السائر كما بينا، فهو أشهر وأسير وأبقى. وإذا تأمل الناظر في البيتين وجد معنى بيت المتنبي بكماله في صدر بيت ابن نباتة، لأن حاصل بيت المتنبي أن الممدوح قدر على كل الأماني، وهذا قد استقل به صدر بيت ابن نباتة، والعجز ملزوم صدره، لأن من نال كل أمل صحب الدنيا بلا أمل، غير أن ابن نباتة لكونه أخرج العجز مخرج المثل، صار كأنه استأنف معنى آخر مستقلاً بجميع معنى بيت المتنبي، مع كونه زاد بأن جعل للمادح ما جعله المتنبي للممدوح، وهذا غاية في حسن الأدب. وقد ترجح بيت ابن نباتة على بيت المتنبي من وجوه. انتهى كلام ابن أبي الأصبع في النقد الحسن الذي قرره على بيت أبي الطيب وبيت ابن نباتة.

وقد يختلط على بعض الناس هذه الأبواب الأربعة، وهي: باب الإيغال، والتذييل، والتمكين، والتكميل. والفرق ظاهر، فإن الإيغال لا يكون إلا في الكلمة التي فيها الروي وما يتعلق به، وهو أيضاً مما يأتي بعد تمام المعنى، كالتكميل والتذييل. وأما التمكين فليس له مدخل في هذه الأبواب، لأنه عبارة عن استقرار القافية في مكانها، لأنها لا تزيد معنى البيت، بل إذا حذفت نقص معنى البيت، لأنها ممكنة في قواعده. وأما التكميل، فإنه وإن أتى بعد تمام المعنى، فهو يفارق الإيغال والتذييل من وجهين: أحدهما، كونه يأتي في الحشور والمقاطع، والإيغال والتذييل لا يكونان إلا في المقاطع دون الحشو،

---

(١) صرعى: قتلى ـ دون مبلغه: قبل الوصول إليه، ولا تصل إليه ـ لأنه لا يتمنى شيئاً فكل شيء عنده محقق له.

والإيغال والتذييل لا يخرجان عن معنى الكلام المتقدم، والتكميل لا بد أن يأتي بمعنى يكمل الغرض على التكملة المتقدمة إما تكميلاً بديعياً أو تكميلاً عروضياً. والتذييل يفارق الإيغال، لكونه يزيد على الكلمة التي تسمى إيغالاً ويستوعب غالباً عجز البيت.

وبيت صفي الدين في التذييل:

لله لـذة عيش بـالحبيب مضت ... فلم تـدم لي وغيـر الله لم يـدم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت عز الدين الموصلي:

تذييل عيشي ورزقي قسمة حصلت ... في أوَّل الخلق والأرزاق بالقِسَم[1]

وبيت بديعيتي:

والله مـا طال تـذييل اللقـاء بهم ... يا عاذلي وكفى بالله في القَسَم[2]

فقولي: وكفى بالله في القسم، هي الجملة التي جاءت بعد تمام الكلام وحسن السكوت عليه، واشتملت على معناه وزادته في القسم تحقيقاً وتوكيداً، وجرت مجرى المثل الذي ما يجارى في شرفه وكماله، وأما لفظة التذييل، التي هي تسمية لهذا النوع المقصود، ففات الشيخ عز الدين فيها لفظة طال، فإنني لو لم أذكر الطول ما ترشحت تورية التذييل، ولا وقع لها في القلوب مواقع، فإن الطول من لوازم الأذيال، وطويل ذيل اللقاء في البيت من ألطف الاستعارات، وقولي: يا عاذلي، هو التكميل الذي يأتي في الحشو، وقد تقدم الكلام عليه وتقرر.

---

(١) القِسَم: التقسيم من قبل الله سبحانه وتعالى.

(٢) القسم: الحلف.

ذكر التفويف

خشّن ألن أحزن افرح امنع اعط أنل　　　فوّف أجد وشّ رقّق شد حب لم[1]

التفويف، تأملته فوجدته نوعاً لم يفد غير إرشاد ناظمه إلى طرق العقادة. والشاعر، إذا كان معنوياً وتجشم مشاقه، تقصر يده عن التطاول إلى اختراع معنى من المعاني الغريبة، وتجفوه حِسان الألفاظ، ولم يعطف عليه برقة وتأنف[2] كل قرينة صالحة أن تسكن له بيتاً، ولكن شروع المعارصة ملزم به، ولم يسعني غير تشريع الطباق في بيته.

وهو في اللغة مشتق من الثوب المفوف الذي فيه خطوط بيض والمراد تلوينه ونقشه، ومن ظريف قول ابن قاضي ميلة:

بعيشي ألم أخبـركما أنـه فتى　　　على لفظه برد الكلام المفوّف[3]

والتفويف في الصناعة، عبارة عن إتيان المتكلم بمعان شتى، من المدح والغزل وغير ذلك من الفنون والأغراض، كل فن في جملة من الكلام منفصلة عن أختها، مع تساوي الجملة في الوزنية. ويكون بالجملة الطويلة أو المتوسطة أو القصيرة، وأحسنها وأبلغها وأصعبها مسلكاً القصار، فمثال ما جاء منه بالجملة الطويلة قول النابغة:

واعظم احلاماً وأكبر سيـداً　　　وأفضل مشفوعاً وأكرم شافع

---

(١) البيت كله أفعال أمر للأفعال التالية: خَشُن - لانَ - حزن - منع - أعطى - نالَ - فوّف - أجاد - وشّى - رقّق - شَدّ - احبَ - لمّ - وفوّف: خطّط واستعمل التفويف وهو من المحسنات البديعية.

(٢) أنف: ترفّع او رفض ضناً بنفسه.

(٣) ألمّ: بالمكان وبالشخص، إذا مرّ به. بُرد: جمع مفرده بردة وهي الثوب المخطط والمزخرف.

وبالجملة المتوسطة قول أبي الوليد بن زيدون:

تِهْ احتملْ واحتكِم أصبرْ وعِز أهن ... وذُلَ اخضعْ وقُلْ أسمعْ ومُرْ أطِعْ[1]

ومثال ما جاء بالجملة القصيرة، قول أبي الطيب المتنبي:

أقِل أنِل اقطِع إحمِلْ علِّ أسل أعِد ... زد هش بش تفضل ادنِ سَرُّ صِل

اقل من الإقالة في العثرة، أنل من الإنالة والأعطاء، أقطع من الاقطاع، احمل من قولهم حمله على فرسه، عل من الاستعلاء والعلو، أسل من السلو، أعد أي أعدني إلى موضعي من الجوائز، زد أي زدني مما كنت أعهده منك، هش من الهشاشة وهي التهلل، والبشر من بش البشاشة وهي الهشر وطلاقة الوجه، تفضل من الأفضال، ادن أي قربني إليك، وقوله سر من التسري وهو أن يعطيه جارية يتسراها، صل من الصلة، ولم أقصد بحل هذه الألفاظ إلا إيناساً تزول به وحشة العقادة عن المتأمل، فإن هذه الجملة ما استولت عليها عقادة التركيب إلا لكون كل كلمة منها فعل أمر، ولم يأتِ في الجملة القصيرة على هذه الصفة شيء من فصيح الكلام، وعلى هذا المنوال نسج أصحاب البديعيات وبالله المستعان.

وبيت الشيخ صفي الدين رحمه الله:

أقصر أطِل اعذل اعذر سل خل أعن ... خن هنّ عن ترفق كف لجّ لم[2]

وهذا النوع ما نظمه العميان، وبيت الشيخ عز الدين:

فوف أزف انظم أنثر خص عم أفد ... اعتب أدر أبرق ارعد اضحك ابك لم[3]

هذا البيت بيت ما نحت من الجبال، ولكن الجبال نحتت منه، وبيت بديعيتي:

خشّن ألِن احزن افرح امنع اعط أنل ... فوف اجد وش رقق شد حب لم

قد تقدم[4] قولي للعاذل:

والله ما طال تـذييل اللقـاء بهم ... يـا عاذلي وكفى بـالله في القسم

ولما قررت له ذلك، قلت له في بيت التفويف: إن شئت تخشن في عذلك، وإلا

---

(١) ته: أمر من تاه يتيه: تكبر والبيت كما ي لاحظ كله أضداد أو ما شابهها.

(٢) و (٣) البيتين كما هو واضح أفعال أمر وهي منظومه على صفة التفويف.

(٤) تقدم: أي تقدم هذا البيت وسبقه قولي للعاذل.

شئت تلين، وإن شئت تحزن، وإن شئت تفرح، وإن شئت تمنع، وإن شئت تعطي، وإن شئت تفوف العذل وتجيد نقشه وتوشيته، وترقق فيه أو تشد معناه أن الكل بالنسبة إلى صدق المحبة سهل، ولكن النكتة في قولي له، أعني للعاذل، حب لم يعني إذا حب لم يعد ذلك، كأني أقول له:

من لم يبت والحب يقرع قلبه لم يدر كيف تفتت الأكباد

وما أحلى قول الشيخ شرف الدين بن الفارض مخاطباً لعاذله:

دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى فإذا عشقت فبعد ذلك عنف

ذكر الموارَبة

يا عاذلي أنت محبوب لديّ فلا توارب العقل مني واستفد حكمي

الموارَبة، براء مهملة، وباء موحدة، وهي مشتقة من الأرب وهي الحاجة، لكن ذكر ابن أبي الأصبع: أنها مشتقة من ورب العرق بفتح الواو والراء إذا فسد، فهو ورب بكسر الراء. كأن المتكلم أفسد مفهوم ظاهر الكلام بما أبداه من تأويل باطنه.

وحقيقة الموارَبة، أن يقول المتكلم قولاً يتضمن ما ينكر عليه فيه بسببه، ويتوجه عليه المؤاخذة، فإذا حصل الإنكار عليه استحضر، بحذقه، وجهاً من الوجوه التي يمكن التخلص بها من تلك المؤاخذة، إما بتحريف كلمة أو تصحيفها، أو بزيادة أو نقص، أو غير ذلك.

فأما شاهد ما وقع من الموارَبة بالتحريف، فقول عتبان الحروز:

وإن يك منكم كان مروان وابنه وعمرو ومنكم هاشم وحبيب
فمنا حصين والبطين وقعنب ومنا أمير المؤمنين شبيب

فلما بلغ الشعر هشاماً وظفر به، قال: أنت القائل: ومنا أميرُ المؤمنين شبيب؟ فقال: يا أمير المؤمنين ما قلت إلا ومنا أمير المؤمنين شبيب، فتخلص بفتح الراء بعد ضمها[١]، وهذا ألطف موارَبة وقعت في هذا الباب، وشاهد الحذف قول أبي نواس في خالصة جارية أمير المؤمنين الرشيد، هاجياً لها:

لقد ضاع شعري على بابكم كما ضاع حلي على خالصه[٢]

---

(١) غيّر: حركة أمير من الضمة إلى الفتحة، بأن جعله منادى لحرف نداء مقدر فيكون تقدير الكلام يا أمير المؤمنين ما قلت إلا: ومنا يا أمير المؤمنين شبيبُ.

(٢) وروي: كما ضاع درٌّ على خالصة.

فلما بلغ الرشيد ذلك أنكر عليه وتهدده بسببه. فقال لم أقل إلا:

لقد ضاء شعري على بابكم   كما ضاء حَليٌ على خالصه

فاستحسن الرشيد مواربته، وقال بعض من حضر: هذا بيت قلعت عيناه فأبصر.

وشاهد التصحيف في الموارية يأتي في أبيات البديعيات، ويعجبني قول الشيخ عز الدين الموصلي، في الموارية من غير البديعية، لما بلغه وفاة القاضي فتح الدين بن الشهيد، وكان القاضي فتح الدين يرجح جانب الشيخ شمس الدين المزين على الشيخ عز الدين، لبغض كان في خاطره لا لاستحقاق:

دمشق قالت لنا مقالا   معناه في ذا الزمان بين
اندمل الجرح واستراحت   ذاتي من الفتح والمزين

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته:

لأنت عندي أخص الناس منزلة   إذ كنتِ أقدرهم عندي على السلم

الموارية في أخص يريد بها أخس بالسين المهملة، وأقدرهم يريد بها أقذرهم بالذال المعجمة، والموارية في أقدرهم بالتصحيف.

وهذا النوع لم ينظمه العميان في بديعيتهم، وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

لأنت أفتح ذهناً في موارية   وبالتعقل منسوب إلى النعم

مراد الشيخ بأفتح أقبح، وبالتعقل التغفل، وقال في شرحه: إنه أراد بالنعم النعم، وهو اسم جامع للإبل وغيرها وأراد بذلك الموارية بالتحريف أيضاً. سلمنا له ذلك، ولكن لم أر في بيته قبل الموارية معنى يستأنس به الذوق. وبيت بديعيتي أنا مستمر فيه على ما تقدَّم من خطاب العاذل:

يا عاذلي أنت محبوب لديَّ فلا   توارب العقل مني واستفد حكمي

قولي للعاذل أنت محبوب لدي، من له أدنى ذوق يفهم منه أن مرادي الموارية بمجنون، والمراد بلفظة توارب توازن، والمعنى قبل الموارية مستقيم وهو في غاية الكمال وإذا حصلت الموارية صار البيت:

يا عاذلي أنت مجنون لديَّ فلا   توازن العقل مني واستفد حكمي

وأنتقل من صيغة المدح المقبول إلى صيغة الهجو الصريح.

ذكر الكلام الجامع

جمع الكلام إذا لم تغن حكمته		وجوده عند أهل الذوق كالعدم

الكلام الجامع، هو أن يأتي الشاعر ببيت مشتمل على حكمة، أو وعظ، أو غير ذلك من الحقائق التي تجري مجرى الأمثال، ويتمثل الناظم بحكمها أو وعظها أو بحالة تقتضي إجراء المثل، كقول زهير بن أبي سلمى:

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله		على قومه يُستغنَ عنه ويذمم

وقول أبي نواس:

إذا كان غير الله في عدة الفتى		أتته الرزايا من وجوه الفوائد(١)

وقول المتنبي:

وإذا كانت النفوس كباراً		تعبت في مرادها الأجسام(٢)

وبيت الشيخ صفي الدين في بديعيته:

من كان يعلم أن الشهد مطلبه		فلا يخاف للدغ النحل من ألم

فإنه حصر فيه الكلام الجامع بشروطه، وأجراه مجرى المثل مع ما أودع فيه من الحكمة، وزاد على ذلك بما كساه من ديباجة الرقة ولطف السهولة وحسن الانسجام، وأما العميان فما نظموا هذا النوع في بديعيتهم وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

كلامه جامع وصف الكمال كما		يهيج الشوق أنواعاً من الريم(٣)

---

(١) أي إذا توكل الإنسان على غير الله، أتته المصائب عن طريق ما يستفيد منه.

(٢) المراد: ما تريده وهو الطمُوح.

(٣) الريم: الجراح التي شارفت على البرء.

قد تقرر: إن الكلام الجامع هو أن يأتي الناظم ببيت جملته حكمة، أو موعظة، أو غير ذلك من الحقائق التي تجري مجرى الأمثال، وليس بين الشطر الأول من البيت وبين الشطر الثاني مناسبة ولا إيناس ملاءمة، ولم أر لجريان المثل دخولاً في باب هذا البيت:

وبيت بديعيتي:

جمع الكلام إذا لم تغن حكمته   وجوده عند أهل الذوق كالعدم

حكمة هذا البيت ما أجريت مثلها على هذا النمط، إلا ليعلم المتيقظ أن فيه إشارة لطيفة إلى بيت عز الدين. فإني قررت أن ليس في كلامه الجامع ما يشعر بحكمة تجري مجرى الأمثال، فوجوده عند أهل الذوق كالعدم، والله الموفق.

ذكر المناقضة

إني أناقضهم إن أزمعوا ونأوا   وجرّ نملٌ ثبيراً إثر عيسهم[1]

المناقضة تعليق الشرط على نقيضين: ممكن ومستحيل، ومراد المتكلم المستحيل دون الممكن، ليؤثر التعليق عدم وقوع المشروط، فكأن المتكلم ناقض نفسه في الظاهر، إذ شرط وقوع أمر بوقوع نقيضين، ومثاله قول النابغة:

وإنك سوف تحكم أو تباهي   إذا ما شبت أو شاب الغراب

فإن تعليقه وقوع حكم المخاطب على شيبه ممكن، وعلى شيب الغراب مستحيل، ومراده الثاني لا الأول، لأن مقصوده أن يقول: إنك لا تحكم أبداً.

والفرق بين المناقضة وبين نفي الشيء بإيجابه، أن هذا الباب ليس فيه نفي ولا إيجاب، ونفي الشيء بإيجابه ليس فيه شرط، وبيت الشيخ صفي الدين في المناقضة:

وإنني سوف أسلوهم إذا عدمت   روحي وأُحييت بعد الموت والعدم

فتعليق الشرط بين النقيضين: الممكن والمستحيل ظاهر، والبيت في غاية الحسن. والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت عز الدين:

إني أناقض عهد النازحين إذا   ما شاب عزمي وشبّت شَهوة الهرم

الشيخ عز الدين قرر في بيته وشرحه: إن شيب العزم ممكن، وشباب شهوة الهرم مستحيل. فرأيت تصوير شيب العزم وإمكانه، وسبك استعارته في قالب التشبيه، كما تقرر

---

(١) أزمع: عزم ـ النأي: البعد والهجر ـ ثبير: جبل بالقرب من مكة ـ العيس: الجمال مفردها أعيس.

في باب الاستعارة فيه أشكال، فإنهم قالوا: الاستعارة هي ادعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه. ولم أر في شيب العزم وجهاً للمبالغة في التشبيه، وعلى كل تقدير فالممكن والمستحيل في بيت عز الدين فيهما نظر.

وبيت بديعيتي:

إني أناقضهم إن أزمعوا ونأوا وجر نمل ثبيراً إثر عيسهم

تعليق الشرط على الممكن والمستحيل في هذا البيت أوضح من الكلام عليه، والله أعلم بالصواب.

ذكر التصدير أو رد العجز على الصدر

ألم أصرح بتصدير المدبح لهم ألم أهدّد ألم أصبر ألم ألم

هذا النوع الذي هو ردّ الاعجاز على الصدور، سماه المتأخرون التصدير. والتصدير هو أخف على المستمع وأليق بالمقام، وقد قسمه ابن المعتز على ثلاثة أقسام: الأول، ما وافق آخر كلمة في البيت آخر كلمة في صدره، أو كانت مجانسة لها، كقول الشاعر:

يُلفى إذا ما كان يوم عرمرم في جيش رأي لا يفل عرمرم(١)

والثاني؛ ما وافق آخر كلمة في البيت أول كلمة منه، وهو الأحسن، كقول الاخر:

سريع إلى ابن العم يلطم وجهه وليس إلى داعي الندى بسريع(٢)

ومثله:

تمنت سليمى أن أموت صبابة وأهون شيء عندنا ما تمنت

ومثله:

سُكران سكر هوى وسكر مدامة أنى يفيق فتىً به سكران

وشاهد الجناس في هذا الباب، للسري الرفاء:

يسار من سجيتها المنايا ويمنى من عطيتها اليسار(٣)

---

(١) العرمرم: اليوم: الشديد، الجيش: الكثير.

(٢) لَطم: ضرب بجمع كفه ـ الداعي: الذي يدعو ـ الندى: العطاء.

(٣) السجية: العاده ـ يسار: اليد اليسرى. اليسار: الغنى.

والأكثر أن تكون الكلمة التي في العجز عين الكلمة التي في الصدر لفظاً، وإن قبل اللفظ اشتراكاً زاد النوع حسناً. مثاله:

ذوائب سود كالعناقيد أرسلت فمن أجلها منا النفوس ذوائب[١]

والقسم الثالث، ما وافق آخر كلمة في البيت بعض كلام في أي موضع كان، كقول الشاعر:

سقى الرمل صوب مستهل غمامه وما ذاك إلا حُب من حل بالرمل[٢]

هكذا عرف ابن المعتز هذا القسم الثالث من التصدير. لكن قال ابن أبي الأصبع: إن هذا التعريف مدخول، وصدق، فإن ابن المعتز قال في أي موضع كان، والكلمة إذا كانت في العجز لم تسم تصديراً لأن اشتقاق التصدير من صدر البيت، فلا بد من زيادة قيد في التعريف يسلم به من المدخل، بحيث يقول: بعض كلمات البيت في أي موضع كانت من صدره. قال ابن أبي الأصبع أيضاً: الذي يحسن أن يسمى به القسم الأول تصدير التقفية، والثاني تصدير الطرفين، والثالث تصدير الحشو، وقد وقع من القسم الأول، في الكتاب العزيز، قوله تعالى: **﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين﴾**[٣] ومن القسم الثاني، قوله تعالى: **﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾**[٤] ومن القسم الثالث، قوله تعالى: **﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾**[٥]

قال ابن أبي الأصبع: وفي التصدير قسم رابع ذهب عنه ابن المعتز، وهو أن يأتي، فيما الكلام فيه منفي واعتراض، فيه إضراب عن أوله، كقول الشاعر:

فإن تك لم تبعد على متعهد بلى كل من تحت التراب بعيد[٦]

وقد جاء قدامة من التصدير بنوع آخر، كما ذكرناه، وسماه التبديل: وهو أن يصيِّر المتكلم الأخيرَ من كلامه أوَّلاً، أو بالعكس، كقولهم: أشكر لمن أنعم عليك وأنعم على من شكرك.

---

(١) ذوائب: الأولى بمعنى خصل الشعر مفردها ذؤابة، والثانية بمعنى الذوبان، ومفردها، ذائبة.

(٢) الصوب: المطر النافع غير المؤذي ـ الغمام المستهل: الشديد المطر.

(٣) البقرة، ٢/ ١٦.

(٤) البقرة، ٢/ ١٩٥.

(٥) الأنعام، ٦/ ١٠.

(٦) تعهّد: حافظ على والتزم فعله أو رعايته. والمتعهّد: الذي يحافظ على العهد.

قال ابن أبي الأصبع لم أقف لهذا النوع على شاهد شعري فقلت:

اصبـــر على خلق من تصـاحبـــه واصحب صبوراً على أذى خلقك

أصحاب البديعيات نظموا القسم الثاني، الذي قرره ابن المعتز، وهو ما وافق آخر كلمة من البيت أول كلمة فيه، وهو الذي وقع الاتفاق على أنه الأحسن. وبيت الشيخ صفي الدين رحمه الله:

فمي تحدث عن سري فما ظهرت سرائر القلب إلا من حديث فمي

هذا النوع، أعني التصدير، ما برحت السهولة نازلة بأكناف أذياله، فإنه سهـل المأخذ ويتعين على الأديب المعنوي أن لا يتركه ساذجاً من نكتة أدبية يزداد بها بهجة، فإن الشيخ صفي الدين مع عدم تكلفه بتسمية النوع، وسبكه في قالب التورية من جنس الغزل، لم يأت به إلا ساذجاً. وبيت العميان في بديعيتهم:

وحقهم ما نسينا عهد حبهم ولا طلبنا سواهم لا وحقهم[1]

لعمري إن بيت الشيخ عز الدين، في هذا النوع، أعمر من بيت الصفي ومن بيت العميان، فإنه مع التصريح بتورية التسمية، حلى نوع التصدير بمكررها في طرفي بيته وهو:

فَهِمْ بصـدر جمال عجـزُ عاشقـه عن وصله ظاهرٌ عن باحث فِهمِ[2]

وبيت بديعيتي:

ألم أصرح بتصدير المديح لهم ألم أهـدد ألم أصبــر ألم ألـم

ديباجة التورية في عجز هذا البيت وصدره لا تخفى على صاحب الذوق السليم، ولو استقل هذا البيت بنظم نوع التصدير مجرداً، لم يكن تحته كبير أمر كبيت الحلي وبيت العميان.

---

(١) وحقهم: الواو، واو القسم.

(٢) فهم: الأولى أمر من هام، والثانية من الفهم.

ذكر القول بالموجب أو أسلوب الحكيم

قولي له مـوجب إذ قال أشفقهم　　　تسـل قلت بنـاري يـوم فقـدهم

القول بالموجب، ويقال له أسلوب الحكيم، وللناس فيه عبارات مختلفة: منهم من قال هو أن يخصص الصفة بعد أن كان ظاهرها العموم، أو يقول بالصفة الموجبة للحكم، ولكن يثبتها لغير من أثبتها المتكلم.

وقال ابن أبي الأصبع: هو أن يخاطب المتكلم مخاطباً بكلام، فيعمد المخاطب إلى كلمة مفردة من كلام المتكلم فيبني عليها من لفظه ما يوجب عكس معنى المتكلم، وذلك عين القول بالموجب، لأن حقيقته رد الخصم كلام خصمه من فحوى لفظه. قال صاحب التلخيص، في تلخيصه وإيضاحه: القول بالموجب ضربان: أحدهما، أن تقع صفة من كلام الغير كناية عن شيء أثبت له حكم، فتثبت في كلامك تلك الصفة لغير ذلك الشيء، من غير تعرض لثبوت ذلك الحكم وانتفائه، كقوله تعالى: ﴿**يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾[1] فإنهم كنوا بالأعز عن فريقهم، وبالأذل عن فريق المؤمنين، وأثبتوا لـلأعز الإخـراج، فأثبت الله تعالى، في الردّ عليهم، صفة العزة لله ولرسولـه وللمؤمنين، من غير تعـرض لثبوت حكم الإخراج للموصوفين بصفة العزة ولا لنفيه عنهم. انتهى كلام صاحب التلخيص.

ومنه قول القبعثري للحجاج لما توعده فقال: لأحملنك على الأدهم: والمراد به

---

(١) المنافقون، ٦٣/ ٨.

القيد فرأى القبعثري أن الأدهم يصلح للقيد والفرس، فحمل كلامه الى الفرس، وقال: مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب فصرف الوعيد بالهوان إلى الوعد بالإحسان، وفي هذا ما لا يخفى على المتأدب من حسن التلطف وشدة الباعث على فعل الخير، إذ لا يليق بمن له همة عالية أن يقال له: مثلك من يفعل الخير، فيقول: لا بل أفعل الشر.

والقسم الثاني من كلام صاحب التلخيص: أن القول بالموجب، هو حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده، مما يحتمله بذكر متعلقه، وهذا القسم الذي تداوله الناس[1]، ونظمه أصحاب البديعيات، كقول ابن حجاج:

قال ثقلت إذ أتيت مرارا ... قلت ثقلت كاهلي بالأيادي
قال طولت قلت أوليت طولاً ... قال أبرمت قلت حبل ودادي[2]

وحذاق البديع أخلوا هذا الباب من لفظة لكن، فإنهم خصصوا بها نوع الأستدراك، بحيث يفرق بينهما فرق دقيق، وهذا هو الفرق. ومن أحسن ما وقع في هذا النوع قول محاسن الشواء:

ولما أتاني العاذلون عدمتهم ... وما فيهم إلا للحمى قارض[3]
وقد بُهتوا لما رأوني شاحبا ... وقالوا به عين فقلت وعارض[4]

وأورد الشهاب محمود، في كتابه المسمى «بحسن التوسل إلى صناعة الترسل» بيت الأرّجاني في الاستدراك شاهداً على هذا النوع، وهو:

غالطتني إذ كست جسمي ضنى ... كسوة أعرت من اللحم العظاما
ثم قالت أنت في الهوى ... مثل عيني صدقت لكن سقاما

قد تقرر أن لفظه لكن خصص بها أهل البديع نوع الاستدراك، لأجل الفرق بينه وبين القول بالموجب، ولم يستشهدوا على نوع الاستدراك بغير بيتي الأرّجاني. قال الشهاب محمود في البيتين: إنه أعجبه معناهما، ونظم فيه قوله، وهو شاهد على القول بالموجب:

---

(١) في الأصل وردت تداول بين الناس ولسلامة المعنى أثبتنا تداوله الناس إذ كان يجب أن يقول: تدوْوِلَ بين الناس فهو مُتداوَل. أي مفعول وليس فاعلاً. وتداول: جرى استعماله.

(٢) أبرم: فتل وأحكم الربط.

(٣) قارض: من قرض إذا قطع وأكل.

(٤) عارض: مصيبة، وما يعرض للإنسان في حياته.

رأتني وقـد نـال مني النحـول وفاضت دموعي على الخد فيضا[1]
فـقـالت بـعيني هـذا السقـام فقلت صـدقت وبـالخصر أيضـا

وبيت الحلي:

قالوا سلوت لبعد الإلف قلت لهم سلوت عن صحتي والبرء من سقمي[2]

فقوله: سلوت عن صحتي هو حمل لفظ وقع من كلام الغير على خلاف مراده.

وبيت العميانْ أوردوه بحرف الاستدراك، وهو:

كـانوا غيـوثـاً ولكن للعفـاة كمـا كانوا ليـوثاً ولكن في عـداتهم[3]

رأيت ترك الكلام على هذا البيت أليق بالمقام.

وبيت عز الدين الموصلي:

قالوا مـدام الهوى قـول بموجبـه تسل قلت شبابي من يد الهرم[4]

لما قال الشيخ عز الدين، بعد تسل: شبابي من يد الهرم، علمنا أنها الكلمة التي أشار إليها ابن أبي الأصبع، وقال: إن المخاطب يعكس بها معنى كلام المتكلم وهو عين القول بالموجب. وتسل هنا، أحسن من سلوت في بيت الحلي، فإن تسل يقبل الاشتراك ومراد المتكلم هنا داء السل، فعاكسه المخاطب بسل الشباب من يد الهرم، ونقله، باشتراك التورية، إلى الوجه الذي أراده، ولم يخرج عن موضوعها في معنى السل الذي لم يخرج عن الوجهين، غير أن قول: الموصلي مدام الهوى قول بموجبه، لم يخل من شدة العقادة، وبيت بديعيتي:

قولي له مـوجب إذ قال أشفقهم تـسـل قلت بناري يـوم فقـدهم

فلفـظة تسـل هي الكلمـة المعتمـد عليهـا في عكـس معنى كـلام المتكلم من المخاطب، فإن المتكلم أراد السلوّ في لفظه تسل، وهي فعل أمر، فعاكسه المخاطب بالاشتراك، ونقلها بالتورية إلى صفة التسلي بالنيران، فإنه لما قال له: تسل، قال: بناري يوم فقدهم. ورقة البيت وانسجامه لا تخفى على أهل الذوق السليم، والله أعلم.

---

(١) النحول: الضعف والسقم.

(٢) الإلف: الحبيب الذي يألفه حبيبه.

(٣) العفاة: طالبو المعروف ـ العداة: مفردها العادي: وهو العدو.

(٤) تَسُلُّ: تصيب بمرض السل، وتسحب وتخلص. وأمر من سلا أي نسي.

ذكر الهجو في معرض المدح

وكم بمعرض مدح قد هجوتهم وقلت سدتم بحمل الضيم والتهم[1]

هذا النوع من مستخرجات ابن أبي الأصبع، وهو أن يقصد المتكلم هجاء إنسان، فيأتي بألفاظ موجهة ظاهرها المدح وباطنها القدح[2]، فيوهم أنه يمدحه ودر يهجوه، كقول الحماسي:

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إسـ ـ أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لخشيته سواهم من جميع الناس إنسانا[3]

فظاهر هذا الكلام المدح بالحلم والعفة والخشية والتقوى، وباطنه المقصود أنهم في غاية الذل وعدم المنعة، وظريف قول بعضهم في الشريف ابن الشجري:

يا سيدي والذي يعيذك من نظم قريض يصدى به الفكر[4]
ما فيك من جدك النبي سوى أنك لا ينبغي لك الشعر

ومن ملح هذا الباب، قول ابن سنا الملك في قواد[5]:

لي صاحب أفديه من صاحب حلو التأني حسن الاحتيال
لو شاء من رقة ألفاظه ألَّفَ ما بين الهدى والضلال[6]
يكفيك منه أنه ربما قاد إلى المهجو طيف الخيال

(١) سدتم: صرتم سادة.

(٢) القدح: الذم والهجاء.

(٣) لخشيته: أي لأجل أن ينفذوا خشيته أي ليخشوه. والخشية هي الإحساس بمراقبة الله في القول والعمل.

(٤) يصدى: يعطش ويجف، ويصدأ.

(٥) القوّاد: الذي يصلح بين القاتل وأهل المقتول ويأخذ لهم القود أي البدل.

(٦) ألَّف: جمع.

قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع: لقد تشبثت بأذيال القاضي، السعيد بن سنا الملك، في هذا النوع بقولي، فيمن ادعى الفقه والكرم:

إن فلاناً أكرم الناس لا ... يمنع ذا الحاجة من فلسه
وهو فقيه ذو اجتهاد وقد ... نص على التقليد في درسه
فيحسنُ البحث على وجهه ... ويوجب الدخل على نفسه(١)

والفرق بين الهجاء في معرض المدح وبين التهكم، أن التهكم لا تخلو ألفاظه من اللفظ الدال على نوع من أنواع الذم، أو لفظة توهم من فحواها الهجو. وألفاظ المدح في معرض الذم لا يقع فيها شيء من ذلك، ولا تزال تدل على ظاهر المدح، حتى يقرن بها ما يصرفها عنه.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي:

من معشر يرخص الاعراض جوهرهم ... ويحملون الأذى من كل مهتضم(٢)

فقوله: ويحملون الأذى من كل مهتضم، ينظر إلى قول الحماسي: «يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة» والمراد بما أبطنه الذل وعدم المنعة.

والعميان لم ينظموا هذا النوع. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

في ..رض المدح تهجى من قبيلته ... أعراضهم بين معمور ومنهدم

الذي أقوله: إن الشيخ عز الدين قفل مصراعي بيته، ومنع الأفهام من الدخول إليه، فإني لم أجد فيه ما يدل على مجرد المدح، ولا اقترن به ما يصرفه إلى صيغة الهجو، بل أقول وأنا أستغفر الله: إن هذا البيت أجساد ألفاظه ما دب فيها من المعاني روح، وليس له بهذا النوع إلمام.

وبيت بديعيتي:

وكم بمعرض مدح قد هجوتهم ... وقلت سدتم بحمل الضيم والتهم

فحمل الضيم، ينظر إلى قول الحماسي، إذ ظاهره الحلم والحسن وباطنه الذل وعدم المنعة ولكن حمل التهم هو الغاية القصوى في ظاهره وباطنه، والله أعلم.

---

(١) الدخل: بفتح الراء وسكون الخاء: ما يدخل عليه من مال، وبفتح الخاء، ما يداخل عقل الإنسان من فساد، والإلتباس والشبهة.

(٢) الإعراض: عدم النظر أو الالتفات إلى الشيء، والعرض في سبيل البيع ـ المهتضم: الظالم الذي يهتضم الحقوق.

ذكر الاستثناء

عِفت القـدود فلم أستثن بعـدهم   إلا معاطف أغصان بذي سلم[1]

الاستثناء، استثناءان: لغوي، وصناعي. فاللغوي: إخراج القليل من الكثير، وقد فرع النحاة من ذلك في كتبهم فروعاً كثيرة. والصناعيّ: هو الذي يفيد بعد إخراج القليل من الكثير معنى يزيد على معنى الاستثناء، ويكسوه بهجة وطلاوة، ويميزه بما يستحق به الاثبات في أبواب البـديع، كقـوله تعـالى: ﴿فسجد المـلائكة كلهم أجمعـون * إلا إبليـس﴾[2]، فإن في هذا الكلام معنى زائداً على مقدار الاستثناء، وذلك لعظم الكبيرة التي أتى بها إبليس، من كونه خرق إجماع الملائكة، وفارق جميـع الملأ الأعلى، بخروجه مما دخلوا فيه من السجود لآدم، وذلك مثل قولك: أمر الملك بكذا وكذا فأطاع أمره جميع الناس، من أمير ووزير، إلا فلاناً، فإن الإخبار عن معصية هذا العاصي بهذه الصيغة مما يعظم أمر معصيته، ويفخم مقدار كبريائه، بخلاف قولك: أمر الملك بكذا فعصاه فلان. ومثاله قوله تعالى، إخباراً عن نوح عليه السلام: ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾[3] فإن في الإخبار عن هذه المدة، بهذه الصيغة تهويلاً على السامع، لتمهيد عذر نوح عليه السلام في الدعاء على قومه، وإن في حكمة الإخبار عن المدة بهذه الصيغة العظيمة_تعظيمها، لكون أوّل ما يباشر السمع ذكر الألف، والإيجاز في اختصار هذا اللفظ، بهذه البلاغة العظيمة، ظاهر فإن لفظ القرآن أخصر وأوجز من قولنا: تسعمائة سنة وخمسين عاماً ولفظ القرآن بتقييد حصر العدد المذكور، ولا يحتمل الزيادة

---

(١) عفت: كرهت وتركت.

(٢) ص، ٣٨/ ٧٣ و ٧٤.

(٣) العنكبوت، ٢٩/ ١٤.

عليه، ومثله قوله تعالى: ﴿فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق * خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد * وأما الذين سُعِدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ﴾[1] فالله تعالى لما علم أن وصف الشقاء يعم المؤمن العاصي والكافر، استثنى من خلودهم في النار بلفظ مطمع، حيث أثبت الاستثناء المطلق وأكده بقوله: إن ربك فعال لما يريد، أي أنه لا اعتراض عليه في إخراج أهل الشقاء من النار. ولما علم أن أهل السعادة لا خروج لهم من الجنة، استثنى من خلودهم ما ينفي الاستثناء، حيث قال: عطاء غير مجذوذ، أي مقطوع، وهذه المعاني في هذه الآيات الشريفة زائدة على الاستثناء اللغوي.

ومن أمثال الاستثناء اللغوي في الشعر قول النميري:

فلو كنت بالعنقاء أو بأطومها   لخلتك إلا أن تصد تراني[2]

هذا الاستثناء في غاية الحسن، فإنه تضمن المبالغة في زيادة مدح الممدوح، وذلك أن هذا الشاعر يقول: إني لو كنت في حيز العدم، لأن العرب تضرب المثل بالعنقاء لكل شيء متعذر الوجود لخلتك متمكناً من رؤيتي، ليس لك مانع يمنعك عني، فالزيادة هنا في غاية اللطف وهي قوله، إلا أن تصد، فأنت في القدرة عليَّ غير ممنوع، وهذا غاية المبالغة في المدح.

ومن الاستثناء نوع سماه ابن أبي الأصبع: استثناء الحصر، وهو غير الاستثناء الذي يخرج القليل من الكثير، ونظم فيه قوله:

إليك وإلا ما تحث الركائب   وعنك وإلا فالمحدث كاذب[3]

فإن خلاصة هذا البيت قول الناثر للممدوح: لا تحث الركائب إلا إليك، ولا يصدق المحدث إلا عنك، وهذا الحصر لا يحسن في الاستثناء الأول، فإنه لو قال سبحانه وتعالى: فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً وعاماً صح، لولا توخي الصدق في الخبر. وقوله تعالى: ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس﴾ لا يمنع أن يقال ورهطه[4]، لولا مراعاة الصدق في الخبر.

---

(١) هود، ١١/ ١٠٦ - ١٠٨.

(٢) العنقاء: طائر خرافي غير موجود يضرب به المثل لكل شيء متعذر الوجود.

(٣) الحث: الإسراع.

(٤) رهط الرجل: قومه وعشيرته وأتباعه.

وعلى منوال الاستثناء الأول، الذي هو العمدة في هذا الباب، نظم أصحاب البديعيات، وهو إخراج القليل من الكثير، بزيادة معنى بديع، يزيد على معنى الاستثناء، فبيت الشيخ صفي الدين الحلي:

فكل ما سر قلبي واستراح به ‏ ‏ ‏ ‏ إلا الدموع عصاني بعد بعدهم

فبيت صفي الدين هنا غير خال من العقادة، ومراده فيه أن كل شيء كان يسره، قبل الفراق، ويطيعه عصاه، إلا الدموع فإنها أطاعته. ومعنى هذه الزيادة اللطيفة لا يخفى على أهل الذوق.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم، وبيت الشيخ عز الدين:

الناس كل ولا استثناء لي عذروا ‏ ‏ ‏ ‏ إلا العذول عصاني في ولائهم

مراد عز الدين في زيادة معناه على معنى الاستثناء أن عذوله خالف الإجماع.

وبيت بديعيتي:

عفت القدود فلم أستثن بعدهم ‏ ‏ ‏ ‏ إلا معاطف أغصان بذي سلم

قال الله تعالى: ﴿كل حزب بما لديهم فرحون﴾[1] هذا البيت ما أعلم أنني إذا أطنبت في وصفه، يكون الإطناب لشدة فرحي به، لكونه نظمي، أو لأن الأمر على حقيقته. فإن زيادة معناه على معنى الاستثناء، وغرابة أسلوبه، وشرف نسيبه، وحسن انسجامه، وسهولة ألفاظه، ومراعاة نظيره لا تخفى على المنصف من أهل الأدب. وأما ترشيح تورية الاستثناء، بذكر القدود والمعاطف، فإنه من النسمات التي حركت القدود والمعاطف، والتكميل بذي سلم، لكون القصيدة نبوية، في غاية الكمال. والذي أقوله: إنه ما يدخل نظر المتأمل إلى بيت أعمر منه في هذا الباب، والله أعلم بالصواب.

---

(١) الروم، ٣٠/ ٣٢.

ذكر التشريع

طاب اللقا لذ تشريع الشعور لنا   على النقا فنعمنا في ظلالهم[1]

هذا النوع، أعني التشريع، سماه ابن أبي الأصبع: التوأم. وأراد بذلك مطابقة التسمية للمسمى، فإن هذا النوع شرطه أن يبني الشاعر بيته على وزنين، من أوزان القريض، وقافيتين، فإذا أسقط، من أجزاء البيت، جزأ أو جزأين صار ذلك البيت من وزن آخر غير الأول، كقول الحريري:

يا خاطب الدنيا الدنية إنها   شرك الردى وقرارة الاكدار[2]
دار متى ما أضحكت في يومها   أبكت غداً تباً لها من دار[3]

وهي قصيدة كاملة معروفة في مقاماته، من ثاني الكامل، وتنتقل بالإسقاط إلى ثامنه، فتصير:

يا خاطب الدنيا الدنيـــــة إنها شَرَكُ الردى[4]
دار متى ما أضحكت   في يومها أبكت غدا

وزيادة القافيتين ظاهرة ووقع، قبل كلام الحريري، من كلام العرب في هذا الباب:

---

(١) النقا: الرمل.

(٢) قرارة: مستقر ـ الأكدار: جمع كدر وهو الوسخ وكل ما يكدر الصفاء.

(٣) تباً لها: تعساً لها وخسراناً.

(٤) في الأصل شركة الردى، وفضلنا استبدالها بشرك لورودها أولاً ولعدم تغير الوزن، علماً أن شركة يمكن أن تكون من خطأ النساخ، لأن البيت مروي بلفظة شرك.

وإذا الرياح مع العشي تناوحت هوج الرمال بكثبهن شمالا
ألفيتنا نفري الغبيط لضيفنا قبل القتال ونقتل الأبطالا(١)

فإن هذا الشاعر لو اقتصر على الرمال والقتال، لكان الشعر من الضرب المجزوّ المرفل من الكامل وهو:

وإذا الرياح مع العشي ي تناوحت هوج الرمال
ألفيتنا نفري الغبيـ ـط لضيفنا قبل القتال

فإذا أتممت البيتين صارا من الضرب التام المقطوع منه، وصار لكل بيت من هذين البيتين قافيتان، ولا شك أن هذا النوع لا يأتي إلا بتكلف زائد وتعسف، فإنه راجع إلى الصناعة لا إلى البلاغة والبراعة، إذ وقوع مثل هذا النوع في الشعر من غير قصد له نادر، ولا يحسن أن يكون في النثر فإنه ما يقع فيه إلا ترصيعاً، ولا يظهر حسنه إلا في النظم، لأن فيه الانتقال من وزن إلى وزن آخر، فيحصل بذلك من الاستحسان ما لا يحسن في النثر، لأن النثر، على كل حال، كلام مسجوع ليس فيه انتقال من وزن إلى وزن، وأوسع البحور في هذا النوع الرجز، فإنه قد وقع مستعملاً تاماً ومجزواً، ومشطوراً ومنهوكاً، فيمكن أن يعمل للبيت منه أربع قواف، فإذا أسقطت ما بعد القافية الأولى بقي البيت منهوكاً، فإذا أسقطت ما بعد الثانية بقي البيت مشطوراً، فإذا أسقطت ما بعد الثالثة بقي مجزوّاً، وإذا لم تسقط شيئاً كان تاماً.

ولأبي عبد الله محمد بن جابر الضرير الأندلسي، ناظم البديعية، في غير بديعيته المذكورة هنا:

يرنو بطرف فاتر مهما رنا فهو المنى لا أنتهي عن حبه
يهفو بغصن ناضر حلو الجنى يشفي الضنا لا صبر لي عن قربه(٢)
لو كان يوماً زائري زال العنا يحلو لنا في الحب أن نسمى به(٣)
أنزلته في ناظري لما دنا قد سرنا إذ لم يحل عن صبه(٤)

فهذه الأبيات من الرجز التام وهو الضرب الأول منه، فإذا تركتها على حالها فهي

(١) نفري: نفتح ـ الغبيط: الهودج والستار والخيمة.
(٢) الضنا والضنى: الأوجاع الناجمة عن الأمراض الشديدة.
(٣) العنا: العناء وهو التعب الشديد، الإعياء.
(٤) لم يحل: لم يتحول ـ صبه: حبيبه.

من التام، وإذا أسقطت من البيت الأول: لا أنتهي عن حبه، ومن الثاني: لا صبر لي عن قربه، ومن الثالث: في الحب أن نسمى به، ومن الرابع: إذا لم يحل عن صبه، صارت من الرجز المجزوء، وإن أسقطت من البيت الأول قوله: فهو المنى إلى آخره، ومن الثاني: يشفي الضنا إلى آخره، ومن الثالث: يحلو لنا إلى آخره، ومن الرابع: قد سرنا إلى آخره، صارت من الرجز المشطور. وإن أسقطت من الأول. قوله: مهما رنا، ومن الثاني: حلو الجنى، ومن الثالث: زال العنا، ومن الرابع: لما دنا، صار من الرجز المنهوك. ولكن القوة في ذلك، والمكنة في ملكة الأديب أن يأتي بالتشريع، في بيت واحد، وهذا هو المطلوب من نظام البديعيات، لأجل الاستشهاد بأبياتهم على كل نوع، لا سيما الملتزم بتسميته على الصيغة، فإنه لو جاء بالتسمية والنوع في بيتين بطل حكم التورية، وخرج عن شروط البديعيات.

وبيت الشيخ صفي الدين:

فلو رأيت مصابي عندما رحلوا ... رثيت لي من عذابي يوم بينهم(١)

يخرج له من هذا البيت:

فلو رأيت مصابي ... رثيت لي من عذابي

وهو مجزوء المجتث، وبيته عند العروضيين:

البطن منها خميص ... والوجه مثل الهلال(٢)

وقد تعين إيراد ما نظمه أبو عبد الله الضرير في البيتين، لأجل المعارضة، وهما:

واف كريم رحيم قد وفى ووقى ... فعم نفعاً فكم ضراً شفى فقم
فقم بنا فلكم فقراً كفى كرماً ... وجود تلك الأيادي قد صفا فقم

أقول لو اختصر العميان هذين البيتين، وأضافوهما إلى ما اختصروه من البديع، لكان أجمل بهم، فإنهم أسقطوا من أنواع البديع نحو السبعين، وقصد الناظم فيهما، أعني البيتين، أنك إذا أسقطت من البيت الكلمة الموازنة لفعلن من آخر كل نصف، وهما قوله: ووقى، وقوله: فكم، صار الوزن من الضرب الأول من البسيط، وهو التام، الى الضرب الثالث منه، وهو المجزوّ، لأنه قد حذف منه جزءاً من آخر كل نصف فصار:

واف كريم رحيم قد وفى ... وعم نفعاً فكم ضراً شفى
فقم بنا فلكم فقراً كفى ... وجود تلك الأيادي قد صفا

---

(١) رثى: أشفق عليه وحزن لأجله ـ البين: الفراق.

(٢) خميص: فارغة خاوية، جائعة.

وهذا مع ركته وثقالة نظمه، غير المشهور من البسيط، فإنه لم يشتهر منه سوى العروض الأولى المخبونة، ووزنها فعلن ولها ضربان، المشهور منها الأول وهو مخبون مثلها.

وبيت الشيخ عز الدين:

وفي الهوى ضل تشريع العذول لنا   وكم هوى في مقال ذل من حكم

أخبر أن تشريع العذول في حكم الهوى ضلال، حتى يرشح بتورية التشريع في تسمية النوع، ويخرج من بيت الشيخ عز الدين بيت من قافية أخرى، من منهوك الرجز، فنصفه في الشطر الأول، وفي الهوى، وفي الشطر الثاني: وكم هوى، وهذه عبارته في شرحه بنصها، فصار باقي البيت بدون الجزأين الأولين:

ضل تشريع العذول لنا   في مقال ذل من حكم

وهذا البيت من العروض الثالثة المحذوفة المخبونة من المديد، ووزنها فعلن، وشاهدها:

للفتى عقل يعيش به   حيث تهدي ساقه قدمه

ولقد برز الشيخ عز الدين في ذلك على متقدميه، فإن الشيخ صفي الدين لم يتحصل له بيتان من بيت، ولا للشيخ أبي عبد الله الضرير، ولكن قال الشيخ عز الدين في شرحه: إن هذا النمط ما وقع للمتقدمين، وهو معجز ليس لأديب عليه قدرة، وبسط العبارة في الدعوى بسببه، فأردت أن لا أنسج في الشرح على غير منواله، فقلت:

طاب اللقا لذ تشريع الشعور لنا   على النقا فنعمنا في ظلالهم

فيخرج من بيتي: طاب اللقا   على النقا

وهو بيت بقافية أخرى من منهوك الرجز، كبيت الشيخ عز الدين، ولكن شتان بين قولي: طاب اللقا. على النقا، وبين قوله: وفي الهوى. وكم هوى، فإن بيته لا تتم به فائدة ولا يحسن السكوت عليه، وصار باقي بيتي، بدون الجزأين الأولين:

لذ تشريع الشعور لنا   فنعمنا في ظلالهم

وهو بيت من العروض الثالثة المحذوفة المخبونة من المديد، وهي التي رتب عز الدين عليها ما بقي من بيته:

ضل تشريع العذول لنا   في مقال ذل من حكم

ولكن الفرق في تشريع الشعور ظاهر، والتورية في قوله: فنعمنا في ظلالهم، عند ذكر الشعور، كلاهما سائغ عند أهل الأدب، وهذا البيت، مع صعوبة مسلك هذا النوع، اجتمع فيه من أنواع البديع: السهولة والانسجام والتورية، في موضعين، والتمكين في القافية، والجناس المطلق بين تشريع وشعور، والتذييل البديعي، فإني أتيت بجملة، بعد تمام الكلام الأول، زادت معناه تحقيقاً وتوديداً، وجرت مجرى المثل، وفيه نوع التشريع الذي هو المقصود هنا. والله أعلم.

ذكر التتميم

بكـل بـدر بليـل الشعـر يحسـده   بدر السماء على التتميم في الظلم[1]

التتميم، كان اسمه التمام، وإنما سمـاه الحاتمي التتميم، وسمـاه ابن المعتز: اعتراض كلام في كلام لم يتم معناه.

والتتميم عبارة عن الإتيان، في النظم والنثر، بكلمة إذا طرحت من الكلام نقص حسنه ومعناه، وهو على ضربين: ضرب في المعاني، وضرب في الألفاظ. فالذي في المعاني، هو تتميم المعنى، والذي في الألفاظ هو تتميم الوزن، والمـراد هنا تتميم المعنى ويجيء للمبالغة والاحتياط، كقول طرفة:

فسقى ديـارك غير مفسـدها   صوب الغمام وديمة تهمي[2]

فقوله: غير مفسدها احتراس واحتياط، ويجيء في المقاطع والحشو، وأكثر مجيئه في الحشو، ومثاله قوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾[3] فقوله: من ذكر أو أنثى، تتميم، وقوله: وهو مؤمن، تتميم ثان في غاية البلاغة التي بذكرها تم معنى الكلام، وجرى على الصحة، ولو حذفت الجملتان نقص معناه واختل حسن البناء. ومن هذا القسم قول النبي ﷺ، مما انفرد به مسلم: ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم اثنتي عشرة ركعة، من غير الفرائض، إلا بنى الله له بيتاً في

---

(١) بليل الشعر: صيغة مبالغة من البلل.

(٢) الديمة: الغيمة إذا أمطرت ـ تهمي: تمطر بغزارة.

(٣) النحل، ١٦/ ٩٧.

الجنة. فوقع التتميم، في هذا الحديث، في أربعة مواضع، منها قوله: مسلم، ومنها قوله: لله، ومنها: كل يوم، ومنها قوله: من غير الفرائض.

ومن أناشيد قدامة على هذا القسم:

أنـــاس إذا لم يقبـل الحق منهم ... ويعطوه غاروا بالسيوف القواضب[١]

فقوله: ويعطوه، تتميم، فإنه في غاية الحسن، وهو[٢] شاهد على ما جاء منه للاحتياط.

ومثال ما جاء منه للمبالغة، قول زهير:

من يلق يـوماً على عـلاته هَـرِماً ... يلق السماحة منه والندى خلقا[٣]

فقوله على علاته تتميم للمبـالغة.

وغاية الغايات في التتميم للمبالغة، قوله تعالى: ﴿ويطعمون الطعـام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾[٤]. فقوله: على حبه، هو تتميم للمبالغة التي تعجز عنها قدرة المخلوقين. وأما التتمـيم الذي جاء في الألفاظ فهو الذي يؤتى به لإقامة الوزن، بحيث أنه لو طرحت الكلمة استقل معنى البيت بدونها، وهو على ضربين أيضاً: كلمة لا يفيد مجيئها إلا إقامة الوزن، وأخرى تفيد مع إقامة الوزن ضرباً من المحاسن. فالأولى من العيوب، والثانية من النعوت، والمراد هنا الثانية لا الأولى، ومثالها قول المتنبي:

وخفـوف قلب لـو رأيت لهيبـه ... يـا جنتي لـظننت فيـه جهنما[٥]

فإنه جاء بقوله: يا جنتي، لإقامة الوزن فأفاد تتميم المطابقـة، وهو ضـرب من المحاسـن المشار إليها.

---

(١) غاروا: أي أغاروا، هجموا ـ القواضب: القواطع.

(٢) في الأصل: فإنه وقد استبدلناها بـ: هو المثبتة منعاً للتكرار.

(٣) هـرم: هو هـرم بن سنـان الـذي كـان يـدفـع ديـات القتلى من مـالـه الخـاص، ليصلح بين المتقاتلين ـ الندى: الكرم ـ وقوله: على علاته، لا يثبت بالضروره هجاءً لهرم، وإنما جاء به الشاعر تتميماً للمبالغة في المدح.

(٤) الإنسان، ٧٦/ ٨ وهذه الآية نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) إذ يروى أنه كان صائماً وجاءه سائل فقال لفاطمة (ع) زوجته: ما عندك؟ قالت: بعض الأرغفة، فدفع بها إليه، وباتوا خماص البطون، حتى اذا جاء اليوم الثاني والثالث والحادثة تتكرر نزلت هذا الآية.

(٥) الخفوف: الإسراع في الخفقان، وربما كان البيت: «وخفوق قلب» وإنما أصابها التصحيف.

ولقد وهم جماعة من المؤلفين، وخلطوا التكميل بالتتميم، وساقوا في باب التتميم شواهد التكميل وبالعكس. وتأتي شواهد التكميل في مواضعها، والفرق بين التكميل والتتميم: أن التتميم يرد على الناقص فيتمه، والتكميل يرد على المعنى التام فيكمله، إذ الكمال أمر زائد على التتميم، وأيضاً، أن التمام يكون متمماً لمعاني النقص لا لأغراض الشعر ومقاصده، والتكميل يكملها. وبيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته:

وكم بـذلت طريفي والتليـد لكم ... طوعاً وأرضيت عنكم كل مختصم[1]

فالتتميم في قوله: طوعاً، فإنه أراد به أنه لم يبذل ذلك كرهاً، فتم بهذا المعنى.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم وبيت الشيخ عز الدين:

والبدر مذ لاح في التتميم دان له ... والشمس مذعنة طوعاً لمحتكم[2]

قوله: في التتميم، هو التتميم بعينه مع زيادة التورية في التشبيه، وقوله: طوعاً، تتميم ثان، لكن تقدمه الشيخ صفي الدين، بقوله: طوعاً وأرضيت عنكم كل مختصم.

وبيت بديعيتي، متعلق ببيت التشريع الذي قبله، وهو:

طاب اللقا لذ تشريع الشعور لنا ... على النقـا فنعمنا في ظـلالهم
بكـل بـدر بليـل الشعـر يحسـده ... بدر السماء على التتميم في الظلم

فقولي: بليل الشعر، هو التتميم الذي تستعار من استعارته المحاسن، فإني لو قلت: بكل بدر يحسده بدر السماء، لصح المعنى، ولكن زدت البدر الأرضي، بقولي: بليل الشعر، تتميماً وحسناً. وقولي: على التتميم، تتميم ثانٍ مع زيادة التورية التي فيها تسمية النوع الملتزم بها. وقولي: في الظلم، تتميم ثالث ليس له نظير، فإن به تم المعنى وتمت رتبة اللف والنشر.

---

(١) الطريف والتليد: ويقال الطارف والتالد، من المال: المكتسب و الموروث.

(٢) دان: خضع ـ مذعنة: خاضعة.

ذكر تجاهل العارف

وافتر عُجباً تجاهَلْنا بمعرفة ... قلنا أبرق بدا أم ثغر مبتسم(١)

تجاهل العارف، تسميته لابن المعتز، وسماه السكاكي: بسوق المعلوم مساق غيره، لنكتة المبالغة في التشبيه. وهو عبارة عن سؤال المتكلم، عما يعلم، سؤال مَنْ لا يعلم، ليوهم أن شدة التشبيه الواقع بين المتناسبين أحدثت عنده التباس المشبه بالمشبه به، وفائدته المبالغة في المعنى، نحو قولك: أوجهك هذا أم بدر، فإن المتكلم يعلم أن الوجه غير البدر، إلا أنه لما أراد المبالغة في وصف الوجه بالحسن استفهم: أهذا وجه أم بدر؟ ففهم من ذلك شدة الشبه بين الوجه والبدر، فإن كان السؤال عن الشيء الذي يعرفه المتكلم خالياً من الشبه، لم يكن من هذا الباب، بل يكون من باب آخر كقوله تعالى: **﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾**(٢) فإن السؤال هنا، ما وقع لأجل المبالغة في التشبيه المشار إليه، في تجاهل العارف، بل هو لفائدة أخرى. أما الإيناس لموسى عليه السلام، لأن المقام مقام هيبة واحترام، وإما إظهار المعجز الذي لم يكن موسى يعلمه. ومنه قوله لعيسى عليه السلام: **﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾**(٣) فإن السؤال هنا لم يكن للتشبيه، وإنما هو توبيخ لمن ادعى فيه ذلك.

ومن الناس من جعل تجاهل العارف مطلقاً، سواء كان على طريق التشبيه، أو على غيره، إذا تقرر هذا فاعلم أن تجاهل العارف من حيث هو، إنما يأتي لنكتة من نحو مبالغة

---

(١) افترّ: تبسّم حتى بدت أسنانه.

(٢) طه، ٢٠/ ١٧.

(٣) المائدة، ٥/ ١١٦.

في مدح أو ذم أو تعظيم أو تحقير أو توبيخ أو تقرير أو من تدلهَ في الحب، وأنا أذكر أمثلة الجميع هنا، فمنه للمبالغة في الغزل قول الشاعر:

أجفون كحيلة أم صُفاح وقدود مهزوزة أم رماح[1]

ومنه للمبالغة في الشوق وطول الليل:

وشوق ما أقاسي أم حريق وليل ما أكابد أم زمان[2]

وللمبالغة في النحول:

وقفت وقد فقدت الصبر حتى تبين موقفي أني الفقيد
وشكك فيَّ عذالي فقالوا لرسم الدار أيكما العميد

ومنه للمبالغة في الغزل:

في الخيف من ظبيانه سمراء أقوَامُها أم صعدة سمراء[3]

ومثله:

أثغرك يا هند أبدى ابتساما أم البرق سل عليه حساما

ومثله قول شرف الدين راجح الحلي:

من أطلع البدر في ديجور طرته وأودع السحر في تكسير مقلته[4]
ومن أدار يواقيت الشفاه على كأس من الدر يحمي خمر ريقته[5]

ويعجبني من هذا القصيد قوله وإن كان من غير ما نحن فيه:

يحنو النسيم عليه من لطافته والدهر ألين منه عند قسوته

ومثله، في اللفظ والمعنى، قول ابن نباتة:

في مرشفيه سلاف الراح من عصره ومعطفيه قوام البان من هصره[6]
وفي ابتسام ثناياه ومنطقه من نظم الدر أسلاكاً ومن نثره

---

(١) الصُفاح: السيوف، وهي في الأصل وجه السيف وعرضه مفردها صُفح.

(٢) أكابد: أعاني.

(٣) الصعدة: القناة المستوية التي لا تحتاج إلى تثقيف أو تقويم.

(٤) الديجور: الظلام الشديد السواد ـ الطُره: أول الشعر من مقدم الرأس.

(٥) يواقيت: مفردها ياقوت وهو من الأحجار الكريمة الشفافة.

(٦) المرشف: الشفة ـ السلاف: الخمر المعتقه ـ الهصر: التمايل.

ومن تجاهل العارف، للمبالغة في تعظيم الممدوح، قول ابن هانىء المغربي:

أبني العوالي السمهرية والموا ... ضي المشرفية والعديد الأكبر[1]
من منكم الملك المطاع كأنه ... تحت السوابغ تبع في حمير[2]

قيل إنه لما تجاهل، في هذا البيت، عن معرفة الممدوح، ترجل الجيش بكماله تعظيماً للممدوح إذ هو ملكهم، وهذه القصيدة سارت بها الركبان والحداة تشدو ببلاغتها، وهي أحب من: قفا نبك في الشهرة، لفصاحتها، ومطلعها:

فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر ... وأمدكم فلق الصباح المسفر

وما أحلى ما قال بعده:

وجنيتم ثمر الوقائع يانعاً ... بالنصر من ورق الحديد الأخضر

أقول إن هذه الاستعارات المرشحة يرشح ندى البلاغة من بين أوراقها، وتتعثر فحول الشعراء في حلبة سباقها، ومنها:

في فتية صدأ الدروع عبيرهم ... وخلوقهم علق النجيع الأحمر[3]
لا يأكل السرحان شلو طعينهم ... مما عليه من القنا المتكسر[4]
قوم يبيت على الحشايا غيرهم ... ومبيتهم فوق الجياد الضمر
وتظل تسبح في الدماء قبابهم ... فكأنهن سفائن في أبحر
حيّ من الأعراب إلا أنهم ... يردون ماء الأمن غير مكدر
لي منهم سيف إذا جردته ... يوماً ضربت به رقاب الأعصر
صعب إذا نوب الزمان استصعبت ... متنمر للحادث المتنمر
وإذا عفا لم تلق غير مهلل ... وإذا سطا لم تلق غير معفر
فغمامه من رحمة وعراصه ... من جنة ويمينه من كوثر[5]

---

(١) العوالي السمهرية: الرماح المنسوبة إلى رجل يقال له سمهر كان يصنع الرماح وكذلك الردينية. فهي رماح منسوبة إلى زوجته ردينة ـ المواضي المشرفية: السيوف القاطعة. والمشرفية: المجلوبة من مشارف اليمن.

(٢) السوابغ: الدروع التي تغطي معظم الجسم وتُبعٌ: ملك من ملوك قبيلة حِمْيَر.

(٣) خلوقهم: أليتسهم ـ النجيع: الدم الناتج عن الطعن.

(٤) السرحان: الذئب ـ الشلو: البقية أو القطعة من الشيء ومن الإنسان الجثة.

(٥) العراص: مفردها عرصة: وهي ساحة الدار.

ولم أستطرد إلى هذا القدر من نظم ابن هانىء إلا لعلمي أنه عزيز الوجود، وغريب في هذه البلاد.

ومن تجاهل العارف للمبالغة في المدح قول إمام هذه الصناعة، ومالك أزمة البلاغة والبراعة، القاضي الفاضل، من مديح العادل:

أهذي كفه أم غيث غوث ... ولا بلغ السحاب ولا كرامه
وهذا بشره أم لمع برق ... ومن للبرق فينا بالإقامه
وهذا الجيش أم صرف الليالي ... ولا سبقت حوادثها زحامه
وهذا الدهر أم عبد لديه ... يصرف عن عزيمته زمامه
وهذا نعل غمد أم هلال ... إذا أمسى كنون أم قلامه[1]
وهذا الترب أم خد لثمنا ... فآثار الشفاه عليه شامه

سبحان المانح! هذا الأديب الذي لم ينسج الأوائل على منواله، ولا تتعلق الأفاضل من المتأخرين بغبار أذياله.

ومنها وليس من تجاهل العارف، ولكنه من المرقص والمطرب:

وهذا الدر المنثور ولكن ... أروني غير أقلامي نظامه
وهذي روضة تندى وسطري ... بها غصن وقافيتي حمامه
وهذا الكاس روق من بناني ... وذكرك كان من مسك ختامه[2]

وقوله أيضاً من تجاهل العارف للمبالغة في المديح:

أهذه سِير في المجد أم سور ... وهذه أنجم في السعد أم غرر
وأنمل أم بحارٌ والسيوف لها ... موج وإفرندها في لجها درر[3]
وأنت في الأرض أم فوق السماء وفي ... يمينك البحر أم في وجهك القمر

ومما جاء في تجاهل العارف، للمبالغة في التعظيم، قول سيدنا القطب الفرد الجامع، عبد القادر الكيلاني قدس الله ضريحه، وأعاد علينا من بركاته في الدنيا والآخرة بمحمد وآله:

---

(١) القلامة: ما قُص من الظُفر، ويضرب بها المثل في الحقارة والخِسّة.

(٢) الروق: أي رائق. والروق هو القرن.

(٣) الإفرند: والفرند لمعان السيف وتموّجه ـ اللج: الوسط والعمق.

أأظما وأنت العذب في كل منهل | وأظلم في الدنيا وأنت نصيري
وعار على حامي الحمى وهو قادر | إذا ضاع في البيدا عقال بعير[1]

ومثله:

بدا فراع فؤادي حسن صورته | فقلت هل ملك ذا الشخص أم ملك

ومما جاء في تجاهل العارف للمبالغة في الذم قول زهير:

وما أدري وسوف أخال أدري | أقوم آل حصن أم نساء

ومما جاء للتحقير قول الشاعر، وتظارف إلى الغاية:

لما ادعى غصن الرياض بأنه | في لينه مع قدها موصوف
قلنا له هل أنت تشبه قدها | ما أنت هذا القد يا مقصوف

ومما جاء منه للتوبيخ قول ليلى بنت طريف الخارجية، في أخيها الوليد:

أيا شجر الخابور مالك مورقا | كأنك لم تجزع على ابن طريف[2]

وهذا البيت من قصيدة غريبة أثبتها بكمالها ابن خلكان في تاريخه، والخابور نهر أصله من رأس عين بديار بكر بصب إلى الفرات.

ومن أطرف ما وقع في تجاهل العارف على سبيل التوبيخ، قول سراج الدين الوراق، فإنه صرح بذكر التوبيخ في بيتيه وهما:

وا خجلتي وصحائفي مسودة | وصحائف الأبرار في إشراق
وموبخ في الحشر وهو يقول لي | أكذا تكون صحائف الوراق[3]

ومما وقع للتقرير قول مهيار:

سلا ظبية الوادي وما الظبي مثلها | وإن كان مصقول الترائب أكحلا[4]
أأنت أمرت الصبح أن يصدع الدجا | وعلمت غصن البان أن يتميلا

---

(١) البيدا: ترخيم بيداء وهي الصحراء ـ العقال: حبل يعقل به البعير ويضرب به المثل في القلة.
(٢) الخابور: نوع من الشجر من فصيلة الخمانيّات له زهر زاهي المنظر أصفر جيد الرائحة.
(٣) الوراق الذي يعمل في بيع الكتب.
(٤) الترائب: مفردها تربية وهي عظم الصدر.

ومما وقع منه قول العرجي للتدله في الحب:

بالله يا ظبيات القاع قلن لنا ليلاي منكم أم ليلى من البشر

قد قررت هنا اختلاف أقسام هذا النوع، أعني تجاهل العارف من مدح وذم وتعظيم وتحقير، وتوبيخ وتقرير وغير ذلك، إذا عرفت ذلك، فإني أوردت هنا ما استظرفته في هذا الباب، ولم أحتج فيه إلى التنبيه.

وأظرف ما سمعته في هذا الباب قول عبد المحسن الصوري:

بالذي ألهم تعذيـ ـبي ثناياك العذابا
والذي صير حظي منك هجراً واجتنابا
والذي ألبس خديـ ـك من الورد نقابا
ما الذي قالته عينا ك لقلبي فأجابا

ومثله:

دعوه ونجداً إنها شأن نفسه ولو أن نجداً تلعة ما تعداها[1]
وهبكم منعتم أن يراها بعينه فهل تمنعون القلب أن يتمناها

وقول المتنبي:

أتراها لكثرة العشاق تحسب الدمع خلقة في المآقي

وقول الفاضل:

فإذا قلت أين داري وقالوا هي هذي أقول أين زماني

وقال ابن الفارض:

أوميض برق بالأبيرق لاحا أم في ربا نجد أرى مصباحا
أم تلك ليلى العامرية أسفرت ليلاً فصيرت المساء صباحا

ويعجبني قول الشيخ علاء الدين الوداعي:

ترى يا جيرة الرمل يعود بقربكم شملي[2]
وهل تقتص أيدينا من الهجران للوصل[3]
وهل ينسخ لقياكم حديث الكتب والرسل[4]

---

(١) التلعة: الأرض المرتفعة.

(٢) الشمل: المجتمع. والمتفرق من الأقرباء والأنساء.

(٣) تقتص: تثأر. وتقاصص.

(٤) ينسخ: يلغي، أو يغير، ومنه قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بأحسن منها أو مثلها﴾ البقرة، ٢/ ١٠٦.

ومن لطائف هذه القصيدة، ولم أبعد في الاستطراد عما نحن فيه، قوله:

بـروجـي ليلـة مـرت	لنـا معكم بـذي الأثـل
وسـاقـينـا ومـا يـمـلا	وشـادينـا ومـا يملي[1]
وظبـي من بنـي الأتـرا	ك حـلو التـيـه والـدل
لـه قـد كـغـصـن البـا	ن ميـال إلى العـدل[2]
وطـرف ضـيـق ويـلا	ه من طعنـاتـه النجـل[3]
أقـول لـعـاذلـي فـيـه	رويـدك يـا أبـا جهـل
فـقلبي من بني تـيم	وعـقلي من بنـي ذهـل
ومـا يبـري هـوى المشتـا	ق إلا ذلـك الـمـغـلي

لقد زاحمه الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله هنا بقوله:

حلفت بما يملا النديم وما يملي	لقد صان ذاك الحسن سمعي عن العذل
من المغل أشكو نحوه ألم الهوى	وطب الهوى عندي كما قيل بالمغلي[4]

ومن الذي أعجبني في هذا النوع، أعني تجاهل العارف، قول بعضهم:

أقول له علام تميل عجباً	على ضعفي وقدك مستقيم
فقـال تقول عني فيَّ ميـل	فقلت له كذا نقـل النسيم

ومليح هنا قول ابن نباتة السعدي:

فـوالله مـا أدري أكـانت مـدامـة	من الكرم تجنى أم من الشمس تعصر

وأورد صاحب الصناعتين، في هذا الباب، ما كتبه إليه بعض أهل الأدب وهو: سمعت بورود كتابك فاستفزني الفرح قبل رؤيته، وهز عطفي المرح أمام مشاهدته، فما أدري أسمعت بورود كتاب أم رجوع شباب، ولم أدر أرأيت خطاً مسطوراً، أم روضاً ممطوراً، أو كلاماً منثوراً، أم وشياً منشوراً.

---

(١) يملي: إملاء، يسمع.

(٢) العدل: الاعتدال.

(٣) نجلت الطعنة: اتسع جرحها.

(٤) المغل: الوشاية والشكاية.

وبيت الشيخ صفي الدين غاية في هذا الباب:

يا ليت شعري أسحراً كان حبكم أزال عقلي أم ضرب من اللمم[1]

وبيت العميان في بديعيتهم:

إذا بدا البدر تحت الليل قلت له أأنت يا بدر أم مرأى وجوههم

هذا البيت لم يعمر بشيء من محاسن الأدب، لما فيه من الركة.

وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

وعارف مذ بدا بدري تجاهل لي وقال حبك أم ذا البدر في الظلم

الشيخ عز الدين، مع التزامه بالتورية في تسمية النوع الذي استوعب كلمتين من البيت، بيته أرق من بيت العميان وأعمر بالمحاسن.

وبيت بديعيتي:

وافتر عجباً تجاهلنا بمعرفة قلنا أبرق بدا أم ثغر مبتسم

هذا البيت شاهد في تجاهل العارف على المبالغة في التشبيه، وهو القسم الذي تقرر في أول الكلام على النوع، وقلنا إنه المقدم على بقية الأقسام من تجاهل العارف، فإن فيه سوق المعلوم في مقام غيره لنكتة المبالغة في التشبيه، كما قرره السكاكي. وقولي: تجاهلنا بمعرفة، لا يخفى ما فيه من الحسن على أهل الذوق السليم، والله أعلم.

---

(١) اللمم: الجنون يلم بصاحبه فترة بعد أخرى.

ذكر الاكتفاء

لمـا اكتفى خده القـاني بحمرتـه | قال العواذل بغضـاً إنه لـدمي[1]

الاكتفاء، هو أن يأتي الشاعر ببيت من الشعر وقافيته متعلقة بمحذوف، فلم يفتقر إلى ذكر المحذوف لدلالة باقي لفظ البيت عليه، ويكتفي بما هو معلوم في الذهن فيما يقتضي تمام المعنى. وهو نوع ظريف ينقسم إلى قسمين: قسم يكون بجميع الكلمة، وقسم يكون ببعضها. والاكتفاء بالبعض أصعب مسلكاً لكنه أحلى موقعاً، ولم أره في كتب البديع، ولا في شعر المتقدمين. فشاهد الاكتفاء بجميع الكلمة كقول ابن مطروح:

لا أنتهي لا أنثني لا أرعوي | ما دمت في قيد الحياة ولا إذا

فمن المعلوم أن باقي الكلام: ولا إذا مت، لما تقدم من قوله: الحياة، ومتى ذكر تمامه في البيت الثاني، كان عيباً من عيوب الشعر، مع ما يفوته من حلاوة الاكتفاء ولطفه وحسن موقعه في الأذهان، ومنه قول شيخ شيوخ حماة:

أهـلاً بـطيفكـم وسهـلا | لـو كنت لـلاغفـاء أهـلا
لـكـنـه وافـى وقـد | حلف السهاد عليَّ أن لا[2]

ومنها قوله فيما نحن فيه:

رامـوا فطامي عن هـوى | غـذيتـه طفـلاً وكـهـلا
فـوضعت في طـوقي يـدي | وقـلت خـلونـي وإلا[3]

(١) إنه لدمي: أي إنه لدميم أو من الدم فهو مدمى.

(٢) أن لا أغفو.

(٣) وإلا كسرته. أو: فأنا مطوق.

وما أظرف قول الصاحب بهاء الدين زهير:

يا حسن بعض الناس مهلا صيرت كل الناس قتلى
لم تبق غير حشاشة في مهجتي وأخاف أن لا[1]

وما أظرف ما قال بعده ولم يخرج عن المراد:

وكشفت فضل قناعه بيديَّ عن قمر تجلَّى
ولثمته في خده تسعين أو تسعين إلا[2]

وجمع الشيخ سراج الدين الوراق بين تضمينين واكتفاءين في بيت واحد، وأجاد إلى الغاية:

يا لائمي في هواها أفرطت في اللوم أهلا
ما يعلم الشوق إلا ولا الصبابة إلا[3]

وجمع ابن نباتة بين الاكتفاء وتضمين المثل السائر:

إسقني صرفاً من الرا ح تَحُتُّ الهَمَّ حتا[4]
ودع العذال فيها يضربون الماء حتى[5]

ومن لطائف شيخ شيوخ حماة في هذا النوع:

صِلي ودَعي نفارك عن محب بذكرك آنِسٌ والليل ساكن
ولا تستقبحي شيباً برأسي فما إن شبت من كبر ولكن[6]

وقول ابن سنا الملك من قصيدة:

رأيت طرفك يوم البين حين همى والدمع ثغر وتكحيل الجفون لما[7]
فاكفف ملامك عني حين ألثمه فما شككت بأني قد لثمت فما
لو كان يعلم مع علمي بقسوته تألم القلب من وخز الملام لما[8]

---

(١) أن لا تبقي شيئاً ـ الحشاشة: بقية الروح.
(٢) إلا قليلاً.
(٣) إلا من يكابدها.
(٤) الصرف: من الخمر التي لم تمزج بالماء ـ حتَّ: أزال.
(٥) أي حتى بخثرا: أي يأسن ويفسد ـ ويضربون هنا بمعنى يشربون.
(٦) ولكن من الحب.
(٧) لما أو لمى: أسود.
(٨) لما لامني.

وله من قصيدة:

يا عاذلين جهلتم فضل الهوى فعذلتمو فيه ولكني انا[1]

ويعجبني قول القائل هنا من قصيدة مطلعها:

هزوا القدود فأخجلوا سمر القنا وتقلدوا عوض السيوف الأعينا
وتقدموا للعاشقين فكلهم طلب الأمان لقلبه إلا أنا[2]

وتلطف ابن سنا الملك في مطلع قصيدة بقوله:

دنوت وقد أبدى الكرى منه ما أبدي وقبلته في الثغر تسعين أو إحدى[3]

ومثله في اللطف قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

ولقد كملت فما يقال لقد حزت الجمال جميعه إلا[4]

ولبعضهم وأجاد:

فإن المنية من يخشها فسوف تصادمه أينما[5]

ومما يرشف الذوق حلاوته، في هذا النوع، قول الشيخ شرف الدين ابن الفارض من قصيدة:

ما للنوى ذنب ومن أهوى معي إن غاب عن إنسان عيني فهو في[6]

ومثله في اللطف مع الترشيح باكتفاء ثان، قول الشيخ جمال الدين بن نباتة:

أفدي التي تاجها وقامتها كأنه همزة على ألف
أذكر ثغراً لها فأسكر من ورد خد لها فأرتع في[7]

---

(١) ولكني أنا الذي اهوى، أو انا المعذول.

(٢) إلا أنا لم اطلب الأمان.

(٣) أو إحدى وتسعين.

(٤) إلا لك.

(٥) اينما تلاقيه.

(٦) فهو في قلبي.

(٧) فأرتع في بستانه.

ومثله قول الشيخ شمس الدين بن العفيف:

رأى رضاباً عن تسـليه أولو العشق سلوا
مـا ذاقـه وشـاقـه هذا وما كيف ولو[1]

ومن لطائف الصاحب بهاء الدين زهير في هذا النوع قوله من أبيات:

فما كان أحسن من مجلسي فحدث بما شئت عن ليلتي
بشمس الضحى وببدر الدجى على يمنتي وعلى يسرتي
وبت وعن خبري لا تسل بذاك الذي وبتلك التي[2]

ومن لطائفه أيضاً أنه كتب إلى بعض أصحابه، وكان اسمه يحيى، وقد بلغه أنه شرب دواء، أبياتاً أوّلها

سلمت من كل ألم ودمت موفور النعم
في صحة لا ينتهي شبابها إلى الهرم
يحيا بك الجود كما يموت يا يحيى العدم
وبعد ذا قل لي ما كان من الأمر وكم[3]

وأظرف منه، ولم يخرج عما نحن فيه من بديع الاكتفاء، وزيادة التورية، ما وقع لشهاب الدين التلعفريّ مع شمس الدين الشيرجي، بين يدي الملك الناصر، وما ذاك إلا أنهما حضرا بين يديه في ليلة أنس، فاتفق أن شمس الدين الشيرجي ذهب إلى ضرورة وعاد، فأشار إليه الملك الناصر أن يصفع التلعفري، وكان شمس الدين رجلاً ألحى[4] فلما صفع التلعفري نهض على الفور وقبض على لحية الشيرجي، وأنشد ارتجالاً ويده فيها:

قد صفعنا في ذا المحل الشريف وهو إن كنت ترتضي تشريفي
فارث للعبد من مصيف صفاع يا ربيع الندى وإلا خريفي

وما أحلى قول الشيخ جمال الدين بن نباتة في هذا النوع، مع زيادة اللف والنشر والاكتفاء في البيتين:

---

(١) هكذا ورد؟ والأصح على ما نرى: «هذا وما وكيف لو» أي بتقديم الواو. وتقدير الكلام: هذا وما ذاقه، وكيف لو ذاقه.

(٢) بذاك الذي على يمنتي وبتلك التي على يسرتي.

(٣) وكم كان.

(٤) ألحى: ملتحياً، أي صاحب لحية.

قالت إذا غمضت جفونك فارتقب طيفي فقلت لها نعم ولكن إذا[1]
وسمعت عن سيف ورمح قبلها حتى انثنت ورنت فقلت هما اللذا[2]

ومنه قول الشيخ صدر الدين بن عبد الحق، ولم أكثر من هذا النوع إلا لأنه قليل في أيدي الناس:

جهنم حمامكم نارها تقطع أكبادنا بالظما
وفيها عصاة لهم ضجة وإن يستغيثوا يغاثوا بما[3]

ومنه قول المقر الفخري ابن مكانس، مع زيادة التورية:

من شرطنا إن أسكرتنا الطلا صرفاً تداوينا برشف اللمى
نعاف مزج الماء من كأسها لا آخذ الله السكارى بما[4]

ومنه قول المقر المرحومي الأميني، صاحب ديوان الانشاء الشريف بدمشق المحروسة رحمه الله، وهو مما أنشدنيه مراراً، وكان عند عوده من أذربيجان، بصحبة المقر المرحومي سيفي تنم، كافل المملكة الشريفة، بتاريخ كذا، وقد ضل غالب العسكر في بعض الليالي عن الماء، وفيه الزيادة على الاكتفاء بالاقتباس والتورية وهو:

ضلوا عن الماء لما أن سروا سحراً قومي فظلوا حيارى يلهثون ظما
والله أكرمني بالماء دونهم فقلت يا ليت قومي يعلمون بما[5]

ومثله قولي، وفيه أيضاً زيادة الاقتباس والتورية على الاكتفاء:

قالوا وقد فرّطت في تصبري وما شفى بقربه سقاما
اصبر عسى تشفى بماء ريقه قلت لهم يا حسرتي على ما[6]

وأنشدني من لفظه لنفسه، القاضي عماد الدين بن القضامي، أخو شيخي قاضي لقضاة علاء الدين الحنفي، سقى الله من غيث الرحمة ثراه، موشحاً امتدح به المقر لمرحومي الأوحدي، صاحب ديوان الانشاء الشريف بالممالك الإسلامية، كان تغمده الله

---

(١) إذا لم تغمض جفوني أو إذا لم يأت طيفك.
(٢) هما اللذان، سمعت عنهما: أو اللذان انثنيا ونظرا.
(٣) يغاثوا بما يحرق الأمعاء.
(٤) بما ارتكبوا من آثام أو بما رشفوا.
(٥) بما أكرمني ربي.
(٦) على ما أصابني أو على ما فرّطت.

برحمته ورضوانه. والموشح ما نسج ابن سنا الملك في دار الطراز على منواله، منه في نوع الاكتفاء بالكل مع زيادة التضمين:

أرخت ذوائبها لنا في الأربع ... لنضل فاستغنت بها عن برقع
وغدوت أسهر في ليالي شعرها ... ويقول فجر الفرق هذا مطلعي
وتبسمت فعلاها ... نور فزاد سناها
فلثمت فاها آخذاً مستغنماً ... ورشفته رشف النزيف لبرد ما[1]

ومنه، وفيه حسن التخلص مع الاكتفاء:

حكم الزمان بينهم وتشتُّتي ... وشماتة الأعداء أكبر محنتي
ولسيد الرؤساء رمت تخلصا ... من محنتي فشددت رحل مطيتي
فغدت تمد خطاها ... وأقول عند عياها
الأوحدي الأوحدي لتغنما ... يا ناقتي فزمامك بيدي وما

وظريف هنا قول الشيخ زين الدين بن الوردي:

ماذا تقولون في محب ... عن غير أبوابكم تخلى
وجاءكم زائراً عفيفا ... عن مالكم هل يجوز أم لا

ومنه قوله مع زيادة التضمين:

مولاي إنك محسن ... قسماً وإنك ثم إنك[2]
فلأشكرنك ما حييـ ... ـت وإن أمت فلتشكرنك[3]

ويعجبني قول الشيخ برهان الدين القيراطي، هنا، مع زيادة التورية والاقتباس:

حسنات الخدّ منه ... قد أطالت حسراتي
كلما ساء فعالاً ... قلت إن الحسنات[4]

ومرَّ سيدنا ومولانا قاضي القضاة صدر الدين بن الأدمي الحنفي، نور الله ضريحه، وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه، على حماة المحروسة، سنة سبع وثمانمائة،

---

(١) لبرد ما تلهفت عليه. أو لبرد ما يسيل منه من اللعاب.

(٢) إنك كريم، وإنك معطاء، إلخ...

(٣) فلتشكرنك ذريتي من بعدي.

(٤) إن الحسنات يذهبن السيئات.

وهو إذ ذاك صاحب ديوان الإنشاء الشريف بدمشق المحروسة، ومولانا السلطان الملك المؤيد خلد الله ملكه كافلها في تلك الأيام، وركابه الشريف متوجه إلى حلب المحروسة، والأمير حكم في خدمته بحيث يوصله إلى محل كفالته بها، وكنت في تلك الأيام بحلب المحروسة أمام كافلها علان، تغمده الله برحمته ورضوانه، فهرب علان واختفيت بعده، فلما حل ركاب قاضي القضاة صدر الدين المشار إليه بحلب المحروسة توصل، بحنوه وصدق محبته وخبره، إلى أن عرف أين كنت مختفياً فكتب إليَّ:

قصدنا حماة فلم نلق من ... أردنا فلم نر عهداً وإلا[1]
وجئنا إلى حلب خلفه ... فإن كان فيها اجتمعنا وإلا[2]

فكتبت إليه الجواب:

أمولاي والله حال الجريـ ... ـض دون القريض الذي قد تولى[3]
وأرجو وقد عفت هذي البلاد ... خلاصي بالصدر منها وإلا[4]

فقدر الله بالسلامة، وتوجهت في خدمته متنكراً إلى دمشق المحروسة، ومن نظمي، في هذا النوع مع زيادة إيهام التورية:

تطلبت منه قبلة وهو نافر ... فقال وقتلى حبنا لن تقبلا
فقلت له بالوصل عِدني إلى غدٍ ... فبعدك مات الصبر قال نعم إلى[5]

وقولي أيضاً، مع زيادة التضمين:

صهباء ريقته رشفت سلافها ... فتغلبت فعجزت أن أتكلما
وإذا سئلت أقل لمن هو سائل ... إني لأعلم ما تقول وإنما[6]

القسم الثاني، الاكتفاء بالبعض، وقد تقدم أنه عزيز الوقوع جداً ولم يوجد في كتب البديع، فمن ذلك قول ابن سنا الملك، من قصيدة:

---

(١) الإل: الذمّة.

(٢) وإلا رجعنا وافترقنا كما يحتمل معان أخرى تفيد التهويل.

(٣) الجريض: الغُصة ـ القريض: المديح الشعري: وقوله: حال الجريض دون القريض هو من الأمثال السائرة ويضرب لأمرٍ يعوق دونه عائق.

(٤) وإلا فموتي ـ أو عدم عودتي ـ أو خضوعي لامركم.

(٥) إلى آخر الدهر.

(٦) وإنما لا أستطيع البوح. أو التخلص أو...

أهـوى الغـزالـة والغـزال وإنمـا نهنـهت نـفسـي عفـة وتـديـنـا
ولقـد كففت عنان عيني جـاهـداً حتى إذا أعييت أطلقتُ العنا(١)

ومنه قول شيخ شيوخ حماة:

إليكم هجـرتـي وقصـدي وأنـتم الـمـوت والـحـيـاة
أمنت أن تـوحشـوا فؤادي فـآنسـوا مقلتي ولاتـو(٢)

وقول ابن مكانس مع زيادة التورية:

لله ظبي زارني في الدجى مستـوطناً ممتـطياً بـالخفـر(٣)
فلم يقـم إلا بمـقـدار أن قلت لـه أهلاً وسهـلاً ومر

ومنه قول العلامة بدر الدين بن الدماميني:

الدمع قاض بافتضاحي في هوى ظبي يغـار الغصن منـه إذا مشى
وغدا بوجدي شاهـداً ووشى بما أخفي فيا لله من قـاض وشـا(٤)

ومثله قوله:

يقـول مصـاحبي والـروض زاه وقـد بسط الـربيـع بسـاط زهـر
هلم نبـاكـر الـروض المفـدى وقـم نـسـعى إلـى ورد ونسـر(٥)

ومثله قوله:

ورب نهـار فيـه نـادمت اغيـدا فمـا كان أحـلاه حديثاً وأحسنـا
منـادمتي فيهـا منـاي فـحبـذا نهار تقضى بالحـديث وبالمنـا(٦)

ومنه قول شهاب الدين ابن حجر:

أطـيـل الـمـلام لـمـن لامـنـي وأمـلأ في الـروض كـأس الـطلا
وأهـوى المـلاهي وطيب المـلاذ فهـا أنـا منهمـك في للمـلا(٧)

---

(١) العنا: العنان لها.
(٢) أي ولا توحشوا.
(٣) الخفر: الحياء.
(٤) وشا: أي وشاهد. ومن الوشاية، فهو واش.
(٥) ونسر: أي ونسرين. أو من الطيور.
(٦) وبالمنا: أي وبالمنادمة. أو بما يتمناه الإنسان.
(٧) في الملا: أي في الملاذ والملاهي. أو في الملأ: الناس.

وأنشدني المقرّ المجدي بن مكانس لنفسه:

نزل الطل بكرة   وسروري تجددا
والندامى تجمعوا   فأجل كأسي على الندا(١)

ومنه قول ابن حجر:

دع يا عذول رقي الملام فقد سرى   عني الحبيب فتبت دام لك البقا
والطرف من فقد الرقاد بكى بما   يحكي الغمام فليس يهدى بالرقا(٢)

وأنشدني، من لفظه لنفسه، قاضي القضاة صدر الدين بن الأدمي الحنفي، وأنا بين يديه بدمشق المحروسة، ورياحين الشبيبة غضة، بيتين فيهما الاكتفاء بالبعض والتورية في القافيتين، مع عدم الخروج عن الوزن، في البيتين إذا قصد شق التورية الثاني، وهذا الباب عزيز الوقوع جداً، وسبكه في هذا القالب من غير تمويه ينطلي على الحاذق في صناعة الكلام، هذا مع الاتفاق البديعي، وحسن المطابقة، ولم أذكر الاتفاق، إلا أن الذي كتب إليه القاضي صدر الدين البيتين مشهور بالحسن والأدب، وصحبته المشار إليه، وهو غرس الدين خليل بن بشارة وهما:

يا متهمي بالسقم كن منجدي   ولا تطل رفضي فإني علي(٣)
أنت خليلي فبحق الهوى   كن لشجوني راحماً يا خلي(٤)

وتقاضاني، عند الإنشاد، أن أنظم له شيئاً على هذا الطريق، فأنشدته في المجلس قولي:

يقولون صف أنفاسه وجبينه   عسى للقا يصبو فقلت لهم صبا
وغالطت إذ قالوا أباح وصاله   وإلا أبى قرباً فقلت لهم أبا

ونظم الشيخ جمال الدين بن نباتة هذا النوع، وكساه ديباج التورية، ولم يسلم له الوزن إذ جمع بين طرفي الاكتفاء، كما فعلنا، حيث قال:

أقول وقد جاء الغلام بصحفة   عقيب طعام الفطر يا غاية المنا
بحقك قل لي جاء صحن قطايف   وبح باسم من أهوى ودعني من الكنا

---

(١) على الندا: أي على الندامى. أو الندا بمعنى ما يتساقط من الرذاذ صباحاً.

(٢) بالرقا: أي بالرقاد أو بمعنى الرقية.

(٣) متهمي: أخذني نحو تهامة، أو متهمني من التهمة ـ ومنجدي: من نجد أو من نجدة وتطل: الطول أو من الطل، علي أي عليل. أو من العلو.

(٤) يا خلي: أي يا خليلي أو من الخلو.

وكتب الشيخ برهان الدين القيراطي لنور الدين ابن حجر، والد قاضي القضاة شهاب الدين:

مولاي نور الدين ضيفك لم يزل ... يروي مكارمك الصحيحة عن عطا (١)
صدقت قطايفك الكبار حلاوة ... بفمي وليس بمنكر صدق القطا (٢)

انتهى ما أوردته من هذا النوع الغريب.

وبيت صفي الدين:

قالوا ألم تدر أن الحب غايته ... سلب الخواطر والألباب قلت لم (٣)

بيت صفي الدين، هنا شاهد على الاكتفاء بجميع الكلمة، ولكن لم ترض التورية أن تكون له سكناً لشدة برده.

وعجبت للشيخ صفي الدين كيف استحسن هذا البيت، ونظمه في سلك أبيات بديعيته، مع ما فيه من الركة والنظم السافل، وقرر موضع الاكتفاء بلفظة لم، هذا مع أنه غير مكلف بتسمية النوع ولا ملتفت إلى تورية.

والعميان لم ينظموا هذا النوع. وبيت الشيخ عز الدين شاهد على النوعين، مع التزامه بالتورية، في تسمية النوع البديعي، واستجلاب الرقة ولطف المعنى، وهو:

وما اكتفى الحب كسف الشمس منه إذا ... حتى انثنى يخجل الأغصان حين تمي (٤)

فشاهد الكل قوله: إذا، المعروف أن بعده بدا، لما تقدم من ذكر كسف الشمس، وشاهد البعض قوله: حين تمي، فدل حرف الكلمة أنها تميل أو تميس.

وبيت بديعيتي شاهد على الاكتفاء بالبعض، بزيادة التورية التي تتوارى من حسنها بهجة الشموس، مع سلامة الوزن في طرق الاكتفاء على مذهب الجماعة، كما تقدم. وأما التورية بتسمية النوع فهي محصول الحاصل، إذ لا بد منها، وبيتي:

لما اكتفى خده القاني بحمرته ... قال العواذل بغضاً إنه لدمي (٥)

---

(١) عن عطا أي عن عطائك. أو عن عطاء منه.
(٢) القطا: أي القطايف أو الحمام.
(٣) قلت لم: أي قلت لم أدر.
(٤) حين تمي: أي حين تميل أو تميس، أو من الإيماء.
(٥) لدمي: أي للدميم.

المعنى هنا أن الخد، لما تزايدت حمرته، قال العواذل: بغضاً في الظاهر إنه لدمي، وورّوا بالاكتفاء، وقصدوا في الباطن أنه دميم، حسداً له، وهذا الاكتفاء ينظر إلى قول القائل:

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً إنه لدميم[1]

وهو بالدال المهملة للحقارة، ومن تأمل هذا البيت تأمل أهل الأدب المنصفين علم أن الحيلة في تركيب توريته حيلة دقيقة، مع ما فيه من المعنى وجزالة الأسلوب. وهذا النوع على هذا النمط الغريب لا يجري في مضماره، من فحول الأدب، إلا كل ضامر مهزول.

(١) هذا البيت فيه تورية دقيقه لا تظهر إلا بتأويله: والمقصود أن ضرائر الحسناء قلن لها عن فلان، لأنهن يردن أن يكون لهن، حسداً وبغضاً، إنه لدميم. هذا الظاهر، أو الموري به، أما المورى فهو أن ضرائر الحسناء قلن لها لحسدهن وبغضهن إن وجهها دميم. والمعنى كما قيل، في قلب الشاعر ولا يعلم ما في القلوب إلا مقلبها.

ذكر مراعاة النظير

ذكرت نظم اللآلي والحباب له	راعى النظير بثغر منه منتظم

هذا النوع، أعني مراعاة النظير، يسمى التناسب، والائتلاف، والتوفيق، والمواخاة، وهو في الاصطلاح أن يجمع الناظم أو الناثر أمراً وما يناسبه، مع إلغاء ذكر التضاد، لتخرج المطابقة، وسواء كانت المناسبة لفظاً لمعنى أو لفظاً للفظ أو معنى لمعنى، إذ القصد جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه أو ما يلائمه من أحد الوجوه، كقول البحتري في إبل أنحلها السير:

كالقسي المعطفات بل الأسـ	ـهم مبرية بل الأوتار

فإنه لما شبه الإبل بالقسي، وأراد أن يكرر التشبيه كان يمكنه أن يشبهها بالعراجين[1]، أو بنون الخط، لأن المعنى واحد في الانحناء والرقة، ولكنه قصد المناسبة بين الأسهم والأوتار، لما تقدم ذكر القسي. ولعمري لقد أصاب الغرض في هذا المرمى. وظريف هنا قول بعضهم في وصف فرس:

من جلنار ناضر خده	وأذنه من ورق الآس[2]

فالمناسبة هنا بين الجلنار والآس والنضارة. ومثله قول بعضهم في آل النبي ﷺ:

أنتم بنو طه ونون والضحى	وبنو تبارك في الكتاب المحكم

---

(١) العراجين: مفردها عرجون وهو من النخل بمثابة العنقود من العنب أي القضبان التي تحمل حبات التمر.

(٢) الجلنار: زهر الرمان.

وبنو الأباطح والمشاعر والصفا والركن والبيت العتيق وزمزم[1]

هذا الناظم أحسن في مراعاة النظير، وأتى في البيت الأول بحسن المناسبة، بين أسماء السور، وفي الثاني بحسن المناسبة بين الجهات الحجازية. انتهى.

ويعجبني قول السلامي في هذا الباب:

والنقع ثوب بالسيوف مطرز والأرض فرش بالجياد محمل[2]
وسطور خيلك إنما الفاتها سمر تنقط بالدماء وتشكل[3]

فإنه ناسب بين الثوب والتطريز وبين الفرش والحمل وبين السطور والالفات والنقط والشكل ومثله قول أبي العلاء المعري:

دع اليراع لقوم يفخرون بها وبالطوال الردينيات فافتخر
فهن أقلامك اللاتي إذا كتبت مجداً أتت بمداد من دم هدر

فأبو العلاء أيضاً ناسب بين الأقلام والكتابة والمداد.

وغاية الغايات في هذا الباب، قول بديع الزمان الهمذاني، من قصيدة يصف فيها طول السرى:

لك الله من ليل اجوب جيوبه كأني في عين الردى أبداً كحل
كأن السرى ساق كأن الكرى طلا كأنا له شرب كأن المنى نقل
كأنا جياع والمطيّ لنا فم كأن الفلا زاد كأن السرى أكل
كأن ينابيع الثرى ثدي مرضع وفي حجرها مني ومن ناقتي طفل
كأنا على أرجوحة في مسيرنا لغور بنا تهوي ونجد بنا تعلو[4]

---

(1) الأباطح: اباطح مكة والمشاعر: المشعر الحرام ـ والصفا: مكان في مكة يقصده الحجيج ويهرولون بينه وبين المروة، وهو المكان الذي هرولت فيه سارة زوجة إبراهيم الخليل (ع) بحثاً عن الماء لولدها إسماعيل بعد أن تركها إبراهيم الخليل هناك والركن: من المقدسات الإسلامية في مسجد النبي (ص) والبيت العتيق: هو الكعبة الشريفة ـ وزمزم: هو البئر التي أنبعها الله تحت قدمي إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام.

(2) النقع: الغبار.

(3) السمر: القنا أو الرماح. تنقط: تضع النقاط ـ وتشكل: تضع الحركات على الحروف.

(4) الغور: المنخفض من الأرض أو الوادي ـ النجد: المرتفع من الأرض.

ومنها في المديح، ولم يخرج عما نحن فيه من حسن المناسبة:

كأني في قوس لساني له يدٌ ... مديحي له فرع به أملي نبل
كأنَّ دواتي مطفل حبشية ... بناني لها بعل ونقشي لها نسل[١]

كأن يدي في الطرس غواص لجة ... له كلمي در به قيمتي تغلو

أنظر أيها المتأمل إلى ملكة هذا الشاعر المفلق، الذي ما دخل إلى بيت إلا وأسكن فيه ما يلائمه من المناسبات البديعية. نعم هذه الغايات التي تقف عندها فحول الشعراء، وهذا الإمام المتقدم الذي صلى الحريري خلفه، وأشار إليه بقوله في مقاماته:

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة ... بسعدى شفيت النفس قبل التندم[٢]
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا ... بكاها فقلت الفضل للمتقدم

فإن البديع هو الذي سبق الحريري إلى نظم المقامات، وسبك العلوم في تلك القوالب الغريبة، وعلى منواله نسج الحريري، واستعمل بعض أسماء مقاماته، وقفى أثر عيسى بن هشام بالحرث بن همام، وعارض طرح الاسكندري بما نسجه أبو زيد السروجي. وعلى كل تقدير فالبديع عرابة هذه الراية، وعباس هذه السقاية.

نرجع إلى ما كنا فيه من حسن المناسبة في مراعاة النظير، فمن المستحسن في هذا النوع قول بعضهم في مليح معه خادم يحرسه:

ومن عجب أن يحرسوك بخادم ... وخدام هذا الحسن من ذاك أكثر
عذارك ريحان وثغرك جوهر ... وخدك ياقوت وخالك عنبر

هذا الأديب المتمكن ناسب بين العذار والثغر والخد والخال، إذ الوجه لمصابيح هذه المحاسن جامع، وبين ريحان وجوهر وياقوت وعنبر، للملاءمة في أسماء الخدام، فلو ذكر شيئاً عن غير تناسب كان نقصاً وعيباً، وإن كان جائزاً، فإنهم عابوا على أبي نواس قوله:

وقد حلفت يميناً ... مبرورة لا تكذب
برب زمزم والحو ... ض والصفا والمحصب[٣]

---

(١) المطفل: ذات الولد والحبشية: لسوادها.

(٢) وردت في الأصل: التدم، وما أثبتناه أصح.

(٣) المحصب: مكان في وادي منى. وكل ما ذكر في هذا البيت أسماء لشعائر الحج. ما عدا الحوض فإنه في الجنة.

فالحوض هنا أجنبي من المناسبة، لأنه ما يلائم المحصب والصفا وزمزم، وإنما يناسب الصراط والميزان وما هو منوط بيوم القيامة.

ومثله، في عدم المناسبة، قول الكميت:

وقد رأينا بها حوراء منعمة   بيضا تكامل فيها الدل والشنب[1]

فإنهم قالوا الدلال لا يناسب الشنب وهو صحيح، فإن الشنب من لوازم الثغر فلو ذكر معه اللعس[2] وما ناسب ذلك، مشى على سنن المناسبة وخلص من النقد.

ويعجبني من ملاءمة التناسب في مراعاة النظير، قول العلامة أبي بكر بن اللبانة في موشح:

بعض يخاصمني في بعض   جسمي مقيم وقلبي يمضي
وكيف أسلو وبدري الأرضي   يدير في الأقحوان الغض
وردية سرقت أنفاسه بالالتماس   رقت فكانت مثل دمعة في جفن كاس

أنظر إلى ما ناسب بين الأقحوان والورد، وجذب القلوب، وأنشا الأذواق، في المناسبة بين الدمعة وجفن الكاس مع الاستعارة التي تستعار منها المحاسن.

ومن أحلى ما يستحلى في الذوق، من هذا النوع، قول ابن مطروح:

لبسنا ثياب العناق   مزررة بالقبل

ومن شدة إعجابي بهذا البيت ضمنته تضميناً، لو سمعه ابن مطروح لاطَّرح نفسه خاضعاً، وسلم إليَّ مفاتيح بيته طائعاً، وهو:

ولما خلعنا العذار   فككنا طويق الخجل[3]
لبسنا ثياب العناق   مزررة بالقبل

ولولا خوف الإطالة، لتكلمت على بيت ابن مطروح، وعلى التضمين، وما فيهما من حسن التناسب والاستعارات، بما يليق بمقامهما.

وغاية الغايات قول القاضي الفاضل: في هذا الباب:

في خده فخ لعطفة صدغه   والخال حبته وقلبي الطائر

---

(١) الشنب: رقة الأسنان وشدة بياضها.

(٢) اللعس: السواد المستحسن في الشفة.

(٣) طويق: الطوق.

ويعجبني في هذا الباب قول مجير الدين بن تميم:

لو كنت تشهدني وقد حمي الوغى   في موقف ما الموت فيه بمعزل
لترى أنابيب القناة على يدي   تجري دماً من تحت ظل القسطل(١)

أنظر أيها المتأمل إلى حسن ما ناسب، بين الأنابيب والقناة والجريان والقسطل، مع انقياد التورية إلى طاعته وحسن تصرفه، فإني أنا محقق أن الأمير مجير الدين بن تميم من فرسان هذا الميدان، وممن أجاد في هذا الباب، وبالغ في الإحسان إلى غريب المناسبة.

وراعى جانب مراعاة النظير حسن الزغاري، بقوله:

كان السحاب الغر لما تجمعت   وقد فرقت عنا الهموم بجمعها
نياق ووجه الأرض قعب وثلجها   حليب وكف الريح حالب ضرعها(٢)

فإنه أتى بالمعنى الغريب، والتشبيه البديع، وحسن المناسبة في مراعاة النظير، مع حلاوة الانسجام ولطف الاستعارة.

وأنشدني لنفسه الشيخ عز الدين، في هذا النوع، قوله:

بخد الحب ريحان نضير   لأحرفه سطور ليس تقرا
فراعيت النظير وقلت بدري   عذارك أخضر والنفس خضرا

والذي يظهر لي، أن خضرة النفس هنا من إيهام المناسبة.

ومما نظمته، في هذا النوع، قولي:

أبرزت معصماً نهار وداعي   شف بلوره فزاد حريقي
راح دمعي يرعى النظير ويبدي   عند لثمي سلاسلاً من عقيق(٣)

فحسن المناسبة هنا، بين المعصم والسلاسل، والعقيق والبلور، مع إبراز تسمية النوع البديعي والنسيب المطرب الغزلي في معنى توريته.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي:

تجار لفظ إلى سوق القبول بها   من لجة الفكر تهدي جوهر الكلم

(١) القسطل: الغبار أثناء المعارك. والأنبوب الذي تجري فيه المياه.

(٢) نياق: جمع مفرده ناقة وهي أنثى الجمل - القعب: وعاء يستعمل لحلب الماشية فيه - الضرع: بالنسبة للحيوان كالثدي للإنسان.

(٣) العقيق: من الحجارة الكريمة لونه أحمر مظلم قليلاً.

المناسبة في بيت الشيخ صفي الدين، بين التجار والسوق واللجة والجوهر، وهو بيت عامر بمحاسن هذا النوع.

وبيت العميان في بديعيتهم:

يروى حديث الندى والبشر عن يده   ووجهــه بيــن منهــل ومبتســم

هذا البيت ما رأيت له وجهاً يظهر به مراعاة النظير، ولا بينه وبين المناسبة البديعية نسب ثابت، ولكن رأيت الشيخ أبا جعفر، شارح هذه البديعية، أعني بديعية العميان، قال إن العنعنة في البيت بعن تناسب الرواية في الحديث، والندا والبشر فيهما مناسبة للكرم. ولعمري إن الشيخ رحمه الله استسمن من وجه هذا البيت ذا ورم، ونفخ من نفسه في غير ضرم، وهذا لعمري جهد من لا جهد له.

وبيت عز الدين الموصلي:

وارع النظير من القوم الأولى سلفوا   من الشباب ومن طفل ومن هرم

المناسبة في بيت الشيخ عز الدين بين الشباب والطفل والهرم، أظن أنه قصد بها النسبة إلى آدم عليه السلام.

وبيت بديعيتي:

ذكرت نظم اللآلي والحباب لـه   راعى النـظير بثغـر منـه منتــظم

المناسبة هنا ما بين اللآلي ونظم الحباب ونظم الثغر بديعة عند أهل النظم، هذا مع حسن التشبيه بالمناسبة البديعية، وفي نور هذا المثال ما يمحو ظلمة الإشكال عند مراعاة النظير، هذا مع رقة الانسجام ومغازلة عيون الغزل في تسمية النوع البديعي وحلاوة توريته، وقد حبست عنان القلم، وإن كانت المهجة في هذا المعرك الضيق قد ذابت، لئلا يقال كثر فارتابت.

ذكر التمثيل

وقلت ردفك موج كي أمثله ... بالموج قال قد استسمنت ذا ورم

التمثيل، مما فرعه قدامة، من ائتلاف اللفظ مع المعنى، وقال: هو أن يريد المتكلم معنى فلا يدل عليه بلفظه الموضوع له، ولا بلفظ قريب من لفظه، وإنما يأتي بلفظ هو أبعد من لفظ الإرداف، يصلح أن يكون مثالاً للفظ المعنى المذكور، كقوله تعالى: ﴿وقضي الأمر﴾(١) وهذا التمثيل العظيم في غاية الإيجاز، والحقيقة، أي هلك من قضي هلاكه، ونجا من قدرت نجاته، وما عدل عن اللفظ الخاص، إلى لفظ التمثيل، إلا لأمرين: أحدهما الاختصار لبلاغة الإيجاز، والثاني كون الهلاك والنجاة كانا بأمر مطاع، ولا يحصل ذلك من اللفظ الخاص.

ومن شواهد ذلك في السنة الشريفة، قول النبي ﷺ حكاية عن بعض النسوة، في حديث أم زرعة: زوجي كليل تهامه، لا حر ولا برد ولا مخافة ولا سآمة. فإنها أرادت وصفه بحسن العشرة مع نسائه. فعدلت عن اللفظ الموضوع له إلى لفظ التمثيل لما فيه من الزيادة، وذلك تمثيلها الممدوح بليل تهامة المجمع على وصفه بأنه معتدل، فتضمن ذلك وصف الممدوح باعتدال المزاج المستلزم حسن العشرة، وكمال العقل اللذين ينتجان لين الجانب وطيب المعاشرة، وخصت الليل بالذكر لما في الليل من راحة الحيوان، وخصوصاً الإنسان لأنه يستريح فيه من الكد والفكر، ولكون الليل جعل سكناً والسكن محل الاجتماع بالحبيب، لا سيما وقد جعلته معتدلاً بين الحر والبرد، والطول والقصر، وهذه صفة ليل تهامة لأن الليل يبرد فيه الجو مطلقاً بالنسبة إلى النهار لغيبة الشمس

---

(١) البقرة، ٢/ ٢١٠.

وخلوص الهواء من اكتساب الحر، فيكون في البلاد الباردة شديد البرد، وفي البلاد الحارة معتدل البرد مستطاباً، فلهذا قالت: زوجي كليل تهامة، وحذفت أداة التشبيه ليقرب المشبه من المشبه به، وهذا مما يبينه لفظ التمثيل لكونه لا يجيء إلا مقدراً بمثل غالباً.

وقال ابن رشيق في العمدة: التمثيل والاستعارة ضرب من التشبيه، ولكنهما بغير أداة. والتمثيل هو المماثل عند بعضهم، وذلك أن تمثل شيئاً بشيء فيه إشارة منه، كقول امرىء القيس:

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل[١]

فمثل عينيها بالسهمين، ومثل قلبه بأعشار الجزور، معناه: ما بكيت إلا لتقدحي في قلبي كما يقدح القادح في الأعشار، فتمت له جهات التمثيل والاستعارة.

وقد تقدم أن التمثيل ضرب من الاستعارة والتشبيه، وهو قريب التذييل، ولكن بينهما فرق دقيق وهو خلو التذييل من التشبيه. وألحقوا بهذا الباب، أعني التمثيل، ما يخرجه المتكلم مخرج المثل السائر، وأبلغ ما سمعته من الشواهد البليغة المستوعبة لشروط هذا الباب، قول أبي تمام:

أخـرجتمـوه بكـرة عن سجيتـه والنار قد تلتظي من ناضر السلم
أوطأتموه على جمـر العقوق ولـو لم يحرج الليث لم يخرج من الأجم[٢]

ففي عجز كل من البيتين تمثيل حسن، فإنه مثل فيهما حالته عند إخراجه كرهاً عن سجيته، يخاطب أحبابه، وقد أثروا به تلك الحالة، والنار قد تلتظي من ناضر السلم. قد هنا للتقليل، ومراده أن وقوع هذا منكم، وأنتم أحباب، عجيب. ومثل الحال بقوله والنار قد تلتظي من ناضر السلم، وقال في عجز البيت الثاني عندما أوطؤوه على جمر العقوق: إن الليث لو لم يخرج ما خرج من الأجم. وهذا التمثيل والذي قبله في البيت الأول، غايتان في هذا الباب. وقد أخرج كلاً منهما مخرج المثل السائر، على مذهب من يرى ذلك.

وبيت الشيخ صفي الدين:

يا غائبين لقد أضنى الهوى جسدي والغصن يذوي لفقد الوابل الردم[٣]

---

(١) أعشار القلب: أقسام القلب المقطع إلى عشرة أقسام.
(٢) العقوق: المعصية وعدم الطاعة ـ الأجم: مفرده أجمة وهي المكان الملتف الشجر.
(٣) الردم: الدائم السيلان.

الشيخ صفي الدين أجاد في نظم هذا النوع وأتى بشروطه كاملة، فإنه مثل حاله، لما أضنى الهوى جسده لغيبة أحبابه، بالغصن لما يذوي لفقد المطر، وأخرج كلامه مخرج المثل السائر، كما تقرر، ولكن لو حط موضع الهوى، الجفا، لكان أقرب إلى المراد، ولو كانت القافية غير الردم، لكانت أخف على القلوب.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم، وبيت الشيخ عز الدين:

من التعاظم تمثيل الزمان به ... وقد يكون اتضاع القدر بالشمم[1]

هذا البيت غير صالح للتجريد، وقد كلَّ الفكر، وعجزت أن أتوصل فيه إلى حد يتوصل به إلى فهم معناه، أو إلى صورة التمثيل في تركيبه، فلم أجد بداً من مطالعة الشرح، فلما نظرت في شرحه وجدته قد قال فيه: إن العذول يتعاظم في كلامه وأفعاله، فلذلك مثل الزمان به، من استهتار السامع به والتهكم وعدم الإصغاء إليه، وفي ذلك تهجين له وربما استجيب فيه الدعاء، ثم قال في آخر الشرح: وقد أرسلت النصف الثاني من البيت مثلاً، فما ازدادت مرآة ذوقي بذلك إلا صداً، والله أعلم.

وبيت بديعيتي:

وقلت ردفك موج كي أمثله ... بالموج قال قد استسمنت ذا ورم

أنظر أيها المتأمل إلى التمثيل الذي مثلت فيه شيئاً بشيء فيه إشارة منه، كما قرره ابن رشيق في العمدة، وحذفت أداة التشبيه لتقريب المشبه من المشبه به، كما تقدم وتقرر أن لفظ التمثيل لا يكون إلا مقدراً يمثل غالباً، وأخرجت آخر كلامي مخرج المثل السائر، على مذهب من يرى ذلك، وأتيت بتسمية النوع البديعي مورى به مسبوكاً في أحسن القوالب، والله أعلم بالصواب.

---

(١) اتضع: انحط قدره، والشمم: التعالي والتكبر.

ذكر التوجيه

وأسود الخال في نعمان وجنته لي منذر منه بالتوجيه للعدم

التوجيه، مصدر توجه إلى ناحية كذا، إذا استقبلها وسعى نحوها، وفي الاصطلاح أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى احتمالاً مطلقاً، من غير تقييد بمدح أو غيره، والتوجيه هو إبهام المتقدمين، لأن الاصطلاح فيهما واحد، غير أن الشواهد التي استشهدوا بها على التوجيه، الإبهام أحق بها لطلوع أهلتها زاهرة في أفقه، ولمطابقة التسمية، فإنهم يستشهدون على التوجيه، بقول الشاعر في الحسن ابن سهل، عندما زوج ابنته بوران بالخليفة:

بارك الله للحسن ولبوران في الختن
يا إمام الهدى ظفر ت ولكن ببنت من

فلم يعلم ما أراد بقوله ببنت من، في الرفعة أو في الحقارة، وقد تقدم قولي في شرح نوع الإبهام، لما استشهدت بهذين البيتين، على ما نقل ابن أبي الأصبع: أن الحسن بن سهل قال له: أسمعت هذا المعنى أم ابتكرته، فقال: لا والله نقلته من شعر شاعر مطبوع، كان كثير الولوع بهذا النوع، واتفق أنه فصل قباء عند خياط أعور اسمه زيد، كذا نقله ابن أبي الأصبع، فقال له الخياط، على سبيل العبث سآتيك به لا تدري، أقباء هو أم دوّاج، فقال له الشاعر إن فعلت ذلك نظمت فيك بيتاً لا يعلم من سمعه، أدعوت لك أم دعوت عليك، ففعل الخياط، فقال الشاعر:

خاط لي زيد قباء ليت عينيه سواء

فإن قيل إنه قصد التساوي في عينيه بالعمى صح، وإن قيل إنه قصد التساوي في

الأبصار صح. فتسمية النوع هنا بالإبهام أليق من تسميته بالتوجيه، ومطابقة التسمية فيه لا تخفى على أهل الذوق الصحيح، وهذا مذهب ابن أبي الأصبع، فإنه هو الذي تخير الإبهام، ونزل عليه هذه الشواهد واختصر التوجيه من كتابه، وقال في ديباجته: وربما أبقيت اسم الباب وغيرت مسماه إذا رأيت اسمه لا يدل على معناه. وقد أجمع الناس على أن كتابه المسمى «بتحبير التحرير» أصح كتاب أُلّف في هذا الفن، لأنه لم يتكل فيه على النقل دون النقد، وغالب الجماعة غيروا بعض القواعد، وبدلوا أكثر الأسماء والشواهد، ووضعوها في غير محلها، وإذا وصلت إلى بديع ابن منقذ وصلت إلى الخبط والفساد، والجمع بين أسباب الخطاء وأنواعه، من التداخل والتبديل.

والسكاكي ومن تبعه سموا هذا النوع: التوجيه، ونسج الناس على منوالهم، إلى أن تخير ابن أبي الأصبع نوع الإبهام، وقرّر له الشواهد التي هي أليق به من التوجيه. ولم أسمع، من شواهد الإبهام، غير البيت المنظوم في الخياط والبيتين المنظومين في الحسن ابن سهل، وهذا النوع صعب المسلك في نظمه، لأن المراد من الناظم أن يبهم المعنيين، بحيث لا يكاد أحدهما يترجح على الآخر. ومن أظرف ما وقع في هذا الباب، وقد أوردته في باب الإبهام، أن القاضي زين الدين بن القرناص الحلبي، غفر الله له، ألف تاريخاً قريباً من قباء الخياط، وهاجر إلى حماة المحروسة، بسبب الكتابة عليه، ورسم لي بعد وقوفي عليه بالكتابة عليه، فكتبت على التاريخ المذكور هذين البيتين:

تاريخ زين الدين فيه عجائب ... وبدائع وغرائب وفنون
فأذاب تاه مناظر في جمعه ... خبره عني إنه مجنون[1]

ومن أغرب ما نقل من شواهد الإبهام، التي ما تليق بغيره، أن أبا مسلم الخراساني قال يوماً لسليمان بن كثير: بلغني أنك كنت في مجلس وقد جرى ذكري، فقلت: اللهم سود وجهه واقطع رأسه واسقني من دمه. فقال: نعم قلت ذلك ونحن جلوس بكرم حصرم، فاستحسن أبو مسلم إبهامه وعفا عنه لسداد جوابه.

رجع إلى ما كنا فيه من تقرير نوع التوجيه. قد تقدم أن المتقدمين نزلوه منزلة الإبهام، وسموه توجيهاً واستشهدوا عليه بالشواهد التي تقدم ذكرها. وأما التوجيه عند المتأخرين، فقد قرروا أن يوجه المتكلم بعض كلامه أو جملته إلى أسماء متلائمة اصطلاحاً، من أسماء الأعلام أو قواعد علوم أو غير ذلك مما يتشعب له من الفنون،

(١) هذا البيت هكذا ورد في الأصل ولم أستطع له تفسيراً وإن كنت أرجح أن يكون: فإذا أتاه مناظر في جمعه. ويكون معناه ظاهراً.

توجيهاً مطابقاً لمعنى اللفظ الثاني، من غير اشتراك حقيقي بخلاف التورية، وهذا هو مذهب الشيخ صفي الدين، وعلى هذا المنوال نسج بديعيته، وقد تقدم أن بديعيته نتيجة سبعين كتاباً في هذا الفن. وعلى منواله نسجت بديعيتي، لأجل المعارضة.

وقد أدخل جماعة نوع التوجيه في التورية وليس منها. والفرق بينهما من وجهين: أحدهما أن التورية تكون باللفظة المشتركة والتوجيه باللفظ المصطلح عليه. والثاني أن التورية تكون باللفظة الواحدة، والتوجيه لا يصح إلا بعدة ألفاظ متلائمة، كقول علاء الدين الوداعي:

من أم بـابك لم تبـرح جوارحـه	تروي أحاديث ما أوليت من منن
فالعين عن قرة والكف عن صلة	والقلب عن جابر والأذن عن حسن

أقول: لو بلغت ما عسى أن أبلغه، لما وجدت للمتقدمين شاهداً أحسن من هذين البيتين، على هذا النوع، ولذلك قدمتهما. سبحان المانح، لقد أظهر الشيخ علاء الدين الوادعي من محاسن الأدب في التوجيه وجوها تخجل الأقمار، ويتمسك الناس بعده بطيب هذه الآثار. أما قرّة فهو قرّة ابن خالد السدوسي وهو ثقة يروي عن الحسن وابن سيرين وليس بتابعي. وأما صلة فهو صلة بن أشيم العدوي، كان من كبار التابعين، وهو زوج معاذة العدوية، وهي تروي عن عائشة. وأما جابر فهو جابر بن عبد الله، صاحب رسول الله ﷺ، وليس بجابر الجعفي لأن جابر الجعفي ضعيف وهو تابعي، وإنما ضعفوه لأنه كان يؤمن بالرجعة. وأما الحسن فهو الحسن البصري، كان تابعياً كبيراً، رأى من أصحاب رسول الله ﷺ، نحواً من ثلثمائة رجل. فللّه درّ الوداعي لقد أودع في بيته نفائس الذخائر، وقال فلم يترك مقالاً لشاعر، وكان من المتقدمين عصراً وعلماً في اقتناص شوارد النكت الأدبية، والأنواع البديعية، وإبراز التورية في القوالب التي لم يسبق إليها، وعلى موائد معانيه ونكته تطفل الشيخ جمال الدين بن نباتة في مواضع كثيرة. وقد عن لي، وإن طال الشرح، أن أذكر نبذة من ذلك ليتأيد قولي، ويعرف رتبة الشيخ علاء الدين من كان بها جاهلاً.

قال الشيخ علاء الدين، من قصيدة مطولة:

أثخنـت عينـهـا الجـراح ولا	إثـم عليهـا لأنهـا نـعسـاء[1]
زاد في عقشهـا جنـوني فقـالـوا	مـا بهـذا فقلت بي سـوداء[2]

(١) أثخن. في الجراح، زاد فيها إيلاماً ـ نعساء: من النعاس.

(٢) السوداء: مرض يصيب الإنسان من جراء طغيان السوداء، أحد العناصر الأربعة المكونه للطبيعة الإنسانية وهي: الأخلاط الأربعة الصفراء: والدم، والبلغم، والسوداء.

وقال الشيخ جمال الدين بن نباتة:

قام يرنو بمقلة كحلاء علمتني الجنون بالسوداء

قال الشيخ علاء الدين الوداعي:

إذا رأيت عارضاً مسلسلا في وجنة كجنة يا عاذلي
فاعلم يقيناً أنني من أمة تقاد للجنة بالسلاسل

قال الشيخ جمال الدين، ولم يخرج عن الوزن والقافية:

أفدي الذي ساق إليها مهجتي فرع طويل تحت خسن طائل
قلبي بصدغيها إلى طلعتها يقاد للجنة بالسلاسل

قال الشيخ علاء الدين، وقد اجتمع جماعة من أصحابه لم يخرج اسم واحد منهم عن علي:

لقد سمح الزمان لنا بيوم غدا فيه السمي مع السميّ
تجمعنا كأنا ضراب خيط عليٌّ في عليٌّ في عليّ

قال الشيخ جمال الدين:

علوت اسماً ومقداراً ومعنى فيا لله من حسن جليّ
كأنكم الثلاثة ضرب خيط عليٌّ في عليٌّ في عليّ

قال الشيخ علاء الدين:

من آخذ من خده بدم الشهيد المغرم
فالريح ريح المسك منه ولونه لون الدم

قال الشيخ جمال الدين:

لا ينكرن الكاس من جفنه دم الشهيد الصابر المغرم
فالريح ريح المسك من خده كما يرى واللون لون الدم

قال الشيخ علاء الدين من قصيدة:

يفتن بالفاتر من طرفه ورقه البارد يا حار(١)

---

(١) يا حار: أي يا حارث وتوهم بمعنى الحرارة لما سبقها من قوله: وريقه البارد.

قال الشيخ جمال الدين:

لـو ذقت بـرد رضـاب من مقبله ... يا حار ما لمت أعضائي التي ثملت

مع أن الشيخ جمال الدين فتر عن الفاتر، قال الشيخ علاء الدين:

قيـل إن شئت أن تكـون غنيـاً ... فتـزوج تكن من المحصنينـا[1]
قـلت مـا يقـطع الإلـه بـحرٌ ... لم يضـع بين أظهـر المسلمينـا

قال ابن نباتة:

قـال لي خلي تـزوج تـستـرح ... من أذى الفقـر وتستغني يقيـنـا
قلت دع نصـحـك واعلم أنـني ... لم أضـع بين ظهـور المسلمينـا

قال الوداعي:

يا عاذلي في النكاريش اطرح عذلي ... واعذر فعذري فيهم واضح حسن[2]
فالمرد إن حاولوا حربي بهجرهم ... إذاً لقـام بنصـري معشـر خشن

قال ابن نباتة:

لـو آذتـني عـذالي بحـربهم ... إذ بالنكاريش قد أصبحت حيرانا
إذاً لقـام بنصـري معشـر خشن ... عند الحفيظة إن ذو لوثة لانـا[3]

قال الشيخ علاء الدين الوادعي من قصيدة:

عـذب مقبله وحلو لحـظه ... أو مـا تـراه بـالنعـاس معسـلا[4]

قال الشيخ جمال الدين:

معسل بنعاس في لـواحظه ... أما تراهـا إلى كل القلوب حلت

قال الوداعي، من القصيدة المذكورة:

ألحـاظـه وهي السيـوف كـليلة ... ويكـون تعذيب الكليلة أطـولا[5]

---

(١) المحصنين: المتزوجين والمتزوجات.

(٢) النكاريش: لم نعثر على هذه اللفظة في ما بين أيدينا ولعلها تعني: اللواطي الكبير السن. لما يتبعها من قوله: فالمرد: وهي جمع مفرده أمرد وهو الغلام لم تنبت لحيته بعد.

(٣) اللوثة: اختلاط العقل أو الجنون.

(٤) المعسل: الذي ينام نوماً خفيفاً.

(٥) الكليلة: من السيوف التي لا تقطع.

قال ابن نباتة:

بليت به ساجي اللحاظ كليلها ... وما زال تعذيب الكليلة أطولا[1]

قال الوداعي من قصيدة:

والنهر كالمبرد يجلو الصدا ... ببرده عن قلب ظمآن

قال ابن نباتة:

والنهر فيه كمبرد ... فلأجل ذا يجلوا الصدا

لكن نقص نهره وكل مبرده عن نكتة برده في بيت الوداعي، فإن الشيخ جمال الدين حط مكانها في بيته: فلأجل ذا، وشتان.

قال الوداعي:

ما كنت أول مغرم محروم ... من باخل بادي النفار كريم

قال ابن نباتة مبخل يشبه ريم الفلا ... يا طول شجوي من بخيل كريم

قال الوداعي، في مليح أعمى:

بروحي غزالاً راح في الحسن جنة ... تعشقته أعمى فهمت من الوجد

إذا ما تبدى قائداً بيمينه ... تيقنت حقاً أنه جنة الخلد

قال ابن نباتة:

أفديه أعمى مغمد الخطة ... ليرتقي في خده الوردي

تمكنت عيناي من وجهه ... فقلت هذي جنة الخلد

قال الشيخ علاء الدين:

بخلت عليَّ بدرٌ مبسمها ... فغدت مطوقة بما بخلت[2]

قال ابن نباتة:

بخلت بلؤلؤ ثغرها عن لاثم ... فغدت مطوقة بما بخلت به

قال الوداعي:

وما يبري هوى المشتا ... ق إلا ذلك المغلي

---

(١) ساجي اللحاظ: ساكنها.

(٢) في هذا البيت نظر إلى قوله تعالى: ﴿سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ آل عمران، ٣/ ١٨٠.

قال ابن نباتة:

من المغل أشكو نحوه ألم لجلوى وطب الهوى عندي كما قيل في المغلي[1]

قال الوداعي:

يا نديمي والذي عاهدني أنه عن شربها لن يقصرا
اسقني صرفاً ودع عذالنا يضربون الماء حتى يخثرا[2]

قال ابن نباتة:

اسقني صرفاً من الرا ح تحتُّ الهمَّ حتا
ودع العذال فيها يضربون الماء حتى

قال الوداعي:

باللوى صعدة عليها لواء كل طعنات نصلها نجلاء

وقال بعد المطلع:

لا نجد عندها سماعاً لشكوى فلهذا قالوا لها صماء

قال ابن نباتة:

وعدت بطيف خيالها أسماء إن كان يمكن ناظري إغفاء

وقال بعد المطلع:

يا من يطيل من الجوى لقوامها شكواه وهي الصعدة الصماء

وقد آن أن أختصر، لئلا يطول الشرح، وأكف لسان القلم، فقد طال واستطال، على عرض الشيخ جمال الدين. ونعود إلى ما كنا فيه من الاستشهاد ببيتي الشيخ علاء الدين الوداعي، على نوع التوجيه، فقد فهمت رتبته في هذا الفن وتوجيه بيته يصدق على أسماء الأعلام من رواة الحديث، في هذا الفن حيث قال:

فالعين عن قرة والكف عن صلة والقلب عن جابر والأذن عن حسن

والمعنى الآخر في حسن، مناسبته بين القرَّة والعين، والصلة والكف، والجبر والقلب، والكسر والسمع، والحسن ظاهر. ومثله قول القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر الحلبي، يصف نهراً صافياً في روض نزيه:

---

(١) ألم لجلوى: هكذا وردت في الأصل ونعتقد أنها: ألم الجوى.

(٢) خثر الماء: أسن وفسد.

إذا فاخرته الريح ولت عليلة ... بأذيال كثبان الربا تتعثر[1]
به الفضل يبدو والربيع وكم غدا ... به الروض يحيى وهو لا شك جعفر[2]

ومثله قول ابن الوردي:

هويت أعرابية ريقها ... عذب ولي فيها عذاب مذاب
رأسي بنو شيبان والطرف من ... نبهان والعذال فيها كلاب[3]

أما التوجيه في قواعد العلوم، كما تقرر فأحسن ما رأيت فيه، قول أمين الدين علي السليماني، في بعض قواعد النحو:

أضيفَ الدجى معنى إلى لون شعْره ... فطال ولولا ذاك ما خص بالجرِ
وحاجبه نون الوقاية ما وقت ... على شرطها فعل الجفون من الكسرِ[4]

ومنه قولي:

إغراء لحظك مالي منه تحذير ... ولا لتعريف وجدي فيك تنكير
يا نصب عيني غرامي كيف أجزمه ... والقد موتفع والشعر مجرور[5]

ومن أظرف ما وقع في هذا الباب أنه كان بالعراق عاملان: أحدهما اسمه عمر، والآخر اسمه أحمد، فعزل عمر عن عمله واستقر أحمد بسبب مال وزنه، فقال بعض الشعراء في ذلك:

أيا عمر استعد لغير هذا ... فأحمد بالولاية مطمئن
فإنك فيك معرفة وعدل ... وأحمد فيه معرفة ووزن

وقول ابن عنين، فيمن عزل وكانت سيرته غير مشكورة:

فلا تغضبن إذا ما صرفت ... فلا عدل فيك ولا معرفة

---

(١) عليلة: ناعمة أو مريضة.

(٢) الفضل والربيع ويحيى وجعفر بالإضافة إلى معانيها فهي أسماء أعلام.

(٣) شيبان ونبهان وكلاب، بالإضافة إلى معانيها اللغوية، هي أسماء قبائل عربية.

(٤) الجر للطول. ونون الوقاية أي الحاجب يحمي الجفون ويقيها من الكسر، أو التكسر.

(٥) وهذين البيتين أظرف من سابقيهما لأنه توسع في استعمال القواعد النحوية وفيها طباق. التعريف والتنكير ـ جناس: والجزم والجر.

وقول ابن الساعاتي، وقيل لابن أبي الأصبع:

أبا قمراً من حسن وجنته لنا ... وظل عذاريه الضحى والأصائل[1]
جعلتك للتمييز نصباً لناظري ... فهلا رفعت الهجر والهجر فاعلُ

وظريف هنا قول بعضهم:

عرج بنا تحت طلول الحمى ... فلم تزل آهلة الأربع[2]
حتى تظل اليوم وقفاً على السـ ... ـاكن أو عطفاً على الموضع

وقول محمد بن العفيف:

يا ساكناً قلبي المعنى ... وليس فيه سواك ثاني
لأي معنى كسرت قلبي ... وما التقى فيه ساكنان[3]

ومن لطائف البهاء زهير:

يقولون لي أنت الذي سار ذكره ... فمن صادر يثني عليه ووارد[4]
هبوني كما قد تزعمون أنا الذي ... فأين صلاتي منكم وعوايدي[5]

ونظير هذا ما اتفق لشرف الدين محمد بن عنين، وذلك أنه مرض فكتب إلى الملك المعظم صاحب دمشق:

أنظر إلي بعين مولى لم يزل ... يولي الندى وتلاف قبل تلافي
أنا كالذي أحتاج ما تحتاجه ... فاغنم دعائي والثناء الوافي

فعاده الملك المعظم، ومعه خمسمائة دينار، وقال له: أنت الذي وأنا العائد وهذه الصلة.

وظريف هنا قول بعض المواليا:

رأيتها وهي داخل دارها في الصحن ... تنشد رمل صحنت قلبي المعنى صحن
يا ليتها مع تغنيها وطيب اللحن ... ترفع أجر ودع يدخل عليَّ اللحن

---

(١) الأصائل: مفردها أصيل وهو قبيل غروب الشمس.

(٢) الأربع: العدد المعروف وجمع مفرده ربع وهي الدار.

(٣) استعمل القاعدة النحوية التي تقول: إذا التقى ساكنان يكسر الأول منهما.

(٤) الصادر والوارد: تعبير ديواني وتعني الخارج والداخل أو الرائح والعائد.

(٥) صلاتي وعوايدي: صلة وعائده أي العطايا والعائدات أو صلة الموصول.

وقول بعضهم من التوجيه في قواعد الفقه:

أحجج إلى الزهر لتحظى به ... وارم جمار الهم مستنفرا
من لم يطف بالزهر في وقفة ... من قبل أن يحلق قد قصرا[1]

وقول شمس الدين بن العفيف، من التوجيه في قواعد الجدل:

وما بال برهان العذار مسلماً ... ويلزمه دور وفيه تسلسل

وقول شمس الدين بن جابر الأندلسي، ناظم البديعية من التوجيه في الحديث:

قالت أعندك من أهل الهوى خبر ... فقلت إني بذاك العلم معروف
مسلسل الدمع من عيني ومرسله ... على مديح ذاك الخد موقوف[2]

ومن التوجيه في علم العروض قول ابن نصر الله المصري:

وبقلبي من الهموم مديد ... وبسيط ووافر وطويل[3]
لم أكن عالماً بذاك إلى أن ... قطع القلب بالفراق الخليل[4]

ومثله قولي، وهو مطلع قصيدة:

في عروض الجفا بحور دموعي ... ما أفادت قلبي سوى التقطيع[5]

ومن التوجيه في الكتابة قول ابن الساعاتي:

لله يوم في دمشق قطعته ... حلف الزمان بمثله لا يغلط
الطير تقرأ والغدير صحيفة ... والريح تكتب والسحاب ينقط[6]

---

(١) في هذا البيت إشارة إلى بعض مناسك الحج من الطواف والوقوف بعرفه وتقصير الشعر.

(٢) قوله موقوف: من مصطلحات علم الحديث، والموقوف من الحديث الذي لم يروه إلا راوٍ واحد.

(٣) المديد والبسيط والوافر والطويل هي مصطلحات عروضية من أسماء بحور الشعر.

(٤) الخليل: هو الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب علم العروض.

(٥) العروض: مصطلح يفيد التفعيلة في الشعر - والتقطيع: مصطلح عروضي أيضاً يعني تقسيم البيت الشعري إلى عروض أو تفاعيل.

(٦) ينقط: يضع النقاط على الحروف وفيه تورية بنقط الماء التي تنزل من السحاب.

ولبعضهم، وأجاد، وهو ابن القيسراني:

بوجه معذبي آيات حسن فقل ما شئت عنه ولا تحاشي (١)
فنسخة حسنه قرئت وصحت وها خط الكمال على الحواشي (٢)

وقال ابن الوردي:

رأيت فقيراً في المرقعة التي على حسنه دلت وحسن طباعه
بخديه ريحان الحواشي محقق إلى الثلث والفضاح تحت رقاعه (٣)

ومثله قول القرشي الكاتب، وقد طلبه السلطان بسبب خط نقل عنه أنه زور، فاختفى في بيته ثلث سنة، وكتب إلى ابن فضل الله يسأله النظر في جاله، في رقعة أولها: يقبل الأرض وينهي، إن له ثلث سنة محقق مختفٍ في حواشي البيت، يخشى توقيعات الرقاع من صاحب الطومار، وسؤال المملوك نسخ هذا الأمر الفضاح، بحيث لا يبقى عليه غبار، فإن المملوك وحق المصحف ما يحمل عود ريحان.

ومن التوجيه، في علم الرمل، قول الصاحب بهاء الدين زهير:

تعلمت علم الرمل لما هجرتني لعلي أرى شكلاً يدل على الوصل (٤)
فقالوا طريق قلت يا رب للقا وقالوا اجتماع قلت يا رب للشمل

ومن التوجيه ف علم النجوم، قول بعضهم في كان وكان:

لو سنبله خلف ظهره ناظر إليها المشتري (٥)
ولو ذنب ما يقارن حتى يرى الميزان (٦)

ومن التوجيه في علم الهندسة:

محيط بأشكال الملاحة وجهه كأن بها إقليدساً يتحدث (٧)

---

(١) تحاشي: تداري.

(٢) الحواشي: جمع مفرده الحاشية وهي من كل شيء طرفه، والحاشية في الكتابة: الهامش.

(٣) الفضاح: صيغة مبالغة من فضح وهي المساوىء. والرقاع: جمع مفرده رقعة وهي ما يستعمل في الكتابة.

(٤) الرمل: نوع من التنبؤ. وهو عبارة عن كشف أمر مجهول بواسطة الرمل.

(٥) سنبلة والمشتري: من الكواكب.

(٦) ذنب: أي مذنب وهو من النجوم والميزان: من أبراج السماء.

(٧) أقليدس: صاحب نظريات في علم الهندسة.

فعــارضـه خط اسـتــواء وخـالــه بـه نقـطة والشكـل شكـل مثلث

وقول يوسف الذهبي بن لؤلؤ في توجيه علم الموسيقى:

وبمهجتي المتحملون عشية والركب بين تلازم وعناق (١)
وحداتهم أخذت حجازاً بعدما غنت وراء الركب في عشاق

ومثله قول شمس الدين بن جابر الأندلسي ناظم البديعية:

يا أيها الحادي اسقني كأس السرى نحــو الحبيب ومهجتي للســاقي
حي العراق على النوى واحمل إلى أهــل الحجـاز ر ائــل العشـاق

ومن التواجيه اللطيفة قول ابن نباتة، في أسماء منتزهات دمشق:

يــا حبـذا يــومـاً بــوادي جلق وتنـزهي مـع ذا الغـزال الخـالي
مـن أوّل الجبهــة قـد قـبلتـه مــرتـشـفـاً لآخـر الــخـلخـال

ومن التوجيه الغريب اللطيف قول ابن الوردي، ود كتب إلى بعض المخاديم بسبب وظيفة القضاء، وأظنه لشيخ الإسلام شرف الدين بن البارزي:

جنبتني وأخي تكــاليف القـضــا وكـفيـتنــا مــرضـين مختـلفـين
يــا حي عــالم عصــرنـا أحييتنــا فلك التصـرف في دم الأخـوين

وقول بعض المواليا:

لك خد يا حي عالم يا كميت الطرد عليه لو نفس صباره وحر وبرد(٢)
ناداه والعارض النمـام حولـو فرد ما فاتك الحسن ساعه يا شقيق الورد

وقد تقدم قولي: إن الشيخ شمس الدين بن الصايغ استشهد، في شرحه المسمى برقم البردة، بشيء من أزجاله أهل عصره على بعض أنواع البديع. وتقدمت ترجمة الشيخ علاء الدين بن مقاتل الحموي، علاد ما أوردت له ما أوردت في أنواع الجناس، ود ذكر له، هنا في باب التوجيه، زجلاً موجهاً في خياط أخبرني من أدرك الحاج علاء المذكور، من أعيان أهل حماة، أن هذا الرجل دخل إلى بلاد المغرب وعاد مخلقاً بالزعفران، ورتبة الشيخ علاء الدين بن مقاتل في هذا الفن مشهورة، شرقاً وغرباً، لم تحتج فيها إلى الإطناب ف وضعه الزجل، ومطلعه:

---

(١) التلازم: من مصطلحات علم الموسيقى وهو ما يتكرر في آخر كل مقطع موسيقي(اللازمة).
(٢) صبارة: شدّة البرد والحر.

نهوى خياط سبحان تبارك من بالجمال جملوا
بالمفصل وآية الكرسي نرقى شكلو الحلو[1]
خاط لي ثوب سقام قصر نسجو طال بحكم القدر
حتى إن البدن لضعفي ضاع في عيون الإبر
راح عذولي يشكلو شكلو ويقص الخبر
وجا مذ بوح القلب متمزق ونسي ايش قلت لو
ولا فرج لو كرب عن قلبو ولا عن مرسلو
ذا الحسيني بلأيقة العشاق كم قد أخلا جيوب
وبزرو من العيون كم لو تخرجه في القلوب
قلت بصه نملا لك الجيب زوُّر ولا فرج كروب
خلا سري المكتوم مشهر فيه والذي يسالو
جيبو مقلوب ورراب على غير الاستوا فصلو[2]
بعد طيب الوصال قطع وصلي وأوصل الانقطاع
حتى خلى بيني وبين الموت أما باع أو ذراع[3]
وترى ظاهري صحيح لكن باطني في النزاع
وإن هو طول شقة بعادي والانقطاع أوصلوا
جهزوا القطن والكفن والما واغسلوا وفصلوا
جا الفقيه ف حبيبي يعذلني ويرقع كلام
قلت دعني فقيه في تمزيقي بس تلفيق ملام
قال حبك لو ظلم سلاري تبري والسلام
وسلب إسلامي لما حذرني عند باب منزلو
وقطع عاتقي وضربني وايش معو يعملو
ذا الخليع الجديد نهار قد قال لي لفظ وعقلي قمر
صف جبيني وشعري من تفصيل نظمك المبتكر
قلت خيط الصباح يستفتح ذيل الدجى في السحر
قال لي قصرت بل هو ستر الله حين عليّ اسبلو
حابك الزرقا فاتق الخضرا بالهلال كللو

---

(١) المفصل: من آيات القرآن الكريم، البين الواضح وضده المجمل.

(٢) راب: من أربى: زائد.

(٣) الباع: مقياس ما بين أطراف اليدين مفتوحتين مع الصدر.

قال فصفني في خدي والعارض ... فيها جمع الشتات
وعليها دار الطراز تنبيت ... رقم ما أحلاه نبات
قال ما هو إلا شرب والحمره ... دم من تقتلو
فيه خلات خيوط زرق لاحت ... من جفون تغزلو
قلت كف العتاب في ذي الصفة ... ما أنا في ذا القياس
وانظر في دايره تمنطقها ... بدر من غير قياس
واكسني ثوب وقار ولبسني ... بالفتوة لباس
وإن جا تخليصي غرض من يدينك ... بالوصال طولوا
وإن قصر باعي عن صفحات مدحك ... بالوفا ذيلو[١]
جاز في بستان مشهر القمضان ... من بكر صابحو
مثل كف المنشور في مكنونه ... حين وقف صافحو
وقميص الشقيق من اكمامو ... بالخجل فاتحو
وقضيب الخلاف وقف عراه ... فرق حين فصلو
وأوثق أزراره الورد في كمو ... وعليه فضلو
دي الكلام ينخلع ويتفرد ... ويفصل مليح
ويفرج ويندرج أصلو ... ويفتح صحيح
ويبطن من بعد تضريبو ... بالسجاف يستريح[٢]
ويعرى من حبكه التخريم ... ويزر رولو
أنو يطوى والنشر فيه موزون ... آخرو في أوّلو

ومنه يعرض بذكر أضداده بدمشق:

ذا الزجل قاسيون على الأعدا ... جد ما فيه سخف[٣]
وعلى أرباب المعرفة من ريش ... النعامات أخف
للصغير والكبير فقل عني ... واحذر احذر تخف
كم زيادة على على وإن كان ... يشتهوا يعملوا
هذا الأبلق والشقرا والميدان ... اركبوا وادخلوا

---

(١) الباع: الهمة.

(٢) السجاف: نوع من القماش يركب على أطراف الثوب(التخريج).

(٣) قاسيون: جبل يشرف على دمشق.

(٤) الأبلق: من الخيل الذي اختلط سواد لونه بالبياض ـ والشقرا: من الخيول ما بين الأصفر والأحمر

كأني بمتأمل نظر في رسم كتابة هذا الزجل، فأنكره لبعده عن رسم الألفاظ المعربة الخالية من اللحن، ويعذر في ذلك، لأنه ليس له إلمام بمصطلح رسمه؛ ومن رسمه على غير هذا الطريق لم ينفذ له مرسوم، فإنه يؤديه إلى خطأ وزنه، وإعراب لحنه. ومصنفه، أبو بكر بن يحيى بن قرمان الوزير، قال في خطبته: وقد جردته من الإعراب، تجريد السيف من القراب. ولم يطلب من الزجل غير عذوبة ألفاظه وغرابة معانيه. انتهى.

ومن التواجيه اللطيفة في الطب، ما اتفق أن بعض الملوك خرج لقتال أعدائه، فأيده الله بنصره، فطلب كاتب إنشائه ليكتب على الفور حكاية الحال، فتعذر وجوده في ذلك الوقت، فطلب طبيبه وأمره بالكتابة بسرعة، وكان الطبيب حاذقاً فكتب موجهاً في صناعته: أما بعد فإنا كنا مع العدو في حلقة كدائرة البيمارستان[1]، حتى لو رميت مبضعاً لم يقع إلا على قيفال[2]، ولم يكن إلا كجس نبضة أو نبضتين، حتى لحق العدو بحران عظيم. فهلك بسعادتك يا معتدل المزاج. وكان أبو الحسين الجزار ونصير الدين الحمامي وسراج الدين الوراق لم يخرجوا عن هذا النوع في غالب نظمهم، ويأتي الكلام على ذلك في مواضعه من باب التورية، وأما توجيه أسماء أنواع البديع فهو نسيج وحده، وواسطة عقده. وما ذاك إلا أنه رسم لي بإنشاء توقيع المقر الأخوي الزيني، عبد الرحمن بن الخراط الشافعي، أخذ أعيان العصر في الأدب، بكتابة السر بثغر طرابلس، وأنا منشىء ديوان الإنشاء الشريف المؤيدي بالديار المصرية، فقصدت التوجيه بالأنواع المذكورة لتحصل الملاءمة ومراعاة النظير بذلك، فإن صاحب التوقيع من المتميزين على كلا الحالين بحسن الأدب، فمن ذلك قولي في فصل التعدية، وبعد فمنهل إنعامنا الشريف قد حلينا لأهل الأدب مورده، لتصير عقود إنشائنا بجواهر منثوره منضده، وتطلع كل براعة باستهلالها في أشرف المطالع، وتسكن النزاهة طباق البديع للمقابلة فيتنزه الناظر والسامع، ويقوم الاستخدام بما يجب عليه من واجب الخدمة، ويزيل الاقتباس بنوره عن أهلته كل ظلمة، وتجول خيول الاستطراد في رد العجز على صدره، ويحصل لأهل الأدب في زماننا تمكين فيظهر الافتنان في نظمه ونثره، ويصير لفقه المذهب الكلامي في أيامنا الشريفة ترشيح ومماثلة ومناسبة، ويبرز في توشيح التسليم من غير اعتراض مناقضة ومواربة، ويجنح العصيان إلى الدخول تحت الطاعة، ويسمع القول بموجبه من غير مراجعة في كل براعة، ويزول التجاهل بالعارف، ويصير التسجيع والموازنة عند إيجازه بالمواقف.

---

(١) البيمارستان: المستشفى(فارسية معربّة).

(٢) القيفال: الوريد الذي في جانب العضد(معربّة).

وكان المجلس العالي القضائي عبد الرحمن بن الخراط الشافعي ممن حسن بيانه إيضاح، وللسر عنده حسن إيداع، وللأدب إليه التفات، لأنه بجواهر ترصيعه يشنف الأسماع، وهو الفاضل الذي إذا نظم أزال، بسهولة نظمه، الإبهام والتوهيم، وإذا نثر عقود الإنشاء فلا فرق بين عبد الرحمن وعبد الرحيم، يحسن في المطالعة والأمثلة الشريفة طيه ونشره، وهو من الشعراء فيما يبعد من القصص إذا علا في تفسيرها أمره، فلذلك رسم بالأمر الشريف لا زالت براعة المطلب منظومة في بديع زمانه بإنعامه، ولا برحت أبوابه الشريفة في تصريع وتشريع لوفود أهل الأدب في أيامه، أن يستقر لأنه ممن يحسن به التحبير، ويحصل به الاكتفاء والتتميم، ويجمع من نظمه ونثره بين التحميس والترسل، فيحسن الجمع بهذا التقسيم، فليباشر ذلك ويجعل الاستعانة بالله، ليأمن من التنكيت والتعليل، ويصير لشقة الانشاء بعد النقص تسهيم وتكميل، ويظهر لبرد الكلام بحسن تفصيله تفويف وتوشيع[1]. ولأصول التهذيب والتأديب مبالغة وتفريع، والوصايا كثيرة لا تخفى على الأديب الفاضل، الاحتراس والفرق بين المستوي والمقلوب، وبه يحصل النسق في جمع الفرائد، وتظهر براعة التخلص في عنوان كل مطلوب، لأنه الفاضل الذي إن سكن ثغراً لم يفته شنب التورية بحسن نظامه، أو جاور بحراً فهو أديب والبحور في تصريف أوامره في نقضه وإبرامه، والله تعالى يجعل نظم هذا الثغر بحسن أدبه في بلاغة وانسجام، وكما أحسن له الابتداء يعضده بديع السموات والأرض بحسن الختام.

وقد طال الشرح في نوع التوجيه، ولم يبق للإطالة وجه. وبيت الشيخ صفي الدين الحلي في هذا النوع:

خلت الفضائل بين الناس ترفعني   بالابتداء فكانت أحرف القسم

الشيخ صفي الدين قصد في توجيه بيته بعض قواعد النحو، وهو بيت عامر بالمحاسن. وقد تقدّم ما أوردناه من هذا القسم.

وبيت بديعيتي:

وأسود الخال في نعمان وجنته   لي منذر منه بالتوجيه للعدم

التوجيه، في هذا البيت، من القسم المقدم على التوجيه في قواعد العلوم، وقد تقدم فيه أن يوجه المتكلم كلامه، إلى أسماء متلائمة اصطلاحاً من أسماء الأعلام،

---

(١) التوشيع: التوشيه وهو أحد مصطلحات علم البديع.

توجيهاً مطابقاً لمعنى اللفظ الثاني من غير اشتراك حقيقه، بخلاف التورية، وقد تقدم ذلك، وتقرر الكلام عليه وعلى التوجيه في قواعد العلوم وبقية الفنون، وعلى كل تقدير، فالكل راجع إلى طريق واحد، والاشتراك هنا في النعمان والمنذر ظاهر، ولكن في النكتة اللطيفة في الأسود، فإن المتأمل ما يتخيل، في أول وهلة، غير سواد الخال وجل القصد في المعنى الآخر، هو الملك الأسود أخو النعمان بن المنذر، وهو أحد ملوك العرب، والتورية ههنا، في التوجيه الذي هو اسم النوع البديعي، لم يفتها من المحاسن وجه، وهذا هو الأفق الذي أقمر فيه الشيخ علاء الدين الوداعي، والقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، وغيرهما، ممن أوردنا على هذا النوع نظمه، وأوصلنا إلى الغرض لما أطلق فيه سهمه، وما أخرت بيت العميان وبيت الشيخ عز الدين، ونثرت نظم الترتيب هنا، إلا لأنهم نسجوا على غير هذا المنوال، وتعوضوا عن مسارح الماء الحلو بالآل[1]. وبيت العميان:

ترى الغني لديهم والفقير وقد عادا سواء فلازم باب قصدهم

هنا بحث لطيف، وهو أن العميان نظموا التوجيه بين التسمية التي تحتمل وجهين من المعنى، على مذهب المتقدمين وهو الإبهام، وقد تقرر أن المتكلم فيه يبهم المعنيين، بحيث لا يترشح أحدهما على الآخر بقرينة، واستشهدوا عليه بشاهد الإبهام الذي نزلوه على التوجيه، وهو قول الشاعر في الخياط، وقد تقدم: ليت عينيه سواء. فالشاعر أبهم المعنيين، بحيث يتحير السامع والمتأمل ويعجز عن ترجيح أحدهما. ولم أر في بيت العميان غير التسوية، بين الغني والفقير، فإن هؤلاء الممدوحين يعطون الفقير إلى أن يصير مساوياً للغني، وهذا هو المعنى الواحد، وهو أوضح من ضوء الشمس إذا توقدت جمرة المصيف، وأما المعنى الآخر، فما وجدت في بيتهم له قرينة صالحة تدلني عليه، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه. وقد تقدم أن نوع التوجيه قسمه البديعيون قسمين، وذهب إلى كل منهما فريق.

وبيت الشيخ عز الدين مذبذب. ﴿بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾[2] وهو:

نزهت طرفي وسمعي في محاسنه وعنك إن تقصد التوجيه في الكلم

---

(١) الآل: السراب.

(٢) النساء، ٤/١٤٣.

أصحاب الطريق الذي مشى عليها الشيخ عز الدين، في نظم هذا النوع، قالوا: التوجيه الاصطلاحي أن يحتمل الكلام وجهين من المعنى، وهذا هو الفرق بين التورية والتوجيه، فإن التورية باللفظة الواحدة والتوجيه لا يصح إلا بعدة ألفاظ، والشيخ عز الدين أتى بكلمة مفردة تحتمل معنيين، فما نظم غير التورية والتوجيه بخلاف ذلك، والكلمة التي اقتضت اشتراك المعنيين قوله: نزهت، فإنه قال إنه نزه طرفه في محاسن محبوبه، وكأنه التفت إلى العذول وقال له وعنك وهو وبيت العميان سافلان خاليان ليس فيهما من المحاسن ساكن، والله أعلم.

ذكر عتاب المرء نفسه

يا نفس ذوقي عتابي قد دنا أجلي ... مني ولم تقطعي آمال وصلهم

هذا النوع أعني، عتاب المرء نفسه، لم أجد العتب مرتباً إلا على من أدخله في البديع وعده من أنواعه وليس بينهما نسبة، والذوق السليم أعدل شاهد على ذلك، ولولا أن الشروع في المعارضة ملزم ما نظمت حصاه مع جواهر هذه العقود، ونهاية أمره أنه صفة لحال واقعة ليس تحتها كبير أمر، وهو من أفراد ابن المعتز، ولم يورد فيه غير بيتين ذكر أن الأسدي أنشدهما عن الجاحظ، وهما:

عصاني قومي في الرشاد الذي به ... أمرت ومن يعص المجرب يندم
فصبراً بني بكر على الموت إنني ... أرى عارضاً ينهل بالموت والدم[1]

قال زكي الدين بن أبي الأصبع، وقوله صحيح: لم أر في هذين البيتين ما يدل على عتاب المرء نفسه، إلا أن هذا الشاعر لما أمر بالرشاد، وبذل النصح ولم يطع، ندم على بذل النصيحة لغير أهلها، ويلزم من ذلك عتابه لنفسه، فتكون دلالة البيتين على عتابه لنفسه دلالة إلتزامية، لا دلالة المطابقة، ولا يصلح أن يكون شاهداً على هذا النوع، إلا قول شاعر الحماسة:

أقول لنفسي في الخلاء ألومها ... لك الويل ما هذا التجلد والصبر

انتهى كلام ابن أبي الأصبع، فانظر ما أحلى ما صرح هذا الشاعر بذكر النفس واللوم لها، وخاطبها بكاف الخطاب، ليتمكن عتبه وتقريعه المؤلم لها.

---

(١) العارض: السحاب الممطر ـ ينهل: ينهمر.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي فيه:

أنا المفرط أطلعت العدوّ على   سري وأودعت نفسي كف مجترم[1]

الشيخ صفي الدين حكى أنه فرَّط في اطلاع عدوه على سره، وإيداع نفسه كف مجترم لا غير، وأين هو من قول شاعر الحماسة، وقد قال لنفسه على سبيل العتب والتوبيخ: لك الويل ما هذا التجلد والصبر.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

عتبت نفسي إذ أتعبتها بهوي   مجهول سبل بلادها دولاً علم[2]

الشيخ عز الدين حكى أيضاً أنه عاتب نفسه، وذكر أنه هو الذي أتعبها وكلفها حمل الهوى، فالعتاب هنا من كل وجه لم يترتب على غيره، وما مقدار هذا النوع حتى إن الشاعر لم يأت به على صيغته، لا سيما ونظام البديعيات قد التزموا أن يأتوا به شاهداً على نوعه. وبيت بديعيتي:

يا نفس ذوقي عتابي قد دنا أجلي   مني ولم تقطعي آمال وصلهم

أقول: إن هذا البيت ينظر إلى بيت شاعر الحماسة في علو طباقه، وإن كان من الفحول التي لها فضيلة السبق، فقد زاحمه في حلبة سباقه، مع أن عروس التسمية يضوع عطرها من أطواق الطروس، ويقول مزكوم الذوق وقد عاد له الشم: لا عطر بعد عروس، وأين هذا النشر الواضح، والرقة التي ود النسيم لو انتظم معها وانسجم، من عقادة بيت الشيخ عز الدين، وقد أمسى بها مجهولاً بلا هاد ولا علم.

(١) المجترم: المجرم.
(٢) سُبُل: جمع مفرده سبيل وهو الطريق ـ العَلَم: الراية أو ما يهتدى به.

ذكر القسم

بـرئت من أدبي والعز من شيمي   إن لم أبـر بنـأي عنهم قسمي

القسم أيضاً حكاية حال واقعة، وليس تحته كبير أمر، ولكن تقرر أن الشروع في المعارضة ملزم، وهو أن يقصد الشاعر الحلف على شيء، فيحلف بما يكون له مدحاً وما يكسبه فخراً وما يكون هجاء لغيره، فمثال الأوّل، قول مالك بن الأشتر النخعي في معاوية ابن هند:

بقيت وفري وانحرفت عن العـلا   ولقيت أضيـافي بوجـه عبـوس(١)
إن لم أشن على ابن هنـد غارة   لم تخل يومـاً من ذهاب نفـوس

فقول ابن الأشتر تضمن المدح لنفسه والفخر الزائد والوعيد للغير، ومثله قول أبي علي البصير، يعرض بعلي بن الجهم:

أكـذبت أحسن مـا يـظن مؤملي   وهـدمت ما شـادتـه لي أسـلافي
وعـدمت عـاداتي التي عـودتهـا   قـدمـاً من الأسـلاف والأخـلاف
وغضضت من ناري ليخفى ضوؤها   وقـريت عذراً كـاذبـاً أضيـافي(٢)
إن لـم أشـن عـلى عـليّ خـلة   تمسي قذى في أعين الأشراف(٣)

وقد يقسم الشاعر بما يريده الممدوح ويختاره، كقول الشاعر:

إن كـان لي أمـل سـواك أعـدّه   فكفـرت نعمتـك التي لا تكفـر

(١) الوفر: الغنى.

(٢) غضضت: خففت ـ قريت: أطعمت.

(٣) الخلة: بضم الخاء الصداقه.

وأحسن ما سمع في القسم على المدح قول الشاعر:

حفت بمن سوّى السماء وشادها ... ومن مرج البحرين يلتقيان[1]
ومن قام في المعقول من غير رؤية ... فأثبت في إدراك كل عيان
لما خلقت كفاك إلا لأربع ... عقائل لم تعقل لهن ثواني[2]
لتقبيل أفواهٍ وإعطاء نائلٍ ... وتقليب هندي وحبس عنان

والمقدم في هذا الباب، وهو الذي انتهت إليه نهاية البلاغة، قوله تعالى: ﴿فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾[3] فإنه قسم يوجب الفخر، لتضمنه التمدح بأعظم قدرة وأكمل عظمة حاصلة من ربوبية السماء والأرض، وتحقيق الوعد بالرزق، وحيث أخبر سبحانه وتعالى أن الرزق في السماء وأنه رب السماء، يلزم من ذلك قدرته على الرزق الموعود به دون غيره. انتهى الكلام على القسم الذي يراد به الفخر والمدح والتعظيم. وأما ما جاء من القسم في النسيب، فكقول الشاعر:

جنى وتجنى والفؤاد يطيعه ... فلا ذاق من يجني عليه كما يجني
فإن لم يكن عندي كعيني ومسمعي ... فلا نظرت عيني ولا سمعت أذني

ومما جاء من القسم في الغزل قول ابن المعتز:

لا والذي سل من جفنيه سيف ردى ... قدت له من عذاريه حمائله[4]
ما صارمت مقلتي دمعاً ولا وصلت ... غمضاً ولا سالمت قلبي بلابله[5]

الذي وقع عليه الاتفاق أن هذا أحسن ما وقع من القسم في الغزل، إذ القسم والمقسم عليه كل منهما داخل في باب الغزل، ولكن، قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع: إن الذي وقع لجميل بن معمر العذري في هذا الباب، ما تحسن العبارة تفصح عن لفظه ووصفه، وهو قوله على لسان محبوبته:

قالت وعيش أبي وأكبر إخوتي ... لأنبهن الحي إن لم تخرج
فخرجت خيفة أهلها فتبسمت ... فعلمت أن يمينها لم تلجج[6]

---

(١) البيت عبارة عن آيتين من القرآن الكريم مع بعض التغيير ـ مَرَجَ: خلط.

(٢) عقائل: مفردها عقيلة وهي الفتاة الكريمة ـ تعقل: تربط ـ ثواني: واحدة ثانية مثلها.

(٣) الذاريات، ٥١/٢٣.

(٤) حمائل السيف: مكان تعليقه في الرحل. أو في وسط الفارس.

(٥) صارمت: قاطعت ـ بلابل القلب: هواجسه والأفكار التي تحركه.

(٦) هذان البيتان يرويان لعمر بن أبي ربيعة وهما بشعره أشبه، والشطر الثاني من البيت الثاني منهما =

ثم قال، أعني ابن أبي الأصبع: رحم الله جميلاً لقد تظرف في هذين البيتين ما شاء، لأنه أتى بهما من باب الهزل الذي يراد به الجد، وأغرب في القسم فيهما، وأدمج في القسم حسن ائتلاف اللفظ مع المعنى، وأتى بما لا يوفيه واصف حقه. انتهى كلام ابن أبي الأصبع.

قلت: وإذا وصلنا في القسم إلى باب الهزل الذي يراد به الجد، فهذب الدين أحمد بن منير الطرابلسي قائد هذا العنان، وفارس هذا الميدان، وما ذاك إلا أنه هاجر إلى مدينة السلام بغداد، والشريف الموسوي نقيب الأشراف بها، وبابه حرم الوافدين، وينابيع الفضل التي هي مناهل الواردين. وكان يقال إن الشريف المشار إليه من كبار الشيعة ببغداد، وعلى هذا أجمع غالب الناس، فجهز إليه ابن منير عند قدومه بغداد هدية مع مملوكه تتر، بل معشوقه الذي اشتهر به في الخافقين غرامه، وأبدع في أوصافه الجميلة نظامه، فقبل الشريف هديته، واستحسن المملوك فأدخله في الهدية، وقصد أن يعوضه عن ذلك بأضعافه، فلما شعر ابن منير بذلك التهبت أحشاؤه على مملوكه بل معشوقه تتر، وكتب إلى الشريف على الفور قصيدة أولها:

عذبت قلبي يا تتر ... وأطرت نومي بالفكر

ومنها:

بالمشعرين وبالصفا ... والبيت أقسم والحجر(١)
وبمن سعى فيه وطا ... ف به ولبى واعتمر
إن الشريف الموسوي ... بن الشريف أبي مضر
أبدى الجحود ولم يرد ... إليَّ مملوكي تتر
والى بني آل أمية ... الطهر الميامين الغرر
وجحدت بيعة حيدر ... ورجعت عنه إلى عمر
وإذا جرى ذكر الصحا ... بة بين جمع واشتهر
قلت المقدم شيخ ... تيم ثم صاحبه عمر(٢)
ما سل قط ظبا على ... آل النبي ولا شهر

= يروى كما يلي: فعلمت أن يمينها لم تحرج ـ والإحراج: المضايقة. لم تلجج: لم تلجّ في الأمر أو لم تتردد من: تلجلج إذا تردد.

(١) الحجر: الحجر الأسود، وهو من المقدسات الإسلامية.

(٢) شيخ تيم: من ألقاب أبي بكر.

كلا ولا صد البتول عن التراث ولا زجر[1]
وأثابها الحسنى وما شق الكتاب ولا بقر[2]
وبكيت عثمان الشهيد بكاء نسوان الحضر
وشرحت حسن صلاته جنح الظلام المعتكر
وقرأت من أوراق مصحفه براءة والزمر
ورثيت طلحة والزبير بكل شعر مبتكر
وأزور قبرهما وأزجر من لحاني أو زجر[3]
وأقول أم المؤمنين عقوقها إحدى الكبر[4]
ركبت على جمل لتصبح من بنيها في زمر
وأتت لتصلح بين جيش المسلمين على غرر
فأتى أبو حسن وسل حسامه وسطاً وكر
وأذاق إخوته الردى وبعير أمهم عقر
ما ضره لو كان كف وعف عنهم إذ قدر
وأقول إن إمامكم ولى بصفين وفر
وأقول إن أخطا معاوية فما أخطا القدر
هذا ولم يغدر معاوية ولا عمرو مكر[5]
بطل بسوأته يقاتل لا بصارمه الذكر
وجنيت من ثمر النواصب ما تمر واختمر
وأقول ذنب الخارجين على عليٍّ يغتفر
لا ثائر لقتالهم في النهروان ولا أشر
والأشعري بما يؤول إليه أمرهما شعر[6]
قال انصبوا لي منبراً فأنا البريء من الخطر

(١) البتول: المنقطعة إلى عبادة الله وهو من ألقاب فاطمة الزهراء عليها السلام إبنة النبي.
(٢) أثابها: كافأها ـ بَقَرَ: العلم توسع فيه ومنه لقب محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، بالباقر: أي المتبحر في العلوم والمتوسع فيها.
(٣) أزجر: أطرد ـ لحاني: لامني.
(٤) الكبر: الكبائر من الذنوب والمعاصي. وهي التي تدخل النار ولا تغفر.
(٥) معاوية هو معاوية بن أبي سفيان. وعمرو هو عمرو بن العاص. أحد الحكمين في حرب صفين.
(٦) الأشعري: هو أبو موسى أحد الحكمين في حرب صفين.

فعــلا وقــال خلعت صــا حبكــم وأوجــز واختــصــر
وأقــول إن يــزيــد مــا شــرب الخمــور ولا فجــر
ولــجيشــه بــالـكف عن أبــنــاء فــاطــمــة أمــر
وحلقت في عشر المحرم مــا استــطال من الشعــر
ونــويــت صــوم نــهــاره وصــيــام أيــام أخــر
ولــبست فيــه أجــل ثــو ب لــلمــلابس يــدُخــر
وسهــرت في طبخ الحبــو ب من العشاء إلى السحر
وغــدوت مكتــحــلا أصــا فــح من لقيت من البشــر
ووقفت فــي وسط الـطريــــــق أقص شــارب من عبــر
وغــســلت رجــلي ضــلة ومسحت خفي في السفــر
وأمين أجهــر في الصــلا ة كمن بهــا قبلي جهــر[١]
وأســن تسنيم الــقــبــو ر لــكــل قبــر محــتــفــر
وإذا جــرى ذكــر الغــديــر أقــول مــا صــح الخبــر[٢]
ولــبست فيــه من المــلا بس مــا اضمحل ومــا دثــر
وسكنت جلق واقتديت بهم وإن كــانــوا بــقــر[٣]
وأقــول مثــل مقــالــهــم بــالفــاشــر يــا قــد فشــر[٤]
مصــطيحتي مكــســورة وفــطيــرتي فيهــا قصــر[٥]
نــفــر يــرى بــرئيــسهــم طيش الــظليم إذا نفــر[٦]
وخفــيفــهــم مستثــقــل وصــواب قــولــهــم هــدر
وطبــاعهــم كــجبــالــهــم طبعت وقــدُت من حجــر
مــا يــدرك التشبيب تغــــــــريد البــلابــل في السحــر

(١) أمين: هي آمين: اسم فعل أمر بمعنى استجب.

(٢) الغدير: إشارة إلى غدير خم وحديث النبي فيه حيث قال ﷺ: من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه كيف دار.

(٣) جلق: مكان في دمشق، وذلك إشارة إلى أنه سكن مع أهل الشام وصار مثلهم يؤيد معاوية.

(٤) فشر: لم نعثر على معنى لهذه اللفظة في ما بين أيدينا ونظنها عامية بمعنى: لا يمكن له أن يصل إلى هذا الأمر.

(٥) مصطيحتي وفطيرتي: نوعان من أنواع الخبز الأولى مستطيلة والثانيه مثلثة، وتؤدمان بزبدة أو نحوها.

(٦) الظليم: ذكر النعام ويضرب به المثل في الطيش عند تنفيره.

وأقول في يوم تحار له البصيرة والبصر
والصحف ينشر طيها والنار ترمي بالشرر
هذا الشريف أضلني بعد الهداية والنظر
فيقال خذ بيد الشريف فمستقر كما سقر[1]
لواحة تسطو فما تبقي عليه ولا تذر
والله يغفر للمسيء إذا تنصل واعتذر
فاخش الإله بسوء فعلك واحتذر كل الحذر
وإليكها بدوية رقت لرقتها الحضر
شامية لو شامها قس الفصاحة لافتخر
ودرى وأيقن أنني بحر وألفاظي درر
وبديعتي كبديعة غذراء ترفل في الحبر[2]
خبرتها فغدت كزهر الروض باكره المطر
وإلى الشريف بعثتها لما قراها فانبهر
رد الغلام وما استمر على الجحود ولا أصر
وأثابني وجزيته شكراً وقال لقد صبر

أقول إنه يغتفر لي طول الشرح لغرابة أسلوب هذه القصيدة، فإني لم أخرج بها عن القصد، لأنها مبنية على القسم وجوابه من البراعة إلى الختام، وأما هزلها الذي يراد به الجد فإنه غاية لا تدرك، وطريق ما رأينا لغيره فيها مسلك وبيت الشيخ صفي الدين في بديعيته على هذا النوع، أعني القسم، نسجه على المنوال الأول الذي هو مبني على المدح والفخر والتعاظم وعلو الهمة، وهو قوله:

لا لقبتني المعالي بابن بجدتها يوم الفخار ولا بر التقى قسمي[3]

هذا البيت منسوج على المنوال المذكور، لكن فيه نقص لأنه غير صالح للتجريد، ولم يأت ناظمه بجواب القسم، إلا في بيت الاستعارة الذي ترتب بعده، وهو:

إن لم أحث مطايا العزم مثقلة من القوافي تؤم المجد عن أمم[4]

(١) سقر: من أسماء جهنم. وهذا البيت والذي بعده والبيتان اللذان قبله عبارة عن آيات قرآنية تصرف فيها الشاعر.

(٢) الحِبَر: واحدتها حبرة وهي من الثياب الفضفاض الناصع البياض.

(٣) ابن بجدتها: أي عالمها. والبجدة: من الأمر حقيقته وباطنه.

(٤) أمم: قرب.

وأصحاب البديعيات شرطوا أن يكون كل بيت شاهداً على نوعه بمجرده، وإذا كان البيت له تعلق بما بعده أو بما قبله لا يصلح أن يكون شاهداً على ذلك النوع.

ولقد عجبت للشيخ صفي الدين، كيف فتر عزمه وقصرت همته، عن هذا القدر الذي يتطاول إلى إدراكه كل قاصر، وأين هو من قول القائل في طريقته الغرامية التي حركت السواكن، حيث قال:

حرمت الرضا إن كنت خنتك في الهوى وعوقبت بالهجران إن كنت كاذبا

انظر ما أحلى ما أتى بالقسمين وجوابيهما في بيت واحد، مع عدم التعسف والرقة التي كادت أن تسيل.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي:

برئت من سلفي والشم من هممي إن لم أدن بتقى مبرورة القسم[١]

بيت الشيخ عز الدين مبني على الفخر والتعاظم وعلو الهمم، وهو صالح للتجريد، بخلاف بيت الشيخ صفي الدين، هذا مع التزام الشيخ عز الدين بتسمية النوع.

وبيت بديعيتي:

برئت من أدبي والعز من شيمي إن لم أبر بنأي عنهم قسمي[٢]

وهذا البيت مبني على الفخر والتعاظم وعلو الهمة. وفي قولي: والعز من شيمي غاية الفخر، ولكن اللطف الزائد قول الأديب، في القسم: برئت من أدبي، ، مع التورية التي ترفل في حلل الحشمة، وتسمية النوع والتقفية به لا تخفى على أهل الذوق من أهل الأدب، والله أعلم.

(١) الشم: العالي ـ أدِن: اعتبر نفسي مديناً.
(٢) النأي: البعد.

ذكر حسن التخلص

ومن غدا قسمه التشبيب في غزل حسن التخلص بالمختار من قسمي

حسن التخلص، هو أن يستطرد الشاعر المتمكن، من معنى إلى معنى آخر يتعلق بممدوحه، بتخلص سهل يختلسه اختلاساً رشيقاً دقيق المعنى، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني، لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما، حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد. ولا يشترط أن يتعين المتخلص منه، بل يجري ذلك في أي معنى كان، فإن الشاعر قد يتخلص من نسيب أو غزل، أو فخر أو وصف روض أو وصف طلل بال أو ربع خال، أو معنى من المعاني يؤدي إلى مدح أو هجو أو وصف في حرب، أو غير ذلك، ولكن الأحسن أن يتخلص الشاعر من الغزل إلى المدح.

والفرق بين التخلص والاستطراد، أن الاستطراد يشترط فيه الرجوع إلى الكلام الأول، أو قطع الكلام، فيكون المستطرد به آخر كلامه، والأمران معدومان في التخلص، فإنه لا يرجع إلى الأول ولا يقطع الكلام، بل يستمر على ما يتخلص إليه.

وهذا النوع، أعني حسن التخلص، اعتنى به المتأخرون دون العرب ومن جرى مجراهم من المخضرمين، ولكنه لم يفتهم، فإنهم أوردوا لزهير في هذا الباب قوله:

إن البخيل ملوم حيث كان ولـــــكن الكريم على علاته هرم[1]

أنظر إلى هذا العربي القديم، كيف أحسن التخلص من غير اعتناء، في بيت

(١) هرم: هو هرم بن سنان وقد سبقت الإشارة إلى هذا البيت.

واحد، وهذا هو الغاية القصوى عند المتأخرين الذين اعتنوا به. وعلى كل تقدير فمن كلام العرب استنبط كل فن، فإنهم ولاة هذا الشأن، لكنهم كانوا يؤثرون عدم التكلف، ولا يرتكبون من فنون البديع إلا ما خلا من التعسف. فمن ذلك قول الفرزدق، وأجاد إلى الغاية:

وركب كأن الريح تطلب عندهم ... لها ترة من جذبها بالعصائب(١)
سروا يخبطون الليل وهي تلفهم ... إلى شعب الأكوار من كل جانب(٢)
إذا آنسوا ناراً يقولون ليتها ... وقد حضرت أيديهم نار غالب

ومثله قول أبي نواس:

تقول التي من بيتها خف محملي ... يعز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب ... بلى إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادر ... جرت فجرى في إثرهن عبير(٣)
دعيني أكثر حاسديك برحلة ... إلى بلد فيه الخصيب أمير

ومثله في الحسن قوله:

وإذا جلست إلى المدام وشربها ... فاجعل حديثك كله في الكاس(٤)
وإذا نزعت عن الغواية فليكن ... لله ذاك النزع لا للناس
وإذا أردت مديح قوم لم تمن ... في مدحهم فامدح بني العباس(٥)

أقول: إن هذه الطريق التي مشى عليها أبو نواس ومن تقدمه من المتقدمين، ممن أوردت نظمه في هذا الباب، وهي حسن التخلص ببيت واحد باستطراد رشيق، ينتقل الشاعر به من الشطر الأول إلى الشطر الثاني، فاتت فحولاً من الشعراء كالبحتري وأبي تمام في غالب القصائد، على أنهما المقدمان في هذا الشأن.

وقد تقرر أن حسن التخلص ما كان في بيت واحد، يثب الشاعر من شطره الأول إلى الثاني وثبة تدل على رشاقته وقوته وتمكنه في هذا الفن. وإذا لم يكن التخلص

---

(١) الترة: الثأر.

(٢) يخبطون: يسيرون على غير هدى ـ الأكوار: جمع مفرده الكورة وهي الناحية والمكان.

(٣) البوادر: أوائل الدموع.

(٤) الشَّرْب: الذين يشربون الخمر.

(٥) مان: يَمِيْن والأمر مِنْ، والمصدر المين وهو الكذب والنفاق.

كذلك سمي اقتضاباً، وهو أن ينتقل الشاعر من معنى إلى معنى آخر من غير تعلق بينهما، كأنه استهل كلاماً آخر. وعلى هذه الطريقة مشى غالب العرب، وغالب المخضرمين وكثير من شعراء المولدين، فمن ذلك قول البحتري في قصيد، وقد جرى في ميادين غزلها إلى أن قال من غير ارتباط:

وردنا إلى الفتح بن خاقان إنه أعم ندىً فيكم وأيسر مطلبا

وهذه النبذة التي أبرزتها هنا، من نظم المتقدمين في حسن التخلص، عزيزة الوجود، فإنها ما تيسرت إلا بعد بذل الجهد في جمعها. وهذا النوع البديع ما اعتنى به غير حذاق المتأخرين، وما نسجوه جميعه إلا على المنوال المذكور. ولعمري إنها طريقة بديعة، ونوع من السحر يدل على رسوخ القدم في البلاغة، وتمكن الذهن من البراعة، وإن لم يكن كذلك لم يعد من أنواع البديع. والقرائح تختلف فيه وتتفاوت، وقد عنَّ لي أن أنبه على قبح المخالص التي لا تعد، من أنواع البديع، لينفتح ذهن المبتدىء في هذا الفن، فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي، وإن كانت له المخالص الفائقة:

غدا بك كل خلو مستهاما وأصبح كل مستور خليعا
أحبك أو يقولوا جر نمل ثبيراً وابن إبراهيم ريعا[1]

أنظر ما أبرد هذا المخلص وأشد تعسفه، ومعناه أنه علق انقضاء حبها على غير ممكن، وهو أن يجر النمل الجبل المسمى ثبيراً وأن يخاف ممدوحه، فجعل خوف الممدوح نظير جر النمل لثبير؛ ليقرر أن كلاً منهما من المستحيلات، ومن تخاليفه القبيحة أيضاً قوله:

عل الأمير يرى ذلي فيشفع لي إلى التي تركتني في الهوى مثلا

وسبب قبح هذا المخلص، كونه جعل ممدوحه ساعياً بينه وبين محبوبته في الوصال، ولا خفاء في دنوّ هذه المرتبة، وقد سبقه أبو نواس إلى ذلك، ولكنه أقل شناعة، مع أن الكل قبيح، حيث قال:

سأشكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد هواكِ لعل الفضل يجمع بيننا

وقد سبقهما إلى ذلك قيس بن ذريح، حين طلق لبنى وتزوّجت غيره فندم على ذلك وشبب بها في كل معنى، فرحمه ابن أبي عتيق، فسعى في طلاقها من زوجها، وأعادها إلى قيس، فقال يمدحه:

---

(١) ريعا: من الروع وهو الخوف.

جزى الرحمن أفضل ما يجازي | على الإحسان خيراً من صديق
فقد جربت إخواني جميعاً | فما ألفيت كابن أبي عتيق
سعى في جمع شملي بعد صدع | ورأي حدت فيه عن الطريق
وأطفأ لوعة كانت بقلبي | أغصتني حرارتها بريقي

فلما سمعها ابن أبي عتيق قال لقيس: يا حبيبي أمسك عن هذا المدح فما يسمعه أحد إلا ظنني قواد.

ومن المخالص التي استحسنوها للبحتري قوله:

رباع تردَّت بالرياض مجودة | بكل جديد الماء عذب الموارد
إذا راوحتها مزنة بكرت لها | شآبيب مجتاز عليها وقاصد[1]
كأن يد الفتح بن خاقان أقبلت | عليها بتلك البارقات الرواعد

ومن المخالص المستحسنة، لأبي تمام، قوله من قصيدة:

ما زلت عن سنن الوداد ولا غدت | نفسي على إلف سواك تحوم
لا والذي هو عالم أن النوى | مر وأن أبا الحسين كريم[2]

هذا المخلص مقدم على مخالص البحتري من وجوه: أحدها، التخلص من النسيب إلى المدح، والثاني حسن الانسجام، والثالث، وهو جل القصد، الوثبة في بيت التخلص من الشطر الأول إلى الشطر الثاني بأسرع اختلاس. وهذا الذي عقد المتأخرون الخناصر عليه، وصار لهم فيه اليد الطولى، ومثله قوله من قصيدة:

فالأرض معروف السماء قرى لها | وبنو الرجاء لهم بنو العباس

ومن مخالص أبي الطيب الفائقة، قوله من قصيدة يمدح بها أبا أيوب، أحمد بن عمران بن ماهويه، مطلعها:

سرب محاسنه حرمت ذواتها | داني الصفات بعيد موصوفاتها

معنى هذا المطلع في غاية الحسن والغرابة، فإنه يقول هذا سرب حيل بيني وبين كل حسناء منه، وهذه الحسناء صفاتها دانية عند ذكرها بالقول، ولكن ذاتها الموصوفة بعيدة، ولم يزل في غرابة هذا الأسلوب إلى أن قال متحمساً:

---

(١) الشآبيب: جمع مفرده شؤبوب وهو الدفعة من المطر الشديد.

(٢) النوى: الغربة، والبعد.

ومـطالب فيهـا الهـلاك أتيتهـا ثبت الجنـان كـأنني لـم آتهـا
أقبلتهـا غـرر الجيـاد كـأنمـا أيـدي بني عمـران في جبهـاتهـا

أقول: سبحان المانح هذا هو السحر الحلال، والشرب الذي أمست المشارب لصافية عنده كالآل. ومثله في الغرابة التي هي من معجزات المتنبي، قوله من قصيدة مدح بها علي بن عامر، ويعرض بذكر أبيه عامر ومدحه بعد وفاته، مطلعها:

أطاعن خيلاً من فـوارسها الـدهر وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر

وما أحلى ما قال بعده:

وأعجب من ذا كل يوم سـلامتي وما ثبتت إلا وفي نفسهـا أمـر

ولم يزل ينفث بصدق عزائمه، في هذا السحر الذي سحر به العقول، وخلب القلوب، إلى أن قال:

ويـوم وصلنـاه بليـل كـأنمـا على أفقه من برقه حلل حمـر
وليـل وصلنـاه بيـوم كـأنمـا على متنه من دجنه حلل خضر(١)
وغيث ظننـا تحتـه أن عـامـراً علا لم يمت أو في السحاب له قبر

ومثله قوله، من قصيدة دالية يمدح بها سيف الدولة بن حمدان مطلعها:

عـواذل ذات الخال فيَّ حـواسـد وإن ضجيع الخود مني لماجد(٢)

وما ألطف ما قال بعده:

يـردّ يـداً عن ثـوبهـا وهـو قـادر ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

ولما انتظم له هذا الدرّ في هذه الأسلاك البديعية قال:

خليليَّ إني لا أرى غيـر شـاعـر فكم منهم الدعوى ومني القصائد
فـلا تعجبـا أن السيـوف كثيـرة ولكن سيف الـدولة اليـوم واحـد

ومن مخالص أبي العلاء أحمد بن سليمان، على طريق للمديح، فإنه لم يكن من طلاب الرفد، قوله من قصيد:

ولـو أن المـطي لهـا عقـول وحقـك لم نشـدّ لهـا عقـالا

---

(١) دجنه: ظلمته الشديدة.
(٢) الخود: المرأة الشابة.

مـواصلة بهـا رحـلي كـأني ... من الـدنيا أريـد بهـا انتقـالا
سـألن فقلن مقصـدنـا سعيـد ... فكـان اسم الأميـر لهن فـالا[1]

هذا المخلص أيضاً من العجائب، فإن الشيخ أبا العلاء سبكه في قالب التورية والاتفاق البديع. وكان اسم الأمير في فالهم سعيداً، والعرب ما برحوا يتفاءلون بالاسم الحسن ويتطيرون من ضده، ومما استحسن لابن حجاج من المخالص قوله:

ألا يـا مـاء دجلة لست تـدري ... بـأني حاسـد لـك طـول عمـري
ولو أني استطعت سَكَرْت سِكراً ... عليـك فلم تكن يا مـاء تجـري
فقـال المـاء قـل لي كـل هـذا ... بم استـوجبتـه يـا ليت شعـري
فـقـلت لـه لأنـك كـل يـوم ... تمـر على أبي الفضـل بن بشـر
تـراه ولا أراه وذاك شـيء ... يضيق عن احتمالك فيه صبري

قال صاحب المثل السائر، حين أورد هذه الأبيات: ما علمت معنى في هـذا المقصد أبدع ولا أعذب ولا أرق ولا أحلى من معنى هذا اللفظ، ويكفي ابن حجاج من الفضيلة أن يكون له مثل هذه الأبيات. قلت: ولعمري إن المخلص والأبيات بكمالها، دون إطناب ابن الأثير في الوصف. ولكن قال زكي الدين بن أبي الأصبع، في كتابه المسمى «بتحرير التحبير» لما انتهى إلى هذا النوع، أعني حسن التخلص: إذا وصلت إلى ابن حجاج في هذا الباب فإنك تصل إلى ما لا تدركه الألباب، فمن ذلك قوله على طريقته المعهودة منه:

وقـد بـادلتهـا فمبـالهـا لـي ... بمشـورة استهـا ولهـا قـذالي[2]
كمـا لابن العميد جميـع مـدحي ... ودنيـا ابن العميـد جميعهـا لي

ومن المخالص الفائقة قول الأستاذ أبي الحسن مهيار بن مرزويه الكـاتب، من قصيدة بائية يمدح بها الأمير سيف الدولة ابن مزيد مطلعها:

هب من زمانك بعض الجد للعب ... واهجر إلى راحة شيئاً من التعب

ولم يزل ماشياً على هذا السنن إلى أن قال:

تسعى السقـاة علينـا بين منتـظر ... بـلوغ كـأس ووثـاب بمستـلب
كـأنمـا قـولنـا للبـابـليّ أدِر ... سـلافـة قـولنـا للمـزيـدي هـب

---

(١) فالاً: أي يتفاءلون به.

(٢) المبال: مكان خروج البول ـ الإست: مكان خروج فضلات الطعام من الجسم، والأديب الحق يربأ بنفسه وبكتبه، عن ذكر فاحش القول. . .

ومثله قوله من قصيدة حائية، يمدح بها الأستاذ أبا طالب بن أيوب:

يا من ثناياه التي ... غولطت عنها بالأقاحي
غلط المقايس بابن أيـ ... ـوب السحابة في السماح

ويعجبني من مخالصه قوله، من قصيدة رائية يمدح بها فخر الملك ولم يزل يرفل في حلل غزلها ونسيبها إلى أن قال:

أرى كبدي وقد بردت قليلاً ... أمات الهم أم عاش السرور
أم الأيام خافتني لأني ... بفخر الملك منها أستجير

ومما يعجبني، أيضاً إلى الغاية، قوله، من قصيدة عينية يمدح بها الوزير عميد الدولة مطلعها:

لو كان يرفق ظاعن بمشيع ... ردُّوا فؤادي يوم كاظمة معي

ولم يزل يطلق العنان في هذه الحلبة إلى أن سبق إلى غاية قال فيها:

إن شاء بعدهم الحيا فلينسكب ... أو شاء ظل غمامه فَلْيقلع
فمقيل جسمي في ذيول ربوعهم ... كاف وشربي من فواضل أدمعي
كرمت جفوني في الديار فأخصبت ... فغنيت أن أرد المياه وارتعي
فكأن دمعي مدّ من أيدي بني ... عبد الرحيم ومائها المستنبع

وما أحلى ما قال بعده، وهو مخلص آخر:

وكأن ليلي من تفاوت طوله ... أسيافهم موصولة بالأذرع

ولم أكثر من محاسن مهيار هنا إلا لعلمي بغرابة شعره، وعزة وجود ديوانه.

ومن المخالص التي تصلح أن تكون واسطة في هذا العقد، قول أفقه الشعراء، وأشعر الفقهاء، كما قال: وهو القاضي أبو بكر أحمد الأرّجاني، من قصيدة يمدح بها ولي الدين الكاتب مطلعها:

وعدت باستراقة للقاء ... وبإهداء زورة في خفاء[1]

وما أحلى ما قال بعده:

ثم غارت من أن يماشيها الظـ ... ـل فسارت في ليلة ظلماء

---

(١) الزورة: الزيارة.

ثم خافت لما رأت أنجم الليـــــل شبيهات أعين الرقباء
فاستنابت طيفاً يلم ومن يمـــــلك عيناً تهم بالإغفاء(١)
هكـذا نيلها إذا نـولتنـا وعنـاء تسمـح البخـلاء
يهدم الانتهاء باليأس منها ما بناه الرجاء بالابتداء

ولم يزل راتعاً في هذه الحدائق الغضة إلى أن قال:

تـركتني معنيـاً لمغـانٍ وأعـادت أعـاديـاً أصدقـائي
رنقت مشربي وقد كان عين الشمـــس والماء دونه في الصفاء(٢)
بعد عهدي بعيشتي وهي خضرا تنثني كالبـانـة الغنـاء
وأمـوري كـأنهـا ألفـات خطهن الولي في الاستـواء

ومن جواهر مخالصه المنتظمة في هذا السلك قوله، من قصيدة رائية يمدح بها سديد الدولة محمد بن عبد الكريم الأنباري، مترسل الخلافة وكاتب إنشائها، مطلعها:

سلا رسوماً أقامت بعدما ساروا أعندها من أهيل الحي أخبار(٣)
وروِّحا عاتقي من حملها مننـاً للسحب فيها وللأجفان أستار(٤)

ولم يزل مبدراً(٥) في هذا الأفق النير إلى أن قال:

أقسمت ما كل هذا الضيم محتمل ولا فؤادي على ما شمت صبار
إلا لأنـك مني اليـوم نـازلـة في القلب حيث سديد الدولة الجار

ومن مخالصه الصافية التي مازجها بسلاف التورية قوله، من قصيدة بائية يمدح بها شهاب الدين أحمد بن أسعد الطغرائي، مطلعها:

إذا لم يخن صب ففيم عتـاب وإن لم يكن ذنب فمم متـاب

وما ألطف ما قال بعده:

أجل ما لنا إلا هـواهم جنـاية .فهل عندهم غير الصدود عقـاب

---

(١) ألم الطيف: مرّ بسرعة.
(٢) رنقت مشربي: عكّرته وخلطت ماءه بالتراب.
(٣) الرسوم: الأطلال والبقايا ـ أهيل: تصغير اهل للتحبب.
(٤) روّح: أراح.
(٥) مبدراً: : أي مشرقاً كالبدر.

ولم يزل سائراً في سهولة هذه الجادة إلى أن قال:

فلا تكثرن شكوى الزمان فإنما ... لكل ملم جيئة وذهاب[1]
وقد كان ليل الفضل في الدهر داجياً ... إلى أن بدا للناظرين شهاب

والأرجاني أيضاً نظمه غريب في هذه البلاد، فلذلك أوردت منه هنا هذه النبذة اللطيفة، والله أعلم.

وقد آن لي أنْ أقدم مقدمات النتائج، من أشعار المتأخرين في هذا النوع، فإنهم رياحين حدائقه، وأقمار مشارقه، فالمقدم هنا قاضيهم الفاضل الذي ارتفع الخلاف بقضائه، ونفذ حكمه بالموجب على ملوك هذه الصناعة، وتقدم باستيفاء شرائط التقديم، فصلى خلف إمامته الجماعة. فمن مخالصه الفاضلية، قوله من قصيدة يمدح بها خليفة الفاطميين في ذلك العصر، مطلعها:

تـرى لحنيني أو حنين الحمائم ... جرت فحكت دمعي دموع الغمائم

وما أحلى ما قال بعده:

وهل من ضلوع أو ربوع ترحلوا ... فكل أراها دارسات المعالم[2]
دعوا نفس المقروح تحمله الصبا ... وإن كان يهفو بالغصون النواعم
تأخرت في حمل السلام عليكم ... لديها لما قد حملت من سمائم[3]
فلا تسمعوا إلا حديثاً لناظري ... يعاد بألفاظ الدموع السواجم[4]
فإن فؤادي بعدكم قد فطمته ... عن الشعر إلا مدحة لابن فاطم

ومثله قول العلامة الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماة، من قصيدة دالية يمدح بها النبي ﷺ، مطلعها:

ويلاه من نومي المشرد ... وآه من شملي المبدَّد

ولم يزل يدير على خصور هذه الألفاظ الرقيقة، وشاحات معانيه البديعية، إلى أن قال:

أكسبني نشوة بطرف ... سكرت من خمره فعربد[5]

---

(١) ملم: مار.
(٢) دارسات المعالم: أي لا أثر فيها يعلم بإقامتهم.
(٣) السمائم: جمع مفرده سموم وهي الريح الحارّة التي تهب عادة من جهة الجنوب.
(٤) السواجم: جمع مفرده ساجم وهو الدائم الإنصباب.
(٥) النشوة: قمة اللذة ـ العربدة: السكر الشديد المصحوب بالتيه.

غصن نقا حل عقد صبري		بلين خصـــر يكـــاد يعقـــد
فمن رأى ذلك الوشاح الصا		ثـم صلى عـلى مـحـمـد

ومثله قوله من قصيدة يمدح بها الملك الناصر صلاح الدين يوسف، مطلعها:

لنـــا من ربـــة الخـــالـيـن جـــاره		تـــواصـــل تـــارة وتـــصـــد تـــاره
تـعـــاملني بمـــا يـحلى سلوى		ولكن لـيس في جـوفي مـــراره

ولم تزل أعين هذا الغزل الرقيق تغازله إلى أن قال:

وقـالوا قـد خسـرت الـروح فيهـا		فقلت الـربـح في تلك الخســاره
بـــأيســـر نـظرة أسـرت فؤادي.		كمـــا نشأ اللهيب من الشـــراره
ويفتـك طـرفهـــا فيقــول قلبي		أشن تـرى صـلاح الـدين غـاره

ومثله قوله من قصيدة يمدح بها الملك الأمجد:

ظـبيـــة حـكـم ظـبـــا مـقلتـهـــا		عـــزة الـظـبـي وذل الأســـد(١)
كنت في تـــرك الهـوى مجتهـــداً		وهـي كـــانت زلـــة الـمجتـــهـــد
كـملت حـسنـــاً فـلولا بـخـلهـــا		خـلتهـــا بـعض خـــلال الأمجـــد

ومن المخالص التي نقلتها من ناصح بن قلاقس قوله، من قصيدة يمدح بها أبا المنصور نور الدين محموداً عين الأمراء بالديار المصرية:

ماذا على العيس لو عادت بربتها		بقـدر ما نتقـاضاهـا المواعيـدا(٢)
رد الركاب لأمر عنَّ في خلدي		وسمـه في بديـع الحب تـرديـدا
وقف أبشـك ما لان الحـديـد لـه		فإن صدقت فقل هل أبت داوودا(٣)
حلت عرا النوم عن أجفان ساهرة		رد الهوى هدبهـا بالنجم معقـودا
تفجـرت وعصا الجـوزاء تضربهـا		فـــاذكـرتني موسى والجـلاميـــدا

وما أحلى ما قال بعده كناية عن طول الليل:

يا ثعلب الصبح يا سرحـان أوله		كل الثريا فقد صادفت عنقودا(٤)

---

(١) الظبا: للسيف حده وشفرته مفردها ظبة.
(٢) العيس: الجمال مفردها أعيس.
(٣) آب: عاد ورجع. داوود: هو النبي داوود عليه السلام وإليه تنسب صناعة الدروع الداوودية الحديدية. كما ورد في القرآن الكريم قوله جل وعلا: ﴿. . . وألناله الحديد * أن إعمل سابغات وقدّر في السرد﴾ سبأ، ٣٤/١٠ و ١١.
(٤) السرحان: الذئب.

ولم يزل ينثر هذه العقود الثمينة، مع تفخيم هذا النظم، إلى أن قال:

ما لي وما للقوافي لا أسيرها ... الا واقعد محروماً ومحسودا
أسكرتهم بكؤوس الراح مترعة ... ولم أنل منهم إلا العرابيدا[1]
سمعت بالجود مفقوداً فهل أحد ... يقول إني وجدت الجود موجوداً
الحمد لله لا والله ما نظرت ... عيناي بعد أبي المنصور محمودا

هذا المخلص خلاه نصر الله بن قلاقس، مع زيادة حسنة، بشعار التورية. ومثله قوله من قصيدة يمدح بها الشيخ سديد الدين المعروف بالحصري مطلعها:

أروه الجلنار من الخدود ... وأخفوا عنه رمان النهود[2]

وقال بعده:

وحلوا مقلتيه بدرّ دمع ... تبسم في المخانق والبرود[3]
وما غرسوا نخيل العيس إلا ... وهم فيها من الطلع النضيد[4]
سقى مصراً وساكنها ملث ... طليل البرق صخاب الرعود
موارد بي لها ظمأ شديد ... ولكن لا سبيل إلى الورود
هل الرأي السديد البعد عنها ... نعم إن كان للشيخ السديد

ويعجبني من مخالص القاضي السعيد هبة الله بن سنا الملك قوله، من قصيدة يمدح بها القاضي الفاضل، أتي فيها بحسن التخلص، ولم يخلص من إشراك عيون الغزل، لغرابة أسلوبها:

ضنت بطرف ظل بعدي سقمه ... أرأيتم من ضن حتى بالضنى
يا عاذلين جهلتم فضل الهوى ... وعذلتم فيه ولكني أنا
إني رأيت الشمس ثم رأيتها ... ماذا عليَّ إذا هويت الأحسنا
وسألت من أي المعادن ثغرها ... فوجدت من عبد الرحيم المعدنا

وما أحلى ما قال بعد المخلص:

أبصرت جوهر ثغرها وكلامه ... فعلمت حقاً أن هذا من هنا

---

(١) مترعة: مليئة ـ العرابيد: المجون والتهتك: مفردها عربدة.

(٢) الجلنار: زهر الرمان ـ النهود: جمع مفرده نهد وهو الثدي إذا نهد وارتفع في الصدر.

(٣) المخانق: جمع مفرده المخنقة. وهي القلادة ـ والبرود: مفرده بُرد: وهو الثوب الفضفاض والموشى.

(٤) الطلع: من النخل شيء يطلع كأنه نعلان والحَمْلُ بينهما منضود ـ نضيد: منضود، مصفوف.

ومثله قوله من قصيدة يمدح بها الملك المعظم مطلعها:

تقنعت لكن بالحبيب المعمم وفارقت لكن كل عيش مذمم[1]

وما أحلى ما قال بعده:

وباتت يدي في طاعة الحب والهوى وشاحاً لخصر أو وساداً لمعصم

وما أبدع ما قال منها:

سعدت ببدر خدّه برج عقرب فكذب عندي قولُ كل منجم[2]
وأقسم ما وجه الصباح إذا بدا بأوضح مني حجة عند لومي
ولا سيما لما مررت بمنزل كفضلة صبر في فؤاد متيم
وما بان لي إلا بعود أراكة تعلق في أطرافه ضوء مبسم

سبحان المانح! والله لقد أحرز القاضي السعيد قصبات السبق برقة هذه الألفاظ وغرابة هذه المعاني، ولقد خلب القلوب وجلا ظلمة الأفهام، بقوله:

وما بان لي إلا بعود أراكة تعلق في أطرافه ضوء مبسم

وأظنه من المخترعات، والله أعلم، وما أحلى ما قال بعده:

وقفت به أعتاض عن لثم مبسم شهي لقلبي لثم آثار منسم[3]
ولم ير طرفي قط شملاً مبدّداً يقابله إلا بدمع منظم
ولم يسل قلبي أو فمي عن غزالة وعن غزل إلا بمدح المعظم

ومن المخالص البديعة قول الصاحب بهاء الدين زهير من قصيدة يمدح بها الأمير نصير الدين اللمطي، مطلعها:

لها خفر يوم اللقاء خفيرها فما بالها ضنت بما لا يضيرها[4]

وما ألطف ما قال بعده:

أ... تها أن لا يعاد مريضها وسيرتها أن لا يفك أسيرها[5]

---

(١) المعمم: السيد الذي يقلده القوم أمرهم ويلجأون إليه ـ مذمم: مذموم لشظفه وقساوته.

(٢) برج العقرب: من الكواكب.

(٣) المنسم: خف البعير.

(٤) الخفر: الحياء ـ الخفير: الحارس ـ ضنت: بخلت.

(٥) عاد المريض: زاره.

ولم يزل هائماً في طريقه الغرامية، إلى أن قال:

وها أنا ذا كالطيف فيها صبابة لعلي اذا نامت بليل أزورها

هذا المعنى قلبه الصاحب بهاء الدين زهير على من تقدمه فيه، وسبكه في أغرب القوالب البديعية، وأظنه من مخترعاته. ثم قال بعده:

من الغيد لم توقد مع الليل نارها ولكنها بين الضلوع تثيرها
تقاضي غريم الشوق مني حشاشة مروَّعة لم يبق إلا يسيرها
وإن الذي أبقته منها يد الهوى فداء بشير يوم وافى نصيرها

هذا المخلص استعبد الصاحب بهاء الدين زهيراً رقيق ألفاظه، بحشمة توريته. ومثله في الحسن قوله من قصيدة يمدح بها الملك الناصر صلاح الدين بن العزيز مطلعها:

عرف الحبيب مكانه فتدللا وقنعت منه بموعد فتعللا

وما أظرف ما قال بعده:

وأرى الرسول ولم أجد في وجهه بشراً كما قد كنت أعهد أولا

ولم يزل يدير كاسات صباباته الغرامية إلى أن قال:

آهاً لقلب ما خلا من لوعة أبداً يحن إلى زمان قد خلا
ورسوم جسم كاد يحرقه الهوى لو لم تبادره الدموع لأشعلا
ولقد كتمت حديثه وحفظته فوجدت دمعي قد رواه مسلسلا(١)
أهوى التذلل في الغرام وإنما يأبى صلاح الدين أن أتذللا

وما أحلى ما قال بعد المخلص:

مهدت بالغزل الرقيق لمدحه وأردت قبل الفرض أن أتنفلا(٢)

ويعجبني أيضاً من مخالص القاضي كمال الدين بن نبيه قوله من قصيدة يمدح بها الخليفة الناصر لدين الله مطلعها:

باكر صبوحك أهنى العيش باكره فقد ترنم فوق الأيك طائره(٣)

---

(١) رواه: حكاه. أو من الري والسقاية.
(٢) أتنفل: أصلي النوافل وهي من الصلاة غير الواجبة.
(٣) الأيك: واحدته أيكة وهي الشجر الكثير الملتف.

ثم قال بعده:

والليل تجري الدراري في مجرته ... كالروض تطفو على نهر أزاهره[1]
وكوكب الصبح نجاب على يده ... مخلق تملأ الدنيا بشائره[2]

ولم يزل يتلاعب بهذه المعاني المخترعة إلى أن قال:

خذ من زمانك ما أعطاك مغتنما ... وأنت ناه لهذا الدهر آمره
فالعمر كالكأس تستحلى أوائله ... لكنه ربما مجت أواخره[3]
واجسر على فرص اللذات محتقراً ... عظيم ذنبك إن الله غافره
فليس يخذل في يوم الحساب فتى ... والناصر ابن رسول الله ناصره

ويعجبني من مخالصه الموسويات قوله، من قصيدة مطلعها:

يا نار أشواقي لا تخمدي ... لعل ضيف الطيف أن يهتدي

ولم يزل راتعاً في رياض غزلها إلى أن قال:

غازلنا من نرجس ذابل ... وافتر عن نور أقاح ندي[4]
وقام يلوي صدغه قائلا ... لا تغترر بي فكذا موعدي
فقلت يا الله مات الوفا ... فقال موسى لم يمت خذ يدي

وقوله من المخالص الأشرفيات الموسويات، في بيت المخلص الذي يستغني بتمكنه وقوته عن ذكر ما قبله:

يا طالب الرزق إن سدت مذاهبه ... قل يا أبا الفتح يا موسى وقد فتحت

ومن مخالصه الأشرفيات أيضاً قوله من قصيدة:

بتنا وقد لف العناق جسومنا ... في بردتين تكرم وتعفف
حتى بدا فلق الصباح كجحفل ... راياته رنك المليك الأشرف[5]

---

(١) المجرّة: مجموعة كبيرة من النجوم تبدو كالوشاح في عرض السماء.
(٢) نجاب: صيغة مبالغة من نجب: وهو الذي يلد النجباء وهم الأخيار ـ المخلّق: المعروف المميز.
(٣) مجّ: عاف.
(٤) افتر: كشف عن أسنانه عند التبسم ـ أقاح: جمع مفرده أقحوانة، وهي أزهار مفلجة بيضاء ناصعة.
(٥) الجحفل: الجيش العظيم الكثير ـ الرَّنْك: شعار الملوك والأمراء الأتراك والمماليك.

ويعجبني من مخالصه الأشرفيات، أيضاً، قوله من قصيدة:

يذود شبا القنا عن وجنتيها كمنع الشوك للورد الجني
إذا ما رمت أقطفه بعيني يقول حذار من مرعى وبي[1]
لسان السيف من أدنى وُشاتي ومن رقباي طرف السمهري[2]
كأن لجفنها في كل قلب فعال المشرفي الأشرفي[3]

ويعجبني من مخالص الشاب الظريف، شمس الدين محمد بن العفيف، قوله من قصيدة يمدح بها القاضي فتح الدين بن عبد الله الظاهر، تحمس في غزلها وتغزل في تحمسها إلى المخلص، مطلعها:

أرح يمينك مما أنت معتقل أمضى الأسنة ما فولاذه الكحل

وما أحلى ما قال بعده:

يا من يريني المنايا واسمها نظر من السيوف المواضي واسمها مقل
ما بال ألحاظك المرضى تحاربني كأنما كل لحظ فارس بطل
من دونها كثب من دونها حرس من دُونها قضب من دونها أسل[4]
ومعشر لم تزل في الحرب تبصرهم حمر الخدود وما من شأنها الخجل
يثني حديث الوغى أعطافهم طرباً كأن ذكر المنايا بينهم غزل[5]
من كل ذي طرة سوداء يلبسها وشيبها من غبار النقع منتصل[6]
ضاءت بحسنهم تلك الخيام كما ضاءت بوجه ابن عبد الظاهر الدول

وطالعت تقطيف الجزار فأعجبني منه مخلص قصيدة يمدح بها الأمير جمال الدين، موسى بن يغمور، مطلعها:

نقلت لقلبي ما بجفنيك من كسر وعلمت جسمي بالضنى رقة الخصر

---

(١) وبي: أي وبيل، ومرعى وبي أي سيء العاقبة.

(٢) وُشاة: مفردها واشٍ، وهو الذي ينقل الأخبار. رقباي: أي رقباني، مفردها رقيب وهو المراقب. السمهري: الرمح المنسوب إلى سمهر وهو من أصلب الرماح.

(٣) المشرفيّ: السيف القاطع.

(٤) الأسل: الرماح.

(٥) الوغى: الحرب.

(٦) الطرة: الثوب المكفف ـ النقع: غبار المعارك ـ المنصل: المغطى.

ولم يزل الجزار يتقطف ما تشتهيه النفس، من هذا النوع، إلى أن قال:

وهيفاء تحكي الظبي جيداً ومقلة ... رنت وانثنت فارتعت بالبيض والسمر[1]
جسرت على لثم الشقيق بخدّها ... ورشف رضاب لم أزل منه في سكر[2]
ولست أخاف السحر من لحظاتها ... لأني بموسى قد أمنت من السحر

وما أحلى ما قال بعد تخلصه بموسى:

فتى إن سطا فرعون فقر وجدته ... يغرقه من جود كفيه في بحر
له باليد البيضاء أعظم آية ... إذا اسودت الأيام من نوب الدهر

ومن مخالص الشيخ جمال الدين بن نباتة، التي هي أوقع في القلوب من خالص الوداد، وتوريتها أنفس من خلاصة العقود في الأجياد، قوله من قصيدة يمدح بها قاضي القضاة تاج الدين السبكي، مطلعها:

واحيرتى بظلام الطرة الداجي ... وشقوتي بنعيم الملمس العاجي

ولم يزل يكرر حلاوة هذا النبات إلى أن قال:

قد أسرج الحسن خديه فدونك ذا ... سراج خدّ على الأكباد وهاج[3]
والجم العزل فاركض في محبته ... طرف الهوى بعد إلجام وإسراج[4]
وقسم الشعر فاجعل في محاسنه ... شذر القلائد واهد الدر للتاج

ومثله قوله من قصيدة يمدح بها القاضي جمال الدين بن الشهاب محمود، مطلعها:

بأبي نافر كثير الدلال ... إن هذا النفار شأن الغزال[5]

ثم قال بعده:

حبذا منه مقلة لست أدري ... أبهدب تصول أم بنبال[6]
صنفت شجوَنا بغزال جفن ... فقرأنا مصنف الغزالي

---

(١) الهيفاء: الدقيقه الخصر- تحكي: تشبه- الظبي: الغزال- رنت: نظرت- البيض والسمر: الأصل: السيوف والرماح، وربما قصد الشاعر هنا: الأسنان والشفاه.
(٢) جَسَر: تجرّأ- الشقيق: زهر أحمر قان،، يعرف بشقائق النعمان- رشف: شرب- الرضاب: الريق
(٣) أسرج: أشعل السراج، وألبس السرج للدابة.
(٤) ألجم: وضع اللجام في فم الدابة ليمنعها من الأكل أو ليحسن السيطرة عليها.
(٥) النافر: المقاطع، الهارب من النفور.
(٦) الهدب: الرمش تجمع على أهداب: رموش. وهي الشعر الذي ينبت على الجفن..

وهـوينـا حلو القـوام فنـادت لا عجيب حـلاوة العسال[١]
من معيني على هوى زاد حتى أهملتـه نصـائـح العـذال
لو رأى عاذلي حقيقة أمري لـرثـاني ولا أقـول رثى لي
في جمال الحبيب مت شجوناً وبروحي أفدي تراب الجمال

ومثله قول الشيخ برهان الدين القيراطي، من قصيدة يمدح بها الأمير سيف الدين الكريمي، مطلعها:

غـرامي فيك يـا قمـري غـريمي وذكـرك في دجى ليلي نديمي[٢]

وقال بعده:

وملّني الـحـمـيـم وصـدعـنـي ومالي غير دمعي من حميم[٣]
وكم سأل العواذل عن حديثي فقلت لهم على العهد القديم
وعم تسـألـون ولي دمـوع تخبرهم عن النبأ العـظيم[٤]

ولم يزل القيراطي يحرّر إبريز[٥] هذه المعاني إلى أن قال:

فمـوعـده ونـاظـره وجسمي سقيم من سقيم في سقيم
كريمٌ مالَ بخلاً عن وِدادي فملتُ لنحـو مخـدوم كـريم

المخالص بالتورية، على هذا النمط، طريقها مخوف، وباب مسلكها مقفل، لا سيما على من كفه من هذا الفن صفر، ورجله حافية وليس له محمل.

ومن مخالصي التي ما برحت التورية في أبواب بيوتها خادمه، وكم سلكت هذا الطريق المخوف وعادت إلى بيوتها سالمه، قولي من قصيدة امتدح بها شرف الدين صدقة ابن الشماع الشهير في دمشق بابن مسعود، وكان من أعز الأصحاب، وممن رشف معنا في ذلك العصر سلافة الآداب، مطلعها:

سهـام جفنيك في الحشـا رشقـة رفقاً فما مهجـة الشيحي درقه[٦]

---

(١) العسـال: الذي يستخرج العسل.

(٢) الغريم: العدو اللدود.

(٣) حميم: صديق.

(٤) هذا البيت هو عبارة عن آية قرآنية غير فيها الشاعر حتى تتناسب والشعر: ﴿عم يتساءلون ۞ عن النبإ العظيم﴾ النبأ، ٧٨/١و ٢.

(٥) الإبريز: الذهب والفضة.

(٦) الدرقه: الترس من جلد خالص.

وبكر هذه القافية أنا أبو عذرتها، وأول من حصل له الفتح في تحريك نكتتها، وقلت بعد المطلع منها:

أنفقت عمري وصحتي شغفا | عليك والصبر آخر النفقه
غصن خلاف يميس من خفر | قلوبنا في هواه متفقه
قوامه في اعتداله إلف | سبحان من مدّه ومن مشقه[1]
عيناي بالثغر مع ذوائبه | في أوّل الاصطباح مغتبقه[2]
أمير حسن بقرطه ظهرت | له جنود لكن من الحلقه
عامر بيت الوصال خربه | وقال ما أنت هذه الطبقه
بدر منير قسا برؤيته | لكن نرى عند خده شفقه[3]
قالوا لبدر التمام منه ضيا | قلت وعيش الهوى لقد محقه[4]
وحمل الصبح من محاسنه | أثقال نور لكنه فلقه
وماس في الروض كل غصن نقا | غدا إلى الله رافعاً ورقه
وانظر إلى الظبي كيف يرمقه | ويأخذ الغنج منه بالسرقه
فقيل والظبي ما يقابله | فقلت والله ما له حدقه[5]
قلت له إن جفن مقلته | يشبه سهماً بعجبه رشقه
خفت من القتل رحت أملقه | سابقني مدمعي جرى ملقه[6]

ولم أزل ناشراً علم التورية إلى أن وصلت إلى المخلص بها فقلت:

طرقت باب الحبيب والرقبا | عليَّ من خيفة اللقا حنقه[7]
قالوا فما تبتغي فقلت لهم | حتى تخلصت أبتغي صدقه

قولي: حتى تخلصت، لا يخفى ما فيه من زيادة الحسن على أهل النظر من أهل الأدب، ومثله قولي من قصيدة مصغرة مدحت بها قاضي القضاة شمس الدين النويري، مطلعها:

---

(١) مشق: : أطال.

(٢) الاغتباق: شرب الخمرة مساءً.

(٣) محقه: أدخله في المحاق وهي من منازل القمر حيث لا تمكن رؤيته لعدم إضاءته.

(٤) الحدقة: سواد العين.

(٥) أملُقُه: أتقرب إليه ـ ملقه: جريان الدمع بسبب ضرب العين.

(٦) حَنَقه: جمع مفرده حانق وهو الغاضب.

(٧) القصيدة كلها مصغرة: طُريفي تصغير: طريفي ـ ليلات تصغير ليلات ـ الهُجَير: تصغير الهجر ـ

طريفي من لييلات الهجير مقيريح الجفين من السهير[٩]

وقلت بعد المطلع:

بعيد غزيلي وجويسر قلبي دميعي في وجيناتي جويري
بديويّ تريكيّ المحيا غويب عن عويشقه الحضير
عبيسي اللحيظ له وجيه ضوي نويره لبني بديري
حياء مقيلتيه سبا عقيلي ولكن الحديد غدا جميري
رويض وجينتيه له عنيدي نسيب في النظيم إلى زهير
مسيبل الشعير على كفيل يذكرنا مويجات البحير
بدير في الظهير له نوير مثيل شكيله ما في العصير
حويجبه القويس له سهيم مويض في القليب بلا وتير
شفيفته قفيل من عقيق مقيفيل على درّ الثغير
عذيره النويزل دار حتى تشوق للنزيل وللدوير
لثمت خديده فجرى دميعي فما أحلى الزهير على النهير
دنينير الوجيه له بقلبي نقيدليس يصرف عن صديري
أتاه سويئلاً يوماً دميعي فقال انا جعيديّ الشعير
شهير وصيله عندي يويم ويوم هجيره مثل الشهير
تبسم لي سحيراً عن رويض فقلت ولي دميع كالمطير
نثرت دميعتي بنظيم ثغر فما أحلى النظيم مع النثير
لفيظك والمقيلة مع نظيمي سحير في سحير في سحير
شعيرك مذ أضلّ عويشقيه هدينا في الظليمة بالنوير

ولم أستطرد إلى غالب أبيات هذه القصيدة إلا لغرابة أسلوبها، فإنني لم أزل أجذب القلوب إلى تحبيب تصغيرها، ومغازلة عيون أغزالها، إلى أن أبدر بدر مخلصها في أفق توريته. ومثله قولي من قصيدة كتبت بها من حماة المحروسة إلى المقر المرحومي الأميني، صاحب ديوان الإنشاء الشريف، بدمشق المحروسة:

يا نزلا لا حمى الفراديس بالشا م وأعلامهم على قاسيونا[١]

---

* مقيريح: تصغير مقروح: أي مجروح ـ الجفين: الجفن ـ السهير: السهر، وهكذا كل ألفاظ القصيدة.

(١) الفراديس: جمع مفرده فرادس وهو الرجل الضخم العظام. أو جمع فردوس وهو البستان ـ قاسيون: جبل يشرف على دمشق.

بـالنسيم العليـل منكم إذا | هب على الغور والربا عللونا
وارحموا سائل الدموع وبالله | عليكم لا تنهـروا السائلينـا
وإذا ما نهرتم الـدمع نهـراً | لا تخوضوع فيه مع الخائضينا
حبكم فرضنا وسيف جفاكم | قد غدا في بعـادنا مسنـونا
والحشا لم تخن عهود وفاكم | وسلوا من غدا عليها أمينـا

ومثله قولي، من قصيدة كتبت بها من طرابلس المحروسة، إلى سيدنا قاضي القضاة تقي الدين ابن الخيثمي الحنفي بحماة المحروسة، نور الله ضريحه وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه:

فيـا سـاكني مغنى حمـاة نعمتمْ | صباحاً ولو ألغيتم في الورى ذكري
فـودّي ودّي مثـل مـا تعهـدونـه | ولكن صبري عنكم عاد كـالصبر
وقد كنت أخشى هجركم قبل بعدكم | فلما بعدتم قلت آهاً على الهجر
وإن جلت في ميدان نظمي تشوقاً | تسـابقني حمر المـدامـع بـالنثر
وشيعيُّ همي كلمـا رام بعـدكم | يحـاربني نـاديت يـا لأبي بكـر

قد تقدم وتقرر أن مخالص التورية صعب مسلكها على كثير من الناس، ولم أبرز بدورها هنا كاملة إلا ليزول عن الطالب ظلمة الالتباس.

وأنشدني، من لفظه لنفسه الكريمة، أحد أعيان العصر المقر المجدي فضل الله بن مكانس، فسح الله في أجله مخلصاً من غزل إلى مديح نبوي وهو:

كم حمد السامعون وصفي | لـغـادة قيـنـة وأغـيـد
فعـدت عنـه تقي وعـودي | لمـدح خيـر الأنـام أحمـد

هذا المخلص حلاه المقر المجدي بشعار التورية، وخفر المديح النبوي، ومخلص الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته:

من كـل معربـة الألفـاظ معجمـة | يزينها مدح خير العـرب والعجم

الشيخ صفي الدين تخلص في بيت واحد، ووثب منْ شطره الأول إلى شـطره الثاني على الشرط المعروف، وهذا المنوال قد تقرر أنه عليه عقدت خناصر المتأخرين، ولكن الشيخ صفي الدين وثب وثبة ضعيفة دلت على ضعف تخلصه، فإن بيته بمفرده غير صالح للتجريد. وقد تقدم القول على بيت القسم من قصيدة أنه غير صالح للتجريد أيضاً، فإنه لم يأت بجواب قسمه إلا في بيت الاستعارة، وعلى كل تقدير، إن لم يؤت ببيت القسم

وبيت الاستعارة قبل بيت التخلص، لم يحصل به فائدة، ولا يصير على مخلصه طلاوة الأدب، ويصير بينه وبين الأذواق السليمة مباينة، وقد تعين أن أورد بيت القسم وبيت الاستعارة هنا ليصيرا لمخلصه الضعيف تكأتين وهما:

لا لقبتني المعالي بابن بجدتها ... يوم الفخار ولا برّ التقى قسمي(١)
إن لم أحث مطايا العزم مثقلة ... من القوافي تؤم المجد عن أمم(٢)
من كل معربة بالألفاظ معجمة ... يزينها مدح خير العرب والعجم(٣)

وأين الشيخ صفي الدين الحلي من قول كمال الدين بن نبيه وقد تقدم:

يا طالب الرزق إن سدت مذاهبه ... قل يا أبا الفتح يا موسى وقد فتحت

هذا المخلص لحسن تجريده يستغنى به عن قصيدة. وقد تقرر أن نظام البديعيات التزموا أن يكون كل بيت منها شاهداً على نوعه بمجرده، ليس له تعلق بما قبله ولا بما بعده. ومخلص العميان مثل مخلص الشيخ صفي الدين الحلي أيضاً، فإنه غير صالح للتجريد، وما تتم به الفائدة إن لم يأت ناظمه بما قبله، وعلى مذهب أصحاب البديعيات ما يصلح أن يكون شاهداً، وهو:

يمم بنا البحر إن الركب في ظمإ ... فقلت سيروا فهذا البحر عن أمم

وقد تقدم قولي: إن العميان أتوا في براعة الاستهلال بصريح المدح، وهو قولهم فيها:

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم ... وانشر له المدح وانثر طيب الكلم

فإذا حصل التصريح بالمدح في المطلع الذي هو براعة الاستهلال، لم يبق لحسن التخلص موقع، فإن حسن التخلص من شرطه أن يخلص الشاعر من الغزل إلى المديح، لا من المديح إلى المديح، وأيضاً فإن النبي ﷺ لم يكن له في المخلص ذكر، ولكنه استغنى بذكر البحر فإنه جعله كناية عن كرم النبي ﷺ.

ومخلص الشيخ عز الدين في بديعيته:

حسن التخلص من ذنبي العظيم غدا ... بمدح أكرم خلق الله كلهم

---

(١) ابن بجدتها: سيدها والعارف بها.

(٢) مثقلة: محملة حملاً ثقيلاً ـ تؤم: تقصد ـ أمم: قُرب.

(٣) معجمة: منقطة من الإعجام وهو وضع النقاط على الحروف

الشيخ عز الدين صرح بذكر حسن التخلص في أول البيت هنا، وجل القصد أن يكون التصريح به في الشطر الثاني، مع أنه لم يأت بحسن التخلص على الشروط المقررة، فإنه انتقل من معنى إلى معنى آخر من غير تعلق بينهما، كأنه استبدأ كلاماً آخر. وقد تقدم القول في أول الباب: إن هذا النوع إذا نسج على هذا المنوال سمي اقتضاباً، ولم يكن له حظ في حسن التخلص، فإن الشيخ عز الدين قال قبل مخلصه:

وارع النظير من القوم الأولى سلفوا   من الشباب ومن طفل ومن هرم

ثم قال بعده:

حسن التخلص من ذنبي العظيم غدا   بمـدح أكـرم خلق الله كـلهـم

الشيخ عز الدين استبدأ هنا كلاماً آخر، وليس بين بيت التخلص وبين ما قبله علاقة ولا أدنى مناسبة.

وبيت بديعيتي:

ومن غدا قسمه التشبيب في غزل   حسن التخلص بالمختار من قسمي

هذا البيت ما يشك متأدب أنه أعمر بيوت البديعيات، وهو في غنية عن الإطناب في وصفه.

ذكر الاطراد

محمد بن الذبيحين الأمين أبو البتول خير نبيٍّ في اطرادهم

الاطراد، في اللغة: مصدر اطرد الماء وغيره إذا جرى من غير توقف، وفي الاصطلاح: أن يذكر الشاعر اسم الممدوح واسم من أمكنه من آبائه، في بيت واحد على الترتيب، ولا يخرج عن طرق السهولة، ومتى تكلف، أو تعسف في بناء بيته، لم يعد اطراداً، فإن المقصود من هذا النوع أن يكون كلام الناظم، في سهولة جريانه واطراده، كجريان الماء في اطراده، فمتى جاء كذلك دل على قوة الشاعر وتمكنه وحسن تصرفه. وقد تقدم القول: إن الشيخ صفي الدين ما نظم بديعيته حتى جمع عنده سبعين كتاباً في هذا الفن، يجتني من أوراقها كل ثمرة شهية، ورأيته في شرح بديعيته قد أورد لهذا المعنى حدّاً فيه زيادة على الجماعة، فإنهم لم يزيدوا على اسم الممدوح واسم مَن أمكن من آبائه شيئاً، والشيخ صفي الدين نقل في شرح بديعيته: أن الاطراد عبارة عن اسم الممدوح ولقبه وكنيته وصفته اللائقة به، واسم من أمكن من أبيه وجدّه وقبيلته، ليزداد الممدوح تعريفاً وشرط أن يكون ذلك في بيت واحد من غير تعسف ولا تكلف ولا انقطاع بألفاظ أجنبية، وأورد على ذلك قول بعضهم:

مؤيد الدين أبو جعفر محمد بن العلقمي الوزير

هذا البيت جمع ناظمه فيه بين اللقب والكنية، واسم الممدوح واسم أبيه والصفة اللائقة به، وهو القدر الذي قرره الشيخ صفي الدين، في الحد الذي أورده في شرحه. وعلى هذا المنوال نسجت بيت بديعيتي، لأجل المعارضة. ومثله قول بعض المتأخرين، في زكي الدين بن أبي الأصبع:

عبد العظيم الذكيّ ابن أبي الأصبع رب القريض والخطب

هذا البيت اشتمل أيضاً على اسم الممدوح واسم أبيه والصفة اللائقة به، وهو صالح لمجرد المدح، ولكن عقبه الناظم بأبيات مشتملة على صريح الهجو، كان الأوجب عدم إيرادها هنا، حفظاً لمقام الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع، ولكن جراءة ظرفها ركبت صهوة القلم وأطلقت عنانه، فإنه قال بعده:

يزعم أني بالهجو أذكره ... تعصباً منه ساعة الغضب
لكنني والطلاق يلزمني ... ما ملت فيه يوماً إلى الكذب
نكت ابنه وأخته وخالته ... ونكت قدماً أخاه وهو صبي
ولست فيما أتيت مبتدعاً ... قد كان هذا في سالف الحقب
ناك أبي أمه وجدته ... وعمتيه لله در أبي
ونحن في بيته على دعة ... النيك ما بيننا إلى الركب

وأما شواهد هذا النوع، المشتمل على اسم الممدوح واسم أبيه وجدّه، من غير كنية ولقب وصفة، فمنها قول الشاعر:

من يكن رام حاجة بعدت عنـ ... ـه وأعيت عليه كل العياء
فلها أحمد المرجى بن يحيى بـ ... ـن معاذ بن مسلم بن رجاء

قال الشيخ زكي الدين بن أبي الاصبع: لقد أربى هذا الشاعر، في هذا النوع، على من تقدمه ولو سلم بيته من الفصل بلفظة المرجى لكان غاية لا تدرك وعقيلة لا تملك. انتهى كلام الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته:

محمد المصطفى الهادي النبي أجل ... المرسلين ابن عبد الله ذي الكرم

الشيخ صفي الدين أتى، في هذا البيت، باسم الممدوح ﷺ والصفات اللائقة به واسم أبيه.

وبيت العميان في بديعيتهم:

قد أورث الجد عبدالله شيبة عن ... عمرو بن عبد مناف عن قُصيهم[1]

الذي أقوله: إن بيت العميان في غاية التكلف والتعسف، ولعمري إن ناظمه خالف أمر مشايخ البديع، في المشي على طريق السهولة والانسجام، وأيضاً فإن النبي ﷺ هو

---

(١) شيبة: هو لقب عبد المطلب جد النبي محمد ﷺ - وقصي: هو جد قريش.

الممدوح في هذه القصيدة بكمالها، وليس له ذكر في هذا البيت، فعلى هذا التقدير هو غير صالح للتجريد مع ما فيه من المعاقدة.

وبيت الشيخ عز الدين في بديعيته:

محمد بن عبد الله شيبة جده ... ابن عمرو كرام في اطرادهم

أقول: إن بيت العميان، في غاية السهولة عند هذا البيت، وهذا القدر أليق من إطلاق لسان القلم في الكلام عليه.

وبيت بديعيتي:

محمد بن الذبيحين الأمين أبو البتول خير نبي في اطرادهم

هذا البيت أيضاً فيه اسم الممدوح ﷺ، وذكر أبيه وهو أحد الذبيحين. لأن أباه عبد المطلب كان قد نذر ذبح أحد أولاده إذا صاروا عشرة، فلما كملت له العشرة أقرع[2] بينهم فوقعت على عبد الله، فوداه[1] بمائة من الإبل، وهو أوّل من ودي بذلك. وكانت الدية قبل ذلك عشراً، وفي البيت إشارة إلى جده اسماعيل عليه السلام، وتفسير هذا الاسم مطيع الله الذبيح، وقال ﷺ: أنا ابن الذبيحين، وفيه الصفة المعدودة من أسمائه الشريفة، والصفة اللائقة بمقامه العالي، واسم النوع البديعي في القافية مورى به من جنس المديح. والذي يظهر لي أنه أرق من بيت العميان وبيت الشيخ عز الدين، وأكثر معاني من بيت الشيخ صفي الدين، والله أعلم.

(١) أقرع: استعمل القرعة أي الاختيار.

(٢) ودى: أعطى ديته أو فداه.

ذكر العكس

عين الكمال كمال العين رؤيته　　　يا عكس طرف من الكفار عنه عمي

العكس، في اللغة: رد اخر الشيء على أوله، ويقال له التبديل. وفي الاصطلاح: تقديم لفظ من الكلام ثم تأخيره، ويقع على وجوه كثيرة ولكن المراد هنا ما استعمل منها وكثر استعماله، فالمقدم، في هذا الباب، قوله تعالى: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل. وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي﴾[1] العكس هنا مميز بعلو طباقه، وبشرف القدرة الإلهية التي لا تصدر إلا عن عظمة الخالق جلت قدرته، وبلاغة القرآن وإيجازه وفصاحته. وعلى كل تقدير، فالعكس نوع رخيص بالنسبة إلى ما فوقه من أنواع البديع الغالية، وإن لم يصوب البليغ عكسه بنكتة بديعية تنظمه في سلك أنواع البديع، فهو مستمر على عكسه، كقول القائل:

زعموا أني خؤون في الهوى　　　في الهوى أني خؤون زعموا

هذا البيت ليس فيه نكتة تزيل عنه العكس وتحليه بشعار البديع، ولو أراد الشاعر أن يرتجل مثله ما شاء في مجلس واحد لكان ذلك قدراً يسيراً، وأين هذا الناظم من أبي تمام وقد قال له بعض حساده: لم لا تقول ما يفهم؟ فقال له على الفور: لم لا تفهم ما يقال؟ وأين هو من قول الحكيم الذي قيل له: لم تمنع من يسألك؟ فقال: لئلا أسأل من يمنعني، وأين هو من كلام الحكيم الذي قال: إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون. وقيل: إنه ورد في الحديث: جار الدار أحق بدار الجار. وما أبلغ قول الحسن بن سهل هنا،

---

(١) آل عمران، ٣/٢٧.

وقد قيل له: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير. ويروى، لأمير المؤمنين هرون الرشيد، من النظم في هذا الباب:

لساني كتوم لأسرارهم ودمعي بسري نموم مذيع[1]
فلولا دموعي كتمت الهوى ولولا الهوى لم يكن لي دموع

وبديع هنا قول الصاحب ابن عباد، وقد بالغ في وصف الزجاج والشراب، وهو:

رق الزجاج وراقت الخمر فتشابها فتشاكل الأمر[2]
فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

ومثله:

ألست ترى أطباق ورد وحولها من النرجس الغض الطري قدود
فتلك خدود ما عليهن أعين وتلك عيون ما لهن خدود

ويعجبني إلى الغاية، في هذا الباب، قول الأضبط الشاعر:

قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه
ويقطع الثوب غير لابسه ويلبس الثوب غير من قطعه

ومثله، في الحكمة، قول ابن نباتة السعدي:

ألا فاخش ما يرجى وجدك هابط ولا ترج ما يخشى وجدك رافع[3]
فلا نافع إلا مع النحس ضائر ولا ضائر إلا مع السعد نافع[4]

ومن حكم أبي الطيب المتنبي قوله في هذا الباب:

فلا مجد في الدنيا لمن قل ماله ولا مال في الدنيا لمن قل مجده

ومثله في الحسن والبلاغة، قوله:

إن الليالي للأنام مناهل تُطوى وتُنشر دونها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة وطوالهن مع السرور قصار

(١) نموم: صيغة مبالغه من النميمة. وهي نقل الكلام بين شخصين أو أشخاص بقصد الفتنة.
(٢) تشاكل الأمر: إختلط والتبس.
(٣) الجد: الحظ.
(٤) ضائر: مُضر.

واستشهدوا على نوع الطباق بقول الشاعر:

رمى الحدثان نسوة آل حرب بمقدار سمدن له سمودا[1]
فردّ شعورهن السود بيضاً وردّ وجوههن البيض سودا

والعكس هنا أحق من المطابقة وأولى، فما فيه من عكس مطابقة عجزه لصدره، وتبديل الطباق في العجز والصدر، ومن الذي يستظرف هنا إلى الغاية قول الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماة:

أفنيت عمري في دهر مكاسبه نطيع أهواءنا فيها وتعصينا
تسعاً وعشرين مدّ الهم شقتها حتى توهمتها عشراً وتسعينا[2]

وتلطف الشيخ جمال الدين بن نباتة بقوله هنا:

مسألة الدور غدت بيني وبين من أحب
لولا مشيبي ما جفت لولا جفاها لم أشب

أنظر ما أليق ما حصر الشيخ جمال الدين مسألة الدور في هذا النوع، مع قصر البحر.

ويعجبني أيضاً قول الشيخ علاء الدين، علي بن مقاتل الحموي، في مطلع من مطالع أزجاله وهو:

حبي عودني الوصال وعوايد وقطع
وامتنع لما حلي وحلا لما امتنع

وأنشدني، من لفظه لنفسه الكريمة، قاضي القضاة عماد الدين أخو شيخي، قاضي القضاة علاء الدين بن القضامي، تغمدهما الله برحمته ورضوانه، مطلعاً يناظر مطلع ابن مقاتل بحسنه في هذا الباب، وهو:

قلت يوماً لمن هويت فيه اعدل عملك
قال بجوري ترتضي وإلا اعمل عدلك[3]

---

(١) الحدثان: المصائب والحوادث، والليل والنهار. سمد: بُهت وتحير.
(٢) مدّ الهمّ شقتها: أي صرت مهموماً لما انقضت شقتها أي مثلها. وصار عمري ثمانية وخمسين عاماً.
(٣) عدلك: أي مثلك.

وزاد الشيخ زكي الدين بن أبي الأصبع هذا النوع، أعني عكس الألفاظ، صنفا معنوياً، وهو أن يأتي الشاعر إلى معنى لنفسه، أو لغيره، فيعكسه. فمثال ما عكس الشاعر من المعاني لغيره:

قال الأول:

قـد يدرك المتـأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل[1]

قال الثاني الذي عكسْ الأول:

وربمـا فات بعض النـاس أمرهم مع التأني وكان الحزم لو عجلوا

وقد تقدم قول الناس في المثل السّائر: ما في إلسويدا رجال، فعكست هذا المعنى على أصحابه وقلت:

في سـويـدا مقيلة الحب نـادى جفنه وهو يقنص الأسد صيدا[2]
لا تقولوا مـا في السويـدا رجال فـأنـا اليـوم من رجـال السـويـدا

ومن القسم الثاني، وهو عكس الشاعر معنى نفسه، قول بعضهم:

وإذا الـدر زان حـسـن وجـوه كـان للدر حسن وجهـك زينـا

ومثله قول الشاعر، وتلطف ما شاء:

ها قد غدا من ثياب الشعر في كفن وقد تعفت معاني وجهه الحسن[3]
وكـان يعـرض عني حين أبصـره فصرت أعرض عنه حين يبصرني

وأظرف منه قول الشيخ جمال الدين ابن نباتة:

وصـديـق قـوى يـدي بنـوال وأراه من بعـد حـاول وهني[4]
كـان مثـل البـتـان آخـذ منـه صـار مثـل الحمـام يـأخـذ مني

انتهى ما أوردته في هذا الباب، من عكس الألفاظ والمعاني، وبيت الشيخ صفي الدين الحلي، في بديعيته، شاهد في هذا الباب على عكس الألفاظ، وهو قوله عن النبي ﷺ:

---

(١) التأني: التمهل ـ الزلل الخطأ.
(٢) يقنص: يصطاد بواسطة الكمين.
(٣) تعفت: إمّحت.
(٤) النوال: العطاء ـ الوهن: الضعف.

أبـدى العجـائب فـالأعمى بنفثتـه غدا بصيراً وفي الحرب البصير عمي[1]

الشيخ صفي الدين أتى في هذا الباب بالغرض، من نظم النوع المذكور، ولكن لم يخل بيته مع بعض عقادة، هذا مع عدم تكلفه بتسمية النوع على الشرط المقرر.

وبيت العميان:

فاتبع رجال السرى في البيد واسر له سرى الرجال ذوي الألباب والهمم[2]

ببيت العميان لم يخلص من العكس هنا، إذ ليس فيه نكتة تلم له مع البديع شملاً، وليس فيه غير رجال السرى وسرى الرجال.

وبيت الشيخ عز الدين الموصلي، في بديعيته:

خير المقال مقال الخير فاصغ ودع عكس الصواب مع التبديل تستقم

الشيخ عز الدين أتى، في هذا النوع، بالمقصود من نظم النوع البديعي وتسميته على الشرط المقرر، ولكنه أجنبي من مديح النبي ﷺ، وليس له أدنى تعلق ببيت المديح الذي قبله، وهو:

تـمـت مـحـاسـنـه والله كـمـلـه فقدره في الورى في غاية العظم

وأعجب من هذا أنه قال بعد هذا البيت، عن النبي ﷺ:

له الجميل من الرب الجميل على الـــــوجه الجميل بترديد من النعم

وغالب مديحه النبوي في هذه القصيدة على هذا النمط، فإنها ما انسجمت معه إلا في مواضع قليلة، والظاهر أن ثقل تسمية النوع على الشرط المعلوم، كلما أثقل كاهله فرّ إلى جهة يستند إلى ركنها. وبيت العميان كاد أن يكون أجنبياً من المديح، ولكن اتكلوا على عود الضمير على الممدوح وهو النبي ﷺ.

وبيت بديعيتي، وهو قولي عن النبي ﷺ:

عين الكمـال كمال العين رؤيتـه يا عكس طرف من الكفار عنه عمي

أقول: إنه في سهولته وانسجامه وحسن تركيبه، وبديع تسميته وتمكين قافيته، بيت عامر بالمحاسن والله أعلم.

---

(١) النفث: المناجاة، وقراءة الطلاسم.

(٢) السرى: السير ليلاً ـ الألباب: العقول.

ذكر الترديد

أبدى البديعَ له الوصف البديع وفي نَظم البديع حلا ترديده بفمي

الترديد، هو أن يعلق الشاعر لفظة في بيت واحد، ثم يرددها فيه بعينها ويعلقها بمعنى آخر، كقوله تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون﴾[1] واستشهدوا، على هذا النوع من النظم، بقول أبي نواس:

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسَّها حجر مسته سراء[2]

والذي أقوله: إن الترديد والتكرار ليس تحتهما كبير أمر، ولا بينهما وبين أنواع البديع قرب ولا نسبة، لانحطاط قدرهما عن ذلك، ولولا المعارضة ما تعرضت لهما في بديعيتي، ولكن ذكر زكي الدين ابن أبي الأصبع بينهما فرقاً فيه بعض إشراق، وهو أن اللفظة التي تكرر في البيت، ولا تفيد معنى زائداً، بل الثانية عين الأولى هي التكرار، واللفظة التي يرددها الناظم في بيته تفيد معنى غير معنى الأولى هي الترديد، وعلى هذا التقدير صار للترديد بعض مزية يتميز بها الى التكرار، ويتحلى بشعارها، وعلى هذا الطريق نظم أصحاب البديعيات هذا النوع، أعني الترديد. فبيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته:

له السلام من الله السلام وفي دار السلام تراه شافع الأمم[3]

---

(١) الحشر، ٥٩/٢٠.

(٢) الرّاء: الحياة والحركة.

(٣) السلام: الأولى بمعنى التسليم عليه والثانية من أسماء الله الحسنى، والثالثة بمعنى الجنة.

لفظة السلام متعلقة في كل موضع بغير الآخر، لاشتراكها.

والعميان لم ينظموا هذا النوع. وبيت الشيخ عز الدين:

له الجميل من الرب الجميل على الـ ـوجه الجميل بترديد من النعم

وبيت بديعيتي:

أبدى البديع له الوصف البديع وفي نظم البديع حلا ترديده بفمي

أقول: إن حلاوة الترديد بالفم، أحلى من قول الشيخ عز الدين: بترديد من النعم وأحسن موقعاً لكونها في القافية، والله أعلم.

ذكر التكرار

كررت مدحي حلا في الزائد الكرم ابـــــن الزائد الكرم ابن الزائد الكرم

المديح للكريم مليح هنا. وقد تقدم قولي: إن التكرار، هو أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة باللفظ والمعنى، والمراد بذلك تأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل، أو الوعيد أو الإنكار أو التوبيخ أو الاستبعاد أو الغرض من الاغراض.

فأما ما جاء منه للذم فكقول مهلهل بن ربيعة أخي كليب:

يـا لبكـر أنشـروا لي كـليبـاً يـا لبكـر أيـن أين الـفـرار[1]

وأما ما جاء منه للمدح فكقول كثيّر في عمر بن عبد العزيز:

فـأربـح بهـا من صفقـة لمبـايـع وأعظم بها وأعظم بها ثم أعـظم

وكقول أبي تمام:

بـالصريـح الصريـح والأروع الأر وع مـنهـم بـالـلبـاب الـلبـاب

وأما ما جاء منه للتهويل فكقوله تعالى: ﴿القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة﴾[2] وكقوله: ﴿الحاقة * ما الحاقة﴾[3].

(١) أنشروا: من النشر وهو الإحياء بعد الموت.

(٢) القارعة، ١٠١/١ - ٣.

(٣) الحاقة، ٦٩/١و٢.

وأما ما جاء منه للإنكار والتوبيخ، فهو تكرار قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[1] فإن الرحمن جل جلاله ما عدد آلاءه هنا إلا ليبكت[2] بها من أنكرها، على سبيل التقريع والتوبيخ، كما يبكت منكر أيادي المنعم عليه من الناس بتعديدها له.

وأما ما جاء منه للاستبعاد فكقوله تعالى: ﴿هيهات هيهات لما توعدون﴾[3].

وأما ما جاء منه في النسيب، وهو في غاية اللطف، فقول بعضهم:

يقلن وقد قيل إني هجعت ... عسى أن يلم بروحي الخيال[4]
حقيق حقيق وجدت السلو ... فقلت لهن محال محال

وألطف منه قول القاضي[5]:

ماذا تقول اللواحي ضل سعيهم ... وما تقول الأعادي زاد معناه[6]
هل غير أني أهواه وقد صدقوا ... نعم نعم أنا أهواه وأهواه

وما أحلى ما قال بعده:

حسب البرية أجراً فضل رؤيته ... فما رُئي قط إلا سُبِّح الله

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي، في بديعيته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

الطاهر الشيم ابن الطاهر الشيم ابـ ... ـن الطاهر الشيم ابن الطاهر الشيم[7]

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعيته:

تكرار مدحي هدى في الشامل النعم ابـ ... ـن الشامل النعم ابن الشامل النعم

وبيت بديعيتي:

كررت مدحي حلا في الزائد الكرم ابـ ... ـن الزائد الكرم ابن الزائد الكرم

---

(1) الرحمن، ٥٥/٣٦ - والآلاء: النِّعم، واحدتها إليٌ وهي النعمة.

(2) بكَّت: عنَّف، أي قرّع ووبخ.

(3) المؤمنون، ٢٣/٣٦.

(4) هجع: رقد ونام.

(5) هو القاضي الأرجاني.

(6) اللواحي: جمع مفرده لاحية وهي اللائمة.

(7) الشيم: صاحب الأخلاق العالية والخصال الحميده.

كاد بيت الشيخ صفي الدين، وبيت الشيخ عز الدين، وبيت بديعيتي أن يكونوا بيتاً واحداً لمناسبة التركيب، وإن كان بيت الشيخ صفي الدين مميزاً بزيادة واحدة في التكرار، فقد جاء موضعها التورية في تسمية النوع كما قيل: وأين الثريا من يد المتناول. والذي يظهر أن مكرر بيتي حلاوته ظاهرة على بيت الشيخ عز الدين، فإن مكرره ناقص الحلاوة، والله تعالى أعلم.

ذكر المذهب الكلامي

ومـــذهبي في كـلامي أنَّ بعثتــه   لو لم تكن ما تميزنا على الأمم

المذهب الكلامي نوع كبير نسبت تسميته إلى الجاحظ، وهو في الاصطلاح: أن يأتي البليغ على صحة دعواه، وإبطال دعوى خصمه، بحجة قاطعة عقلية تصح نسبتها إلى علم الكلام، إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة.

وقيل: إن ابن المعتز قال: لا أعلم ذلك في القرآن، أعني المذهب الكلامي، وليس عدم علمه مانعاً علم غيره، ولم يستشهد على المذهب الكلامي بأعظم من شواهد القرآن، وأوضح الأدلة في شواهد هذا النوع، وأبلغها قوله تعالى: ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾[1]. هذا دليل قاطع على وحدانيته جل جلاله، وتمام الدليل أن تقول: لكنهما لم تفسدا فليس فيهما آلهة غير الله. ومنه قوله ﷺ: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً. وتمام الدليل أن يقال لكنكم ضحكتم كثيراً وبكيتم قليلاً، فلم تعلموا ما أعلم، فهذان قياسان شرطيان من كلام الله وكلام نبيه عليه الصلاة والسلام، ومثله قول مالك بن المرجل الأندلسي:

لو يكون الحب وصلاً كله   لم تكن غـايتـه إلا الملل
أو يكون الحب هجراً كله   لم تكن غايته إلا الأجـل
إنما الوصل كمثل الماء لا   يستطاب الماء إلا بالعلل[2]

فالبيتان الأولان قياس شرطي، والثالث قياس فقهي، فإنه قاس الوصل على الماء،

(١) الأنبياء، ٢١/٢٢.

(٢) العلل: الشربة الأولى، والنهل: الشربة الثانية.

فكما أن الماء لا يستطاب إلا بعد العطش، فالوصل مثله لا يستطاب إلا بعد حرارة الهجر. وأما الأقيسة الحملية فقد استنبطوها على صور، منها ما يروى أن أبا دلف قصده شاعر تميمي، فقال له: ممن أنت؟ فقال: من تميم. فقال أبو دلف:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ... ولو سلكت سبل الهداية ضلت[1]

فقال له التميمي: نعم بتلك الهداية جئت إليك. فأفحمه بدليل حملي ألزمه فيه أن المجيء إليه ضلال.

ولعمري، إن القياس الشرطي أوضح دلالة في هذا الباب من غيره، وأعذب في الذوق وأسهل في التركيب، فإنه جملة واقعة بعد لو وجوابها، وهذه الجملة، على اصطلاحهم، مقدمة شرطية متصلة يستدل بها على ما تقدم من الحكم، وعلى هذه الطريقة نظمت بيت البديعية، وكذلك العميان، ويأتي ذلك في موضعه، فبيت بديعية الشيخ صفي الدين الحلي:

كم بين من أقسم الله العلي به ... وبين من جاء باسم الله في القسم

بيت الشيخ صفي الدين الحلي ليس لنور المذهب الكلامي فيه إشراق، ولكنه ملحق بالأقيسة الحملية.

وبيت العميان قد تقدم أنه من الأقيسة الشرطية، وهو قولهم في مديح النبي ﷺ:

لو لم تحط كفه بالبحر ما شملت ... كل الأنام وأروت قلب كل ظمي

جملة هذا البيت هي الجملة الواقعة بعد لو وجوابها، فإنهم استدلوا بها على ما تقدم من الحكم: وهو أن كفه ﷺ محيط بالبحر، وبيان صحة ذلك أنها بلغت أن تشمل كل الأنام وتعمهم بالري، وهذا دليل واضح على أنها محيطة بالبحر.

وقد تعين أن أقدم بيت بديعيتي هنا على بيت الشيخ عز الدين، وأفرط سبحة الترتيب لوجهين: أحدهما، أن بيتي وبيت العميان أقرا ببهجة هذا النوع في مطلع واحد، وهو القياس الشرطي، والثاني، أن الشيخ عز الدين لم يتمسك في المذهب الكلامي إلا بالقول الضعيف، وبيت بديعيتي، أقول فيه عن النبي ﷺ:

ومذهبي في كلامي أن بعثته ... لو لم تكن ما تميزنا على الأمم

---

(1) القطا: الحمام الزاجل وكان يستعمل لنقل الرسائل، ومن هنا يضرب به المثل في معرفة الطرق.

دليل هذا القياس الشرطي، في بعثة النبي ﷺ، وأن هذه الأمة تميزت بها على سائر الأمم، أوضح من النهار الذي لم يحتج عند ظهوره إلى إقامة دليل. وبيت الشيخ عز الدين، في بديعيته قوله:

بمذهب من كلام الله ينسخ شر ع الأوّلين ببشرى من كلامهم[1]

كأن الشيخ عز الدين غفر الله له يقول عن النبي ﷺ: إنه بمذهب من كلام الله أي القرآن ينسخ شرع الأولين، وكأنه جعل حجته القاطعة في المذهب الكلامي، والله أعلم قوله: ببشرى من كلامهم، أي من كلام الأولين. ولم أرَ في هذا البيت للمذهب كلاما ولا للكلام مذهباً غير ما ذكرته، وفوق كل ذي علم عليم.

(١) ينسخ: : يبطل الحكم، ومنه قوله تعالى: ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بأحسن منها أو مثلها﴾ البقرة، ٢/١٠٦.

ذكر المناسبة

فعلمــه وافـر والــزهـد نــاسبـه | وحلمه ظاهـر عن كل مجتـرم[1]

المناسبة، على ضربين: مناسبة في المعاني، ومناسبة في الألفاظ. فالمعنوية هي أن يبتدىء المتكلم بمعنى، ثم يتمم كلامه بما يناسبه معنى دون لفظ. وهذا النوع، أعني المناسبة المعنوية، كثير في الكتاب العزيز فمنه قوله تعالى: ﴿أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون * أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون﴾[2]. فانظر إلى قوله سبحانه وتعالى، في صدر الآية التي هي للموعظة: أولم يهد لهم، ولم يقل أولم يروا لأن الموعظة سمعية، وقد قال بعدها: أفلا يسمعون. وانظر كيف قال في صدر الآية التي موعظتها مرئية: أولم يروا، وقال بعد الموعظة البصرية أفلا يبصرون.

ومن أظرف ما أنقله هنا، من النقد اللطيف في هذا الباب، أن قاضي القضاة عماد الدين ابن القضامي، أخا شيخنا قاضي القضاة علاء الدين الحنفي نوَّر الله ضريحه، وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه، نظم قصيدة امتدح بها المقر المرحومي السيفي أرغون الأسعردي، كافل المملكة الشريفة الحموية، وعرضها قبل إنشادها للمدح على أخيه المشار إليه، فانتهى منها في المديح إلى بيت يقول فيه:

خبيـر بتـدبيـر الأمـور فمن يـرى | سوى ما يراه فهو في هذه أعمى

---

(١) المجترم: الآثم.

(٢) السجدة، ٣٢/٢٦ و ٢٧.

فقال له شيخنا قاضي القضاة علاء الدين: يجب أن تقول لأجل المناسبة المعنوية، موضع خبير بصير.

وقد عدوا من محاسن الأمثلة المعنوية قول أبي الطيب المتنبي:

على سابح موج المنايا بنحره ... غداة كان النبل في صدره وبل(١)

فإن بين لفظة السباحة ولفظتي الموج والوبل تناسباً معنوياً صار البيت به متلاحماً.

والذي عقد الناس عليه الخناصر، في هذا الباب، قول ابن رشيق القيرواني:

أصح وأقوى ما رويناه في الندا ... من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن جود الأمير تميم(٢)

قال زكي الدين بن أبي الأصبع: هذا أحسن شعر سمعته في المناسبة المعنوية، فإنه وفى المناسبة حقها، وناسب في البيت الأول بين الصحة والقوة والرواية والخبر المأثور، وناسب في البيت الثاني بين الأحاديث والرواية والعنعنة، هذا مع صحة ترتيب العنعنة، من حيث أنها جاءت صاغراً عن كابر، وآخراً عن أول، كما يقع في سند الأحاديث، لأن السيول فرع الحيا أصله، وكذلك الحيا فرع البحر أصله، ثم نزل البحر منزلة الفرع، وجود الممدوح منزلة الأصل للمبالغة في المدح، وهذا غاية الغايات في هذا الباب.

أقول: إنني زاحمت ابن رشيق القيرواني هنا بالمناكب، وأبطلت موانع التعقيد لما دخلت معه إلى هذه المطالب، وما ذاك إلا أنني امتدحت شيخي المشار إليه أولاً، مولانا قاضي القضاة ابن القضامي الحنفي بموشح بيت مخلصه تحفة في هذا الباب، لأن مناسباته المعنوية رفعت عن محاسنها الحجاب، وهو:

رقم السوالف يروي لي بمسنده ... عن رقتي حيهم يا طيب مورده
وثغرها قد روى لي قبل ما احتجبت ... عن برق ذاك النقا أيام معهده(٣)
والريق أمسى عن المبرد ... يروي حديث العذيب مسند
عن الصفا عن مذاق الشهد والعسل ... عن ذوق سيدنا قاضي القضاة علي

---

(١) الوبل: الوابل الغزير الانصباب.

(٢) الحيا: المطر والخصب.

(٣) النقا: ترخيم نقاء.

وقد حبست عنان القلم عن الاستطراد إلى وصف محاسن هذا البيت، ومناسباته المعنوية، فإن برهانه غير محتاج إلى إقامة دليل. وهذا الموشح نظمته بحماة المحروسة، في مبادي العمر ورياحين الشبيبة غضة. ولما طلبت إلى الأبواب الشريفة المؤيدية، سنة خمس عشرة وثمانمائة، ووصلت إلى الديار المصرية في التاريخ المذكور، وجدته ملحناً وأهل مصر يلهجون به ويتلحينه كثيراً، فتعين علي أن أثبت هنا منه شيئاً، ليحلو تكريره بمصر وتعرف رتبة قوافيه، لأجل بيت المخلص الذي أوردته مثالاً على نوع المناسبة المعنوية. فمن غزل الموشح المذكور:

ماست بقامتها يوماً بذي سلم	والشعر كالعلم المنشور للأمم
فقلت يا قلب أعلام الهنا نصبت	ها أنت تخطر بين البان والعلم
وأسود الخال مذ تبدّى	في خدها همت فيه وجدا
قالت وطلعتها كالشمس في الحمل	في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل
سألتها برد ما عندي من الكمد	وقلت نار الجوى قد أضعفت جلدي(١)
قالت بريقي أطفئها إذا التهبت	يا برد ذاك الذي قالت على كبدي
وغرقتني بدمع طرفي	وقالت اسمع كفيت خلفي(٢)
ألم تخف بللاً ناديت يا أملي	أنا الغريق فما خوفي من البلل

منه:

بالله يا برق إن أومضت في الثغر	وحارس اللحظ في شك من الخبر
قف بالثنيات واذكرني إذا عذبت	تلك النهيلات للوراد في السحر
وارسل عليل النسيم خلفي	فإنه قوة لضعفي
عسى تصحح جسماً بالفراق بلي	وربما صحت الأجسام بالعلل

منه:

إنسان مقلتها لما رأى كلفي	بسيفه قد أقام الحدَّ في تلفي(٣)
فمت بالسيف قهراً والحشا نهبت	لكنني عند موتي مذ قرى شغفي(٤)
ناديته والدموع طوفان	وقلت هذا فعال إنسان
إلام تعجل في قتلي بلا زلل	فقال لي خلق الإنسان من عجل

---

(١) الكمد: الحزن المكبوت ـ الجلد: الإصطبار.

(٢) خلفي: ما ورائي أو إخلافي بالوعد.

(٣) انسان المقلة: هو إنسان العين وهو النقطه في وسط سواد العين أو البؤبؤ ـ التلف: الموت.

(٤) قرى: إقراء، أطعم الضيوف.

وقد طال الشرح وخرجنا عما كنا فيه، من المناسبة المعنوية وحسن ختامها، بما أوردناه من كلام ابن رشيق القيرواني، والبيت الذي أوردته من هذا الموشح. وأما المناسبة اللفظية، وهي دون رتبة المعنوية، فهي الإتيان بكلمات متزنات، وهي على ضربين: تامة، وغير تامة. فالتامة أن تكون الكلمات، مع الاتزان، مقفاة والناقصة موزونة غير مقفاة. فمن شواهد التامة قوله سبحانه وتعالى: **﴿ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون * وإن لك لأجراً غير ممنون﴾**[1] ومن شواهده التامة في السنة الشريفة، قول النبي ﷺ، مما كان يرقي به الحسنين[2]، عليهما السلام: أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامّه، ومن كل عين لامه، ولم يقل عليه السلام: ملمة، وهي القياس لمكان المناسبة اللفظية. ومن أمثلة المناسبتين، الناقصة والتامة، قول أبي تمام حبيب بن أوس:

مها الوحش إلا أن هاتا أوانس   قنا الخط إلا أن تلك ذوابل[3]

فناسب بين مها وقنا مناسبة تامة، وبين الوحش والخط، وأوانس وذوابل، مناسبة غير تامة.

قال زكي الدين بن أبي الأصبع: هذا البيت من أفضل بيوت المناسبة، لما انضم إليه فيها من المحاسن، فإن فيه مع المناسبتين، التشبيه بغير أداة والمساواة والاستثناء، والطباق اللفظي. والائتلاف اللفظ مع المعنى والتمكين، فأما المناسبة فيه فقد عرفت، وأما التشبيه ففي قوله: مها وقنا، فإن التقدير: كمها، وكقنا، وحذف الأداة ليدل على قرب المشبه من المشبه به، وأما الاستثناء البديعي ففي قوله: إلا أن هاتا أوانس، وقوله: إلا أن تلك ذوابل، ليثبت للموصوفات التأنيس، وينفي عنهن النفار والتوحش، وكذلك فعل في الاستثناء الثاني، فإنه أثبت لهن اللين ونفى عنهن اليبس والصلابة. وأما المطابقة، ففي قوله: الوحش وأوانس، وهاتا وتلك، فإن هاتا للقريب وتلك للبعيد، وأما المساواة فلفظ البيت لا يفضل عن معناه ولا يقصر عنه. وأما الائتلاف، فلكون ألفاظه من واد واحد، متوسطة بين الغرابة والاستعمال، وكل لفظة منها لائقة بمعناها لا يكاد يصلح موضعها غيرها. وأما التمكين فاستقرار قافية البيت في موضعها وعدم نفارها عن محلها. انتهى الكلام على المناسبة اللفظية والمعنوية، وتقرير التامة والناقصة من اللفظية. فبيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

مؤيد العزم والأبطال في قلق   مؤمل الصفح والهيجاء في ضرم

---

(١) القلم، ٦٨/١ ـ ٣.

(٢) الحسنين: هما الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء عليهما السلام.

(٣) أوانس: جمع مفردها آنسة وهي الفتاة ما لم تتزوج ـ قنا الخط: الرماح الخطية.

الشيخ صفي الدين لم يحتج في بيته إلى المناسبة المعنوية، بل أتى باللفظية. وعجبت منه كيف رضي لنفسه بقول القائل:

إذا كنت ما تدري سوى الوزن وحده فقل أنا وزان وما أنا شاعر

وليته أتى بالمناسبة اللفظية تامة، فإنه في عالم الإطلاق غير مقيد بتسمية، ومناسبته اللفظية الناقصة ظاهرة، فقوله: مؤيد العزم، في وزن مؤمل الصفح، وقوله: والأبطال في قلق موازن والهيجاء في ضرم.

ولم ينظم العميان هذا النوع، وبيت الشيخ عز الدين الموصلي يقول فيه، عن النبي ﷺ:

ألم تر الجود يجري في يديه ألم تسمع مناسبة في قوله نعم

الشيخ عز الدين غفر الله له لم يثبت له مع المناسبة المعنوية واللفظية نسبة، ولكنه قال لمن يخاطبه: ألم تر الجود يجري من أيادي النبي ﷺ؟ ألم تسمع مناسبة من لفظ نعم؟ ولفظ الشيخ عز الدين الموضوع في بيته ليس فيه مناسبة لفظية أتى فيها بوزن وقافية، ولا مناسبة معنوية ابتدأ فيها بمعنى، وتمم كلامه بما يناسبه.

وبيت بديعيتي، أقول فيه عن النبي ﷺ:

فعلمه وافر والزهد ناسبه وحلمه ظاهر عن كل مجترم

هذا البيت جمعت فيه، ببركة ممدوحه ﷺ، بين المناسبة المعنوية واللفظية التامة المشتملة على الوزن والتقفية. فقولي: علمه يناسبه حلمه، وزنا وقافية، ووافر مثله ظاهر، وزناً وقافية، والمناسبة المعنوية ابتدأ بها، في أوَّل الشطر الثاني من البيت بذكر الحلم، ثم تممت كلامي بقولي: عن كل مجترم، فحصلت المناسبة المعنوية بين الحلم، وذكر الاجترام الذي هو الذنب مع تمكين القافية، فإنه قيل عن المأمون إنه كان يقول: لو علم الناس محبتي للعفو لتقربوا إليَّ بالجرائم، وهذه هي المناسبة المعنوية بعينها، ولكن النبي ﷺ أحق بهذا المدح وأولى بهذه الصفات.

ذكر التوشيع

وشع العدل منه الأرض فانشحت بحلة الأمجدين العهد والذمم

التوشيع: مأخوذ من الوشيعة وهي الطريقة الواحدة في البرد المطلق، فكأن الشاعر أهمل البيت إلا آخره، فإنه أتى فيه بطريقة تعد من المحاسن، وهو عند أهل هذه الصناعة عبارة عن أن يتكلم المتكلم أو الشاعر باسم مثنى في حشو العجز، يأتي بعده باسمين مفردين هما عين ذلك المثنى، يكون الأخر منهما قافية بيته أو سجعة كلامه، كأنهما تفسير له. وقد جاء من ذلك في السنة الشريفة ما لا يلحق بلاغته، وهو قوله ﷺ: يشيب المرء وتشب معه خصلتان: الحرص وطول الأمل، ومن أمثلة هذا الباب في النظم قول الشاعر:

أمسي وأصبح من تذكاركم وصبا يرثي لي المشفقان الأهل والولد(١)
قد خدد الدمع خدّي من تذكركم واعتادني المضنيان الوجد والكمد
وغاب عن مقلتي نومي لغيبتكم وخانني المسعدان الصبر والجلد
لا غرو للدمع أن تجري غواربه وتحته المؤلمان القلب والكبد(٢)
كأنما مهجتي شلو بمسبعة ينتابها الضاريان الذئب والأسد(٣)
لم يبق غير خفي الروح في جسدي فدى لك الباقيان الروح والجسد

هذه الأبيات عامرة بالمحاسن، في هذا الباب، غير أن أهل النقد الصحيح ما سكتوا عن تقصيره في البيت الأول، حيث قال فيه: يرثي لي المشفقان الأهل والولد. فإن

---

(١) الوصب: التعب والمرض.

(٢) غوارب الدمع: أوائله.

(٣) الشلو: بقية الجسد - المسبعة: مكان وجود السباع- الضاريان: المفترسان.

شفقة الأهل والولد معروفة، والمشفق إذا رثى لشكوى أهله، أو الولد إذا رثى لشكوى والده، كان ذلك تحصيل الحاصل، والمراد هنا أن يقول رثى لي العدو، ورق لي الصخر وأشباه ذلك.

قال ابن أبي الأصبع: وما بشعر قلته هنا من بأس:

بي محنتان ملام في هـوى بهما يرثي لي القاسيان الحب والحجر
لـولا الشفيقـان من أمنيـة وأسى أودى بي المرديان الشوق والفكر[1]

رأيت في حاشية، على هذين البيتين بخط رفيع: رحم الله الشيخ، لو قال: الشوق والسهر، كان أتم وأحسن. وبيت الشيخ صفي الدين في هذا الباب غاية، فإنه يقول في وصف النبي ﷺ:

أمـيٌّ خطٍ أبـان الله مـعـجـزه بـطاعـة المـاضيين السيف والقلم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم، وبيت الشيخ عز الدين الموصلي رحمه الله:

ومن عـطايـاه روض وشعتـه يـد تغني عن الأجودين البحر والديم[2]

الشيخ عز الدين أتى بالتوشيع على الوضع، ولكنه شن الغارة على ابن الرومي، وفك قواعد بيته، وهو:

أبـو سليمان إن جـادت لنـا يـده لم يحمد الأجودان البحر والمطر

أخذ الأجودين والبحر، وورادف المطر بالديم. وهذا ما يليق بأهل الأدب.

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

ووشع العدل منه الأرض فاتشحت بحلة الأمجـدين العهـد والـذمم

وأنا على مذهب زكي الدين بن أبي الأصبع في قوله: وما بشعر قلته هنا من بأس. انتهى.

(١) الأسى: الحزن ـ المردي: المميت.
(٢) وشّع: وشى وزخرف ـ الديم: الغيوم الممطرة.

ذكر التكميل

آدابه تممت لا نقص يدخلها   والوجه تكميله في غاية العظم

التكميل: هو أن يأتي المتكلم، أو الشاعر، بمعنى تام، من مدح أو ذم أو وصف أو غيره من الأغراض الشعرية وفنونها، ثم يرى الاقتصار على الوصف بذلك المعنى فقط غير كامل، فيأتي بمعنى آخر يزيده تكميلاً، كمن أراد مدح إنسان بالشجاعة، ثم رأى الاقتصار عليها دون مدحه بالكرم غير كامل فيكمله بذكر الكرم، أو بالبأس دون الحلم وما أشبه ذلك من الأغراض. وقد جاء منه في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿**فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين**﴾[1] فانظر إلى هذه البلاغة، فإنه سبحانه وتعالى علم وهو أعلم أنه لو اقتصر على وصفهم بالذلة للمؤمنين، لكان مدحاً تاماً مشتملاً على الرياضة والانقياد لإخوانهم، ولكن زاده تكميلاً ووصفهم، بعد ذلتهم لإخوانهم المؤمنين، بالعزة على الكافرين، وهذا هو التكميل الذي يتطفل البدر على كماله. ومثاله، في الشعر، قول كعب بن سعيد الغنوي:

حليم إذا ما الحلم زين أهله   مع الحلم في عين العدوّ مهيب[2]

قوله: إذا ما الحلم زين أهله، احتراس لولاه لكان المعنى في المدح مدخولاً، إذ بعض التغاضي قد يكون عن عجز يوهم أنه حلم، فإن التجاوز لا يكون حلماً محققاً إلا عن قدرة، وهو الذي قصده الشاعر بقوله: إذا ما الحلم زين أهله. فإن الحلم ما يزين

---

(١) المائدة، ٥/٥٤.

(٢) مهيب: : مهاب أو ذو هيبة.

أهله إلا إذا كان عن قدرة، وهذا القدر غاية في باب التكميل، ثم رأى أن مدحه بالحلم وحده غير كامل، فإنه إذا لم يعرف منه إلا الحلم طمع فيه عدوّه، فقال مع الحلم في عين العدو مهيب، قلت ومما يؤيد هذا التقرير قول الشاعر:

وحلم ذي العجـز أنت عـارفـه والحلم عن قدرة ضرب من الكرم

ومن التكميل الحسن قول كثير عزة:

لو أن عزة خاصمت شمس الضحى في الحسن عند موفق لقضى لها[1]

فقوله: عند موفق تكميل حسن، فإنه لو قال عند محكم لتم المعنى، لكن في قوله: عند موفق زيادة تكميل بها حسن البيت والسامع يجد لهذه اللفظة من الموقع الحلو في النفس ما ليس للأولى، إذ ليس كل محكم موفقاً فإن الموفق من الحكام من قضى بالحق لأهله.

وقد غلط غالب المؤلفين في هذا الباب، وخلطوا التكميل بالتتميم، وساقوا في باب التتميم شواهد التكميل، فمن ذلك قول عوف السعدي:

إن الثمـانين وبلغتهـا قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

هذا البيت ساقوه من شواهد التتميم، وهو أبلغ شواهد التكميل، فإن معنى البيت تام بدون لفظة وبلغتها، وإذا لم يكن المعنى ناقصاً فكيف يسمى هذا تتميماً، وإنما هو تكميل حسن.

قال ابن أبي الأصبع وما غلطهم إلا أنهم لم يفرقوا بين تتميم الألفاظ، وتتميم المعاني، فلو سمي مثل هذا تتميماً للوزن، لكان قريباً، ولما[2] ساقوه على أنه من تتميم المعاني، وهذا غلط، والفرق بين التتميم والتكميل، أن التتميم يرد على المعنى الناقص فيتممه، والتكميل يرد على المعنى التام فيكمله، إذ الكمال أمر زائد على التمام وقد تقدَّم هذا الكلام على التتميم في موضعه، ولكن أردت هنا تفصيل التكميل عن التتميم، لتنجلي عن الطالب ظلمة الاشكال بصبح هذا الفرق الدقيق، ومن أحسن التكميل قول شاعر الحماسة:

لو قيل للمجد خذ عنهم وخلهم بما احتكمت من الدنيا لما حادا

---

(١) الموفق: المصيب أو الموفق إلى الحق.

(٢) في الأصل: ولفا وما أثبتناه هو الصحيح.

فقوله: بما احتكمت من الدنيا، تكميل في غاية الكمال. ويعجبني، من هذا الباب، قول الشيخ جمال الدين بن نباته في بعض مطالعه المقمرة:

نفس عن الحب ما حادت ولا غفلت ... بأي ذنب وقاك الله قد قتلت

معنى بيت الشيخ جمال الدين أيضاً تام، بدون قوله وقاك الله، ولكن التكميل بوقاك الله قبل قتلت لا يصدر إلا من مثل الشيخ جمال الدين، وما أحقه هنا بقول القائل:

قالوا فهل يسمح الدهر الكريم لنا ... بمثله قلت لا والله قد حلفا

ومثله قولي في مطلع قصيدة:

قد مال غصن النقا عن صبه هيفا ... يا ليته بنسيم العتب لو عطفا

معنى البيت تام، بدون نسيم العتب، ولكن استعارة نسيم العتب هنا بعد ميل الغصن وذكر انعطافه غاية في باب التكميل، وفيه مع التكميل المناسبة المعنوية والاستعارة اللطيفة، وناهيك بلطف نسيم العتب، وفيه التمكين والانسجام، ومثله قولي في مطلع قصيدة:

جردت سيف اللحظ عند تهددي ... يا قاتلي فسلبتني بمجرَّد

معنى البيت تام، بدون قولي يا قاتلي، وقولي يا قاتلي بعد تجريد سيف اللحظ أكمل من بدور الكمال، وقلت، بعد المطلع، ولم أخرج عن التكميل:

وأردت أن تسقى بماء حشاشتي ... حاشاك ما يسقى الصقيل من الصدي(1)

معنى البيت أيضاً تام، بدون قولي حاشاك، ولكنها زادت البيت تكميلاً رفعت به قواعده، ومثله قولي من قصيدة:

وأفردتموني للغرام لأنكم ... أخذتم كما شاء الهوى بمجامعي(2)

معنى البيت تام، بدون قولي كما شاء الهوى، ولكن التكميل بها تكملت به محاسن البيت، ومثله قولي من قصيدة:

أذابت القلب في نار الهوى عبثاً ... ومذ سلته وقالت إنه قالي(3)
قالت سلوت لحاك الله قلت لها ... الله أعلم يا أسما من السالي(4)

---

(1) الحشاشه: الروح ـ الصقيل: من صفات السيف وهو المسنون ـ الصدي: العطشان أو الذي يعلوه الصدأ.
(2) أخذ بمجامعه: سيطر عليه تماماً.
(3) قالي: كاره هاجر.
(4) لحاك الله: دعاء عليه بمعنى غضب الله عليك ـ أسما: ترخيم أسماء ـ السالي: الناسي.

فلفظة عبثا في البيت الأول، تكميلها ظاهر ولكن لحى الله من لا ينظر إلى محاسن لحاك الله في البيت الثاني. ومثله قولي من قصيدة:

ورب غصن لأطيار القلوب على ... قوامه في رياض الوجد تغريد

والمعنى أيضاً تام في هذا البيت، بدون قولي في رياض الوجد، ولكن مناسبة التكميل برياض الوجد بين الغصن والأطيار والتغريد، غاية في هذا الباب.

وقد طال الشرح، ولكن مثل التكميل ما ينقص من قدره، ويختصر من أمثلته، وبيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته:

نفس مؤيدة بالحق تعضدها ... عناية صدرت عن بارىء النسم[1]

بيت الشيخ صفي الدين لم يظهر لبدور التكميل في أفقه إشراق، ومعنى البيت تام ولكن لم يأت فيه الناظم بنكتة تزيده تكميلاً. والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم، وبيت الشيخ عز الدين في بديعيته:

تمت محاسنه والله كمله ... فقدره في الورى في غاية العظم[2]

بيت الشيخ عز الدين أمثل من بيت الشيخ صفي الدين، وتكميله ظاهر فإن معنى بيته تام، بدون قوله والله كمله، ولكن قوله هنا والله كمله في غاية الكمال، فإنها اشتملت على تورية التسمية ونكتة النوع وبيت بديعيتي:

آدابه تممت لا نقص يدخلها ... والوجه تكميله في غاية العظم

معنى هذا البيت أيضاً تام، بدون قولي لا نقص يدخلها، ولكن هذا النقص هو عين التكميل، والله أعلم.

---

(١) آيد: قوّى - عضد: ساعد.

(٢) الورى: الناس.

ذكر التفريق

قالوا هو البدر والتفريق يظهر لي   في ذاك نقص وهذا كامل الشيم[1]

التفريق في اللغة ضد الاجتماع، وفي الاصطلاح أن يأتي المتكلم أو الناظم إلى شيئين من نوع واحد، فيوقع بينهما تبايناً وتفريقاً، بفرق يفيد زيادة وترجيحاً فيما هو بصدده من مدح أو ذم أو نسيب أو غيره من الأغراض الأدبية، كقول الشاعر في المديح:

ما نوال الغمام وقت ربيع   كنوال الأمير يوم سخاء
فنوال الأمير بدرة مال   ونوال الغمام قطرة ماء[2]

ومثله:

من قاس جدواك بالغمام فما   أنصف في الحكم بين شكلين
أنت إذا جدت ضاحك أبداً   وهو إذا جاد دامع العين

قال بدر الدين بن النحوية في غير المدح:

حسبت جماله بدراً منيراً   وأين البدر من ذاك الجمال

قلت: وأحسن منه قول القائل:

قاسوك بالغصن في التثني   قياس جهل بلا انتصاف
هذاك غصن الخلاف يدعى   وأنت غصن بلا خلاف[3]

---

(١) الشيم: الخصال الحميدة.

(٢) البدرة: الصرة.

(٣) الخلاف: شجر الصفصاف ـ وخلاف: مخالفة.

فالتفريق في الجميع فرقه ظاهر مثل الصبح، ولكن هذا النوع ما هو غاية في البديع، فما يحتمل إطلاق عنان القلم في الكلام عليه أكثر من ذلك، وبيت الشيخ صفي الدين الحلي، في بديعيته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

فجـود كفيـه لم تقلع سحـائبـه … عن العباد وجود السحب لم يدم

بيت الشيخ صفي الدين الحلي حسن، في هذا الباب، والتفريق فيه جمع المحاسن في مدح النبيّ ﷺ. وبيت العميان في بديعيتهم:

لا يستوي الغيث مع كفيه نائل ذا … مـاء ونـائله مال فـلا تهـم[1]

العميان، غفر الله لهم، مسخوا قول الشاعر:

مـا نـوال الغمـام وقت ربيـع … كنـوال الأميـر يـوم سـخـاء
فـنـوال الأمـيـر بـدرة مـال … ونـوال الـغـمـام قـطرة مـاء

والظاهر، أن نوال الغمام وقت الربيع محجب عن العميان، ولكن أين هم من موقع التفريق وعظم المباينة، بين بدرة المال وقطرة الماء، هذا مع ما تجشموه من مشاق التعقيد وثقل التركيب والجميع يخف على النفس بالنسبة إلى قولهم في القافية: فلاتهم. نعم ما يحط هذه[2] القافية هنا على هذه الصيغة من شم للأدب رائحة، وأين هم من تمكين قافية الشيخ صفي الدين في قوله:

فجـود كفيـه لم تقلع سحـائبـه … عن العباد وجود السحب لم يدم

وبيت الشيخ عز الدين الموصلي، في بديعيته، يقول فيه عن النبي ﷺ:

قـالوا هـو البحر والتفريق بينهما … إذ ذاك غم وهـذا فارج الغمم

بيت الشيخ عز الدين، في هذا الباب، عامر بالمحاسن وحشمة المديح النبوي مشرقة على أركانه، ونوع التفريق فيه أحلى من ليالي الوصال، فإنه مشتمل على تورية التسمية ونكتة النوع البديعي ولطف الانسجام والسهولة، وليس في بديعيته بيت يناظره في علو طباقه.

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

---

(1) تهم: تتوهم.
(2) في الأصل (هذا).

قالوا هو البدر والتفريق يظهر لي   في ذاك نقص وهذا كامل الشيم

قد أطلقت لسان القلم في وصف بيت الشيخ عز الدين، ولعمري إنه يستحق فوق ذلك فإن التكلف بتسمية النوع، موري به من جنس المديح، يثقل كاهل كل فحل. وقد حبست عنان القلم عن الاستطراد إلى وصف هذا البيت، فإن في إنصاف أهل الذوق ما يغني عن الإطناب في وصفه. انتهى.

ذكر التشطير

وانشق من أدب له بلا كذب　　شطرين في قسم تشطير ملتزم

التشطير: هو أن يقسم الشاعر بيته شطرين، ثم يصرّع كل شطر منهما، لكنه يأتي بكل شطر من بيته مخالفاً لقافية الآخر، كل شطر عن أخيه، فمن ذلك قول مسلم بن الوليد:

موف على مُهَج في يوم ذي رهج　　كأنه أجل يسعى إلى أمل(١)

هذا البيت تصريعه صحيح، ولكن تصريع الشطر الثاني قافيته الأولى مرفوعة والثانية مجرورة، وهذا عيب في تصريع التشطير، وقول أبي تمام في هذا الباب خالص من ذلك، وهو:

تدبير معتصم بالله منتقم　　لله مرتغب في الله مرتقب(٢)

وعلى جادته الواضحة مشى الشيخ صفي الدين الحلي، في بديعيته، وبيته:

بكل منتصرٍ للفتح منتظرٍ　　وكل معتزم بالحق ملتزم

والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم: وأنا أقول: يا ليتني كنت معهم، فإنه نوع مبني على قعاقع(٣) ليس تحتها طائل، ولكن الشروع في معارضة البديعيات أوجب نظمه، وبيت الشيخ عز الدين في بديعيته:

---

(١) المَهَج: النضرة ـ رَهَج: سحاب رقيق.

(٢) مرتعب: خائف ـ مرتقب: يراقب الله في أفعاله وأقواله.

(٣) القعاقع: الجلبة وكثرة الصوت.

تشـطير معتـدل بـالسيف مشتمـل   في جحفل لهم كالأسد في الأجم[1]

وبيت بديعيتي أشير فيه إلى انشقاق القمر، في مديح النبي ﷺ، وتقدم قولي في نوع التفريق:

قالوا هو البدر والتفريق يظهر لي   في ذاك نقص وهذا كامل الشيم

وقلت بعده في التشطير:

وانشق من أدب لـه بـلا كـذب   شـطرين في قسم تشطيـر ملتـزم

كان الشيخ صفي الدين الحلي يكثر من هذا النوع في غالب قصائده، ولعمري إنه استسمن ذا ورم، وما خطر لي يوماً أنني أدخله إلى بيت من بيوت قصائدي. انتهى.

---

(١) اشتمل بالسيف: تقلده ـ الجحفل: الجيش الكبير. الأجـم: جمع مفرده أجمة: وهي مكان ملتف الأشجار.

ذكر التشبيه

والبدر في التم كالعرجون صار له　　　فقل لهم يتركوا تشبيه بـدرهم[١]

التشبيه: ضروب متشعبة، وهو والاستعارة يُخرجان الأغمض إلى الأوضح، ويقربان البعيد، وقال الجرجاني: التشبيه والتكميل كل منهما بالصورة والصفة، وتارة بالحالة، وهذه صفة التمثيل. والتشبيه ركن من أركان البلاغة، وأركانه أربعة، كقولك: زيد في الحسن كالقمر، فالأول المشبه وهو زيد، والثاني المشبه به وهو القمر، والثالث المشبه وهو المتكلم، والرابع التشبيه وهو الإلحاق المذكور في الشبه، وأدوات التشبيه خمسة: الكـاف وكأن وشبـه ومثل والمصـدر بتقديـر الأداة، كقولـه تعـالى: ﴿وهي تمرّ مرّ السحاب﴾[٢] ومن الشعر كقول حسان:

بـزجاجـة رقصت بما في قعـرها　　　رقص القلوص براكب مستعجل[٣]

ومن الشروط اللازمة في التشبيه أن يشبه البليغ الأدون بالأعلى، إذا أراد المدح اللَّهمَّ إلا إذا أراد الهجو، فالبلاغة أن يشبه الأعلى بالأدون، كقول ابن الرومي، سامحه الله، في هجو الورد:

كـأنه سـرم بغـل حين سكـرجـه　　　عند البراز وباقي الروث في وسطه[٤]

---

(١) العرجون: ما يحمل التمر، وهو من النخل كالعنقود مـن العنب ووجه الشـبه اللون الذهبي.

(٢) النمل، ٢٧/٨٨.

(٣) القلوص: من الإبل: الفتية القوية.

(٤) السُـرم: طرف المعي الغليظ المستقيم أو فتحة إخراج الفضلات من الجسم ـ سَكْرَجَ: لم نعثر على معنى لهذه اللفظة في ما بين أيدينا ونظنها من السكرجة، وهي إناء صغير مستدير: فيكون سكرج: جعله مستديراً كالسكرجة ـ البراز: إخراج الفضلات ـ الروث: فضلات الحيوان.

الظاهر أنه كان جعلياً، وإلا مثله ما يخالف الإجماع ويبالغ في مثل هذه المغايرة، ولعمري إنه في بابه من التشابيه البليغة، مع نفور الطباع عن صيغته. ومثله قول أبي العلاء السروي، في هجو النرجس وتشبيه أعلاه بدونه:

كـراثـة ركبـت عـليـهـا صفرة بيض على رقاقه[1]

وأصحاب المعاني والبيان أطلقوا أعنة الكلام في ميادين حدود التشبيه وتقاريرها، وهو عندهم الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى.

وقال الرماني التشبيه: هو العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حال، وهذا هو التشبيه العام الذي يدخل تحته التشبيه البليغ وغيره والتشبيه البليغ هو إخراج الأغمض إلى الأوضح، مع حسن التأليف. ومنهم من قال: التشبيه هو الدلالة على اشتراك شيئين في وصف هو من أوصاف الشيء الواحد.

وقال ابن رشيق، في العمدة: التشبيه صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية كان إياه، ألا ترى إلى قولهم: خد كالورد إنما مرادهم احمرار أوراقه وطراوتها لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه وخضرة كمائمه. انتهى حد ابن رشيق.

وقيل: التشبيه إلحاق أدنى الشيئين بأعلاهما في صفة اشتركا في أصلها، واختلفا في كيفيتها قوة وضعفا. قلت: وهذا حد مفيد.

وأورد ابن أبي الأصبع في كتابه تحرير التحبير، للرماني حداً زاد في حسنه على الحد، وهو أن التشبيه تشبيهان: الأول منهما، تشبيه شيئين متفقين بأنفسهما، كتشبيه الجوهر بالجوهر، مثل قولك: ماء النيل كماء الفرات، وتشبيه العرض بالعرض، كقولك: حمرة الخد كحمرة الورد، وتشبيه الجسم بالجسم، كقولك: الزبرجد مثل الزمرد. والثاني، تشبيه شيئين مختلفين بالذات لجمعهما معنى واحداً مشتركاً، كقولك: حاتم كالغمام، وعنترة كالضرغام. وتشبيه الاتفاق، وهو الأول، تشبيه حقيقي، وتشبيه الاختلاف، وهو الثاني، تشبيه مجازي، والمراد المبالغة، انتهى.

ووقوع حسن البيان والمبالغة في التشبيه على وجوه: منها، إخراج ما لا تقع عليه

---

(١) الكراثة: واحدة الكراث وهو نبات بري طعمه شبيه بطعم الثوم والرقاقة: واحدة الرقاق وهو الخبز المنبسط الرقيق(خبز الصباح)أو الأرض اللينة المنبسطة.

الحاسة، إلى ما تقع عليه الحاسة، وقد عنَّ لي أن أوضح هنا للطالب، ما وقع من النظم البديع، من تشبيه المحسوس بالمحسوس، وتشبيه المعقول بالمعقول، وتشبيه المعقول بالمحسوس وتشبيه المحسوس بالمعقول. وهذا القسم الرابع، عند أصحاب المعاني والبيان، غير جائز، ويأتي الكلام عليه في موضعه. وقد تعين تقديم ما وعدت به أولاً من تشبيه المحسوس بالمحسوس، فإن الذي تقع عليه الحاسة في التشبيه أوضح مما لا تقع عليه الحاسة، والشاهد أوضح من الغائب. وقال قدامة: أفضل التشبيه ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما، حتى يدلي بهما إلى الاتحاد. انتهى.

ولم يخطر لي أن أورد هنا من التشبيهات البديعية التي اخترتها أمثلة لهذا النوع، إلا ما خف على السمع وعذب في الذوق وارتاحت الأنفس إلى حسن صفاته، فإن التشابيه التي تقادم عهدها للعرب، رغب المولدون عنها فإنها، مع عقادة التركيب، لم تسفر عن بديع معنى، إلا ما قل وندر، فمن ذلك قول امرىء القيس:

وتعطو برخص غير شثن كأنه ... أساريع ظبي أو مساويك اسحل(1)

فغاية امرىء القيس هنا، أنه شبه أنامل محبوبته بأساريع، وهي دواب تكون في الرمل ظهورها ملس، وبمساويك اسحل والاسحل شجر له أغصان ناعمة، أين هذا من قول الراضي بالله في هذا الباب:

قالوا الرحيل فأنشبت أظفارها ... في خدها وقد اعتلقن خضابا(2)
فكأنها بأنامل من فضة ... غرست بأرض بفسج عنابا(3)

ومثله قول القائل:

قبلته فبكى وأعرض نافراً ... يذري المدامع من كحيل أدعج(4)
فكأن سقط الدمع من أجفانه ... لما بدا في خده المتضرج(5)
برد تساقط فوق ورد أحمر ... من نرجس فسقى رياض بنفسج

---

(1) تعطو: تتناول الشيء - برخص: أي بكف أو بنان. رخص أي طري ناعم - الشثن: السميك الغليظ، الأساريع: واحدها أسروع، أو يسروع وهو نوع من الدود الأبيض الأبدان الأحمر الرؤوس تشبه به الأصابع - الظبي: الغزال - المساويك: واحدها مسواك: وهو عود ليفي تنظف به الأسنان - الإسحل: شجر يشبه الأثل ينبت في منابت الأراك تستعمل أغصانه للاستياك.

(2) أنشب أظافره: غرزها - الخضاب: الحناء والصباغ ذي اللون البني الذي يميل إلى الأحمر.

(٤) العناب: نوع من الثمر شبيه بثمر الزيتون، حلو الطعام لونه كلون الخضاب عند النضج.

(٤) الأدعج: الذي في عينيه دعج، والدعج هو شدة سواد سواد العين وشدة بياض بياضها مع اتساعها.

(5) المتضرج: المشرب حمرة.

أنظر أيها المتأمل، إلى هذه التشابيه التي يرشفها السمع مداماً، وتهيم الأذواق السليمة في محاسنها غراماً، ومن ذلك قول ابن حاجب النعمان:

ثغر وخدّ ونهد واحمرار يد | كالطلع والورد والرمان والبلح(١)

ومثله قول ابن رشيق:

بفرع ووجه وقد وردف | كليل وبدر وغصن وحقف(٢)

المراد هنا من حسن التشبيه وبليغه غير كثرة العدد في الصفات، فإن قاضي القضاة نجم الدين بن البارزي، نور الله ضريحه، وصل فيه من العدد إلى سبعة، وأوردت ذلك في باب اللف والنشر، وأوصله الناس إلى أكثر من ذلك، ولكن جل القصد هنا غير كثرة العدد فإن المراد من التشبيه، غرابة أسلوبه وسلامة اختراعه، كقول القائل:

وتحدث الماء الزلال مع الحصى | فجرى النسيم عليه يسمع ما جرى
فكأن فوق الماء وشياً ظاهراً | وكأن تحت الماء دراً مضمرا(٣)

أقول: إن تشبيه هذا الدر المضمر هنا، أغلى قيمة من الدر الظاهر في عقود الأجياد، ومثله في الغرابة وسلامة الاختراع، قول ابن المعتز:

كأنه وكأن الكأس في فمه | هلال أول شهرٍ غاب في الشفق

ومن ذلك قوله:

على عقار صفراء تحسبها | شيبت بمسك في الدن مفتوت(٤)
للماء فيها كتابة عجب | كمثل نقش في فص ياقوت(٥)

ومثله قول ابن حجاج، وهو بديع:

هذي المجرّة والنجوم كأنها | نهر تدفق في حديقة نرجس

ومن مخترعات ابن المعتز في تشبيه الهلال، قوله:

أنظر إلى حسن هلال بدا | يهتك من أنواره الحندسا(٦)
كمنجل قد صيغ من عسجد | يحصد من زهر الدجى نرجسا

---

(١) النهد: الثدي ـ الطّلع: غلاف يشبه الكوز ينفتح عن حب منضود.

(٢) الردف: العجز ـ الحقف: الكثيب من الرمل.

(٣) الوشي: التطريز ـ المضمر: المكنون.

(٤) الدن: وعاء الخمر ـ شيبت: خلطت ومزجت.

(٥) الفص: الحص، والياقوت: نوع من الأحجار الكريمه لونه أزرق رائق.

(٦) الحندس: الظلام.

ومن مخترعاته أيضاً في الهلال:

قد انقضت دولة الصيام وقد بشر سقم الهلال بالعيد
يتلو الثريا كفاغر شره يفتح فاه لأكل عنقود(1)

ومثله قوله فيه:

وجاءني في قميص الليل مستتراً يستعجل الخطر من خوف ومن حذر
ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا مثل القلامة قد قدّت من الظفر(2)

هذا التشبيه، ذكروا أنه من مخترعات ابن المعتز، ولكن زاده القاضي الفاضل بهجة، ونقله من الأعلى إلى الأدنى، فإنّ رتبة الهلال وعلوها في التشبيه على قلامة الظفر ما برحت مقررة في الخواطر، إلى أن نقلها القاضي الفاضل، بطريق بديعية اقتضتها الحال، وهي قوله مبالغاً في وصف قلعة نجم بالعلو:

وأما قلعة نجم، فهي نجم في سحاب، وعقاب في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل، كان الهلال لها قلامة. فخضاب الأصيل لهذه الأنملة، حسن أن يكون الهلال لها قلامة، وهذي غاية فاضلية لا تدرك، وقد وصلوا في تشبيه الهلال إلى السبعين، ولكن ما أوردت هنا إلا أبلغ ما وقع في تشبيهه. ويعجبني من التشابيه البليغة في هذا الباب، قول ابن طباطبا:

أما والثريا والهلال جلتهما لي الشمس إذ ودعت كرهاً نهارها
كأسماء إذ زارت عشاء وغادرت دلالاً لدينا قرطها وسوارها(3)

ومثله في الحسن والغرابة، قول أبي نواس:

ويمين الجوزاء تبسط باعاً لعناق الدجى بغير بنان
وكأن النجوم أحداق روم ركبت في محاجر السودان

ومثله قول القائل:

كأن نجوم الليل مزهرة لنا ثغور بني حام بدت للتثاؤب

---

(1) الفاغر: الذي يفتح فاه وهو خال من الطعام.

(2) القلامة: القطعة من الظفر بعد قصه.

(3) القرط: ما يعلق في الأذن من الحلي (الحلق) والسوار: ما يحيط بالمعصم من الحلي.

ويعجبني، من التشابيه الغريبة، قول ابن نباتة السعدي، في جواد أدهم أغر محجل:

تختال منه على أغر محجل ... ماء الدياجي قطرة من مائه
وكأنما لطم الصباح جبينه ... فاقتص منه فخاض في أحشائه

ومن التشابيه اللطيفة البديعة، قول القاضي التنوخي من قصيدة:

وراح من الشمس مخلوقة ... بدت لك في قدح من نضار
كأن المدير لها باليمين ... إذا مال للشرب أو باليسار
تدرع ثوباً من الياسمين. ... له فَردُ كمٍ من الجلنار[1]

ومثله في اللطف والغرابة قول القائل:

كم وردة تحكي بسبق الورد ... طليعة تسرعت من جند
قد ضمها في الغصن قرص البرد ... ضم فمٍ لقبلةٍ من بُعد

ودخل مجير الدين بن تميم إلى حديقة هذه الوردة، فزاد بعدها تقريباً، بقوله:

سبقت إليك من الحدائق وردة ... وأتتك قبل أوانها تطفيلا[2]
طمعت بلثمك إذ رأتك فجمعت ... فمها إليك كطالب تقبيلا

وظرف من قال في الوردة:

كأنها وجنة الحبيب وقد ... نقطها عاشق بدينار

ومثله، في الظرف قول أيدمر المحيوي في النرجس:

وكأن نرجسه المضاعف خائض ... في الماء لف ثيابه في رأسه

ويعجبني في تشبيه النرجس، قول شهاب الدين أحمد القماح، راجح رجاح الديار المصرية، في فن الزجل في بعض أزجاله:

وفي الأزاهير قم ترى شي تذهب ... وشي تصيبوا قد زها وتفضض
النرجس أحداقو الشهل نعسانه ... إلا أنها من الندى ليس تغمض
وحين فتح عينو في وجهي شبهت ... اصفر ولما بدا في الأبيض

---

(١) تدرع: لبس المدرعة وهي الثوب الملاصق للبدن ـ الجلنار: زهر الرمان.
(٢) التطفيل: ما قبل النضوج. طفِلَ النبات: لم يَطُل.

ما زعفران على نصافي مطبوع | وإلا فصوص كهرب في بلار يوجد
وإلا تخل شمسات لجين مبرودات | قد سمروا فيها مسامير عسجد

وتلطف ابن المعتز في تشبيه حباب الراح بقوله:

يجول حباب الماء في جنباتها | كما جال دمع فوق خد مورد[1]

ومثله في اللطف قول ديك الجن الحمصي:

موردة من كف ظبي كأنما | تناولها من خده فأدارها

ومن المستغرب، في وصف البنفسج، ما نسب إلى ابن المعتز وهو:

ولازوردية أوفت بزرقتها | بين الرياض على زرق اليواقيت[2]
كأنها فوق طاقات نهضن بها | أوائل النار في أطراف كبريت

أوردوا على هذا التشبيه نقداً، ولكن ما يحمل البنفسج هنا نقله، ومن التشابيه الغريبة، قول بعضهم: في تشبيه النار:

أنظر إلى النار وهي مضرمة | وجمرها بالرماد مستور
شبه دم من فواخت ذبحت | وفوقه ريشهن منشور[3]

ومثله، في الغرابة والحسن، قول ابن الخلال في تشبيه الشمعة:

وصحيحة بيضاء تطلع في الدجى | صبحاً وتشفي الناظرين بدائها
شابت ذوائبها أوان شبابها | واسود مفرقها أوان فنائها
كالعين في طبقاتها ودموعها | وسوادها وبياضها وضيائها

أقول: إنها أنور من شمعة الأرجاني، وإن مشى غالب الناس على ضوئها. ومن التشابيه الغريبة المنسوبة إلى ابن المعتز، أو ابن الرومي، تشبيه أرباع الجوز الأخضر، وهو:

جاءت بجوز أخضر مكسر مقشر كأنما أرباعه مضغة علك كندر[4]

---

(١) حباب الماء: الفقاقيع التي تعلو سطحه.

(٢) لازوردية: لونها لون اللازورد وهو معدن يتولد في جبال أرمينية وفارس وأجوده الصافي الشفاف الأزرق الضارب إلى حمرة وخضرة.

(٣) فواخت: مفردها؛ فاخته: نوع من الحمام المطوق.

(٤) الكُنْدُر: نوع من الصمغ يستخرج من شجر شائك ورقه كالآس.

ومن التشابيه العقم التي لم يسبق صاحبها إليها، قول القائل في أحدب:

قصرت أخادعه وغاب قذاله ... فكأنه مترقب أن يصفعا
وكأنه قد ذاق أول صفعة ... وأحس ثانية لها فتجمعا[1]

ومما ينسب إلى إمام هذه الصناعة، القاضي الفاضل، قوله في نفسه، وهو في غاية الظرف:

ما كان يكمل حر ذا ... الإيوان حتى ازداد قببه[2]
فكأنني فيه خرو ... ف شوي ومن فوقي مكبه[3]

ويعجبني من التشابيه البليغة قول القائل:

أأميم لو شاهدت يوم نزالنا ... والخيل تحت النقع كالأشباح[4]
تطفو وترسب في الدماء كأنها ... صور الفوارس في كؤوس الراح

ومثله في الحسن قول الناشيء:

في كأسها صور تظن لحسنها ... عرباً برزن من الحجال وغيدا
وإذا المزاج أثارها فتقسمت ... ذهباً ودراً توأماً وفريدا
فكأنهن لبسن ذاك مجاسداً ... وجعلن ذا لنحورهن عقودا[5]

هذا المعنى ولده الناشيء، من قول أبي نواس في التصوير:

بنينا على كسرى سماء مدامة ... مكللة حافاتها بنجوم
فلو رد في كسرى بن ساسان روحه ... إذاً لاصطفاني دون كل نديم

---

(١) الأخادع: هما الأخدعان: عرقان في صفحتي العنق ـ القذال: ما بين الأذنين من مؤخر الرأس.
ويروى البيت: ب«غار قذاله» بدل«غاب قذالة». وغار أصح لأن غار يحتمل الوجود مع الخفاء بينما غاب لا يحتمل الوجود في مكانه ويروى الثاني: وكأنما صفعت قفاه مرّة. وهذان البيتان لابن الرومي.

(٢) الإيوان: عرش الملك. ومنه إيوان كسرى.

(٣) المكبة: واحدة الكبّة. وهي نوع من الطعام يصنع بواسطة اللحم المدقوق والبرغل. أو واحدة الكباب، وهي عبارة عن كتلة من اللحم المفروم(كفتة).

(٤) أميم: ترخيم أميمة ـ النزال: الحرب والمبارزة ـ النقع: الغبار الكثيف.

(٥) المجاسد: مفردها مجسد وهو من الثياب مالامس الجسد.

والم به ابن قلاقس، فيما بعد، وسبكه في قالب حسن بقوله:

دارت زجاجتها وفي جنباتها كسرى أنوشروان في إيوانه
فخلعت عن عطفيه حلة قهوة وشربتها فغدوت في سلطانه[1]

والم به الشيخ صلاح الدين الصفدي وأجاد إلى الغاية، مع حسن التضمين، بقوله:

ومشمولة قد هام كسرى بكأسها فأضحى ينادي وهو فيها مصوّر
وقفت لشوقي من وراء زجاجة إلى الدار من فرط الصبابة أنظر[2]

والم به بعده الصاحب فخر الدين بن مكانس، رحمه الله تعالى، بقوله:

إذا ما أديرت في حشا عسجدية بها كل ذي تاج وقصر تصوّرا[3]
فحسبك نبلاً في السيادة أن ترى نديميك في الكاسات كسرى وقيصرا

لم أورد هذه الأبيات التي ولدها المتأخرون في معنى التصوير، خالية من التشبيه وأداته إلا لفائدة عنَّ لي إيرادها هنا، وهي معرفة الموجب لنقش هذه الصورة على ظاهر الكاسات.

ذكر الفقيه أبو مروان الكاتب ابن بدرون، في شرحه لقصيدة الوزير عبد المجيد بن عبدون، أن سابور بن هرمز الملقب بذي الأكتاف، لما رجع من قتال بني تميم قصد الروم والدخول إلى القسطنطينية متنكراً، واستشار قومه في ذلك فحذروه فلم يقبل قولهم، وصار إليها فصادف وليمة لقيصر قد اجتمع فيها الخاص والعام فدخل في جملتهم وجلس على بعض موائدهم، وكان قيصر قد أحكم تصوير سابور على آنية شرابه فانتهت الكأس في المجلس إلى يد بعض ندماء الملك وكان ذكياً حاذقاً، ومن الاتفاق العجيب جلوس سابور في مقابلته فصار النديم ينظر إلى الصورة وإلى سابور ويتعجب من تقارب الشبهين، فلم يسعه غير القهام إلى الملك والإسرار إليه بما شاهده، فقبض في الحال على سابور، ولما مثل بين يدي قيصر سأله عن خبره فقال: أنا من أساورة سابور هربت منه لأمر خفته. فلم يقبل ذلك منه وقدم إلى السيف فأقر بنفسه وجعل في جلد بقرة. وتمام أمره إلى أن خلص وعاد إلى ملكه يطول شرحه هنا، ومن أراد ذلك ينظر من «سلوان المطاع» في السلوانة الثانية فإنها مشتملة على أنواع من الحكمة.

---

(١) القهوة: الخمر.

(٢) الصبابة: الوجد وشدة الشوق.

(٣) إذا ما أديرت الراح في كأس ذهبية.

رجع إلى فتح باب ما كنا فيه، من تشبيه المحسوس بالمحسوس، فمن التشابيه الملوكية التي لا يقع مثلها للسوقة، تشبيه سيف الدولة بن حمدان في قوس قزح وهو:

وساق صبيح للصبوح دعوته ... فقام وفي أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم ... فمن بين منفض لدينا ومنقض
وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفاً ... على الجوِّ دكناً والحواشي على الأرض[1]
يطرزها قوس السحاب بأصفر ... على أحمر في أخضر أثر مبيض
كأذيال خود أقبلت في غلائل ... مصبغة والبعض أقصر من بعض[2]

ومن تشابيه سيف الدولة الغريبة أيضاً قوله:

أقبله على جزع ... كشرب الطائر الفزع

ومن التشابيه اللطيفة ما نسب إلى إبليس، فإن القاضي شمس الدين بن خلكان ذكر في تاريخه، عند ترجمة ابن دريد، أنه قال: سهرت ذات ليلة، فلما كان آخر الليل، غمضت عيني فرأيت رجلاً طويلاً أصفر اللون كوسجاً[3] دخل عليَّ وأخذ بعضادتي[4] الباب، فقال: أنشدني أحسن ما قلت في الخمر. فقلت: ما ترك أبو نواس لأحد دخولاً في هذا الباب. فقال: أنا أشعر منه. فقلت: ومن أنت؟ فقال: أنا أبو ناجية[5] من أهل الشام، وأنشدني:

وحمراء قبل المزج صفراء بعده ... أتت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا ... عليها مزاجاً فاكتست لون عاشق

ومن بليغ التشبيهات وبديعها، قول أبي محمد عبد الله بن قاضي ميلة، في قصيدته الفائية التي امتدح بها ثقة الدولة القضاعي، صاحب صقلية الروم، وسارت له بها الركبان، وأثبتها القاضي شمس الدين بن خلكان بكمالها في تاريخه، وقد تقدَّم ذكر مطلعها في حسن الابتداء، والتشبيه الموعود بإيراده هنا قوله من القصيدة المذكورة:

---

(١) الجنوب: الريح الجنوبية - مطارف: جمع مطرف وهو الثوب من خز - الدكن: التي يميل لونها إلى الدُّكنة والعتمة في أولها.

(٢) الخود: الحسناء - الغلائل: واحدتها غلالة وهي الثوب.

(٣) الكوسج: الذي نبتت لحيته على ذقنه فقط ولم تنبت على العارضين - أو الناقص الأسنان.

(٤) عضادتي الباب: هما الخشبتان المثبتتان في الحائط على جانبيه.

(٥) أبو ناجية: من ألقاب إبليس.

وجؤجؤ مزن الرعد يستل ودقه ... ترى برقه كالحية الصل يطرف[1]
ذكرت بها ريا وما كنت ناسياً ... فأذكر لكن لوعة تتضعّف
كأني إذا ما لاح والرعد معول ... وجفن السحاب الجون بالماء يذرف[2]
سليمٌ وصوت الرعد راقٍ وودقه ... كنفث الرقى من عِظَمِ ما أتلهف

ومن لطائف التشبيهات البليغة قول القاضي الفاضل، من قصيدة:

كأن ضلوعي والزفير وأدمعي ... طلول وريح عاصف وسيول[3]

ومثله في اللطف قوله:

لو لم يعطل خاطري من سلوة. ... ما كان خدي بالمدامع حالي[4]
أودعته قلبي فخان وديعتي ... فسواده في خده كالخال

ومن التشابيه الغريبة البديعة، قوله أيضاً، من قصيدة أخرى:

وقد تهادت سيوف الهند إذ خضبت ... كالشرب حين تهادى بالزجاجات[5]

ويعجبني، من لطائف التشبيه، قول محيي الدين بن قرناص الحموي:

من لقلبي من جور ظبي هواه ... لي شغلٍ عن حاجر والقويق[6]
خصره تحت أحمر البند يحكي ... خنصراً فيه خاتم من عقيق

ومن التشابيه البديعة قول مجير الدين بن تميم:

ونهر إذا ما الشمس حان غروبها ... ولاحت عليه في غلائلها الصفر
رأينا الذي أبقت به من شعاعها ... كأنا أرقنا فيه كأساً من الخمر

ومثله قوله:

وناعورة قد ألبست لحيائها ... من الشمس ثوباً فوق أثوابها الخضر
كطاووس بستان تدور وتنجلي ... وتنفض عن أرياشها بلل القطر

---

(١) الجؤجؤ: صدر السفينة، ومجتمع رؤوس عظامه. وجؤجؤ المزن: مجتمعه ـ المزن: جمع مزنة وهي الغيمة الممطرة ـ الودق: المطر ـ الحية الصل: أخبث الحيات. ويطرف: يدمع أو ينزل.

(٢) السحاب الجون: السحاب الأسود، وهو من أكثر السحاب مطراً.

(٣) الطلول: جمع مفرده طلل وهو الأثر المتبقي من الشيء بعد زواله.

(٤) حالي: أي مُحلى من الحلى.

(٥) تهادى: تمايل في مشيته ـ الشرب: جماعة الشاربين.

(٦) حاجر والقويق: إسمي مكان.

ومن التشابيه البليغة الرافلة في حلل التورية، قوله أيضاً:

أبدى السنان جراحة في خده ... تحت العذار فعال قلب قاسي
وتطلبوا الآسي فما ظفروا به ... معهم وعز وجوده في الناس
شبهت سوسنة أبانت وردة ... تحت البنفسج ما لها من آس

ومثله قوله:

لو كنت حين علوت ظهر مطية ... لم يعتلقها للمطي عيون
وتوسطت بحر السراب حسبتني ... من فوقها ألفاً وتحتي نون

ومثله قوله:

شبهت خدّك يا حبيبي عندما ... أبدى الجمال به عذاراً أشقرا
تفاحة حمراء قد كتبوا بها ... خطاً رقيقاً بالنضار مشعرا(١)

ويعجبني قوله، مع التشبيه البليغ وحسن التضمين الذي ما تضمن مثله ديوان:

غدير دار نرجسه عليه ... ورق نسيمه وصفا وراقا
تراه إذا حللت به لورد ... كأن عليه من حدق نطاقا(٢)

ويعجبني، من لطائف التشبيه، تخيل محيي الدين بن قرناص الحموي بقوله:

لقد عقد الربيع نطاق زهر ... يضم لغصنه خصراً نحيلا
ودب مع العشي عذار طل ... على نهر حكى خداً أسيلا(٣)

تشبيه النهر هنا بالخد الأسيل ليس له في الحسن مثيل. ومثله قوله:

لما تبدّى النهر عند عشية ... والروض يخضع للصبا والشمأل(٤)
عاينته مثل الحسام وظله ... يحكي الصدا والريح مثل الصيقل(٥)

ومن التشابيه البليغة، التي جمعت بحسن التورية بين الصورة والمعنى وشبب

---

(١) النضار: الذهب الخالص ـ مشعراً: مكتوباً شعراً.

(٢) النطاق: الحزام.

(٣) الأسيل: الأملس المستطيل، وهو أجمل الخدود.

(٤) الصبا والشمأل: رياح تهب على الصحراء، الأولى من الجنوب والثانيه من الشمال.

(٥) الحسام: السيف ـ الصيقل: الذي يصقل السيوف أي يشحذها.

بمحاسنها الرواة في كل مغنى، قول الشيخ جمال الدين بن نباتة، في وصف قوس البندق بعد تغزله في الرامي:

قد حمد القوم به عقبى السفر ... عند اقتران القوس منه بالقمر
لولا حذار القوس من يديه ... لغنت الورق على عطفيه[1]
في كفه محنية الأوصال ... قاطعة الأعمار كالهلال[2]

ثم قال منها، وهي الطردية الموسومة بنظم السلوك في مصائد الملوك، ولم يخرج عن تشبيه القوس مع اشتراك التورية:

كأنها حول المياه نون ... أو حاجب بما نشا مقرون

ويعجبني منها قوله، في وصف التم مع حسن التضمين:

تخاله من تحت عنق قد سجا ... طرة صبح تحت أذيال الدجا[3]

ومنها يشبه الطيور الواقعة على قسي الرماة:

كأنها وهي لدينا وقع ... لدى محاريب القسي ركع[4]

ومن التشابيه الغريبة التي لم يسبق الشيخ جمال الدين بن نباتة إليها قوله:

أشكو السقام وتشكو مثله امرأتي ... فنحن في الفرش والأعضاء ترتج[5]
نفسان والعظم في نطع يجمعنا ... كأنما نحن في التمثيل شطرنج[6]

ومثله في الغرابة، قوله من قصيدته اللامية التي عارض بها كعب بن زهير، في مديح النبي ﷺ مع التضمين الفائق:

ما يمسك الهدب دمعي حين أذكركم ... إلا كما يمسك الماء الغرابيل

ومن لطائف التشبيهات، قول بدر الدين حسن الزغاري، في وصف زهر الزنبق:

وزهرة من زنبق ... أنوارها وهاجه
صفراء في مبيضة ... كالراح في الزجاجه

---

(١) الوُرق: الحمائم.
(٢) محنية الأوصال: القوس.
(٣) سجا: سكن وهدأ ـ الطرة: الغرة وهي أول الشيء.
(٤) محاريب: جمع محراب: وهو مكان العبادة.
(٥) ترتجّ: تهتز وترتجف.
(٦) النطع: الجلد.

ويعجبني من التشبيه البديع، قول الشيخ عز الدين الموصلي مع حسن التضمين:

وسامري أعار البدر منه سنا   سموه نجماً وهذا النجم عرار (١)
تهتز قامته من تحت عمته   كأنه علم في رأسه نار

وأما التشبيه الذي ولده الشيخ برهان الدين القيراطي، فإنه من غايات هذا الباب، وهو قوله من قصيدة:

والبدر يستر بالغيوم وينجلي   كتنفس الحسناء في مرآتها

وقال أبو حفص برد:

والبدر كالمرآة غير صقلها   عبث الغواني فيه بالأنفاس

والمضمن الربع الأخير من البيت، وهو من شعر أبي بكر محمد بن هاشم.

ومن لطيف التشبيه قول الشيخ علاء الدين، علي بن أيبك الدمشقي:

منمنم العارض غنى لنا   أشياء في السمع حلا ذوقها (٢)
كأنما في فيه قمرية   تشدو ومن عارضه طوقها (٣)

ومن التشابيه البديعية التي لم تدرك في هذا الباب، تشابيه الصاحب فخر الدين بن مكانس، في قصيدته المشهورة المشتملة على وصف شجرة السرح:

مالت على النهر إذ جاش الخرير به   كأنها أذن مالت لإصغاء
كأن صمغتها الحمرا بقشرتها الدكـ   ـناء قرص على أعكان سمراء (٤)

ومنها في وصف سواد السفينة على بحر النيل:

نسعى إليها على جرداء جارية   من آلة كهلال الأفق حدباء
سوداء تحكي على الماء المصندل شا   مة على شفة كالشهد لعساء (٥)

وتظرف الشيخ عز الدين الموصلي بقوله، في هذا النوع وإن لم يأت ببليغ التشبيه:

---

(١) سامري: نسبة إلى السامرة ـ العرار: نبات طيب الرائحة.

(٢) المنمنم: اللطيف الأعضاء.

(٣) قمرية: نوع من الحمام حسن الصوت.

(٤) أعكان: جمع عُكَن وهو ما انطوى وتثنى من لحم البطن سِمَناً.

(٥) المصندل: المطلي بماء الصندل وهو شجر هندي طيب الرائحة ـ لعساء: التي في شفتيها سواد.

قيل صف هذا الذي همت به | قلت في وصفي مع حسن المسالك
هو كالغصن وكالظبي وكالشمس وكالبدر وما أشبه ذلك

لطف التشبيه في قوله: وما أشبه ذلك.

ومن التشابيه التي لم أسبق إليها قولي من قصيدة:

حين قابلت خده بدموع | أثرت خلت ثوب خز مختم

ومثله قولي من قصيدة:

والغصن يحكي النون في ميلانه | وخياله في الماء كالتنوين

ومثله قولي من المدائح المؤيدية:

يا حامي الحرمين والأقصى ومن | لولاه لم يسمر بمكة سامر
والله إن الله نحوك ناظر | هذا وما في العالمين مناظر[1]
فرج على الملحون نظم عسكرا | وأطاعه في النظم بحر وافر
فانبتّ منه زحافه في وقفه | يا من بأحوال الوقائع شاعر[2]
وجميع هاتيك البغاة بأسرهم | دارت عليهم من سطاك دوائر
وعلى ظهور الخيل ماتوا خيفة | فكأن هاتيك السروج مقابر

تالله لقد وقع هذا التشبيه من مولانا السلطان، خلد الله ملكه بموقع، وأعجبه غاية الإعجاب، واستعاده منه مراراً[3].

ومن التشابيه العقم قولي في وصف حمائم البطائق[4]، من الرسالة التي عارضت بها الفاضل: كم زاحمت النجوم بالمناكب حتى ظفرت بكف خضيب، وانحدرت كأنها دمعة سقطت على خد الشفيق لأمر مريب، وكم لمع في أصيل الشمس خصاب كفها الوضاح، فصارت بسموها وفرط البهجة كمشكاة فيها مصباح. انتهى ما أوردته، نظماً ونثراً، من بليغ التشبيه في باب المحسوس بالمحسوس.

---

(١) مناظر: مشابه.

(٢) انبتّ: انقطع.

(٣) قوله: واستعاده منه مراراً أي من المنشد وفي ذلك إشارة إلى أن المنشد غير الكاتب، والكاتب في بداية الكلام لنفسه بقوله: ومثله قولي من المدائح المؤيديه. ترى أيكون ابن حجة قد أغار على شعر شاعر مغمور ونسب لنفسه ما ليس لها؟ أم يكون هذا الذي حصل نوعاً من التحريف؟.

(٤) حمام البطائق: الحمام الزاجل الذي كان يستعمل في نقل الرسائل.

وقد تعين أن أورد هنا ما وقع، في النظم، من التشبيه الذي هو غير بليغ، ليتفتح هن الطالب وتصفو مرآة ذوقه، فقد عاب الأصمعي بين يدي الرشيد قول النابغة:

نظرت إليك بحاجة لم تقضها		نظر المريض إلى وجوه العوّد

فقال: يكره تشبيه المحبوب بالمريض، ومثله قول أبي محجن الثقفي في وصف قينة:

ترجع العود أحياناً وتخفضه		كما يطير ذباب الروضة الغرد

قد تقدم القول، وتقرر أن المولدين ومن تبعهم رغبوا عن تشابيه العرب، لأنها مع عقادة التركيب لم تسفر عن كبير أمر. وقال ابن رشيق، في العمدة: إن طريق العرب خولفت في كثير من الشعر إلى ما هو أليق بالوقت وأمس بأهله، فإن القينة الجميلة لم ترض أن تشبه نفسها بالذباب، كما قال أبو محجن. ومثل ذلك قول ابن عون الكاتب:

يلاعبها كف المزاج محبة		لها وليجري الآن بينهما الأنس
فتزبدّ من تيه عليه كأنها		عزيزة خدرٍ قد تخبطها المس[1]

بشاعة هذا التشبيه تمجها الأذواق الصحيحة، وتنفر منها الطباع السليمة، فإن أهل الذوق ما يطيبُ لهم أن يشربوا شيئاً يشبه زبد المصروع.

ومن التشابيه الغريبة، التي جمعت بين عدم البلاغة وعقادة التركيب، قول الشاعر:

فأصبحت بعد خط بهجتها		كأنْ قفراً رسومها قلما

التقدير فأصبحت بعد بهجتها قفراً كان قلما خط رسومها.

وعدوا من التشابيه التي هي غير بليغة، قول الشاعر في وصف الروض:

كأن شقائق النعمان فيه		ثيابٌ قد روين من الدماء

فهذا وإن كان تشبيهاً مضيئاً فإن فيه بشاعة كثرة الدماء، التي تعاف الأنفس اللطيفة رؤيتها، وثبوت هذا النقد اتصل بالمتأخرين، ونقدوه على الحاجري في قوله:

وما اخضر ذاك الخد نبتاً وإنما		لكثرة ما شقت عليه المرائر[2]

---

(١) تزبدُّ: تغضب حتى يخرج الزبد من فيها ـ التيه: التكبر والفخر ـ الخدر: خباء المرأة ـ المس: الجنون.

(٢) المرائر: جمع مرارة وهي غدة تفرز الصفراء لتساعد على هضم المواد الدهنية وتكون لاصقة بالكبد.

وقالوا ما زاد الحاجري على أن جعل خد محبوبه مسلخاً. فالتشبيه أيضاً، وإن كان مضيئاً، فإن فيه بشاعة شق المرائر على خد المحبوب. وبعضهم ما اكتفى بشق المرائر على خد محبوبه حتى سفك عليه الدماء بقوله:

وما أحمر ذاك الخد واخضر فوقه ... عـذارك إلا مـن دم ومـرائـر

ومثل ذلك ما عابوه على ابن قلاقس في قوله:

أما ترى الصبح يُخفى في دجنته ... كـأنمـا هـو سقط بين أحشائي

لا شك أن بهجة الصبح في أواخر الليل أبهج من السقط بين الأحشاء، والمشبه أعلى وأغلى من المشبه به، وعلى كل تقدير فالسقط بين الأحشاء، وسفك الدماء، وشق المرائر على خدود الأحباب تنفر منها الأمزجة اللطيفة، اللهم إلا أن يكون ذلك ليس له تعلق بشيء من أوصاف المحبوب، بل يكون تعلقه بحكاية حال واقعة، كقول الشاعر:

نـزلنا بنعمـان الأراك وللنـدى ... سقيط به ابتلت علينا المطارف(1)
وقفت بهـا والـدمـع أكثـره دم ... كأني من جفني بنعمان راعف(2)

هذه الحالة لا ينكر لها جريان الدمع دماً فإنها حالة لائقة بجريانه على هذه الصفة، لأن هذا الشاعر لما أن نزل بنعمان التي هي منازل أحبابه ووجدها مقفرة منهم، لاق بحاله أن يجري الدمع لشدة الأسف دماً.

ومثله قول ابن قاضي ميلة، من قصيدته التي تقدم ذكرها:

ولمـا التقينـا محـرمين وسيرنـا ... بلبيـك ربـاً والـركـائب تعسف(3)
نـظرت إليهـا والمـطي كـأنمـا ... غـواربهـا منهـا معـاطس رعف(4)

هذا التشبيه غاية في هذا الباب، وجريان الدماء من غوارب المطي لائق بحكاية حاله، فإن هذه الحالة فيها لطف الكنايات عن التعسف في شدة السرى.

قلت وإن سبكت هذه الحالة في قوالب الهجو، ورصّعها الشاعر في صفات من هجاه، كانت أحسن موقعاً وأبلغ موضعاً، كقول مولانا المقر الأشرف القاضوي الناصري

(1) المطارف: جمع مطرف وهو الثوب الفضفاض الموشى.
(2) الراعف: الذي ينزل الدم من أنفه. والرعف: نزول الدم.
(3) تعسف: تسير على غير هدى.
(4) معاطس: أنوف ـ الغوارب: جمع غارب وهو ما بين سنام البعير وعنقه. أو هو الكاهل.

البارزي، صاحب دواوين الانشاء الشريف بالممالك الإسلامية، عظم الله تعالى شأنه، في هجو من لا يمكن ذكره هنا من قصيدة:

وقد علت أسنانه صفرة   تكدر العيش المريء المريع(١)
ولحمها من ورم فاسد   كالرئة المحبوس فيها نجيع(٢)

هذا التشبيه لم أجد له شبيهاً في هذا الباب، إلا تشبيه ابن الرومي في هجو الورد، وقد تقدم ذكره فلو جمع المتأمل بين المشبه المهجو وبين المشبه به، وشاهد هذا التخييل الغريب عياناً صدق صحة دعواي في ذلك.

ومن التشابيه التي هي غير بليغة قول ابن وزير، في تشبيه الماء على الرخام:

لله يوم بحمام نعمت به   والماء من حوضه ما بيننا جاري
كأنه فوق شقات الرخام ضحى   ماء يسيل على أثواب قصار(٣)

وتلطف ابن الدوري في هجاء هذا الشاعر حيث قال:

وشاعر أوقد الطبع الذكاء له   فكاد يحرقه من فرط إذكاء(٤)
أقام يجهد أياماً قريحته   وشبه الماء بعد الجهد بالماء

ذكرت هنا، من التشابيه التي هي غير بليغة، قول الشيخ صلاح الدين الصفدي في تشبيه القمر في خلال الأغصان لما انثنت:

كأنما الأغصان لما انثنت   أمام بدر التم في غيهبه(٥)
بنت مليك خلف شباكها   تفرجت منه على موكبه

وقد أورد عليه علامة عصرنا القاضي بدر الدين الدماميني، فسح الله تعالى في أجله، في كتابه المسمى «بنزول الغيث» الذي انسجم في شرح لامية العجم، نقداً كشف به القناع عن عدم بلاغة هذا التشبيه. فإن الشيخ بدر الدين المشار إليه قال وقوله صحيح: إن ظاهر عبارة الشيخ صلاح الدين، تشبيه الأغصان في حالة انثنائها أمام البدر

---

(١) المريء: السهل ـ المريع: الكثير الخيرات.
(٢) النجيع: دمُ الجوف وقوله: لحمها: الضمير يعود على الأسنان أي لثتها.
(٣) القصار: الذي يدق الثياب ويبيضها.
(٤) إذكاء النار: إضرامها.
(٥) الغيهب: الظلمة الشديدة.

في الدجى، ببنت مليك تطل من شباكها للنظر في موكب أبيها. وذلك عن مظان التشبيه بمعزل. ومقصوده أن البدر في حالة ظهوره من خلال الأغصان المتثنية على الصفة المذكورة، يشبه بنت مليك على تلك الحالة، تمثيلاً للهيئة الاجتماعية، لكن اللفظ لا يساعده على ذلك المطلوب، فإنه جعل الأغصان مبتدأ وأخبر عنه بقوله بنت مليك فلم يتم له المراد. على أن مقطوع الشيخ صلاح الدين، مع ما فيه من عدم بلاغة التشبيه، مأخوذ من قول محيي الدين بن قرناص الحموي:

وحديقة غناء ينتظم الندى ... بفروعها كالدر في الأسلاك
والبدر يشرق من خلال غصونها ... مثل المليح يطل من شباك

قلت ليس لأهل النقد مدخل في هذا الشباك. انتهى ما أوردته هنا من التشبيه الذي هو غير بليغ في باب المحسوس بالمحسوس، وقد تقدم القول على موجب تقديمه في باب التشبيه، وتقرر أن مدركات السمع والبصر والذوق والشم واللمس التي هي الحواس الخمس، أوضح في الجملة مما لا تقع عليه الحواس انتهى.

القسم الثاني وهو تشبيه المعقول بالمعقول: أقول إن هذا النوع في هذا الباب ليس له مواقع المحسوسات، وقد تكرر قولي في ذلك. وأحسن ما وجدت فيه، أعني تشبيه المعقول بالمعقول، قول أبي الطيب المتنبي:

كأن الهم مشغوف بقلبي ... فساعة هجرها يجد الوصالا

وظريف هنا قول القائل، من أبيات، مع بديع الاستطراد:

لفظ طويل تحت معنى قاصر ... كالعقل في عبد اللطيف الناظر

القسم الثالث تشبيه المعقول بالمحسوس: وهو إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه الحاسة، كقوله تعالى: **﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾**(١). فتشبيه أعمال الكفار بالسراب، من أبلغ التشابيه وأبدعها. ومثله قوله تعالى: **﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف﴾**(٢).

ومن النظم قول أبي علي ابن سينا:

إنما النفس كالزجاجة والعلـ ... ـم سراج وحكمة الله زيت

---

(١) النور، ٢٤/ ٣٩.

(٢) ابراهيم، ١٤/ ١٨.

ويعجبني في هذا الباب أعني تشبيه المعقول بالمحسوس، قول ابن منير الطرابلسي:

زعم كمنبلج الصباح وراءه　　عزم كحد السَّيف صادف مقتلا

القسم الرابع تشبيه المحسوس بالمعقول: قد تقدم أن هذا القسم عند أهل المعاني والبيان غير جائز، وما ذاك إلا أن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية إليها، ولذلك قيل من فقد حساً فقد علماً. ووجه الصواب في تشبيه المحسوس بالمعقول، أن يقدر البليغ المعقول محسوساً ويجعل أصل المحسوس على طريق المبالغة فرعاً، فيصبح التشبيه حينئذ، كقول الشاعر:

وكأن النجوم بين دجاها　　سنن لاح بينهن ابتداع

فإنه لما شاع وصف السنة بالبياض والإشراق، لقول النبي ﷺ: أتيتكم بالحنيفية البيضاء، ليلها كنهارها. واشتهرت البدعة، وكل ما ليس بحق بالظلمة والسواد، كقولهم: ليل الشرك، أقام هذا الشاعر السنن مقام الأجناس التي لها إشراق وبياض، والبدع مقام أجناس السواد والظلمة، فصار ذلك عنده كتشبيه محسوس بمحسوس، فجاز له التشبيه على هذا التقدير، كقول أبي طالب الرقي:

ولقد ذكرتك والظلام كأنه　　يوم النوى وفؤاد من لم يعشق

فإنه لما كانت الأوقات التي تحدث فيها المكاره توصف بالسواد، كقول من يغتاله مكروه: اسودت الدنيا في عيني، جعل هذا الشاعر يوم النوى أشهر بالسواد من الظلام، فشبهه وعرفه به ثم عطف عليه بفؤاد من لم يعشق تظرفاً، لأن ظريف العشاق يدعي قسوة قلب من لم يعشق، والقلب القاسي يوصف بشدة السواد، فصار هذا القلب عنده أصلاً في السواد على هذا التقدير، فقس على ذلك.

ومثله قول القائل:

أسفر ضوء الصبح من وجهه　　فقام خال الخد فيه بلال[1]
كأنما الخال على خده　　ساعة هجر في ليالي الوصال

سواد ساعة الهجر وبياض زمان الوصل قد فهم على ما تقرر وتكرر.

---

(١) بلال: هو الحبشي مؤذن النبي.

ومن ذلك قول الشاعر:

كأن انتضاء البدر من تحت غيمه	نجاة من البأساء بعد وقوع[1]

ومن البديع الغريب، في هذا الباب، قول القاضي التنوخي:

أما ترى البرد قد وافت عساكره	وعسكر الحر كيف انساب منطلقا
فانهض بنار إلى فحم كأنهما	في العين ظلم وإنصاف قد اتفقا
جاءت ونحن كقلب الصب حين سلا	برداً فصرنا كقلب الصب إذ عشقا[2]

ويعجبني هنا قول الصاحب بن عباد، وقد أهدى إلى القاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني عطراً:

أهديت عطراً مثل طيب ثنائه	فكأنما أهدى له أخلاقه

ومن التشابيه البليغة، في هذا الباب، قول الشهاب محمود في تشبيه بعض الحصون، والمبالغة في علوّه:

كأنه وكأن الجوَّ يكنفه	وهم تكنفه في طيها الفكر[3]

وغاية الغايات في هذا الباب، أعني تشبيه المحسوس بالمعقول، قول أبي نواس رحمه الله:

معتقة صاغ المزاج لرأسها	أكاليل در ما لناظمها سلك
جرت حركات الدهر فوق سكونها	فذابت كذوب التبر أخلصه السبك[4]
وأدرك منها الفائزون بقية	من الروح في جسم أضرُّ به النهك[5]
وقد خفيت من لطفها فكأنها	بقايا يقينٍ كاد يذهبه الشك

ومثله قوله وأجاد فيه إلى الغاية:

وندمان سقيت الراح صرفاً	وستر الليل منسدل السجوف[6]
صفت وصفت زجاجتها عليها	كمعنى دق في ذهن لطيف

---

(١) الإنتضاء: الأنسلال، أو الخروج السريع.
(٢) الصب: الرقيق القلب السريع الاشتياق.
(٣) يكنف: يحيط به كالكنيف وهو السور العالي.
(٤) التبر: خلاصة الذهب.
(٥) النهك: الإعياء.
(٦) السجوف: جمع سجف وهو الستر.

والذي سارت له به الركبان في هذا الباب قوله:

فتمشت في مفاصلهم كتمشي البرء في السقم

انتهى ما أوردته من تشبيه المحسوس بالمعقول، وتقرير صوابه وإيراد بديعه وغريبه.

وقد تقرر وتكرر أن تشبيه المحسوس بالمحسوس، هو المقدم في باب التشبيه، وعلى أسّه شيد أصحاب البديعيات بيوتهم. ولكن بيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته، غير صالح للتجرد، فإنه متعلق بالبيت المشتمل على ائتلاف اللفظ مع المعنى، فتعين إيراد البيتين هنا لتظهر نتيجة التشبيه. فبيت ائتلاف اللفظ مع المعنى، في بديعيته، قوله:

كأنما حلق السعدي منتشراً على الثرى بين منقض ومنفصم

وأتبعه بقوله في التشبيه:

حروف خط على طرس مقطعة جاءت بها يد غمر غير مفتهم[1]

قلت، الكمال لله: كل من البيتين فيه نقص، لافتقاره إلى الآخر، ولو تجرد أحدهما عن أخيه ما حسن السكوت عليه، ولا تمت به فائدة، وكيف يصح التشبيه في بيت واحد، وجل القصد به أن يكون بمجرده مثالاً للنوع المذكور، والمشبه في البيت الأول والمشبه به في البيت الثاني والذي أقوله إنني لم أر في البيت الأول، المشتمل على ائتلاف اللفظ مع المعنى، معنى، ولا على بيت التشبيه، الذي بعده، للبلاغة بهجة، لافتقاره إلى الأول، والله أعلم.

ومن غرائب ما ينقل هنا أن العميان ما نظموا نوع التشبيه في بديعيتهم، ونظموا ردّ العجز على الصدر، وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعيته، قوله في مديح النبي ﷺ:

وقيل للبدر تشبيه إليه نعم نجم الثريا له كالنعل في القدم

بيت الشيخ عز الدين هنا صالح للتجريد، بخلاف بيت الشيخ صفي الدين، إذ المراد به أن يكون بمجرده شاهداً على نوع التشبيه، ولكن معناه مأخوذ من بيت الفاضل، في قصيدته الطائية المشهورة، والبيت المأخوذ منه هذا المعنى قوله منها:

أما الثريا فنعل تحت أخمصه وكل قافية قالت لذلك طا

---

(١) الغمر: الذي لا يفهم.

من أين لعقادة الشيخ عز الدين، أو لغيره، أن يقول في الشطر الأوّل من بيت قافيته طائية

أما الثريا فنعل تحت أخمصه. ويقول في الشطر الثاني: وكل قافية قالت لذلك طا. انتهى.

وبيت بديعيتي جمعت فيه بين شرف المديح النبوي، وشرف تشبيه القرآن إذ هو المقدم في هذا الباب على كل تشبيه، فإنني قلت في البيت المشتمل على نوع التفريق البديعي:

قالوا هو البدر والتفريق يظهر لي ... في ذاك نقص وهذا كامل الشيم

ولم أزل أظهر في أفق البلاغة كماله، ﷺ، إلى أن قلت في التشبيه:

والبدر في التم كالعرجون صار له ... فقل لهم يتركوا تشبيه بدرهم

التشبيه بالتلميح

ثم إني قلت بعده في التلميح، الذي ما يلمح في صفات النبي، ﷺ، أحسن منه:

ورد شمس الضحى للقوم خاضعة　　　وما ليوشع تلميح بركبهم[1]

التلميح هو في الاصطلاح، أن يشير ناظم هذا النوع في بيت، أو قرينة سجع، إلى قصة معلومة، أو نكتة مشهورة، أو بيت شعر حفظ لتواتره، أو إلى مثل سائر يجريه في كلامه على جهة التمثيل. وأحسنه وأبلغه ما حصل به زيادة في المعنى المقصود. وسماه قوم: التمليح، بتقديم الميم، كأن الناظم أتى في بيته بنكتة زادته ملاحة، تقول ابن المعتز:

أترى الجيرة الذين تداعوا　　　عند سير الحبيب وقت الزوال[2]
علموا أنني مقيم وقلبي　　　راحل فيهم أمام الجمال
مثل صاع العزيز في أرحل القو　　　م ولا يعلمون ما في الرحال[3]

هذا التلميح فيه إشارة إلى قصة يوسف عليه السلام، حين جعل الصاع في رحل أخيه، وإخوته لم يشعروا بذلك.

ومن لطائف التلميح قول أبي فراس:

---

(١) يوشع: أحد الأنبياء الذين ارتدت الشمس لهم بعد غيابها للصلاة.

(٢) الزوال: وقت الظهر.

(٣) الرحال: جمع رحل وهو ما يحمل على الدواب.

فلا خير في ردّ الأذى بمذلة	كما ردّه يوماً بسوأته عمرو[1]

هذا التلميح فيه إشارة إلى قصة عمرو بن العاص مع الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، في يوم صفين، حين حمل عليه الإمام ورأى عمرو أن لا مخلص له منه، فلم يسعه غير كشف العورة.

ومن الحديث على جهة التورية، قول بعضهم في مليح اسمه بدر:

يا بدر أهلك جاروا	وعلموك التجري[2]
وقبحوا لك وصلي	وحسنوا لك هجري
فليفعلوا ما أرادوا	فإنهم أهل بدر

هذا التلميح فيه إشارة إلى قول النبي، ﷺ، لعمر حين سأل قتل حاطب: لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

ومن ذلك قول الشاعر:

لعمروٌ مع الرمضاء والنار تلتظي	أرقُّ وأحنى منك في ساعة الهجر[3]

هذا الشاعر أشار بتلميحه، في هذا البيت، إلى البيت المشهور الذي ما برح الناس يتمثلون به عند من هو موصوف بالقسوة، وهو:

المستجير بعمرو عند كربته	كالمستجير من الرمضاء بالنار

ومن ذلك قول بعضهم:

يقولون كافات الشتاء كثيرة	وما هي إلا واحد غير مفترى[4]
إذا كان كاف الكيس فالكل حاصل	لديك وكل الصيد يوجد في الفرا[5]

---

(١) السوأة: العورة.
(٢) التجري: التجرؤ.
(٣) الرمضاء: شدة الحرّ ـ تلتظي: يزداد لظاها أي حرها.
(٤) كافات الشتاء: هي سبعة أشياء تبدأ أسماؤها بالكاف. وهي: كن ـ كيس ـ كانون ـ كاس ـ كَبَابٌ ـ كس ـ كساء.
(٥) كاف الكيس: يعني الكيس وهو كيس النقود ـ الفرا: الفراء.

هذا الشاعر أشار في تلميح نيته إلى قول ابن سكرة

جاء الشتاء وعندي من حوائجه ... سبع إذا القطر عن حاجاتنا حبسا
كن وكيس وكانون وكأس طلا ... بعد الكباب وكس ناعم وكسا[1]

ومن أظرف ما وقع هنا أن امرأة من أهل الحذق والظرافة، قيل لها: من أنت؟ وكانت ملتفة في كساء، فقالت: أنا السادس في السابع، أشارت في تلميحها اللطيف إلى السادس والسابع، من قول ابن سكرة، فكأنها قالت: أنا الكس الناعم في الكساء. ونظم بعضهم هذا المعنى في بيتين فقال:

رأيتها ملفوفة في كسا ... خوفاً من الكاشح والطامع
قلت لها من أنت يا هذه ... قالت أنا السادس في السابع

وهذا غاية لا تدرك في باب التلميح.

ومن هذا القبيل قول الحريري في المقامات: وإني والله لطالما تلقيت الشتاء بكافاته، وأعددت له أهباً قبل موافاته، ومثله قوله في المقامات أيضاً: فبت بليلة نابغية. يشير إلى قول النابغة:

فبت كأني ساورتني ضئيلة ... من الرقش في أنيابها السم ناقع[2]

والضئيلة هي الحية الدقيقة.

ومن لطائف التلميح قصة الهذلي مع منصور بني العباس، فإنه حكي أن المنصور وعد الهذلي بجائزة ونسي، فحجا معاً ومرًا في المدينة النبوية ببيت عاتكة، فقال الهذلي: يا أمير المؤمنين هذا بيت عاتكة التي يقول فيها الأحوص.

يا بيت عاتكة التي أتغزل ... حذر العدا وبه الفؤاد موكل.

فأنكر عليه أمير المؤمنين، لأنه تكلم من غير أن يُسأل. فلما رجع الخليفة نظر في القصيدة إلى آخرها، ليعلم ما أراد الهذلي بإنشاد ذلك البيت من غير استدعاء فإذا فيها:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم ... مذق اللسان يقول ما لا يفعل[3]

---

(١) مضى شرح هذا البيت في ما سبق..

(٢) الضئيلة: الدقيقه الطويلة ـ الرقش: جمع رقشاء وهي اخبث الحيات ـ السم الناقع: الذي يقتل لساعته.

(٣) مذق اللسان: متملق.

فعلم أنه أشار إلى هذا البيت بتلميحه الغريب، فتذكر ما وعده به وأنجزه له واعتذر إليه من النسيان.

ومثله ما حكي أن أبا العلاء المعري كان يتعصب للمتنبي، فحضر يوماً مجلس الشريف المرتضى، فجرى ذكر أبي الطيب فهضم المرتضى من جانبه، فقال أبو العلاء: لو لم يكن له من الشعر إلا قوله: لك يا منازل في القلوب منازل، لكفاه. فغضب المرتضى، وأمر به فسحب وأخرج، وبعد إخراجه قال المرتضى: هل تدرون ما عنى بذكر البيت، فقالوا: لا والله! فقال: عنى به قول أبي الطيب في القصيدة:

وإذا أتتك مذمّتي من ناقصٍ ... فهي الشهادة لي بأني كامل

ومن هذا القبيل قصة السري الرفاء مع سيف الدولة، بسبب المتنبي أيضاً، فإن السري الرفاء كان من مدّاح سيف الدولة، وجرى يوماً في مجلسه ذكر أبي الطيب، فبالغ سيف الدولة في الثناء عليه، فقال له السري: أشتهي أن الأمير ينتخب لي قصيدة من غرر قصائده، لأعارضها له، ويتحقق بذلك أنه أركب المتنبي في غير سرجه. فقال له سيف الدولة على الفور: عارض لنا قصيدته القافية التي مطلعها:

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي ... وللحب ما لم يبق منه وما بقي

قال السري: فكتبت القصيدة واعتبرتها في تلك الليلة، فلم أجدها من مختارات أبي الطيب، لكن رأيته يقول في آخرها عن ممدوحه:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق ... أراه غباري ثم قال له الحقِ

فقلت: والله ما أشار سيف الدولة إلا إلى هذا البيت، وأحجمت عن معارضة القصيدة.

وألطف من هذا ما حكاه ابن الجوزي، في كتاب الأذكياء، فإنه من غرائب التلميح. قال: قعد رجل على جسر بغداد، فأقبلت امرأة بارعة في الجمال، من جهة الرصافة إلى الجانب الغربي، فاستقبلها شاب، فقال لها: رحم الله علي بن الجهم. فقالت له: رحم الله أبا العلاء المعري. وما وقفا بل سارا مغرباً ومشرقاً. قال الرجل: فتبعت المرأة، فقلت لها: والله إن لم تقولي لي ما أراد بابن الجهم فضحتك، قالت: أراد به:

عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وأردت أنا بأبي العلاء قوله:

فيا دارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

ورسالة الوزير، أبي الوليد بن زيدون المخزومي الأندلسي، غالبها مبني على نوع التلميح، ولا بد أن أذكر الموجب لإنشائها، بحيث يتلمح المتأمل تلميحها. وسبب إنشاء هذه الرسالة البديعة، أنه كان بقرطبة امرأة ظريفة متأدبة، من بنات خلفاء العرب المنسوبين إلى عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالداخل. في بني، عبد الملك بن مروان، تسمى ولّادة بنت المستكفي بالله، ابتذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله، فصارت تجلس للشعراء والكتاب، وتحاضرهم وتطارحهم. وكانت ذات جمال بارع وأدب غض ودماثة أخلاق، وكان لها ميل إلى ابن زيدون، بخلاف غيره من أهل العصر. فمما كتبت إليه، وهي راضية عنه:

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالبدر لم ينر وبالليل لم يظلم وبالنجم لم يسر

وكتبت إليه وهي غضبى:

إن ابن زيدون على فضله يلهج بي شتماً ولا ذنب لي[(١)]
يلحظني شزراً إذا جئته كأنما جئت لأخصي علي[(٢)]

تشير في تلميحها اللطيف إلى غلام كان متهماً به.

ومن غض شعرها قولها:

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها[(٣)]
وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

ومما ينسب إليها:

لحاظكم تجرحنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح فاجعلوا ذا بذا فما الذي أوجب جرح الصدود

---

(١) لهج بالشيء: أولع به ولزمه.
(٢) شزراً: ينظر بطرف عينيه تدليلاً على غضبه.
(٣) أتيه: افتخر.

وكان ابن زيدون كثير الشغف بها والميل إليها وأكثر غزل شعره فيها، وقد تقدم ذكر ميلها إليه، بخلاف أهل عصره من أهل الأدب، لحسن أدبه ولطائف شمائله وتقدمه على أهل زمانه.

وكان الوزير أبو عامر بن عبدوس كثير الهيمان بها، واجتهد في التوصل إليها، والاجتماع بها، والاقتطاف من ثمار آدابها الغضة، والتمتع بجمالها البارع، فعجز عن ذلك لكثرة ميلها إلى ابن زيدون، وتوصل إلى أن أرسل إليها امرأة من خواصه لتستميلها إليه، وتعرفها عظم مقامه وسمو رتبته على غيره، وتبالغ في التوصل إلى رغبتها فيه، فبلغ ذلك ابن زيدون، فأنشأ هذه الرسالة عى لسان ولادة، تتضمن سب الوزير أبي عامر والتهكم به، وبنى غالبها على نوع التلميح، وجعلها جواباً عنها، فاشتهر ذكر الرسالة في الآفاق، وأمسك الوزير ابن عبدوس عن التعرض إلى ولادة.

فمن سجعات الرسالة المبنية على التلميح قوله منها، على لسان ولادة، يخاطب الوزير ابن عبدوس: حتى قالت إن باقلاً موصوف بالبلاغة إذا قرن بك. هذا التلميح فيه إشارة إلى عمرو بن ثعلبة الأيادي الذي يضرب به المثل في العيّ، فيقال: فلان أعيى من باقل. قال أبو عبيدة: بلغ من عيه أنه اشترى ظبيا بأحد عشر درهماً، فلقيه شخص والظبي معه فقال له: بكم اشتريته؟ ففتح كفيه، وفرق أصابعه، وأخرج لسانه يشير إلى أحد عشر فهرب الظبي.

[ومنها]: وهبنقة مستوجب لاسم العقل إذا أضيف إليك. هذا التلميح يشير فيه ابن زيدون إلى يزيد ابن ثروان، أحد بني قيس ابن ثعلبة الملقب بهبنقة، المكنى بأبي الودعات، لأنه نظم ودعا[1] في سلك وجعله في عنقه علامة لنفسه لئلا يضيع، وهو جاهلي يضرب به المثل في الحمق. قيل إنه كان إذا رعى غنماً أو إبلاً جعل مختار المراعي للسمان، ونحى المهازيل عنها، وقال: لا أصلح ما أفسد الله. واختصم بنو راسب وبنو طفاوة في شخص يدّعونه، وأطلعوا هبنقة على أمرهم، فقال: ألقوه في البحر فإن رسب فهو من بني راسب وإن طفى فهو من بني طفاوة. واشترى أخوه بقرة بأربعة أعنز فركبها، فأعجبه عدوها، فالتفت إلى أخيه وقال: زدهم عنزاً. فضرب بها المثل للمعطي بعد إمضاء البيع، ثم سار فرأى أرنباً تحت شجرة، ففزع منها، وهمز البقرة، وقال:

الله نجاني ونجا البقرة   من جاحظ العينين تحت الشجره

---

(١) الودع: جمع ودعة وهي صدفة صغيرة تخرج من البحر في جوفها دويبة صغيرة.

[ومنها]: وطويساً ما نور عنه يمن الطائر إذا قيس عليك. هذا التلميح يشير به إلى عيسى بن عبد الله، مولى بني مخزوم، وكنيته أبو النعيم، كان مخنثاً ماجناً ظريفاً يسكن المدينة، وهو أول من غنى على الدف بالعربية، ولكن ضرب في شؤمه المثل. فإنه ولد يوم قبض رسول الله ﷺ، وفطم يوم مات أبو بكر، وختن يوم قتل عمر، وزوج يوم قتل عثمان، وكانت أمه تمشي بالنميمة بين نساء الأنصار.

ومن تلميح هذه الرسالة، التي هي غاية في هذا الباب، قوله منها يشير إلى ابن عبدوس: والله لو كساك محرق البردين، وحلّتك مارية بالقرطين، وقلدك عمرو الصمصامة، وحملك الحرث على النعامة، ما شككت في إياك، ولا كنت إلا ذاك. السجعة الأولى تشير في تلميحها إلى عمرو بن المنذر بن ماء السماء، كان يسمى من شدة بأسه محرّقاً، وقصة هذه التسمية استوفى أبو الفرج، صاحب الأغاني شرحها في كتابه، وأما قصة البردين فحكي أن الوفود اجتمعت عند محرق، فأخرج من لباسه بُردين، وقال: ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما. فقام عامر بن أحيمر فأخذهما، فائتزر بواحدة وارتدى بالأخرى، فقال له محرق: أنت أعز العرب قبيلة؟ فقال: نعم، لأن العز كله في معدّ والعدد في معدّ، ثم في نزار، ثم في مضر، ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في كعب، فمن أنكر ذلك فليناظرني. فسكت الناس. فقال: هذه عشيرتك كما تزعم، فكيف أنت في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عشرة، وأخو عشرة، وعم عشرة، وخال عشرة، وها أنا في نفسي وشاهد العز شاهدي، ثم وضع قدمه على الأرض، وقال: من أزالها من مكانها فله مائة من الإبل. فلم يقم إليه أحد فخرج بالبردين، وضرب المثل بعزه وببرديه.

والسجعة الثانية تشير في تلميحها إلى مارية وقصتها المشهورة بالقرطين. وهي مارية ابنة ظالم بن وهب الكندي، زوج الحرث الأكبر الغساني، ملك العرب بالشام، وهي أم الحرث الأصغر، وأمها هند الهنود، وكان في قرطيها درّتان عجيبتان كبيضتي الحمام، ولم ير مثلهما، توارثتهما الملوك إلى أن وصلتا إلى عبد الملك بن مروان، فوهبهما لابنته فاطمة، لما زوجها بعمر بن عبد العزيز، فلما ولي عمر الخلافة قال لها: إن أحببت المقام عندي فضعي القرطين والحلي في بيت مال المسلمين، فأجابته إلى سؤاله، فلما مات وولي يزيد بن عبد الملك أرسل إليها يقول لها: خذي القرطين والحلى، فقالت: لا والله ما أوافقه في حال حياته وأخالفه بعد وفاته.

والسجعة الثالثة، تشير في تلميحها إلىَ عمرو بن معديكرب الزبيدي، الفارس المشهور بكثرة الغارات والوقائع بين العَرَب في الجاهلية، قبل إسلامه، وكان يكنى أبا ثور، والصمصامة سيفه المشهور. قال عبد الملك بن عمر: أهدت بلقيس إلى سليمان

عليه السلام خمسة أسياف، وهم ذو الفقار، وذو النون، ومخذم، ورسوب، والصمصامة. فأما ذو الفقار فكان لرسول الله ﷺ، أخذه من منبه بن الحجاج يوم بدر. ومخذم ورسوب كانا للحرث بن جبلة الغساني. وذو النون والصمصامة لعمرو بن معديكرب. وانتقلت الصمصمة إلى سعيد بن العاص، ولم تزل إلى أن صعد المهدي البصرة، فلما كان بواسط ٰرسل إلى بني العاص يطلب الصمصامة منهم فقالوا إنه قد صار محتسباً في السبيل، فقال: خمسونِ سيفاً في السبيل أغنى من سيف واحد، وأعطاهم خمسين سيفاً وأخذه، ثم وصل إلى المتوكل فدفعه إلى بعض مماليكه الأتراك فقتله به.

والسجعة الرابعة تشير في تلميحها إلى فرس الحرث بن عباد التغلبي، سيد بني وائل، سمتها العرب لخفتها وسرعة جريها بالنعامة، وضربت بها الأمثال. وكان الحرث يكرر قوله، في كل وقت، بإنشاده: قربا مربط النعامة مني. انتهى. ولولا خوف الإطالة لأوردت من هذه الرسالة غالب تلميحها، فإنها نسيج وحدها على هذا المنوال، أعني التلميح.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي على هذا النوع قوله:

أن ألقها تتلقف كل ما صنعوا   إذا أتيت بسحر من كلامهم(١)

بيت الشيخ صفي الدين هنا أيضاً متعلق بما قبله، والضمير في ألقها، عائد على العصا، فإنه قال في بيت الاقتباس:

هذي عصاي التي فيها مآرب لي   وقد أهش بها طوراً على غنمي(٢)

وقال بعده في بيت التلميح: أن ألقها. البيت. ورأيته يسلك هذا المسلك في غالب بديعيته، وهو غير لايق به، إذ المراد من كل بيت أن يكون شاهداً على ذلك النوع بمجرده، والتلميح في بيته هو الإشارة إلى قصة موسى عليه السلام مع السحرة لما ألقى العصا.

وبيت العميان في بديعيتهم:

ويقرع السمع عن حق زواجره   قرع الرماح ببدر ظهر منهزم(٣)

---

(١) تلقف: تبتلع.

(٢) أهش: أهوّل.

(٣) الزواجر: جمع الزاجر وهو الرادع

العميان أشاروا في تلميحهم إلى قصة يوم بدر، ولكن ليس على شمائل بيتهم من رونق التلميح لمحة. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعيته قوله:

وبان في كتب التاريخ من قدم ... تلميح قصة موسى مع معدهم

لم ألمح، من خلال بيت الشيخ عز الدين غفر الله له، لمحة تدلني على نور التلميح، لكنه حكى جكاية مضمونها، أن كتب التاريخ القديمة بان فيها تلميح قصة موسى، عليه السلام، مع معد. والله أعلم.

وبيت بديعيتي تقدمني في تلميحه أبو تمام، بقوله متغزلاً، في بعض قصائده، وقد سفرت محبوبته من جانب الخدر ليلاً:

فردت علينا الشمس والليل راغم ... بشمس لهم من جانب الخدر تطلع
فوالله ما أدري أأحلام نائم ... ألمت بنا أم كان في الركب يوشع

فلما انتهيت في نظم بديعيتي إلى هذا النوع، أعني التلميح، رأيت النبي ﷺ أحق به، وأنا أحق به من أبي تمام، فإني نظمته في سلك المعجزات النبوية، فهامت عيون الأذواق إلى بهجة تلميحه، وقد تقدم قولي في بيت التشبيه عن النبي ﷺ:

والبدر في التم كالعرجون صار له ... فقل لهم يتركوا تشبيه بدرهم

ثم قلت بعده في التلميح:

ورد شمس الضحى للقوم خاضعة ... وما ليوشع تلميح بركبهم

أنظر أيها المتأمل إلى انسجام هذا البيت مع الذي قبله، وإلى ظهور النقص في بيت أبي تمام، بانتقال نور التلميح إلى شرف هذا البيت النبوي. والله أعلم.

ذكر تشبيه شيئين بشيئين

شيآن قد أشبها شيئين فيه لنا تبسم وعطا كالبرق في الديم

هذا النوع، أعني تشبيه شيئين بشيئين، من المحاسن العزيزة الوقوع، بخلاف كبيرة العدد في التشبيه، فإن ذلك نوع اللف والنشر أحق به، وهو في الاصطلاح، أن يقابل الشاعر بين الأربعة ويلتزم أن كل واحد من المشبه يسد مسد المشبه به.

ومما حكي عن بشار بن برد أنه قال: ما زلت، منذ سمعت قول امرىء القيس في وصف العقاب:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والحشف البالي[1]

لا يأخذني الهجوع حسداً له، إلى أن قلت في وصف الحرب:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوت كواكبه[2]

ومما يعجبني، في هذا الباب إلى الغاية، قول إبراهيم بن سهل الإشبيلي:

كأن القلب والسلوان ذهن يحوم عليه معنى مستحيل

ومن الغايات التي لا تدرك في هذا الباب، وأنا أستغفر الله قولي من قصيدة:

وحمرة الخد أبدت خيط عارضه فخلت كأس مدام وهو مشعور[3]

---

(١) رطباً ويابساً: نيئاً ومشوياً: النبيء يشبه العناب ـ والمشوي يشبه الحشف القديم والحشف هو أردأ التمر.

(٢) النقع: الغبار. وقد روي: «تهاوى» بدل تهاوت: و «تهاوى» أبلغ في التشبيه وتؤدي معنى تهاوت وزيادة الحركه التي تحسها في حروف الكلمه: تتهاوى.

(٣) مشعور: مكسور كسراً لم يؤد إلى انفصال أجزائه.

وبيت الشيخ صفي الدين الحلي في بديعيته:

تلاعبوا تحت ظل السمر من مرح   كما تلاعبت الأشبال في الأجم[1]

بيت الشيخ صفي الدين في هذا النوع عامر بالمحاسن، رافل في حلل الانسجام، والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم.

وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعيته قوله:

شيئان تشبيه شيئين انتبه لهما   حلم وجهل هما كالبرء والسقم

نعوذ بالله من آفة الغفلة، ممدوح هذا البيت، هو النبي ﷺ، وقد تقدمه قوله في مديحه:

هل من مقاربة في السير بعد نوى   بأطيب التمر بين العرب والعجم[2]

وقال بعده هذا البيت الداثر. وقد سلمنا أنه قابل فيه حلم النبي ﷺ بالبرء، وأما ذكر الجهل في هذا البيت فهو في غاية الجهل، وليس له ما يقابله غير التأديب على قلة أدبه، وقد قابل به السقم ولا أعلم ما مراده به. وطالعت شرحه فوجدته قد قرر حد النوع، وفر من الكلام على معنى البيت بخلاف أبيات القصيدة.

وبيت بديعيتي أقول فيه عن النبي ﷺ:

شيئان قد أشبها شيئين فيه لنا   تبسم وعطا كالبرق في الديم

هذا البيت البديع في لفظه ومعناه، ما أشك أن أبا بكر[3] مقدم فيه على الحلي والموصلي، فإنه وضعه في محله، والنبي ﷺ أحق به من كل ممدوح، وقد جمع فيه بين حسن اللف والنشر وبليغ التشبيه. وأما مراعاة النظير في مديحه بين البرق والديم فليس لها نظير. والله أعلم.

(١) السمر: الرماح ـ الأجم: التلال التفت أشجارها.
(٢) النوى: السفر.
(٣) أبو بكر: يعني المؤلف نفسه.

ذكر الانسجام

لـه انسجام دمـوعي في مدائحـه   بالله شنف بها يـا طيب النغم[1]

المراد من الانسجام أن يأتي، لخلوّه من العقادة، كانسجام الماء في انحداره، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة. ولعمري، إن طيور القلوب ما برحت على أفنان هذا النوع واقعة، وبمحاسنه الغضة بين الأوراق ساجعة، وأهل الطريق الغرامية هم بدور مطالعه، وسكان مرابعه، فإنهم ما أثقلوا كاهل سهولته بنوع من أنواع البديع، اللهم إلا أن يأتي عفواً من غير قصد، وعلى هذا أجمع علماء البديع في حد هذا النوع، فإنهم قرروا أن يكون بعيداً من التصنع، خالياً من الأنواع البديعية، إلا أن يأتي في ضمن السهولة من غير قصد.

وغالب شعر الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماه، سقى الله من غيث الرحمة ثراه، ماشٍ على هذا التقرير ويأتي التمثيل به في مكانه إن شاء الله تعالى.

الانسجام في النثر:

وإن كان الانسجام في النثر، يكون غالب فقراته موزونـة، من غير قصـد لقوّة انسجامه، وأعظم الشواهد على هذا ما جاء في القرآن العظيم من الموزون بغير قصد، في بيوت وأشطار بيوت، فمن الطويل الذي جاء على أصل الدائرة في القرآن العظيم:

---

(١) شنّف: زيّن.

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[1] وتفعيله القياسي فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن. كقول الشاعر:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد فقد زادني مسراك وجداً على وجدي[2]

وجاء في بحر المديد من العروض الثانية المحذوفة، قوله تعالى: ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾[3] كقول الشاعر:

اعلموا أني لكم حافظ شاهداً ما دمت أو غائبا

ومن مصرعه:

زعم النعمان ملك العرب ليس ينجي من عصاه الهرب

وجاء، في بحر البسيط من العروض الأولى المخبونة، قوله تعالى: ﴿فأصبحوا لا يُرى إلا مساكنهم﴾[4] كقول الشاعر: ما بال عينيك منها الماء ينسكب.

وجاء في الوافر من العروض الأولى المقطوفة والضرب المقطوف، قوله تعالى: ﴿ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾[5] كقول الشاعر:

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا[6]

وجاء في الكامل من العروض الصحيحة المجزوة، والضرب المجزوّ المذال قوله تعالى: ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾[7] كقول الشاعر: أُبني لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبير.

وجاء في الهزج، من عروضه المجزوة، وضربها المحذوف قوله تعالى: ﴿فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾[8] كقول الشاعر:

وما ظهري لباغي الضيم بالظهر الذلول

---

(١) الكهف، ١٨/ ٢٩.

(٢) الصبا: الريح الجنوبية - هاج: تحرك وثار - الوجد: شدة الشوق.

(٣) هود، ١١/ ٣٧.

(٤) الأحقاف، ٤٦/ ٢٥.

(٥) التوبة، ٩/ ١٤.

(٦) الأندرينا، إسم مكان مشهور بصناعة الخمور الجيدة.

(٧) البقرة، ٢/ ٢١٣.

(٨) يوسف، ١٢/ ٩٣.

وجاء في الرجز، قوله تعالى: ﴿وذللت قطوفها تذليلاً﴾[1] كقول الشاعر:

شــالـوا على جمــالهم جمــالهم وســار حــادي عيسهم يغني[2]

وجاء في الرمل من العروض الثانية المجزوة، والضرب الثاني المجزو، قوله تعالى: ﴿وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾[3]، كقول الشاعر:

مـقفـرات دارســات مثل آيات الزبور[4]

ومن مصرعه:

أيّ شخص كـابــان عنـد ضـرب وطعان

وجاء في السريع، من العروض الأولى المطوية المكسوفة، قوله تعالى: ﴿قال فما خطبك يا سامري﴾[5] ومنه ﴿أو كالذي مرَّ على قرية﴾[6] كقول الشاعر:

يــا هنـد يــا أخت بني عــامــر لــست على هجــرك بــالـصّــابــر

وجاء من المنسرح، من العروض الأولى الوافية، قوله تعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة﴾[7]، كقول الشاعر: زموا المطايا بالواد ما ودعوا. وجاء من الخفيف، من العروض التامة الصحيحة، قوله تعالى: ﴿أرأيت الذي يكذب بالدين﴾[8]. كذا أورده صـاحب المفتاح، ومنـه: ﴿لا يكادون يفقهـون حديثاً﴾[9]. وهذا من مستخـرجات المصنف فسح الله في أجله، كقول الشاعر:

ليت مــا فــات من شبــابي يعــود كيـف والشيب كــل يــوم يــزيـد

وجاء من المضارع، وهو بحر قليل الاستعمال جداً، ومنهم من لم يعده بحراً، ولا

---

(١) الانسان، ٧٦/١٤..

(٢) شالَ: حمل - حادي العيس: هو الذي يحدوها أي يستحثها للمسير، بواسطة الحداء. الذي هو نوعٌ من الغناء.

(٣) سبأ، ٣٤/١٣.

(٤) الزبور: هو الكتاب الذي أنزل على داوود عليه السلام(الصحف)

(٥) طه، ٢٠/٩٥.

(٦) البقرة، ٢/٢٥٩.

(٧) الإنسان، ٧٦/٢.

(٨) الماعون، ١٠٧/١.

(٩) النساء، ٤/٧٨.

جاء فيه شعر معروف. وقيل إنه لم يسمع من العرب. وقال أبو العباس العتابي في كتابه المسمى «بنزهة الأبصار في أوزان الأشعار»: إن الخليل جعله جنساً وأحسبه قاسه وما أدري ما روي في كتب العروض، أمصنوع هو أم مسموع من العرب. انتهى كلام العتابي. وتفاعيله في الأصل: مفاعيلن فاع لاتن مفاعيلن، ومثلها ولكنه ما استعمل إلا مجزواً فبقي مربعاً. فمما وقع من مخرومه في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿يوم التناد يوم تولون مدبرين﴾[1] والخرم هنا حذف الأول من مفاعيلن. فعاد فاعيلن، فنقل إلى مفعولن فتفاعيل هذه الآية الشريفة مفعول فاعلات مفاعيل فاعلات، كقول الشاعر:

قلنـا لهـم وقـالـوا وكـل لـه مـقـال

وجاء في المقتضب من العروض المجزوة المطوية، قوله تعالى: و﴿في قلوبهم مرض﴾[2] وتفعيل ذلك فاعلات مستعلن. وجاء فيه من الشعر:

أقـبـلـت فـلاح لـهـا عـارضـان كـالـسـبـج[3]

ومن مصرعه:

غـنـنـا عـلى الـدرج بـالـخـفـيـف والـهـزج

وهذا البحر في القلة كبحر المضارع، إلا أنه سمع منه أبيات على عهد رسول الله، ﷺ، منها:

هـل علـيّ ويـحـكـمـا إن عـشـقـت مـن حـرج

وجاء في المجتث من العروض الصحيحة المجزوة، والضرب المجزو، قوله تعالى: ﴿نبيء عبادي اني أنا الغفور الرحيم﴾[4] كقول الشاعر:

الـبـطن منـهـا خـمـيص والـوجـه مثـل الهلال[5]

وجاء في المتقارب، من العروض الأولى الوافية، قوله تعالى: ﴿وأملي لهم ان كيدي متين﴾[6] فعولن فعولن فعولن فعولن، كقول الشاعر:

---

(١) غافر، ٤٠/٣٣.

(٢) البقرة، ٢/١٠.

(٣) السبج: الخرز الأسود، ويبدو شديد الملاسة واللمعان.

(٤) الحجر، ١٥/٤٩.

(٥) خميص: خاوي. فارغ.

(٦) الأعراف، ٧/١٨٣ والقلم، ٦٨/٤٥.

فـأمـا تـمـيـم تـمـيـم بـن مـر فـألفـاهـم القـوم روبى نيـامـا[1]

ولولا الإطالة لذكرت ما دخل فيما أوردته من الزحاف، وقد أوردت هنا خمسة عشر بحراً، ولم أذكر المتدارك، إذ هو محدث اخترعه المتأخرون، ولم تعرفه العرب في الزمن المتقدم، وهو خارج عن الخمسة عشر بحراً، وقال ابن الحاجب في عروضه:

وخمسة عشر دون مـا متدارك وما عده منها الخليل فعـدلا

الانسجام في الشعر:

انتهى ما أوردته من الانسجام المنثور، وأما الانسجام في النظم، فقد تقدم وتقرر أن أصحاب المذهب الغرامي هم سكان بيوته العامرة، وكناس[2] آرامه التي هي غير نافرة. ولكن العرب على كل تقدير ملوك هذا الشان، وقلائد هذا العقيان. وقد عنَّ لي أن أذكر، هنا، ما فرّوا به من وعر التركيب، وشرعوه في أبياتهم على سهل الانسجام، وأركض في أثر هذه الأبيات بسوابق الفحول، فإنها أبيات لها حرمة وذمام، وأعرّج بعد ذلك على البيوت الغرامية، وأتنسم أخبار الهوى العذري من بين تلك الخيام، فمن الانسجام الذي وقع للعرب، وكاد أن يسيل رقة لسهولته، قول امرىء القيس في معلقته:

أغـرّك مني أن حبـك قـاتلي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

وقوله من غير المعلقة:

أجـارتنـا إنـا غـريبـان ههنـا وكـل غـريب للغـريب نسيب

ومثله، في الانسجام والرقة، قول طرفة بن العبد في معلقته:

فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي[3]

ومثله قوله منها:

وظلم ذوي القربى أشد مضـاضة على الحرّ من وقع الحسام المهند[4]

ومثله قوله منها:

فـإن مت فـانعيني بمـا أنـا أهله وشقي عليَّ الجيب يا أم معبد[5]

---

(١) روبى: جمع رائب وهو الذي يبدو كالدايخ.

(٢) الكناس: بيت الرئم.

(٣) دفع: ردّ ـ بادر: واجه.

(٤) مضاضة: إيلاماً.

(٥) اذكري موتي بما أستحقه ـ وشقي عليّ الجيب: أي اندبيني، من الندبة، وشق الجيب علامة الحزن.

ومثله قوله منها:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأنباء من لم تبع له بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد
لعمرك ما الأيام إلا مفازة فما اسطعت من معروفها فتزود
عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي

ومثله، في لطف الانسجام، قول زهير بن أبي سلمى في معلقته:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه ولو رام أسباب السماء بسلم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يغترر يحسب عدواً صديقه ومن لا يكرّم نفسه لا يكرّم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم[1]
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبا لك يسأم

وأحسن ختامها في الانسجام بقوله:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي

ومثله قول لبيد بن ربيعة من معلقته:

فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت في معشر أوفى بأعظم حظنا قسامها

ومن الغايات، في باب الانسجام، قول عنترة في معلقته:

فإذا شربت فإنني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم[2]
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمايلي وتكرمي[3]

ومن ذلك قول عمرو بن كلثوم في معلقته:

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

---

(١) صانع: دارى من المصانعة وهي المدارة والمداهنة.
(٢) وافر: لايمسه سوء ـ لم يكلم: لم يخدش.
(٣) الندى: الكرم والجود.

إذا ما الملك سام الناس خسفاً ... أبينا أن يقر الخسف فينا[1]
إذا بلغ الفطام الطفل منا ... تخر له الجبابر ساجدينا[2]
ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وظهر البحر نملؤه سفينا
ألا لا يجهلن أحدٌ علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ومثله قول الحرث بن حلزة في معلقته وهي المعلقة السابعة:

لا يقيم العزيزُ في البلد السهـ ... ـل ولا ينفع الذليل النجاء[3]

ومن الانسجامات التي عدها صاحب المرقص والمطرب، من المطرب قول زهير:

تراه إذا ما جئته متهللاً ... كأنك معطيه الذي أنت سائله

ومن الانسجامات المعدودة من المرقص، قول النابغة الذبياني:

وإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ومن الانسجام المعدود من المطرب، قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه ... لا بارك الله بعد العرض في المال
أحتال للمال ان أودى فأكسبه ... ولست للعرض إن أودى بمحتال[4]

وعدوا من الانسجام المرقص، قول كعب بن زهير:

ولا تمسُّكُ بالعهد الذي وعدت ... إلا كما يمسك الماء الغرابيل[5]

ومن المطرب قول الشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجد ... تلقاها عُرابة باليمين

ويعجبني من لامية العرب قول الشنفري بن مالك:

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى ... وفيها لمن خاف القلى متحول[6]

---

(١) سام: أولى ـ الخسف: الذل والظلم.

(٢) الجبابر: الجبابرة. ويروى هذا البيت: إذا بلغ الفطامَ «لنا صبيّ» بدل: «الطفل منا».

(٣) السهل: المهان ـ النجاء: النجاة هرباً.

(٤) أودى: ذَهَب ونفد.

(٥) الغرابيل: جمع غربال آلة يدوية بدائية لتنقية الحبوب وهو عبارة عن قطعة من الخشب مستديرة تلصق عليها قطعة من الجلد مخرمة.

(٦) منأى: مبعد ـ القلى: الهجر.

ومثله من لامية العجم، وإن تأخر عصرها:

إن العلى حدثتني وهي صادقة ... فيما تحدث أن العز في النقل
لو أن في شرف المأوى بلوغ منى ... لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل[1]

وعدوا من الانسجام المطرب قول مجنون ليلى في قصيدته المشهورة:

وقد خبروني أن تيماء منزل ... لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذي شهور الصيف عنا ستنقضي ... فما للنوى ترمي بليلى المراميا
أعدّ الليالي ليلة بعد ليلة ... وقد عشت دهراً لا أعد اللياليا
وأخرج من بين البيوت لعلني ... أحدث عنك النفس يا ليل خاليا
ألا أيها الركب اليمانون عرجوا ... علينا فقد أمسى هوانا يمانيا[2]
يميناً إذا كانت يميناً فإن تكن ... شمالاً ينازعني الهوى من شماليا
أصلي فما أدري إذا ما ذكرتها ... اثنتين صليت الضحى أم ثمانيا
خليلي لا والله لا أملك الذي ... قضى الله في ليلى ولا ما قضى ليا
قضاها لغيري وابتلاني بحبها ... فهلا بشيء غير ليلى ابتلانيا
ولو أن واش باليمامة داره ... وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا[3]
وماذا لهم لا أحسن الله حالهم ... من الحظ في تصريم ليلى حباليا[4]
وددت على حبي الحياة لو أنه ... يزاد لها في عمرها من حياتيا
على أنني راض بأن أحمل الهوى ... وأخلص منه لا عليَّ ولا ليا
إذا ما شكوت الحب قالت كذبتني ... فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا[5]
فلا حب حتى يلصق الجلد بالحشا ... وتذهل حتى لا تجيب المناديا

ومن المرقص، في باب الانسجام، قول كثير عزة:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطح

---

(١) دارة الحمل: من أبراج الشمس الفلكية.
(٢) عرّجوا: ميلوا ومروا.
(٣) الواشي: الذي يسعى للفرقه بين الأحباء.
(٤) الضمير في لهم وما لهم يعود على الوشاة، تصريم: تقطيع حبال الود.
(٥) كواسيا: جمع كاسي، وهو الممتلىء. أو المغطى لحماً.

وعدوا من المطرب، في باب الانسجام، قول جرير:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا ثم لم يحيين قتلانا[1]
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله أركانا

وعدوا من المطرب قول بشار بن برد:

إذا جئته في حاجة سد بابه فلم تلقه إلا وأنت كمين[2]

ومن انسجامات نسيبه، التي ليس لها مناسب قوله:

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدني إليك فإن الحب أقصاني

ومثله قوله:

أنا والله أشتهي سحر عينيك وأخشى مصارع العشاق

ومثله قوله:

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم سمعت بها والأذن كالعين تعشق

ويعجبني من لطيف الانسجام، قول العباس بن الأحنف:

أفدي الذين أذاقوني مودتهم حتى إذا أيقظوني للهوى رقدوا
واستنهضوني فلما قمت منتصباً بثقل ما حملوني منهم قعدوا

ومثله قوله:

لولا محبتكم لما عاتبتُكُمْ ولكنتُمْ عندي كبعض الناس

ومثله قوله:

طاف الهوى في عباد الله كلهم حتى إذا مر بي من بينهم وقفا

ومثله قوله:

وسعى بنا واش فقالوا إنها لهي التي تشقى بها وتكابد
فجحدتهم ليكون غيرك ظنهم إني ليعجبني المحب الجاحد

تقدم لهذين البيتين نكتة لطيفة تؤيد تأكيد انسجامهما وعذوبة ألفاظهما، وهي أنه رفع للرشيد موت العباس، وإبراهيم الموصلي المعروف بالنديم، والكسائي، وهشيمة الخمارة، في يوم واحد، فأمر المأمون أن يصلى عليهم فخرج فصفوا بين يديه، فقال:

---

(١) الحور: شدة سواد سواد العين مع شدة بياض بياضها.
(٢) كمين: أي كامن حتى لا يراك.

من الأول. فقالوا: إبراهيم الموصلي. فقال: أخروه وقدموا العباس بن الأحنف. فقدم وصلى عليه. فلما فرغ وانصرف، دنا منه هاشم بن عبد الله الخزاعي فقال: يا سيدي كيف آثرت العباس بالتقديم على من حضر! فقال: بقوله: وسعى بنا واش. البيتين، ثم قال: أتحفظهما؟ فقلت: نعم. فقال: أليس من قال هذا الشعر، أولى بالتقديم؟ فقلت: بلى والله يا سيدي. انتهى.

وقد تقدم قولي وتكرر: ان أصحاب الطريق الغرامية هم موالي رقيق الانسجام وتجار سوقه، ولولا نسمات أنفاسهم ما تنسمنا أخبار الحمى وتغزلنا في سفحه وعقيقه. وقد ألجأتني ضرورة الجنسية إلى ضم المتقدمين مع المتأخرين، لئلا ينفرط لعقودها نظام: وإذا أخرت من تقدّم وأوردت له غير الطريق الغرامي، كان جلّ القصد من ذلك معرفة أنواع الانسجام. فمن الانسجام الغرامي قول الشريف الرضي، وهو الذي قال في حقه الثعالبي في كتاب اليتيمة: هو أشعر الطالبيين، قديماً وحديثاً، على كثرة شعرائهم المفلقين. ولو قلت: إنه أشعر قريش، لم أبعد عن الصدق والقول الموعود بإيراده قوله:

نسرق الدمع في الجيوب حياءً ... وبنا ما بنا من الأشواق[1]
لا أذم السراء في طلب العز ... ولكن في فرقة العشاق
يوم لا غير زفرة من فؤاد ... ذي قروح ورشقة من مآق
والثرى منتشٍ يعاقره السير ... دماً جارياً بأيدي النياق[2]
أمعيني على بلوغ الأماني ... وشفائي من علتي واشتياقي
أينعت بيننا المودّة حتى ... جللتنا والزهر بالأوراق[3]
كم مقام خضنا حشاه إلى اللهو ... جميعاً والليل ملقى الرواق[4]
ومزجنا خمر الرضابين في الرشـ ... ـف برغم المدام تحت العناق
قم نبادر رمي الظلام ببين ... بسهام الخطوب في الاتفاق
واغتنمها قبل الفراق فما نعـ ... ـلم يوماً حتى يكون التلاقي
نحن غصنان ضمنا عاطف الوجـ ... ـد جميعاً في الحب ضم النطاق[5]
في جبين الزمان منك ومني ... غرّة كوكبية الائتلاق

---

(١) الجيوب: مفردها جيب وهو فتحة الثوب التي يدخل منها الرأس.
(٢) يعاقره، يساقيه. يشربا معاً.
(٣) أينعت: نضجت - جللتنا: غطتنا.
(٤) الرواق: الستار. ورواق الليل ظلامه.
(٥) النطاق: حزام يشد به الوسط.

كلما كرّت الليالي علينا   شق منا الوفاء جيب الشقاق
أيها الرائح المغذّ تحمل   حاجة للمتيم المشتاق(١)
أقرِ مني السلام أهل المصلى   فبلاغ السلام بعض التلاقي
وإذا ما مررت بالخيف فاشهد   أن قلبي إليه بالأشواق
وإذا ما سئت عني فقل نضـــــــو هوى ما أظنه اليوم باقي(٢)
وابك عني فطالما كنت من قبـــــــل أعير الدموع للعشاق

ومثله قوله من أبيات:

سهمك مدلول على مقتلي   فمن يرى سهمك يا قاتل
ليس لقتلي ثائر يتقي   وليس في سفك دمي طائل
قد رضا المقتول كل الرضا   وا عجباً لم سخط القاتل

ومثله قوله من أبيات:

نكست لحظ العين حين خطا   والبين يرمقني ويرمقه
أذبت دمعي يوم ودّعني   في صحن خدّ ذاب رونقه
واللثم يركض في سوالفه   يكاد خيل الدمع يسبقه

ومثله قوله:

خذي نفسي يا ريح من جانب الحمى   فلاقي به ليلاً نسيم ربى نجد
فإن بذاك الحيّ حباً عهدته   وبالرغم مني أن يطول به عهدي
ولولا تداوي القلب من ألم الجوى   بذكر تلاقينا قضيت من الوجد(٣)

ومثله قوله من أبيات:

عارضا بي ركب الحجاز أسائلـــــــه متى عهده بسكان سلع
واستملا حديث من سكن الجز   ع ولا تكتباه إلا بدمعي(٤)
عزني أن أرى الديار بطرفي   فلعلي أرى الديار بسمعي(٥)

---

(١) المغذ: المسرع السير.
(٢) نضو: ضعيف مهزول..
(٣) الجوى: شدة الشوق ـ قضى: مات ـ الوجد: الإشتياق الشديد.
(٤) استملا: اطلبا إملاء، والإملاء هو أن يقرأ أحد شخصين ويكتب الثاني.
(٥) عزني: أي لم أستطع.

ومن الانسجامات، التي ينسجم الدمع لرقتها، قول تلميذه مهيار الديلمي:

ظنَّ غَداة البين أن قد سلما ... لما رمى سهماً وما أجرى دما
فعاد يستقري حشاه فإذا ... فؤاده من بينهم قد عدما[1]
يا قاتل الله العيون خلقت ... لو أخطا فكيف صارت أسهما
أودعني السقم وولى هازئاً ... يقول قم واستشف ماء زمزما
ولو أباح ما حمى من ريقه ... لكان أشفى لي من الماء اللما[2]
وا بأبي ومن يبيع بأبي ... على الظما ذاك الزلال الشبما[3]
كأنما الصهباء في كافورة ... قد مزجت وجلَّ عن كأنما

ومثله قوله:

أستنجدُ الصبر فيكم وهو مغلوب ... وأسأل النوم عنكم وهو مسلوب
وأبتغي عندكم قلباً سمحت به ... وكيف يرجع شيء وهو موهوب
ما كنت أعلم ما مقدار وصلكم ... حتى هجرت وبعض الهجر تأديب

ومثله قوله وهو في غاية اللطف:

بطرفك والمسحور يقسم بالسحر ... أعمداً رماني أم أصاب ولا يدري
رنا اللحظة الأولى فقلت مجرِّب ... وكرَّرها أخرى فأحسست بالشرّ

ومثله قوله في اللطف:

من عذيري يوم شرقيّ الحمى ... من هوى جدّ بقلبي مرحا[4]
الصبا إن كان لا بد الصبا ... إنها كانت لقلبي أروحا
يا ندامايَ بسلع هل أرى ... ذلك المغبق والمصطبحا[5]

---

(١) يستقري: يتفحص.

(٢) اللما: أخذه بأجمعه. وتقدير الكلام: لو أباح ما حمى من ريقه فإن أخذ هذا الريق بأجمعه كان أشفى لي من شرب الماء.

(٣) الشبم: من الماء: البارد.

(٤) العذير: الناصر والمساعد.

(٥) المغبق والمصطبحا: مكان الاغتباق أو مكان شرب الغبوق وهو شرب الخمر مساءً، ومكان الاصطباح وهو شرب الصبوح أي شرب الخمرة صباحاً.

اذكـرونـا مثـل ذكـرانـا لكـم رب ذكـرى قـربت من نـزحـا
وارحـمـوا صبـا إذا غنى بكـم شـرب الـدمـع وعـاف القـدحـا

منها:

وعـرفـت الهـم مـذ فـارقتكـم فكـأنـي مـا عـرفـت الفـرحـا

ومثله قوله من قصيدة:

بكـر العـارض يحـدوه النعـامى فسقـاك الـريّ يـا دار أمـامـا[1]
وتـمشـت فيـك أرواح الـصبـا يتـأرّجن بـأنفـاس الخـزامى[2]
قد قضى حفظ الهوى أن تصبحي للمحبين منـاخـاً ومقـامـا[3]
وبجـرعـاء الحمى قلبي فـعـج بالحمى واقر على قلبي السلاما[4]
وتـرحـل فـتـحـدث عـجبـاً إن قلباً سـار عن جسم أقـامـا
قـل لجيـران الغضى آهـاً على طيب عيش بالغضى لو كان داما
حملوا ريـح الصبا من نشـركم قبل أن تحمل شيحاً أو ثماما[5]
وابعثوا أشباحكم لي في الكرى إن أذنتم لجفـوني أن تنـامـا

ومن الغايات، في باب الانسجام، قول الوأواء الدمشقي:

بـالله ربكمـا عـوجا على سكني وعـاتبـاه لعـل العتب يعـطفـه[6]
وحـدثـاه وقـولا في حـديثكمـا مـا بال عبـدك بـالهجـران تتلفـه
فـإن تبسم قـولا في مـلاطفـة ما ضرَّ لـو بوصـال منك تسعفـه
وإن بدا لكما في وجهـه غضب فغـالـطاه وقـولا ليس نعـرفـه

---

(١) العارض: المطر ـ يحدوه: يسوقه ـ النعامى: ريح الجنوب لأنها في الصحراء أندى الرياح وأرطبها
(٢) أرواح: جمع ريح. ـ الصبا: رياح تهب على الصحراء العربية من جهة الشرق، تقابلها الدبور وتحمل عادة الروائح الزكية ـ تأرّج: صار ريحه ريح الأريج.
(٣) قضى: حكم ـ مناخاً: محط رحال ـ مقاما: مكان الإقامة.
(٤) عج: أمر من عاج: عرّج ومرّ. . .
(٥) النشر: الرائحة الطيبة ـ الشيح: نبات سهلي طيب الرائحة ـ الثمام: عشب من الفصيلة النجيلية فروعه مزدحمه، مجتمعه.
(٦) السكن: الزوج ومنه قوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها﴾ الروم ٣٠/٢١. وقوله: ﴿وجعل منها زوجها ليسكن إليها﴾ الأعراف، ٧/١٨٩.

ومثله، في اللطف ورقة الانسجام، قول الأرّجاني:

حيتك غادية الهوى من مربع رجعت عهودي فيك أم لم ترجع
ما أساروا في كأس دمعي فضلة عنهم فأجعلها نصيب المربع[1]
لم يبكني إلا حديث فراقهم لما أسرُّ به إليَّ مودعي
هو ذلك الدرّ الذي ألقيتم في مسمعي ألقيته من أدمعي

ومثله قوله:

عوجا عليها أيها الركب لا عار أن يتساعد الصحب
قد كان لي قلب ولا ألم واليوم لي ألم ولا قلب

ومثله قوله:

أما الفؤاد فإنهم ذهبوا به يوم النوى فبقيت صفر الأضلع[2]
فكأننا لما عقدنا للنوى حلفاً بغير رهائن لم يقنع
فرهينتي معهم فؤادي دائماً والطيف من سلمى رهينتهم معي

ومثله في اللطف قول الطغرائي:

خبروها أني مرضت فقالت اضنى طارفاً شكا أم تليدا[3]
وأشاروا بأن تعود وسادي فأبت وهي تشتهي أن تعودا
وأتتني في خفية وهي تشكو ألم البعد والمزار البعيدا
ورأتني كذا فلم تتمالك ان أمالت عليَّ عطفاً وجيدا

وألطف منه، بل من النسيم، قوله:

بالله يا ريح إن مكنت ثانية من صدغه فأقيمي فيه واستتري
وراقبي غفلة منه لتنتهزي لي فرصة وتعودي منه بالظفر
وباكري ورد عذب من مقبله مقابل الطعم بين الطيب والخصر
ولا تمسي عذاريه فتفتضحي بنفحة المسك بين الورد والصدر[4]

---

(١) أساروا: أبقوا، من السؤر وهو البقية من كل شيء.
(٢) صفر الأضلع: فارغ الأضلع، ويقال: صفر اليدين للذي لا يحمل شيئاً.
(٣) الضنى: المرض والألم - الطارف: الجديد - التليد: القديم.
(٤) الورد والصدور: الورود المجيء، والصدور: العودة والرجوع.

وإن قدرت على تشويش طرته فشوشيها ولا تبقي ولا تذري
ثم اسلكي بين برديه على مهل واستبضعي وانثني منه على قدر[1]
ونبهيني دون القوم وانتفضي عليَّ والليل في شك من السحر
لعل نفحة طيب منك نائبة تقضي لبانة قلب عاقر الوطر[2]

وممن برع في الطريق الغرامية، وأينع زهر نظمه في حدائق الانسجام بها، الشيخ تقي الدين السروجي رحمه الله تعالى. قال الشيخ أثير الدين أبو حيان، رحمه الله: كان الشيخ تقي الدين، مع زهده وعفته، مغرماً بحب الجمال، وكان يغني بشعره الغرامي في عصره، لرقة انسجامه وعذوبة ألفاظه. وقال الشهاب محمود: كان الشيخ تقي الدين يكره مكاناً يكون فيه امرأة، ومن دعاه من أصحابه قال: شرطي معروف، وهو أن لا يحضر في المجلس امرأة. وكنا يوماً في دعوة، فأحضر صاحب الدعوة شواء وأمر بإدخاله إلى النساء يقطعنه ويجعلنه في الصحون، فلما حضر بعد ذلك تقرف منه، وقال: كيف يؤكل وقد لمسنه بأيديهن. وذكر أبو حيان: أنه لما توفي بالقاهرة، رابع رمضان المعظم سنة ثلاث وتسعين وستمائة، قال أبو محبوبه: والله ما أدفنه إلا في قبر ولدي، فإنه كان يهواه في الحياة، وما أفرق بينهما في الممات. هذا لما كان يعهده من دينه وعفافه، فمن انسجاماته الغرامية:

أنعم بوصلك لي فهذا وقته يكفي من الهجران ما قد ذقته
أنفقت عمري في هواك وليتني أعطي وصولاً بالذي أنفقته[3]
يا من شغلت بحبه عن غيره وسلوت كل الناس حين عشقته
كم جال في ميدان حبك فارس بالصدق فيك إلى رضاك سبقته
أنت الذي جمع المحاسن وجهه لكن عليه تصبري فرقته
قال الوشاة قد ادعى بك نسبة فسررت لما قلت قد صدقته
بالله إن سألوك عني قل لهم عبدي وملك يدي وما أعتقته
أو قيل مشتاق إليك فقل لهم أدري بذا وأنا الذي شوقته

وما ألطف ما قال منها:

يا حسن طيف من خيالك زارني من عظم وجدي فيه ما حققته
فمضى وفي قلبي عليه حسرة لو كان يمكنني الرقاد لحقته

---

(١) استبضعي: أي مري على البُضع وهو فرج المرأة.

(٢) اللبانة: الحاجة ـ العاقر: التي لا تلد ـ الوطر: الحاجة.

(٣) وصول: جمع وصل: وهو عبارة عن ورقة تثبت الإنفاق(مستحدثه).

قلت: ما نفثات السحر، إذا صدقت عزائمها، بأوصل إلى القلوب من هذه النفثات، ولا لسلاف ظلم الحبائب مع حلاوة التقبيل عذوبة هذه الرشفات.

وعدّوا من المرقص الغرامي في باب الانسجام، قول ابن الخياط الدمشقي:

أغار إذا آنست في الحي أنة حذاراً وخوفاً أن تكون لحبه[1]

ومثله قول ظافر الحداد، وقد عدّوه من المرقص:

ونفر صبح الشيب ليل شبيبتي كذا عادني في الصبح مع من أحبه

ومثله قول خالد الكاتب، وعدّوه له من المطرب:

رقدت ولم ترث للساهر وليل المحب بلا آخر

ومثله قول راجح الحلي، وعدّوه من المرقص:

يا ليل طلت ولم ترق لمغرم لم يظلموا إذ لقبوك بكافر[2]

ومثله قول ابن تقي، وهو معدود من المرقص:

باعدته عن أضلع تشتاقه كي لا ينام على فراش خافق

ويعجبني في هذا الباب قول النجيب بن الدباغ، وهو معدود من المرقص:

يا رب إن قدرته لمقبل غيري فللمسواك أو للأكؤس[3]
ولئن قضيت لنا بصحبة ثالث يا رب فَلْيَكُ شمعة في المجلس
وإذا حكمت لنا بعين مراقب في الحب فَلْتَكُ من عيون النرجس

وعدّوا من مرقصات الطريق الغرامية قول القائل:

أستغفر الله إلا من محبتكم فإنها حسناتي حين ألقاه
فإن يقولوا بأن العشق معصية فالعشق أحسن ما يعصى به الله

ومن مطرب الانسجام الغرامي، قول علية بنت المهدي:

وأحسن أيام الهوى يومك الذي تروع بالهجران فيه وبالعتب
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضا فأين حلاوات الرسائل والكتب

---

(١) أنة: واحدة الأنين وهو صوت الموجوع.

(٢) الكافر: من اسماء الليل.

(٣) المسواك: غصن شجر تنظف به الأسنان

ومثله من المطرب، قول الحسين بن الضحاك:

لـه عبثـات عنـد كـل تحيـة بعينيه تستدعي الحليم إلى الوجد(١)
رعى الله عصراً لم نبت فيه ليلة خلياً ولكن من حبيب على وعد(٢)

ومن الغايات في هذا الباب، أعني الانسجام الغرامي، ما كان يكثر من الترنم به أبو القاسم القشيري وهو:

لو كنت ساعة بيننا مـا بيننا وشهدت حين نكرر التوديعا(٣)
أيقنت أن من الـدموع محـدثـاً وعلمت أن من الحديث دموعا

ومثله قول خالد الكاتب:

بكى عاذلي من رحمتي فرحمته وكم مثله من مسعد ومعين
ورقت دموع العين حتى كأنها دموع دموعي لا دموع جفوني

ويعجبني، من هذا الباب، قول اسحق بن إبراهيم الموصلي:

على عصر أيام الصبابة والصبا ووصل الغواني والتذاذي بالشرب
سلام امرىء لم تبق منه بقية سوى نظر العينين أو شهوة القلب

ومن غراميات القاضي الفاضل، في باب الانسجام قوله:

تُرى لحنيني أو حنين الحمائم جرت فحكت دمعي دموع الغمائم
وهل من ضلوع أو ربوع ترحلوا فكل أراها دارسات المعالم(٤)
لقد ضعفت ريح الصبا فوصلتها فمنّي لا منها هبوب السمائم(٥)
دعوا نفس المقروح يحمله الصبا وإن كان يهفو بالغصون النواعم(٦)
تأخرت في حمل السلام عليكم لدينا لما قد حملت من سمائم
فلا تسمعوا إلا حديثاً لناظري يعاد بألفاظ الدموع السواجم(٧)

---

(١) عبثات: غمزات وهي من العبث وهو اللعب الذي لا طائل تحته.
(٢) خلياً: وحيداً، أو خالياً من شيء ما.
(٣) بيننا: الأولى، فراقنا.
(٤) دراسات المعالم: ممحوات الآثار.
(٥) السمائم: جمع سموم وهي رياح حارّة.
(٦) الصبا: رياح تحمل روائح طيبة تهب على الجزيرة العربية من جهة الشرق.
(٧) السواجم: المنسكبة، سجم الدمع: انصب وانسكب.

ومثله قوله:

يا طرف مالك ساهد في راقد ... يا قلب مالك راغب في زاهد
من يشتري عمري الرخيص جميعه ... من وصلك الغالي بيوم واحد
عاتبته فتورّدت وجناته ... والقلب صخر لا يلين لقاصد
فنظرت من ذي في حرير ناعم ... وضربت من ذا في حديد بارد

ويعجبني من غراميأت البها زهير قوله:

عتبتكم عتب المحب حبيبه ... وقلت بإدلال فقولوا بإصغاء
لعلكم قد صدُّكم عن زيارتي ... مخافة أمواه لدمعي وأنواء[1]
فلو صدق الحب الذي تدّعونه ... وأخلصتم فيه مشيتم على الماء
وإن تك أنفاسي خشيتم لهيبها ... وهالتكم نيران وجدٍ بأحشائي
فكونوا رفاعيين في الحب مرة ... وخوضوا لظى نارٍ لشوقي حمراء[2]

والطف منه وأسجم قوله:

تعيش أنت وتبقى ... أنا الذي مت عشقا
حاشاك يا نور عيني ... تلقى الذي أنا ألقى
ولم أجد بين موتي ... وبين هجرك فرقا
يا أنعم الناس بالاً ... إلى متى فيك أشقى
سمعت عنك حديثاً ... يا رب لا كان صدقا
وما عهدتك إلا ... من أكرم الناس خلقا
لك الحياة فإني ... أموت لا شك حقا
يا ألف مولاي مهلاً ... يا ألف مولاي رفقا
قد كان ما كان مني ... والله خير وأبقى

ومثله قوله:

أنت الحبيب الأوّل ... ولك الهوى المستقبل
عندي لك الودّ الذي ... هو ما عهدت وأكمل

---

(١) أمواه: جمع ماه ـ الأنواء: الأمواج.

(٢) رفاعيين: نسبة إلى رفاعة الطهطاوي. لشوقي: يتبادر إلى الذهن شوقي الشاعر وهي تورية المقصود بها الشوق.

القلبُ فيك مقيد والدمع منك مسلسل
يا من يهدد بالصدو د نعم تقول وتفعل
قد صح عذرك في الهوى لكنني أتعلل[1]
نفدت معاذيري التي ألقى بها من يسأل
حتام أكذب للورى وإلى متى أتحمل
قل للعذول لقد أطلت لمن تقول وتعذل
عاتبت من لا يرعوي وعذلت من لا يقبل
غضب العذول أخف من غضب الحبيب وأسهل

ومن انسجاماته التي تكاد أن لا تكون موزونة:

إن شكا القلب هجركم مهد الحب عذركم
لو رأيتم محلكم من فؤادي لسركم
لو أمرتم بما عسى ما تعدَّيت أمركم
قصَّروا مدة الجفا طوّل الله عمركم
شرِّفوني بزورة شرَّف الله قدركم
كنت أرجو بأنكم شهركم لي ودهركم
قد نسيتم وإنما أنا لم أنس ذكركم
وصبرتم وليتني كنت أعطيت صبركم
ورأيتم تجلدي في هواكم فسرَّكم[2]
لو وصلتم محبكم ما الذي كان ضرُّكم

ومن انسجاماته التي هي في غاية الظرف:

يا قلب بعض الناس هل للضيف عندك زاويه
إني ببابك قد وقفت عسى تردّ جوابيه
يا ملبسي ثوب الضنا يهناك ثوب العافيه
لم يبق مني في القميص سوى رسوم باليه[3]
وحشاشة ما أبقت الأشواق منها باقيه[4]

---

(١) التعلل: تسلية النفس وتمنيتها.

(٢) التجلد: شدة الصبر.

(٣) رسوم: بقايا.

(٤) الحشاشة: بقية الروح.

يا من إليه المشتكى أنت العليم بحاليه
وإليك عني يا غرا م فقد عرفت مكانيه
فكأنما لك قد قعد ت على طريق القافيه
من لي بقلب اشتريـــه من القلوب القاسيه
مولاي يا قلبي العزيـــز ويا حياتي الغاليه
إني لأطلب حاجة ليست عليك بخافيه
أنعم عليَّ بقبلة هبة وإلا عاريه (١)
وأعيدها لك لا عدمـــت بعينها وكما هيه
وإذا أردت زيادة . خذها ونفسي راضيه

ومثله قوله في هذا الروي:

قالوا كبرت عن الصبا وقطعت تلك الناحيه
فدع الصبا لرجاله واخلع ثياب العاريه
ونعم كبرت وإنما تلك الشمائل باقيه
وتفوح من عطفي أنـــفاس الشباب كما هيه
ويميل بي نحو الصبا قلب رقيق الحاشيه
فيه من الطرب القديـــم بقية في الزاويه

ومن غراميات الحاجري، في هذا الباب:

لك أن تشوّقني إلى الأوطان وعليَّ أن أبكي بدمع قانِ
إن الذي رحلوا غداة المنحنى ملؤوا القلوب لواعج الأشجان (٢)
فلأبعثن من النسيم إليهم ما خل بالأغصان والغزلان
نزلوا برامة قاطنين فلا تسل ما حل بالأغصان والغزلان

وقد تقدم قولي: إن الشيخ شرف الدين عبد العزيز الأنصاري، شيخ شيوخ حماه، سقى الله من غيث الرحمة ثراه، هو غيث هذا الانسجام، وغريم هذا الغرام. فمن انسجاماته الغرامية الموعود بإيرادها، قوله:

حديثي في المحبة ليس يشرح فدعني من حديث اللوم واسرح

---

(١) العارية: استعارة.

(٢) اللواعج: جمع لاعج وهو المحرق ـ والأشجان: جمع شجن وهو الحزن.

فما لك مطمع ببراح قلبي ... عن الحب الذي أعيا وبرَّح[1]
فكم من لائم أنحى إلى أن ... تأمل من هويت فما تنحنح
فيا لله ما أشهى وأبهى ... ويا لله ما أحلى وأملح
له طرف يقول الحرب أحرى ... ولي قلب يقول الصلح أصلح
سألت سواره المثري فنادى ... فقير وشاحه الله يفتح[2]
وماس من القوام بغصن بان ... إذا أنشدت أغزالي ترنح[3]
وحياني بألحاظ مراض ... صحيحات فأمرضني وصحح
أعاتبه فلا يصغي لعتبي ... ولا أسلو فأتركه وأربح

ومن غايات انسجامه قوله:

كم شرحت من وجد ... كم سفحت من دمعه
كم بعثت من رسل ... دفعة على دفعه
بنتم وأعرضتم ... ما أمرُّها جرعه
هل عليكم باس ... في المقال بالرجعه[4]
قد حججت مغناكم ... لا تحرِّموا المتعه[5]
ترك سنتي فيكم ... سادتي من البدعه[6]
هذه صبباباتي ... والوصال في منعه[7]
كيف لو تعلمتم ... غير هذه الصنعه

---

(١) برّح: اشتد بصاحبه فلم يتركه يبرح مكانه.

(٢) اللهيفتح: تعبير يستعمله المسؤول إذا أراد المنع.

(٣) ماس: تمايل ـ أغزال: غزليات ـ ترنح: تمايل حتى بدا كالسكران يوشك على الوقوع.

(٤) القول بالرجعة: الاعتقاد بأن الأئمة يرجعون مع ظالميهم ليقتصوا منهم آخراً أو هو الاعتقاد برجعة الإمام محمد بن الحسن العسكري بعد غيبتان: صغرى وكبرى، وانه«سيملأ الأرض عدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً» وهذا من اعتقادات الشيعة. أو هو مذهب من يؤمن بالرجوع إلى الدنيا بعد الموت.

(٥) حججت مغناكم: زرت داركم ـ المتعة: التمتع بالنساء: والمتعة كانت سنة على زمن النبي محمد فجاء عمر بن الخطاب فحرمها وقال: «متعتان كانتا على زمن النبي أنا أحرمهما وأعاقب عليهما». ولا يزال الشيعة يطبقون السنة في المتعة إلى يومنا هذا.

(٦) البدعة: إحداث شيء في الدين لم يكن فيه، وهذا من الافتراء والكفر.

(٧) المنعة: حماية منيعة، أي لا يمكن الوصول إليه.

يـا مليـك قلبـي خـذ ما يليـه بـالشفعـه[1]
واسِ بيـنـنـا أو لا ردنـا إلـى الـقـرعـه
لا تـحـل عنـي قـلبـي ليس فيـه من نجعـه[2]
قـد تـركـت أردانـي من مـدامعي نقعـه[3]
مـا لـنـاظـري كـحـل غـيـر هـذه الـطلعـه

ومثله قوله:

خبـروه تفصيـل حـالي جمله فـعـسـاه يـرق لـي ولـعـلـه
كم تنحنحت إذ تبـدى حـذاراً من رقيبي وكم تكلفت سعله[4]
ليس لي عن هـدى هواه ضـلال أكـثـر اللوم عـاذلـي أو أقـله
ركبت في جبلتي نشـوة العشـــــق وصعب تغيير ما في الجبله
سـادتي عادوا رضـاكم وعـودا عن جفاكم فما بقي فيَّ فضله
ذبت شوقاً فعـالجوني بقـرب مت عشقـاً فحنـطوني بقبله[5]
وأشغلوني عن لائم مـا أتـاني بـرشـاد أتـتـه آفـة غـفـله
قـلت بـالله خلنـي فـتـمـادى وقـنـيـل مـن يـتـرك الـشـر لله

ومثله قوله:

صـب أخـذ الـهـوى زمـامـه قـد صـار جـمـالكـم أمـامـه
فـي حسنكم البـديـع شـغـل عـن عـلوة لـي وعـن إمـامـه
مـن لـي بـمـحـجـب أراه بـالـفـكـر ولا أرى خـيـامـه
أشـدو بـتـغـزلـي لـديـه فـيـه فـيـحـدّ لي خـصـامـه
يـزهـو ويـقـول كـان مـاذا لـو يـتـرك جـاهـل كـلامـه
شـبـهـت بـطلعـتـي هـلالاً مـا كـنت رضيـتـه قـلامـه[6]
والـغـصـن حـسبـتـه شـبيـهـاً مـنـي بـتـعـطف وقـامـه

---

(١) الشفعة: حق الجار في تملك العقار جبراً على مشتريه بشروطه التي رسمها الفقهاء.
(٢) النجعة: قصد ذي المعروف لمعروفه ، وموضع الأمل.
(٣) أردان: جمع ردن وهو كُم الثوب ـ نقعة: كثير التبلّل بالدموع.
(٤) سعلة: واحدة السعال وهو النفث الذي يصدر عن المصدور.
(٥) حنّط: تحنيطاً: حفظ الجسم من التلف بمواد خاصة.
(٦) القلامة: القطعة من الظفر.

والـظبـي إذا رنت لـحـاظي   لا كـيـد لـه ولا كـرامـه
أفـديـه بـمـهـجـتـي وإنـي   لا حـسـرة لـي ولا نـدامـه
كـم دعـوة مـوعـد لـوصـل   قـامت لحضـورهـا القيـامـه
أخبـرت بهـا العـذول لكـن   مـا قلت لـه كم الغـرامـه[1]

ومثله قوله:

لا تـعـاتبـني فـلا عـتب علـيّ   خـرج الأمـر وعقلي من يـدي
ليس للنصـح قبـول يـرتـجى   عنـد شيخ هـام وجـداً بصبي
وأرى لـومـك يغـريـنـي بـه   لا تـزدني أو فـزدني يـا أخي
أنـا فـي الحـب إمـام فـإذا   صرت من أبنائه فاخضع لدي
لا تسل غيريَ في شـرع الهوى   وخـذ التنـزيـل فيـه عن أبـي
خـلقي أنـي شحـيـحٌ بـهـم   وبـروحي لهـم حـاتم طـي[2]
فـاختصر في شـرح أشواقي فإن   رمت إسهـابـاً فـوكـل مقلتـي
سـادتـي فـارقتكم فـاستلبت   بنـوا كم راحتي من راحتي[3]
فـاجبـروا قلبـي بشـيء منكم   فلقـد أوتيتم مـن كـل شي[4]
صـادني منكم غـريـر أغيـد   فيـه مـا يشغـل عن هند ومي[5]
قلت قد أضنيت جسمي قال قد   قلت كي تذهب روحي قال كي
قلت أفـديـك بنفسي قـال مـه   مـا إليك الأمـر فيهـا بـل إلي[6]

ومثله قوله، من أبيات يخاطب العذول:

أراك بـخيـلاً بـعـوني فـهـبـني   سكـوتـك عنـي إذا لم تـعنـي
ذممت الهـوى ورجـوت السـلوّ   فـأبكيت عيني وأضحكت سني
فـإن عفت شـربي من خمـرتي   فـدعني مـا بين كـأسي ودني[7]
وإيـاك عـربـدتي فـاخشـهـا   فـإني قـد أخـذ السكـر مني

(١) الغرامه: الجزية.
(٢) شحيح: بخيل ـ حاتم طي: يضرب به المثل في الكرم عند العرب.
(٣) النوى: السفر ـ راحتي: الأولى بمعنى الاستراحة والثانية اليد.
(٤) جَبَر: أصلح الخراب.
(٥) الغرير: المغرور الذي لا تجربة له.
(٦) مه: لغة في ما الاستفهاميه.
(٧) الدن: وعاء الخمر.

ويعجبني من انسجامات ابن سنا الملك قوله:

دنوت وقد أبدى الكرى منه ما أبدى فقبلته في الثغر تسعين أو إحدى[(١)]
وأبصرت في خدَّيه ماء وخضرة فما أملح المرعى وما أعذب الوردا
تلهب ماء الخد أو سال جمره فيا ماء ما أذكى ويا جمر ما أندى
أقول لناه قد أشار بتركه لقد زدتني فيما أشرت به زهدا
فلم لا نهيت الثغرَ أن يعذب اللمى ولم لا أمرت الصبر أن يكتم النهدا[(٢)]
وأقسم ما عندي إليه صبابة وكيف وجور الشوق لم يبق لي عندا
وفي القلب نيران الخليل توقدت وما ذقت منها لا سلاماً ولا بردا[(٣)]

ومثله قوله، ويعجبني إلى الغاية:

نعم المشوق وأنعم المعشوق فالعيش كالخصر الرقيق رقيق
خصر أدير عليه معصم قبلة فكأن تقبيلي له تـ نيق
ونعم لقد طرق الحبيب وماله إلا خدود العاشقين طريق
فرشوا الخدود طريقه فكأنما زفراتهم لقدومه تطريق[(٤)]
وافى وصبح جبينه متنفس وأتى وجيد رقيبه مخنوق[(٥)]
فصنه ·: فيه صناعة شعرية فالصدر يرحب والعناق يضيق

ومثله قوله، وهو في غاية الظرف:

لا أجازي حبيب قلبي بجرمه أنا أحنى عليه من قلب أمه
ضن عني بريقه فتحيلت إلى أن سرقته عند لثمه
وإلى اليوم من ثلاثين يوماً لم تزل من فمي حلاوة طعمه
إن قلبي لصدره ورقادي ملك أجفانه وروحي لجسمه
يكسر الجفن بالفتور ومالي عمل وقت كسره غير ضمه

---

(١) أو إحدى وتسعين قبلة.

(٢) اللمى: سمرة في الشفاه ـ النهد: الثدي إذا نهد في الصدر.

(٣) نيران الخليل: تلميح إلى قصة سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام، وإلقائه في النار بعد تحطيم الأصنام.

(٤) التطريق: وقع الخطى.

(٥) مخنوق: مزنر.

ومن غراميات الشاب الظريف، شمس الدين محمد بن العفيف، قوله في باب الانسجام:

عفا الله عن قوم عفا الصبر منهم ... فلو رمت ذكرى غيرهم خانني الفم[1]
تجنوا كأن لا ودّ بيني وبينهم ... قديماً وحتى ما كأنهم هم
وبالجزع أحباب إذا ما ذكرتهم ... شرقت بدمع في أواخره دم
ومشبوب ناري وجنة وجناية ... تعلمه ألحاظه كيف يظلم
ألمّ وما في الركب منا متيم ... وعاد وما في الركب إلا متيم
وليس الهوى إلا التفاتة طامح ... يروق لعينيه الجمال المنعم
خليلي ما للقلب هاجت شجونه ... وعاوده داء من الشوق مؤلم
أظن ديار الحي منا قريبة ... وإلا فمنها نفحة تتنسم

ومثله قوله:

لا تخف ما فعلت بك الأشواق ... واشرح هواك فكلنا عشاق
فعسى يعينك من شكوت له الهوى ... في حمله فالعاشقون رفاق
لا تجزعنّ فلست أول مغرم ... فتكت به الوجنات والأحداق
واصبر على هجر الحبيب فربما ... عاد الوصول وللهوى أخلاق
كم ليلة أسهرت أحداقي بها ... وجداً وللأفكار بي إحداق[2]
يا رب قد بعد الذين أحبهم ... عني وقد ألف الفراق فراق
واسودّ حظي عندهم لما سرى ... فيه بنار صبابتي إحراق
عرب رأيت أصح ميثاق لهم ... أن لا يصح لديهم ميثاق

ومثله قوله:

بثني قوامك الممشوق ... وبأنوار وجهك المعشوق
وبمعنى للحسن مبتكر فيـ ... ـك وقلب كقلبي المحروق
جُدْ بوصل أو زورة أو بوعد ... أو كلام أو وقفة في الطريق
أو بإرسالك السلام مع الريـ ... ـح وإلا فبالخيال الطروق[3]

---

(١) عفا: زال.

(٢) إحداق: احاطة.

(٣) الطروق: الملم بالمكان.

ويعجبني، في هذا المعنى على هذا الطريق، قول بعض المواليا:

زر شهر في عام يا من قد غلا في السوم[1] ... أو يوم في شهر أحلى من صدودك
وإن عز هذا وهذا يا عزيز القوم ... في الدهر ساعة وإن لم ترتض في النوم

ومن ألطف انسجامات ابن العفيف قوله أيضاً:

لي من هـواك .بعيـده وقـريبـه ... ولـك الجمـال بـديعـه وغـريبـه
يـا من أعيـذ جمـالـه بجـلالـه ... حذراً عليـه من العيـون تصيبـه
إن لم تكن عيني فـإنك نـورهـا ... أو لم تكن قلبي فـأنت حبيبـه
هـل حـرمـة أو رحمـة لمتيمٍ ... قـد قـل فيـك نصيـره ونصيبـه
ألف القصـائـد في هـواك تغـزلاً ... حتى كـأن بك النسيب نسيبـه[2]
لم يبق لي سـرّ أقـول تـذيعـه ... عـني ولا قـلب أقـول تـذيبـه
دع لي فؤاداً بـالـغـرام تشبُّـهُ ... واستبق فَوْداً بـالصـدود تشيبـه[3]
كـم ليـلة قضيتـهـا متسـهـداً ... والـدمع يجـرح مقلتي مسكـوبـه
والنجم أقـرب من لقـاك منـالـه ... عنـدي وأبعـد من رضـاك مغيبـه

ومثله قوله:

رشـيـق الـقـامـة الـنـضـره ... لـقـد أصـمـيـت بـالـنـظـره[4]
وقـد سـودت حـظي مـنـــــك ... يـا أبـهـى الـورى غـره
سـواد الـخـال والـمـقـلـه ... مـع الـعـارض والـطـره
قـديـم الـهـجـر هـل لـفـتـى ... قـديـم فـي الـهـوى هـجـره
وكـم تـلـقـاه بـالايـعـا ... د والابـعـاد والـنـفـره[5]
وكـم يـشـكـو ولا تـطـر ... ح فـي قـفـتـه كـسـره[6]
رأيـنـا مـن جـفـا وجـنـى ... ولـكـن زدت فـي كـره
فـهـل تـمـنـح أو تـسـمـح ... بـالـوصـل ولـو مـرَّه

---

(١) السوم: الثمن.

(٢) النسيب: التغزل والتشبيب.

(٣) تشبه: تشعله ـ الفَود: الشعر الذي على جانب الرأس مما يلي الأذنين(السالف).

(٤) أصمى: رمى وقتل.

(٥) الإيعاد: التوعّد.

(٦) القفه: الثوب.

فقد أصبحت لا أملك من صبري ولا ذره
وقد صيرني هجر ك في كس أخت من أكره

ومن انسجاماته الرقيقة قوله:

حتام حظي لديك حرمان وكم كذا لوعة وهجران
أين ليال مضت ونحن بها أحبة في الهوى وجيران
وأين وُدٌّ عهدت صحته وأين عهد وأين أيمان
قد رضي الدهر والعواذل والحساد عنا وأنت غضبان
فاسلم ولا تلتفت إلى مهج بها جوى قاتل وأشجان
ونم خلياً وقل كذا وكذا من كل من أطلعت تلمسان[1]

ومثله قوله:

أعز الله أنصار العيون وخلد ملك هاتيك الجفون
وضاعف بالفتور لها اقتداراً وإن تك أضعفت عقلي وديني
وأبقى دولة الاعطاف فينا وإن جارت على قلبي الطعين[2]
وأسبغ ظل ذاك الشعر منه على قدٍّ به هيف الغصون
وصان حجاب هاتيك الثنايا وإن ثنت الفؤاد إلى الشجون
حملت تسهدي والشيب هذا على رأسي وذاك على عيون

ومن غراميات ابن النبيه، في باب الانسجام:

تعالى الله ما أحسن شقيقاً حف بالسوسن[3]
خدود لثمها يبري من الأسقام لو أمكن
فما تجني وحارسها بقفل الصدغ قد زرفن[4]
غزال ضيق العينين ينسيني الرشا الأعين[5]

---

(١) تلمسان: إسم بلد.

(٢) الطعين: المطعون: المجروح بالرمح أو بالسيف.

(٣) الشقيق: شقائق النعمان، أزهار معروفة.

(٤) الصدغ: الشعر ما بين العين والأذن من جانب الوجه ـ زرفن: لم نعثر على هذه اللفظة فيما بين أيدينا وربما كانت«زرجن» ومعناها صبغ بالزرجون وهو صباغ أحمر يستخرج من شجر واحدته زرجونة.

(٥) الأعين: الواسع العينين.

لــه قــلــب وأعــطـاف فــمــا أقــســى ومــا ألــيــن
ولــم أر قــبــل مــبــســمــه صغيــر الجــوهــر المثمن
أبــث هــواه مــن خــوف لنجم الليــل لمــا جن[1]
ومــا يــنــفــع كــتــمــانــي ودمــع العــيــن قــد أعــلــن
وقــد أســكــنــتــه قــلــبــي فــســار وأحــرق المــسكــن

ومما كتبه القاضي الفاضل بخطه، وهو غاية في باب الانسجام الغرامي، وكان كثيراً ما يترنم به، قصيدة القاضي المهذب ابن الزبير، ووجدت بخط الفاضل، غير تامة، وقد أثبت هنا منها ما وجد بخط الفاضل من غراميها، واختصرت المديح وهو:

بــالله يــا ريــح الــشــمــأ ل إذا اشتملت الروح بردا
وحملت من نشــر الخــزا مي ما اغتدى للنـدّ ندّا[2]
ونسجت مــا بين الغــصــو ن إذا اعتنقن هــوى وودّا
وهــززت عند الصبح من أعــطافهــا قــداً فقــدّا[3]
ونشــرت فــوق المــاءمــن أجيــادهــا للزهــر عــقــدا
فمــلأت صفحــة وجهــه حتى اكتسى آسـاً وورداً[4]
فــكــأنــمــا ألــفــت فــيــه منهمــا صدغــاً وخــدا
مــرّي عــلــى بــرد عــســا ه يــزيــد في مسراك بــردا
نهــر كنصــل السيف تكــســو متنه الأزهــار غمــدا[5]
صــقــلــتــه أنــفــاس النــســيم بمــرّهن فليس يصــدا
أحــبــابنــا مــا بــالــكــم فينــا من الأعــداء أعــدى
وحــيــاة حــبــكــم بــتــر بة وصلكم ما خنت عهــدا

وغاية الغايات، في باب الانسجام الغرامي، ما كتبه القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر إلى والده القاضي محيي الدين، وقد توجه صحبة الركاب الشريف الظاهري في مهم شريف فحصل له ضعف بدمشق المحروسة، وهو:

إن شئت تبصرني وتبصر حالتي قــابــل إذا هب النــســيم قبــولا

(١) جن: ستر وجن الليل أظلم.
(٢) الخزامى: نبت طيب الرائحة ـ النّد: نوع من الأشجار أغصانه يتبخر بها لطيب رائحتها.
(٣) قدّ: شقّ.
(٤) الآس: نبات طيب الرائحة.
(٥) نصل السيف: شفرته ـ وغمد السيف: جفنه أو مكان وضعه.

تلقاه مثلي رقة ونحافة ولأجل قلبك لا أقول عليلا
فهو الرسول إليك مني ليتني كنت اتخذت مع الرسول سبيلا

خطاب مثل هذا الولد لمثل هذا الوالد، بقوله: ولأجل قلبك لا أقول عليلا، فيه ما يفتت الأكباد، ويحرك الجماد. سبحان المانح! إن من البيان لسحرا.

ومن غراميات والده القاضي محيي الدين، في باب الانسجام:

لا آخذ الله بندك فكم وشى بي عندك
وقال عني بأني شبهت بالغصن قدك
وأنت تعظم عندي. أن يمسيَ البدر عبدك
ولست والله أرضى أن يحكيَ الورد خدك
فقاتل الله طرفي فكم به نلت قصدك
ولا رعى الله قلبي فكم رعى لك عهدك
فمن ترى أنا حتى جعلت صدري وكدك(١)
وما عشقتك وحدي بلى عشقتك وحدك
وكم أطعتك جهدي وكم تجنيت جهدك
وبعد هذا وهذا وذاك لا ذقت فقدك

ويعجبني في هذا الباب رشاقة ناصر الدين بن النقيب، بقوله:

سلك الشوق بقلبي بعدكم صعب المسالك
ورمى قلبي بنيرا ن ولا نيران مالك
هذه بعض صفاتي طالع العبدَ بذلك

وأظرف ما رأيت في باب الانسجام الغرامي المرتجل، ما أورده صاحب «روضة الجليس ونزهة الأنيس». ذكر أنه كان بأفريقية رجل نبيه شاعر مفلق، وكان يهوى غلاماً من غلمانها جميلاً، فاشتد كلفه به، وكان الغلام يتجنى عليه ويعرض عنه كثيراً، فانفرد بنفسه ليلة جمع فيها بين سلاف الراح وسلاف الذكر، فتزايد به الوجد وقام على الفور، وقد غلب عليه السكر، ومشى إلى أن انتهى إلى باب محبوبه ومعه قبس نار، فوضعه عند باب الغلام، فلما دارت النار بالباب بادر الناس بإطفائها واعتقلوه. فلما أصبحوا نهضوا به إلى القاضي فأعلموه بفعله. فقال له القاضي: لأي شيء أحرقت باب هذا الغلام؟ فقال مرتجلاً:

---

(١) جعله وكده: أي جعله همه وقرر أن ينفذ شيئاً حياله.

لمـا تمـادى على بعـادي ‏ ‏ ‏ ‏ وأضـرم النـار في فؤادي
ولم أجـد من هـواه بـدأ ‏ ‏ ‏ ‏ ولا معينـاً على السهـاد
حملت نفسي على وقوفي ‏ ‏ ‏ ‏ ببـابـه حملة الجـواد[1]
فطار من بعض نـار قلبي ‏ ‏ ‏ ‏ أقل في الوصف من زناد[2]
فأحرق البـاب دون علمي ‏ ‏ ‏ ‏ ولم يكن ذاك من مـرادي

فرق القاضي لارتجاله الغرامي، وتحمل عنه جناية الباب.

وقد انتهت الغاية بنا إلى غراميات العارفين، وابن الفارض هو قائد زمامها، وقتيل غرامها. فمن قوله، في هذا الباب الذي ليس لغيره فيه مدخل، ما ألفته من تائيته، وجعلته قصيداً غرامياً ينتظم بها شمل الانسجام، وإذا هب نسيمها العذري تنسمت العشاق منه أخبار الغرام، وهو قوله:

نعم بـالصبا قلبي صبـا لأحبتي ‏ ‏ ‏ ‏ فيـا حبذا ذاك الشـذا حين هبت
تـذكـرني العهـد القـديم لأنهـا ‏ ‏ ‏ ‏ حديثة عهـد عن أهيل مـودتي[3]
فلي بين هـاتيـك الخيـام ضنينـة ‏ ‏ ‏ ‏ عليَّ بجمعي سمحـة بتشتتي[4]
محجبـة بيـن الأسنـة والـظبـا ‏ ‏ ‏ ‏ إليهـا انثنت ألبـابنـا إذ تثـنت
تتيـح المنايـا إذ تبيح لنـا المنى ‏ ‏ ‏ ‏ وذاك رخيـص منيتي بمـنيـتي
متى أوعدت أولت وإن وعدت لوت ‏ ‏ ‏ ‏ وإن أقسمت لا تبرى السقم برت[5]
وإن عـرضت أُطرِقْ حيـاء وهيبـة ‏ ‏ ‏ ‏ وإن أعـرضت أشفق فلم أتلفت
وقـد سخنت عيني عليهـا كـأنهـا ‏ ‏ ‏ ‏ بها لم تكن يوماً من الدهر قرت[6]
فـإنسـانهـا ميت ودمعي غسله ‏ ‏ ‏ ‏ وأكفانه ما ابيض حزنـاً لفرقتي[7]
خـرجت بها عني إليهـا فلم أعد ‏ ‏ ‏ ‏ إليّ ومثلي لا يقـول بـرجعـةِ[8]
فوصلي قطعي واقتـرابي تباعـدي ‏ ‏ ‏ ‏ وودّي صـدّي وابتـدائي نهـايتي

---

(١) الجواد: الكريم.
(٢) الزناد: القبس من النار، ما تشعل به النار.
(٣) أهيل: تصغير أهل للتحبب.
(٤) ضنينة: بخيلة ـ ضدها سمحة: كريمة.
(٥) أولى: أقام على الوعد ـ لوت: أخلفت الوعد ـ بَر القسم: وفى به
(٦) سنحت العين: سفحت الدمع.
(٧) إنسان العين: ما ترى به (البؤبؤ).
(٨) القول بالرجعة من معتقدات الشيعة. وقد مرّ ذكره.

وفيها تلاف الجسم بالسقم صحة ... لـه وتـلاف النفس عين الفتـوة
ولمـا تـلاقينـا عشـاء وضمنـا ... سواء سبيلَيْ ذي طوى والثنية [1]
وضنت ومـا منت عليَّ بـوقفـة ... تعـادل عندي بـالمعرّف وقفتي [2]
عتبتُ فلم تعتب كأن لم يكن لقا ... ومـا كـان إلا أن أشـرت وأومت
وبانت فأما حسن صبري فخانني ... وأمـا جفـوني بـالبكـاء فـوفت
أغـار عليهـا أن أهيم بـحبهـا ... وأعـرف مقداري فـأنكـر غيـرتي
وكنت بهـا صبـاً فلمـا تـركت مـا ... أريـد أرادتـنـي لـهـا وأحـبـت
بها قيس لبنى هام بل كل عاشق ... كمجنـون ليلى أو كثيـر عـزة [3]
بدت فرأيت الحزم في نقض توبتي ... وقام بها عنـد النهى عذر محنتي
فمـوتي بهـا وجـداً حيـاة هنيئـة ... وإن لم أمت في الحب عشت بغصتي
تجمعت الأهـواء فيهـا فـلا تـرى ... بها غير صب لا يرى غير صبوتي
وعندي عيدي كـل يوم أرى بـه ... جمـال محيـاهـا بعين قـريـرة
وكل الليالي ليلة القـدر إن دنت ... كمـا كل أيـام اللقا يـوم جمعـة
وأي بـلاد الله حلت بهــا فمـا ... أراهـا وفي عينيَّ حلت غير مكـة
ومـا سكنتـه فهـو بيت مقـدس ... بقـرة عيني فيـه أحشـاي قـرت
ومسجـد الأقصى مساحب بـردها ... وطيبي ثـرى أرض عليهـا تمشت
مـواطن أفـراحي ومـربى مـآربي ... وأطوار أوطاري ومـأمن خيفتي [4]
مغان بها لم يدخل الـدهر بيننـا ... ولا كادنا صرف الزمان بفرقـة [5]
ولا صحبتنـا النـائبـات بـنبـوة ... ولا حـدثتنا الحـادثـات بنكبـة [6]
ولا اختص وقت دون وقت بطيبة ... بهـا كـل أوقـاتي مـواسم لـذتي
فـإن رضيت عني فعمـري كله ... زمـان الصبا طيبـاً وعصر الشبيبـة
وإن قـربت داري فعـامي كله ... ربيع اعتدال في رياض أريضة [7]

---

(١) سبيلَيْ: طريقي - وذي طوى والثنية: مكانين.

(٢) المعرّف: هو عرفات، والوقفه على جبل عرفات من شعائر الحج في الإسلام.

(٣) قيس لبنى: هو قيس بن ذريح الشاعر ولبنى حبيبته - ومجنون ليلى. هو قيس بن الملوح، الشاعر وليلى حبيبته - وكثير عزة هو كثير بن عبد الرحمن الشاعر، وعزّة حبيبته. وقصص هؤلاء في العشق مشهورة.

(٤) المآرب: الحاجات وكذلك أوطار.

(٥) مغان: ربوع، ديار غنيت بساكنيها.

(٦) النبوة: الطيش. نبا: طاش وخاب.

(٧) رياض أريضة: نضرة غناء.

بها مثل ما أمسيت أصبحت مغرما — وما أصبحت فيه من الحسن أمست
فلو بسطت جسمي رأت كل جوهر — بـه كـل قلب فيـه كـل محبـة
وقد جمعت أحشاي كـل صبابـة — بها وجوى ينبيك عن كل صبوة
وكنت أرى أن التعشق منحـة — لقلبي فما إن كـان إلا لمحنتي
ألا في سبيل الحب حالي وما عسى — بكم أنْ ألاقي لو دريتم أحبتي[1]
أخذتم فؤادي وهو بعضي عندكم — فما ضركم لو كان بعضي جملتي
وهى جسدي مما وهي جلدي لدى — تـحمـلـه يبلى وتبقى بـليـتـي[2]
ومنذ عفار سمي وهمت وهمت في — وجودي فلم تظفر بكوني فكرتي[3]
وبـالي أبلى من ثيـاب تجلدي — بل الذات في الاعدام نيطت بلذتي[4]
كـأني هلال الشك لـولا تـأوهي — خفيتُ فلم تُهدَ العيون لـرؤيتي
وقالوا جرت حمراً دموعك قلت عن — أمور جرت في كثرة الشوق قلت
نحرت لضيف السهد في جفني الكرى — قرى فجرى دمعي دماً فوق وجنتي[5]
فطوفان نوح عند نَوْحي كأدمعي — وإيقاد نيران الخليـل كلوعتي[6]
ولـولا زفيـري أغـرقتني أدمعي — ولـولا دموعي أحـرقتني زفـرتي
وحـزني مـا يعقـوب بث أقـله — وكـلُّ بلا أيـوب بعض بليتي[7]
وكل أذى في الحب منك إذا بدا — جعلت لـه شكري مكـان شكيتي
نعم وتباريح الصبابة إن عـدت — عليَّ من النعماء في الحب عدت
وعنـوان ما بي مـا أبثك بعضـه — ومـا تحتـه إظهـاره فـوق قـدرتي
وأسكت عجـزاً عن أمـور كثيـرة — بنطقيَ إن تحصى ولو قُلتُ قلّت

---

(١) دري: عرف.

(٢) وهى: وهن وضعف.

(٣) في الحقيقه أنني لم أستطع فهم معنى هذا البيت إلا أن يكون: العفار: الفطام. وسمي بمعنى عُرِف. فيكون المعنى: ومنذ فطام أو انقطاع عُرِف، غلطت وحاولت فكرتي أن تعرف وجودي فلم تظفر ولم تستطع ذلك.

(٤) نيط به الأمر: اقتصر عليه وصار هو مسؤولاً عنه.

(٥) القرا: إطعام الضيف.

(٦) طوفان النبي نوح عليه السلام والنار التي ألقي فيها إبراهيم الخليل عليه السلام وقصتهما مشهورة في القرآن.

(٧) حزن يعقوب على ولده النبي يوسف عليه السلام إذ قال فيه تعالى: ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ يوسف، ١٢/٨٤. ـ بلا: بلاء، وأيوب هو النبي أيوب عليه الصلاة والسلام ويضرب المثل بصبره.

وعن مذهبي في الحب ما لي مذهب ... وإن ملت يوماً عنه فارقت ملّتي[1]
هو الحب إن لم تقض لم تقض مأرباً ... من الوصل فاختر ذاك أو خلّ خلتي[2]
ودع عنك دعوى الحب واختر لغيره ... فؤادك وادفع عنه غيك بالتي
وجانب جناب الوصل هيهات لم يكن ... وها أنت حيّ إن تكن صادقاً مُت
وقالوا تلاف ما بقي منك قلت لا ... أراني إلا للتلاف تلفتي
غرامي أقِمْ صبري انصرم دمعي انسجم ... عدوي انتقم دهري احتكم حاسدي اشمت
ويا نار أحشائي أقيمي من الجوى ... حنايا ضلوعي فهي غير قويمة
ويا جسدي المضنى تسلّ عن الشفا ... ويا كبدي من لي بأن تتفتتي
ويا كلما أبقى الضنى مني ارتحل ... فما لك مأوى في عظام رميمةِ
وماذا عسى عني أناجي توهماً ... بياء الندا أونست منك بوحشتي
فنفسي لم تجزع بإتلافها أسىً ... ولو جزعت كانت بغيري تأست[3]
فيا سقمي لا تبق لي رمقاً فقد ... أبيت لبقيا العز ذلّ البقية

ومن غرامياته التي خلبت القلوب، وعرف العارفون بها طريق التوصل إلى معرفة المحبوب، قوله من قصيدة:

أهفو إلى كل قلب بالغرام له ... شغل وكل لسان بالهوى لهج
وكل سمعٍ عن اللاحي به صمم ... وكل جفن إلى الإغفاء لم يعج[4]
لا كان وجد به الأماق جامدة ... ولا غرام به الأشواق لم تهج[5]
عذب بما شئت غير البعد عنك تجد ... أوفى محب بما يرضيك مبتهج
وخذ بقية ما أبقيت من رمق ... لا خير في الحب إن أبقىْ على المهج[6]
من لي بإتلاف روحي في هوى رشأ ... حلو الشمائل بالأرواح ممتزج
من مات فيه غراماً عاش مرتقياً ... ما بين أهل الهوى في أرفع الدرج

وما أحلى ما قال منها:

قل للذي لامني فيه وعنفني ... دعني وشأني وعد عن نصحك السمج[7].

(١) الملة: المذهب الديني.
(٢) المأرب: الحاجة ـ خلّي: ترك ـ الخلّة: المصادقة.
(٣) تأست: تعزّت.
(٤) اللاحي: اللائم ـ عاج: مرّ أو مال.
(٥) الأماق: المآقي وهي مجاري الدموع من العيون.
(٦) الرمق: بقية الحياة.
(٧) السمج: الذي لا يطاق ـ وعُدْ: كُفّ.

فاللوم لؤم ولم يمدح به أحد فهل رأيت محباً بالغرام هُجي

منها:

لم أدر ما غربة الأوطان وهو معي وخاطري أين كنا غير منزعج
فالدار داري وحبي حاضر ومتى بدا فمنعرج الجرعاء منعرجي(١)

منها:

ليهن ركب سروا ليلاً وأنت بهم فسيرهم في صباح منك منبلج(٢)
فليصنع الركب ما شاؤوا لأنفسهم هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

وما ألطف ما قال منها:

أهلاً بما لم أكن أهلاً لموقعه قول المبشر بعد اليأس بالفرج
لك البشارة فاخلع ما عليك فقد ذكرت ثم على ما فيك من عوج

ومثله في الرقة والانسجام قوله من قصيدة:

ابق لي مقلة لعلّي يوماً قبل موتي أرى بها من رآكا
أين مني ما رمت هيهات بل أيـــن لعيني باللحظ لثم ثراكا
وبشيري لو جاء منك بعطف ووجودي في قبضتي قلت هاكا(٣)
قد كفى ما جرى دماً من جفون لي قرحي فهل جرى ما كفاكا(٤)
فأجر من قلاك فيك معنّى قبل أن يعرف الهوى يهواكا(٥)
بانكساري بذلتي بخضوعي بافتقاري بفاقتي لغناكا
لا تكلني إلى قوي جلد خا ن فإني أصبحت من ضعفاكا
كنت تجفو وكان لي بعض صبر أحسن الله في اصطباري عزاكا
كم صدود عساك ترحم شكوا ي ولو باستماع قولي عساكا
شنع المرجفون عنك بهجري وأشاعوا أني سلوت هواكا(٦)
ما بأحشائهم عشقت فأسلو عنك يوماً دع يهجروا حاشاكا

---

(١) المنعرج: الطريق الملتوي ـ الجرعاء: الأرض ذات الحزونة.
(٢) انبلج: أشرف وأطل وانكشف بعد ستر.
(٣) هاك: إسم فعل أمر بمعنى خذ.
(٤) قرحى: مقرّحة مشققة..
(٥) القلى: الكره والهجر.
(٦) شنّع: سعوا بما يُكْرَه منه، بشّعوا ـ المرجفون: الوشاة الكاذبون.

كيف أسلو ومقلتي كلما لا ... ح بريق تلتفت للقاكا
كل من في حماك يهواك لكن ... أنا وحدي بكل من في حماكا

ومن كاساته الغرامية التي سكرْ العشاق بقديمها وحديثها، قوله:

أدِرْ ذِكْرَ مَنْ أهوى ولو بملام ... فإن أحاديث الحبيب مدامي
فلي ذكرها يحلو على كل صيغة ... ولو مزجوه عذلي بخصام[1]
كأن عذولي بالوصال مبشري ... وإن كنت لم أطمع بردّ سلام

وما أبدع وأرق ما قال منها:

يشف عن الأسرار جسمي من الضنا ... فنوجي بها معنى نحول عظامي[2]
طريح جوى حب جريح جوارح ... قريح جفون بالدوام دوامي
صحيح عليل فاطلبوني من الضنى ... ففيها كما شاء النحول مقامي

منها:

فلي كل عضو فيه كل حشا بها ... إذا نظرت أغراض كل سهام
ولو بسطت جسمي رأت كل جوهر ... به كل قلب فيه كل غرام

ومن غرامياته التي يتحرك الجماد لرقتها، قوله من قصيدة:

ما لي سوى روحي وباذل نفسه ... في حب من يهواه ليس بمسرف[3]
فلئن رضيت بها لقد أسعفتني ... يا خيبة المسعى إذا لم تسعف

وما أسجم[4] ما قال منها:

يا أهل ودّي أنتم أملي ومن ... ناداكم يا أهل ودّي قد كُفي[5]
عودوا لما كنتم عليه من الوفا ... كرماً فإني ذلك الخلّ الوفي
وحياتكم وحياتكم قسماً وفي ... عمري بغير حياتكم لم أحلف
لو أن روحي في يدي ووهبتها ... لمبشري بوصالكم لم أنصف

---

(١) العذل: اللوم ـ والبيت مختل الوزن كما نرى ونرجح بدل «مزجوه» «مزجوا».
(٢) نوجي: مجهول ناجى من المناجاة وهي المُسارّرة. النحول: الدقة والضعف.
(٣) المسرف: الذي يتجاوز الإعتدال إجمالاً. ومنها قوله: ﴿وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين﴾ يونس، ١٠/١٢.
(٤) أسجم: أدعى للبكاء والدموع.
(٥) في الأصل: يا أهلي، وما أثبتناه أقوم للوزن وأصح.

لا تحسبوني في الهوى متصنعاً | كلفي بكم خُلق بغير تكلف[1]
اخفيت حبكمْ فأخفاني أسى | حتى لعمري كدت عني أختفي
وكتمته عني فلو أبديته | لوجدته أخفى من اللطف الخفي

وما أحلى ما خاطب العذول منها بقوله:

دع عنك تعنيفي وذق طعم الهوى | فإذا عشقت فبعد ذلك عنِّف

وما أعذب ما قال منها:

يا ما أميلح كلما يرضي | ورضابه يا ما أحيلاه بفي [2]

ولقد أحسن الله خاتمته فيها بقوله:

ما للنوى ذنب ومن أهوى معي | إن غاب عن إنسان عيني فهو في [3]

ولقد أقام القواعد الغرامية بقوله من قصيدة:

تعرض قوم للغرام وأعرضوا | بجانبهم عن صحة فيه واعتلوا
رضوا بالأماني وابتلوا بحظوظهم | وخاضوا بحار الحب دعوى فما ابتلّوا [4]
فهم في السرى لم يبرحوا من مكانهم | وما ظعنوا في السير عنه وقد كلوا [5]
وعن مذهبي لما استحبوا العمى على الـ | ـهدى حسداً من عند أنفسهم ضلوا

وما أحلى ما قال بعده:

أحبة قلبي والمحبة شافعي | لديكم إذا شئتم بها انصل الحبل
عسى عطفة منكم عليَّ بنظرة | فقد تعبت بيني وبينكم الرسل
أحبّاي أنتم أحسن الدهر أم أسا | فكونوا كما شئتم أنا ذلك الخلّ [6]
إذا كان حظي الهجر منكم ولم يكن | بُعاد فذاك الهجر عندي هو الوصل

---

(١) الكلف: شدة العشق ـ والتكلف: التصنع.
(٢) بفي: بفمي، وفي من الأسماء الخمسة: أب أخ حم ذو فو.
(٣) أي فهو في قلبي.
(٤) الحظوظ: جمع حظ وهو النصيب ـ دعوى: أي ادّعاءً.
(٥) كلّوا: تعبوا.
(٦) أسا: ترخيم أساء. الخلُّ: الخليل وهو الصديق الملازم والمحب.

وما ألطف ما قال منها:

وماذا عسى عني يقال سوى غدا ... بنُعم له شغل نعم لي بها شغل
أخذتم فؤادي وهو بعضي وما الذي ... يضرُكم لو كان عندكم الكل

وما أظرف ما قال منها:

تباً له قومي إذ راوني متيماً ... وقالوا بمن هذا الفتى مسه الخبل[1]
وقال نساء الحي عنا بذكر من ... جفانا وبعد العز لذّ له الذلّ
إذا أنعمت نعم عليَّ بنظرة ... فلا أسعدت سعدى ولا أجملت جمل[2]

وما أرق ما قال منها:

خفيت ضني حتى لقد ضل عائدي ... وكيف يرى العوّاد من لا له ظل[3]
وما عثرت عيني على أثري ولم ... تدع لي رسماً في الهوى الأعين النُجْل[4]
ولي همة تعلو إذا ما ذكرتها ... وروح بذكراها إذا رخصت تغلو
فنافس ببذل النفس فيها أخا الهوى ... فإن قبلتها منك يا حبذا البذل
فمن لم يجد في حب نُعمٍ بنفسه ... وإن جاد بالدنيا إليه انتهى البخل

ومن الغراميات التي تهيج الأشواق ولواعج الغرام، وتنتظم بها عقود الانسجام، قول أحد المشايخ العارفين، الشيخ عفيف الدين التلمساني:

لُذ بالغرام ولذةِ الأشواق ... واختر فناءك في الجمال الباقي
واخلع سلوّك فهو ثوب مخلق ... والبس جديد مكارم الأخلاق[5]
وتوقّ من نار الصدود بشربة ... من ماء دمعك فهو نعم الواقي
وإذا دعاك إلى الصبا نفس الصبا ... فأجب رسول نسيمه الخفاق
وإذا شربت الصرف[6] من خمر الهوى ... إياك تغفل عن جمال الساقي
والقَ الأحبة إن أردت وصالهم ... متلذذاً بالذل والإملاق[7]
أوليس من أحلى المطامع في الهوى ... عِز الحبيب وذلة العشاق.

---

(١) مسّه: أصابه المس وهو الجنون ـ الخبل: إختلاط العقل.
(٢) نُعم وسعدى وجمل: أسماء عشيقات.
(٣) العائد: زائر المريض يجمع على عُوّاد.
(٤) الرسم: الأثر ـ الأعين النجل: المتسعة الجميلة.
(٥) مخلق: معتق ممزق بالي.
(٦) الصرف: من الخمر الصافية التي لم تمزج بالماء.
(٧) الإملاق: الفقر.

ويطربني، من رقائق انسجاماته الغرامية، قوله:

تعلم في مرافقة النديم ... مطاوعة الأراكة للنسيم (١)
وعاشره بأخلاق فإني ... وحقك عبد رق للنديم (٢)
اعاطيه أحاديثي وكأسي ... فأسكر بالحديث وبالقديم (٣)
ولي عند الأحبة قلب صب ... صحيح الود في جسد سقيم
أقام وسافر السلوان عنه ... فلا اجتمع المسافر بالمقيم

وقد أوردت هنا ما أمكن من جهد الطاقة، في باب الانسجام الغرامي وبديع بيوته، وقد تقدم قولي أني أخرت فيه المتقدم، وقدمت المتأخر عصراً، لئلا ينفرط سلكه وتذهب لذته، فإن الانسجام يدخل في الأبواب الغرامية وفي غيرها، ولكنه يوجد فيها أكثر، لعذوبتها وارتياح الخواطر إليها، لا سيما غراميات العارفين، مثل الشيخ شرف الدين بن الفارض وغيره.

ومما يستظرف في باب الانسجام، من الطرائق الغرامية الغريبة، قول عبد المحسن الصوري:

وأخ مسه نزولي بقرح ... مثل ما مسني من الجوع قرح
بت ضيفاً له كما حكم الدهـ ... ـر وفي حكمه على الحر قبح
فابتدأني يقول، وهو من السكـ ... ـرة بالهم طافح ليس يصحو
لم تغربت قلت قال رسول الله ... والقول منه نصح ونجح
سافروا تغنموا فقال وقد قا ... ل تمام الحديث صوموا تصحوا

ومن الانسجام المطرب قول مروان بن أبي حفصة:

مسحت ربيعة وجه معن سابقاً ... لما جرى وجرى ذوو الأحساب

من الانسجام المرقص قول أبي نواس:

فتمشت في مفاصلهم ... كتمشي البرء في السقم (٤)

---

(١) الأراكة: شجرة خوارة العود تؤخذ منها المساويك لتنظيف الأسنان، جمع أراك.
(٢) الرق: العبودية.
(٣) أعاطيه: أتعاطى معه به أي أعطيه ويعطيني، وهناك تورية في لفظة الحديث إذ المعنى الذي يتبادر إلى الذهن هو الكلام. بينما المراد هو الجديد.
(٤) هذا البيت في وصف دبيب الخمرة في الجسم.

ومثله قوله:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ... وداوني بالتي كانت هي الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... لو مسّها حجر مسته سراء[١]
من كف ذات حر في زي ذي ذكر ... لها محبان لوطي وزناء[٢]
قامت بإبريقها والليل معتكر ... فلاح من وجهها في البيت لألاء[٣]
وأرسلت من فم الإبريق صافية ... كأنما أخذها للعقل إغفاء
رقت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافة وخفى عن شكلها الماء[٤]

ومن الانسجام المطرب قول محمد بن صالح الحسني:

وبدا له من بعد ما اندمل الهوى ... برق تألق موهناً لمعانه[٥]
يبدو كحاشية الرداء وصوته ... صعب الذرا متمنع أردانه[٦]
فالنار ما اشتملت عليه ضلوعه ... والماء ما سحت به أجفانه

وعدوا من الانسجام المطرب قول عبد الرحمن العطوي، في رثاء أحمد بن أبي دؤاد:

وليس صرير النعش ما تسمعونه ... ولكنه أصلاب قوم تقصف[٧]
وليس فتيق المسك ما تجدونه ... ولكنه ذاك الثناء المخلف

---

(١) السرّاء: الحياة والحركة.
(٢) الحر: فرج المرأة ـ اللوطي: هو الذي يأتي الرجال شهوة من دون النساء. الزناء: كثير الزنى وهو ممارسة الشهوه مع المحصنات من النساء.
(٣) اللألأ: البريق واللمعان.
(٤) هذا البيت يروى:

جفت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافة وجفى عن شكلها الماء

والذي نراه:

رقت عن الماء حتى ما يلائمها لطافة ... وجفى عن شكلها الماء

فلا يكون قد تغير فيه سوى لفظة «خفى» فهي على الأصح «جفى» لمناسبة المعنى، وقد أصابها التصحيف. والله أعلم.
(٥) الموهن: ما بعد منتصف الليل.
(٦) الأردان: جمع مفرده ردن وهو كم الثوب وأطرافه.
(٧) الصرير: صوت الأخشاب والجنادب و. . . . . أصلاب: جمع مفرده صلب وهو هنا الهيكل العظمي أو الظهر منه فقط.

وعدوا من الانسجام المرقص قول العكوك في أبي دلف:

إنما الدنيا أبو دلف ... بين باديه ومحتضره
فإذا ولى أبو دلف ... ولت الدنيا على أثره

ومن الانسجام المرقص، قول بكر بن النطاح:

من كان مرعى عزمه وهمومه ... روض الأماني لم يزل مهزولا

ومن الانسجام المطرب، قول أبي تمام:

ولو لم يكن في كفه غير نفسه . ... لجاد بها فليتق الله سائله

ومثله قوله:

ظبي تقنصته .لما نصبت له ... في آخر الليل أشراكاً من الحلم

ومن الانسجام المرقص قول ديك الجن:

بها غير معذول فداوي خمارها ... وصل بعشيات الغبوق ابتكارها[1]
موردة من كف ظبي كأنما ... تناولها من خده فأدارها

ومن الانسجام المطرب قول دعبل:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم في الموطن الخشن

ومن الانسجام المرقص قول أبي علي البصير:

لعمر أبيك ما نسب المعلى ... إلى كرم وفي الدنيا كريم

وعدوا من الانسجام المطرب قول يزيد بن خالد المهلبي:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

ومن الانسجام المرقص قول البحتري:

تخفي الزجاجة لونها فكأنها ... في الكف قائمة بغير إناء

ومثله قوله:

متعتب في غير ما متعتب ... إن لم يجد جرماً عليَّ تجرَّما

---

(١) الغبوق: أو الاغتباق: شرب الخمرة مساءً.

ألف الصدود فلو يمرّ خياله ... بالصب في سِنة الكرى ما سلما[1]

ومن الانسجام المرقص قول ابن الرومي:

فالموت إن نظرت وإن هي أعرضت ... وقع السهام ونزعهن أليم

ومثله قوله يخاطب بني طاهر:

علوتم علينا علو النجوم ... فجودوا علينا بأنوائها[2]

وعدوا من المطرب قول أبي العتاهية:

أتته الخلافة منقادة ... إليه تجرّر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ... ولم يكُ يصلح إلا لها

ومثله في المطرب قول سلم الخاسر:

لا تسأل المرء عن خلائقه ... في وجهه شاهد من الخبر

وعدوا من الانسجام المرقص قول عبد الله بن المعتز:

أهلاً بفطر قد أنار هلاله ... فالآن فاغد إلى المدام وبكر[3]
فانظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

وعدوا من مرقصات المتنبي قوله:

وأصبح شعري منهما في مكانة ... وفي عنق الحسناء قد يحسن العقد

ومثله قوله:

والهجر أقتل لي مما أراقبه ... أنا الغريق فما خوفي من البلل

ومثله قوله:

فإن تفق الأنام وأنت منهم ... فإن المسك بعض دم الغزال[4]

---

(١) السِّنَة: النعاس ـ والكرى: الإغفاء.

(٢) أنواء النجوم: ميلانها للغروب. والمقصود أنه يبقى لها القليل من الإضاءه فجودوا علينا بالقليل والله أعلم.

(٣) الفطر: عيد الفطر في نهاية شهر رمضان.

(٤) تفق: مضارع مجزوم من فاق: يفوق: يتفوق عليه.

ومن الانسجام المرقص قول أبي نصر بن نباتة:

لم يبق جـودك لي شيئـاً أؤمله ... تركتني أصحب الدنيـا بلا أمـل

ومن الانسـجام قول الوأواء الدمشقي:

وأمطرت لؤلؤاً من نرجس فسقت ... ورداً وعضت على العناب بالبرد(1)

ومثله قوله:

متى أرعى ريـاض الحسن منـه ... وعيني قـد تضمنهـا غـديـر

ومن الانسجام المرقص قول أبي العباس الضبي:

زعـم البنفـسـج أنـه كعـذاره ... حسنـاً فسلوا من قفاه لسـانـه

ومن الانسجام المرقص قول أبي الحسن اللحام:

يـا سائلي عن خـالد عهـدي به ... رطب العجـان وكفه كـالجلمد(2)
كـالأقحوان غـداة غب سمائـه ... جفت أعـاليـه وأسفله نـدي

وعدوا من الانسجام المطرب قول أبي نصر العتبي:

الله يعلم أني لسـت ذا بخـل ... ولست ملتمساً في البخل لي عللا
لكن طـاقة مثلي غيـر خـافيـة ... والذرّ يعذر في القدر الذي حملا(3)

وعدوا من الانسجام المرقص المطرب قول أبي الفرج بن هند:

عـابـوه لـمـا التحى فقلنـا ... عبتم وغبتم عن الجمـال
هـذا غـزال ولا عـجيـب ... تـولـد المسـك في الغـزال

ومثله قول الأمير شمس المعالي قابوس:

وفي السمـاء نجوم مـا لها عـدد ... وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وعدوا من الانسجام المرقص قول ابن الحجاج:

كـأن أيـري شمـع في رخـاوتـه ... فكلمـا لـمستـه راحتي لانـ

---

(1) اللؤلؤ: الدمع ـ النرجس: العيون ـ الورد: الخدود ـ العناب: الشفاه ـ البرد: الأسنان.
(2) العجان: لم نعثر على معنى هذه اللفظة في ما بين يدينا ولكن نرجح أن تكون: الأصابع.
(3) الذرّ: صغار النمل.

ومثله قوله:

فأصبح الدهر به هيضة فنحن غرقى في خرا الدهر[1]

وعدوا من المرقص قول أبي العلاء المعري:

والخل كالماء يبدي لي ضمائره مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

وعدوا من الانسجام المرقص قول المنازي، الذي لا يوجد في معناه مثله:

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم[2]
نزلنا دوحه فحنا علينا حنوّ المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمإ زلالا ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

وعدوا من الانسجام المرقص قول ابن الشحناء العسقلاني:

ومهفهف علق السقام بطرفه وسرى فخُيم في معاقد خصره[3]
مزقت أثواب الظلام بثغره ثم انثنيت أحوكها من شعره

وعدوا من الانسجام المرقص قول ابن الخياط الدمشقي، وهو من شعراء المائة السادسة:

ومحتجب بين الأسنة معرض وفي القلب من إعراضه مثل حجبه
أغار إذا آنست في الحي أنة حذاراً وخوفاً أن تكون لحبه

وهذا الانسجام غرامي وعدوا من الانسجام المرقص قول القاضي الأرجاني:

وما ينزل الغيث إلا لأن يقبّل بين يديك الثرى

ومثله قول ابن الهبارية:

ولولا نداه خفت نار ذكائه عليه ولكن الندى مانع الوقد[4]

---

(١) الهيضة: مرض يصاب صاحبه بالإسهال والاستفراغ (الكوليرا).

(٢) الرمضاء: شدة الحر ـ الغيث العميم: المطر الذي يعم البلاد.

(٣) المهفهف: الممشوق القد، الضامر البطن. الدقيق الخصر ـ الفخيم: الفخم عظيم القدر.

(٤) الندى: الجود والكرم ـ الوَقْد: الإشتعال.

وعدوا من المرقص قول أبي عبد الله النقاش البغدادي:

إذا وجد الشيخ من نفسه ... نشاطاً فذلك موت خفي
ألست ترى أن ضوء السراج ... له لهب عندما ينطفي

ومن الانسجام المرقص قول ابن المفضل البغدادي:

خطرت فكاد الورق يسجع فوقها ... إن الحمام لمغرم بالبان[1]
من معشر نشروا على هام الربا ... للطارقين ذوائب النيران

ومثله قول سبط التعاويذي:

بين السيوف وعينيه مشاركة ... من أجلها قيل للأغماد أجفان

ومن الانسجام المرقص قول القاضي الفاضل، في وكيله الشريف الكحال:

رجل توكل لي وكحلني ... فأصبت في عيني وفي عيني[2]

ومثله قوله فيه:

عادى بني العباس حتى أنه ... خلع السواد من العيون بكحله

ومثله قول ابن الساعاتي:

والطير يقرأ والغدير صحيفة ... والريح تكتب والغمام ينقط

ومثله قوله في النهر:

صدأ الظلام يزيد رونق حسنه ... أرأيت سيفاً قط يصقل بالصدا

وعدّوا من الانسجام المرقص قول عبد الملك بن مازة البخاري، وقد دخل عليه مملوك وفي يده قوس:

نهاني لما بدا عقرب ... على خدّه أن أروم السفر[3]
فقلت وفي يده قوسه ... أسير ففي القوس حل القمر

---

(١) الورق: جمع مفرده ورقاء وهي الحمامة.
(٢) عيني الأولى عضو الإبصار. والثانيه بمعنى صديقي الخدوم.
(٣) العقرب: ما تجعد من الشعر ـ أروم: أطلب.

ومثله قول ابن أردخل التكريتي:

ألفيّ القوام عني أمالو • فقلبي مكسور تلك الإماله

وعدّوا من الانسجام المرقص قول ابن عنين:

دمشق بي شوق إليها مبرّح وإن لج واش أو ألح عذول
بلاد بها الحصباء درّ وتربها عبير وأنفاس الشمال شمول
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلق وصح نسيم الروض وهو عليل

ومن الانسجام المرقص قول الحاجري:

إني لأعذر في الأراك حمامه الشا دي كذلك تفعل العشاق
حكم الغرام الحاجري بأسرها فغدت وفي أعناقها الأطواق(1)

وعدّوا من الانسجام المرقص قول الصاحب بهاء الدين زهير:

فيا ظبي هلّا كان منك التفاتة ويا غصن هلّا كان منك تعطف
ويا حرم الحسن الذي هو آمن وألبابنا من حوله تتخطف(2)
عسى عطفة بالوصل يا واو صدغه علي فإني أعرف الواو تعطف

وعدّوا من المرقص قول محيي الدين بن زيلاق:

ومن عجبي أن يحرسوك بخادم وخدام هذا الحسن من ذاك أكثر
عذارك ريحان وثغرك جوهر وخدّك كافور وخالك عنبر

ومثله قول ابن عربي الموصلي في المرقص:

أنا صب وماء عيني صب وأسير من الضنى في قيود
وشهودي على الهوى أدمع العين ولكنني قذفت شهودي(3)

ومثله قول ابن الحلاوي الموصلي:

كتبت فلولا أن هذا محلل وذاك حرام قست لفظك بالسحر

---

(1) الأسر: الاحتجاز.

(2) الألباب: جمع لب وهو العقل.

(3) القذف: الإدعاء الزور، الاتهام.

فــوالله مــا أدري أزهــر خميـلة … بطرسك أم در يلوح على نحر(١)
فإن كان زهراً فهو صنع سحابـة … وإن كان دراً فهو من لجة البحر

ومثله قول ابن ظهير الأزبكي:

طـرفي وقلبي ذا يسيـل دمـاً وذا … دون الـورى أنت العليم بقـرحـه
وهمـا بحبـك شـاهـدان وإنمـا … تعـديل كـل منهما في جـرحه(٢)
والقلب منزلك القـديم فإن تجـد … فيـه سـواك من الأنـام فنحـه

أنظر هذه القافية ما أحلاها وأمكنها.

ومثله قوله:

غـارت منـاطقــه وأنجـد ردفــه … يـا بعد شقـة غوره من نجـدهٔ(٣)

ومن الانسجام المرقص قول تاج الدين بن الحواري:

فـوالله ما أخـرت عنك مـدائحي … لأمر سوى أني عجزت عن الشكر
وقد رضت فكري مـرةً بعد مـرة … فما ساغ أن أهدي إلى مثلكم شعري
فــإن لم يكن دراً فتلك نقيصـة … وإن كان دراً كيف يهدى إلى البحر

ويعجبني من الانسجام المرقص قول النجم القمراوي:

وحــاكمت النسيم عـلى مــرور … بعــطفيــه فـمــال مــع النـسيم

ومثله قول عبد الكردي:

إذا مــا اشتقت يـومـاً أن أراكم … وحــال الـبعـد بينكم وبيـني
بعثت لكـم سـواداً في بيـاض … لأبـصــركم بـشيء مـثـل عيـني

وعدّوا من الانسجام المطرب قول المهذب بن الخيمي الحلي، وقد كتب إلى والده:

جننت فعــوذني بكتبــك أن لـي … شياطين شوق لا يفارقن مضجعي
إذا استرقت أسرار وجـدي تمرّداً … بعثت إليها في الذجا شهب أدمعي

---

(١) الطرس: ما يكتب عليه.

(٢) التعديل والجرح: مصطلحان في علم الرجال من علوم الحديث.

(٣) غارت: من الغور أي دقت حتى كادت لا تُرى ـ المناطق: أمكنة وضع النطاق،وهي الخَصْر ـ أنجد: من النجد، إرتفع ـ الردف: الكفل والعجيزة والمؤخرة.

ومن الانسجام المرقص قول ابن عبد ربه:

يا ذا الذي خط العذار بخده … خطين هاجا لوعة وبلابلا(١)
ما كنت أقطع أن لحظك صارم … حتى رأيت من العذار حمائلا

ومن أغرب ما رأيت من الانسجام المرقص قول جعفر بن عثمان المصحفي:

خفيت على شرَّابها فكأنما … يجدون رياً في إناء فارغ

ومن الانسجام المرقص قول إدريس بن السمان:

ثقلت زجاجات أتتنا فُرَّغاً … حتى إذا ملئت بصرف الراح
خفت فكادت أن تطير بما حوت … وكذا الجسوم تخف بالأرواح

ومثله قول المعتمد بن عباد:

سميدع يهب الآلاف مبتدئاً … وبعد ذلك يُلفى وهو معتذر(٢)
له يدٌ كل جبار يقبلها … لولا نداها لقلنا إنها الحجر

ويعجبني قول الفضل بن شرف في المرقص:

لم يبق للجور في أيامكم أثر … إلا الذي في عيون الغيد من حور(٣)

ومثله قوله:

تقلدتني الليالي وهي مدبرة … كأنني صارم في كف منهزم

وعدوا من الانسجام المرقص قول ابن رشيق صاحب العمدة، في المعز بن باديس سلطان أفريقية، وقد غاب يوم العيد وكان يوماً ماطراً:

تجهّم العيد وانهلّت بوادره … وكان يعهد منك البشر والضحكا
كأنه جاء يطوي الأرض من بعدُ … شوقاً إليك فلما لم يجدك بكى

وعدوا من الانسجام المرقص قول عبد الله بن محمد العطار:

وكأس ترينا آية الصبح والدجا … فأوّلها شمس وآخرها بدر

---

(١) بلابل الشوق: وساوسه.

(٢) السميدع: السيد الكريم الجواد.

(٣) الغيد: جمع مفرده غيداء وهي الحسناء الناعمة التي تتمايل في مشيتها.

(٤) تجهم: عبس.

مقطبة ما لم يزرها مزاجها ... فإن زارها جاء التبسم والبشر
فواعجباً للدهر لم يخل مهجة ... من العشق حتى الماء يعشقه الخمر

ومثله قول القاضي الجليس بن الجناب المصري:

ومن عجب أن الصوارم في الوغى ... تحيض بأيدي القوم وهي ذكور(١)
وأعجب من ذا أنها في أكفهم ... تأجج ناراً والأكف بحور

وظريف من الانسجام المرقص قول ابن مكنسة:

والسكر في وجنته وطرفه ... يفتح ورداً ويغض نرجسا

وعدّوا من الانسجام المرقص قول ظافر الحداد:

ونفر صبح الشيب ليل شبيبتي ... كذا عادتي في الصبح مع من أحبه

ومثله قول أبي اسحق بن خفاجة:

ونمّت بأسرار الرياض خميلة ... بها الزهر ثغر والنسيم لسان(٢)

وعدوا من الانسجام المرقص قول ابن اللبانة:

بروحي وأهلي جيرة ما استعنتهم ... على الدهر إلا وانثنيت معانا
أراشوا جناحي ثم بلوه بالندى ... فلم أستطع من أرضهم طيرانا(٣)

وعدوا أيضاً من الانسجام المرقص قول ابن الرقاق:

وأغيد طاف بالكؤوس ضحى ... وحثها والصباح قد وضحا
والروض أهدى لنا شقائقه ... وآسه العنبري قد نفحا
قلنا وأين الأقاح قال لنا ... أودعته ثغر من سقى القدحا
فظل ساقي المدام يجحد ما ... قال فلما تبسم افتضحا(٤)

---

(١) الصوارم: جمع مفرده الصارم وهو من السيوف القاطع ـ تحيض: تصبح حائضاً والحيض هو العادة الشهرية عند المرأة. شبه بها تقطر الدم من السيوف لشدة فتكها.

(٢) نمّت: من النميمة، وشت ودلت عليه.

(٣) أراشوا: كسوه ريشاً وهنا بمعنى أغنوا لكثرة عطائهم وإعانتهم.

(٤) يجحد: ينكر.

وعدوا من الانسجام المرقص قول ابن سنا الملك:

لا تخش منّي فإني كالنسيم ضنى   وما النسيم بمخشي على الغصن

وعدوا من الانسجام المرقص قول ابن الدباغ، وقد تقدم:

يا رب إن قدرته لمقبِّل   غيري فللمسواك أو للأكؤس
ولئن قضيت لنا بصحبة ثالث   يا رب فلتك شمعة في المجلس
وإذا قضيت لنا بعين مراقب   يا رب فلتك من عيون النرجس

ومثله قوله:

وأشكو إلى ليل الغدائر غدرها   وأملي عليه وهو في الأرض يكتب

هذه الأبيات تقدمت في باب الانسجام الغرامي، ولكن لم يظهر من مكررها غير الحلاوة.

وعدوا من الانسجام المرقص قول كمال الدين بن النبيه:

وكوكب الصبح نجاب على يده   مخلّق تملأ الدنيا بشائره (١)

وعدوا من الانسجام المرقص قول الصاحب جمال الدين بن مطروح:

إذا ما اشتهى الخلخال أخبار قرطها   فيا طيب ما تملي عليه الضفائر (٢)

وعدوا من الانسجام المرقص قول البرهان بن الفقيه نصر الله:

أقتطف السوداء من لمتي   أخذاً مع البيضاء إذ تسرف (٣)
فتخلف البيضاء أمثالها   وتغضب السوداء فما تخلف
حماقة السودان من ههنا   يعرفها من لم يكن يعرف

وعدوا من الانسجام المرقص قول أمين الدين التلمساني:

ساروا فيا وحشة الوادي لبعدهم   منهم ولا سيما الأغصان والكثب

---

(١) نجاب: غطاء ـ المخلق: المطيب بالخَلوق.

(٢) الخلخال: من الزينة ما يوضع فوق القدم ـ القرط: ما تتزين به المرأة في أذنيها(الحلق) ـ الضفائر: جدائل الشعر.

(٣) اللمة: أول الشعر من مقدم الرأس.

ومن الانسجامات المرجزة التي لو أدركها الشريف تطفل على نسيم أبياتها، واعترف أن ما للصادح والباغم تغريد صادحاتها، أرجوزة الشيخ جمال الدين بن نباتة، الموسومة بنظم السلوك في مصايد الملوك، التي امتدح بها الملك الأفضل بن الملك المؤيد صاحب حماة، وكان قد لقب قبل الأفضل بالمنصور، وهي:

أثنى شذا الروض على فضل السحب ... واشتملت بالوشي أرداف الكتب(١)
ما بين نور مسفر اللثام ... وزهر يضحك في الأكمام(٢)
إن كانت الأرض لها ذخائر ... فهي لعمري هذه الأزاهر(٣)
قد بسطتها راحة الغمائم ... بسط الدنانير على الدراهم
أحسن بوجه الزمن الوسيم ... تعرف فيه نضرة النعيم
وحبذا وادي حماة الرحب ... حيث زها العيش به والعشب
أرض الهناء والسناء والمرح ... والأمن واليمن ورايات الفرح
ذات النواعير سقات الترب ... وأمهات عصفه والأب(٤)
تعلمت نوح الحمام الهتف ... أيام كانت ذات فرع أهيف
فكلها من الحنين قلب ... فكيف لا والما عليها صب
لله ذاك السفح والوادي الغرد ... والماء معسول الرضاب مضطرد
يصبو بها الرائي فكيف السامع ... ويحمد العاصي فكيف الطائع
إذا نظرت للربا والنهر ... فارو عن الربيع أو عن جعفر
محاسناً تلهي العيون والفكر ... ربيع روضات وشحرور صفر
أمام كل منزل بستان ... وبين كل قرية ميدان
أما رأيت الورق في الأوراق ... جاذبة القلوب بالأطواق(٥)
فبادر اللذة يا فلان ... واغنم متى أمكنك الزمان
ولا تقل مشتى ولا مصيف ... فكل أوقات الهنا خريف
كل زمان يتقضى بالجدل ... زمان عيش كلما دار اعتدل

---

(١) أرداف: أطراف وتوابع.

(٢) مسفر: منبلج، منكشف ـ أكمام الزهر: أزرارها وهي أوعيتها قبل تفتحها.

(٣) الذخائر: المدّخرات الثمينة.

(٤) النواعير: جمع مفرده ناعورة وهي دولاب ذي دلاء فوق بئر يخرج الماء بواسطتها ـ العصف: الزرع، أو ثمره. والأب: من الثمار

(٥) الورق: الحمائم.

أحسن ما أذكر من أوقاته ... وخير ما أنعت من لذاته
بروزنا للصيد فيه والقنص ... وحوزنا من مره أحلى الفرص
وأخذنا الوحش من المسارب ... وفعلنا في الطير فوق الواجب
لما دنا زمان رمْي البندق ... سرنا على وجه السرور المشرق(١)
في عصبة عادلة في الحكم ... وغلمة مثل بدور التم(٢)
من كل مبعوث إلى الأطيار ... تظله غمامة الغبار
قد حمد القوم به عقب السفر ... عند اقتران القوس منه بالقمر
لولا حذار القوس من يديه ... لغنت الورق على عطفيه
في كفه محنية الأوصال ... قاطعة الأعمار كالهلال
زهراء خضراء الإهاب معجبه ... مما ثوت بين الرياض المعشبه(٣)
فاغرة الأفواه للأطيار ... طالبة لهن بالأوتار
كأنها بين المياه نون ... أو حاجب بما تشا مقرون
لها بنات بالمنى معذوقه ... من طينة واحدة مخلوقه(٤)
سامعة لما تشير الأم ... مع أنها مثل الحجار صم
كأنها والطير منها هارب ... خلف الشياطين شهاب ثاقب
واهاً لها شبه كرات تخطف ... شاهدة بالعزم وهي تقذف
حتى نزلنا بمكان مونق ... إخوان صدق أحدقوا بالملق(٥)
فيا له في الحسن من محل ... مراد جد ومراد هزل
للطير في مياهه مواقع ... كأنها من حولها فواقع(٦)
فلم نزل في منزل كريم ... نروي حديث الرمي عن قديم
حتى طوى الأفق رداء الورس ... والتهم المغرب قرص الشمس(٧)
وابتدر القوم إلى المراصد ... من ساهر ليل التمام ساهد
كالليث يسطو كفه بأرقم ... والبدر يرمي في الدجا بأسهم(٨)

---

(١) البندق: واحدته بندقه وهي ما يرمى به بواسطة البندقيه.

(٢) غلمة: غلمان جمع غلام وهو الخادم.

(٣) الإهاب: الغلاف الذي يحيط بالنباتات أو بعض الحيوان، الجلد ـ وثوت: أقامت وسكنت.

(٤) معذوقة: معلّمة بعلامات.

(٥) مونق: يانع الثمار، مفتح الأزهار ـ الملّق: جمع مفرده: ملق وهو الكاذب.

(٦) الفواقع: الفقاقيع التي تعلو سطح الماء.

(٧) الورس: نبات يستعمل ثمره للصباغ باللون الأحمر المائل إلى الصفرة الشبيه بالحمرة المغربية.

(٨) الأرقم: الغزال إذا طوقت قوائمه باللون الأبيض.

بينا الطيور في مداها ساهره … إذا هم من عينه بالساهره (١)
وأقبلت مواكب الطيور … على طروس الجو كالسطور
فحبذا السطور في المهارق … منظومة الأحرف بالبنادق (٢)
من كل تم حق أن نسمي … ضياءه المشرق بدر التم
تخاله من تحت عنق قد سجا … طرة صبح تحت أذيال الدجا
وكل ذي حسن من الوسامه … تخاله في أفقه غمامه
تتبعه اوزة دكناء … من دونها لقلقة غراء (٣)
تقدمها أنيسة ملوَّنه … تابعة من كل وصف أحسنه
يجنى بها الأكل خير ما جنى. … وأحسن المأكول ما تلوَّنا
وربما مرَّ لديها حبرج … كأنه على نضار يدرج (٤)
وانقض من بعض الجبال نسر … له بأبراج النجوم وكر
مغير الخلق شديد الأيدي … يبني على الكسر حروف الصيد
تحث مسراه عقاب كاسبه … خافضة لحظ الطيور ناصبه (٥)
إذا مضت جملتها المعترضه … تواصلت خيوطها المنقرضه
بكل كركي عجيب السير … كأنه طيف خيال الطير (٦)
يحث غرنوقاً شهي المجتلى … مقدماً على الغرانيق العلا (٧)
وأبيض كالغيم يسمى مرزما … كم بات مثل نورة مبتسما (٨)
يحشه سبيطر قوي … معجزة في الطير موسويّ
كم حاش ثعباناً وكم حواه … كأنه في يده عصاه
هذا وكم ذي نظر ممتاز … ينعت في الواجب بالعناز (٩)

---

(١) ساهره: سارحة ـ الساهره: الأرض الواسعة والفلاة، وأرض الحشر.
(٢) المهارق: جمع مفرده مهرق وهي الصحيفة البيضاء يكتب فيها.
(٣) اللقلقة: واحدة اللقالق وهي طيور كبيرة طويلة المنقار والقوائم.
(٤) الحبرج: الحُبَارى، طائر طويل العنق رمادي اللون يشبه الإوزة.
(٥) الكاسبة: من العقاب: الجارحة.
(٦) الكركي: طائر كبير أغبر اللون طويل العنق والرجلين أبتر الذنب.
(٧) الغرانيق: جمع غرنوق وهو طائر مائي أبيض طويل الساقين جميل المنظر، له قنزعة ذهبية اللون وهو شبيه بالكركي.
(٨) المرزم: مجموعة من النجوم.
(٩) العنّاز: الجاهل.

أسود إلا لمعة في الصدر ... كأنها نور الهدى في الكفر
فلم تزل قسينا الضواري ... تصيبها بأعين الأوتار
حتى غدت دامية النحور ... ساقطة منها على الخبير
كأنها وهي لدينا وُقّع ... لدى محاريب القسي ركع
وأصبحت أطيارنا قد حصلت ... ولم تسل بأي ذنب قتلت
مستتبعاً وجه العشا وجه السحر ... وكل وجه منهما وجه أغر
يا لك من صيد مقر العين ... مرضي الصحاب وهو ذو الوجهين
لم نرض ما وفى من الأماني ... حتى شفعناه بصيد ثاني
صيد الملوك الصيدُ بالكواسر ... والخيل في وجه الصباح السافر(1)
ذاك الذي تصبو له الجوارح ... فهيَ إلى طلابه طوامح
واثقة بالرزق حيث كانا ... تغدو خماصاً وتجي بطانا (2)
سرنا على اسم الله والمناجح ... نعوم في الأقطار بالسوابح (3)
خيل تحاذي الصيد حيث مالا ... كأنها أضحت له ظلالا
تسعى بها قوائم لا تتبع ... وكيف لا وهي الرياح الأربع
تحفنا من فوقها غلمان ... كأنهم لدوحنا أغصان
ترك تريك في سماء الملبس ... كواكباً طالعة في الأطلس (4)
منظومة الأوساط بالسلاح ... من كل سهم زجل الجناح (5)
وكل عضب ذرب المقاطع ... يحرّف الهام عن المواضع (6)
على يد السائر منهم زاده ... من كل باز قرم فؤاده (7)
قد كتبت في صدره حروف ... تقرا بما تقرى به الضيوف
وكل شاهين شهي المرتمى ... كبارق طار وصوب قد همى(8)
بينا تراه ذاهباً لصيده ... معتصماً بأيده وكيده(9)

---

(1) السافر: الواضح المضيء.

(2) تغدو خماصاً: تروح جوعى ـ وتجي بطانا: تعود ممتلئة البطون.

(3) المناجح: الذين ينجحون وهم الأنبياء ـ السوابح: الخيول.

(4) الأطلس: نوع من القماش الأملس وهو من أسماء السماء الصافية.

(5) زجل الجناح: مصوت الجناح.

(6) العضب: السيف القاطع: والذرب: البليغ ـ الهام: الرؤوس والجباه.

(7) القرم: القوي.

(8) الشاهين: الصقر، من الطيور الجارحة ـ الصوب: المطر ـ همى: هطل.

(9) الأيد: القوة.

حتى تراه عائدا من أفقه ... ملتزماً طائره في عنقه
أفلح من كان على يسراه ... حتى غدت حاسدة يمناه
تلك يد لا تعرف الإعسارا ... لأجل هذا سميت يسارا
وكل صقر مسبل الجناح ... مواصل الغدو والرواح
ذي مقلة لها ضرام واقد ... يكاد يشوي ما يصيد الصائد
كأنما المخلب منه منجل ... لحصد أعمار الطيور مرسل
يا حبذا طيور جد ولعب ... تهوي إلى الأرض وللأفق تشب
من سنقر عالي المدى والشان ... معظم الأخبار والعيان[1]
يصعد خلف الرزق ليس يمهله ... كأنه من السما يستعجله
ومن عقاب بأسها مروع ... كأنها للطير جن يصرع
كم جلبت لطائر من وهن ... وكم وكم قد أهلكت من قرن[2]
وحبذا كواسر الكواهي ... عديمة الأنظار والأشباه[3]
مخصوصة بالطرد القويم ... حدباء ظهر الذنب الرقيم
ذاك لعمري حدب للرائي ... يعدل ملك القلعة الحدباء
هذا وقد تجهزت أعداد ... يجمعها الكلاب والفهاد
من كل فهد عنتري الحمله ... إذا رأى شخص مهاة عبله[4]
مبارك الإقبال والإعراض ... مستقبل الحال بناب ماض
كأنه من حسدة اكتسابه ... قد أحرق الأنجم في إهابه
له على مسايل الجفون ... خط كخط الألفات الجون[5]
ما أبصر المبصر خطا مثله ... وكيف لا والخط لابن مقله
وكل منسوب إلى سلوق ... أهرت وثاب الخطا ممشوق[6]
طاوي الفؤاد ناشر الأظافر ... يا عجباً منه لطاوٍ ناشر

---

(١) سنقر: اسم الملك الأفضل، ابن الملك المؤيد صاحب حماة ـ العيان: الآثار.
(٢) القرن: الجيل من الناس أو الأمة ومنه قوله تعالى: ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا﴾ يونس، ١٠/١٣ وقوله: ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾ الإسراء ١٧/١٧.
(٣) الكواهي: الحديدة النظر.
(٤) العبلاء: الممتلئة الساعدين والفخذين.
(٥) الجون: السوداء.
(٦) المنسوب إلى سلوق: الكلب السلوقي، للصيد ـ أهرت: نباح.

يعض بالبيض ويخطو بالقنا ... ويسبق الوهم لإدراك المنى
كالقوس إلا أنه كالسهم ... والغيم يجلو عن شهاب الرجم
إذا تراءى بقر الوحش اندفع ... كأنه المريخ في الثور طلع(١)
قاصرة عن يده عيناه ... مشروطة برجله أذناه
يشفعه كل عزيز عاري ... مغالب الصيد على الأوكار
واهاً لها من أكلب طوارد ... معربة عن مضمر المصايد
قد بالغت من طمع في كسبها ... ففتشت عن أنفس لم تخبها
حتى إذا تمت بها الأمور ... حفت بنا لصيدها الطيور
ما بين روضات مددنا نحوها ... وحول آفاق ملكنا جوها
واستقبلت أطيارها البزاة ... معلمة كأنها الغزاة (٢)
فلم تزل تسطو سطا الحجاج ... على الكراكي إلى الدراج (٣)
حتى غدت تلك البزاة صرعى ... مجموعة على التراب جمعا
على الربا من دمها خلوق ... كأن كل نبتها شقيق
ثم عطفنا للوحوش السانحة ... واستبقت تلك الضواري الطامحه
كلاب صيد بينها سنافر ... تفعل في الوحش بها الفواقر
تخشى بها العقر على نفوسها ... فالطير لا شك على رؤوسها
وللكلاب حولها مغار ... يكاد أن تقدح منه النار
من نمر لسانه يلوب ... تقول هذا كوسج مخضوب(٤)
يعانق الظبي عناق الوامق ... ما كان أغنى الظبي عن معانق
والفهد يشتد على الآجال ... شد وصي السوء في الأموال
لا يهمل القصد ولا يخون ... كأن كل جسمه عيون
وللزغاريات خلف الأرنب ... حقائق تبطل كيد الثعلب(٥)
كم برحت بالهارب المكدود ... وطوحت بصاحب الأخدود
وربما مرت ظباء ومها ... للنبل في أكل حشاها مشتهى
قد نسجت ملاءة من عنبر ... تخاط من قرونها بالإبر

(١) المريخ والثور: من البروج الكوكبية.
(٢) البزاة: جمع بازي وهو طائر معلم يصطاد بواسطته.
(٣) الدراج: نوع من الطيور شبيه بالسماني.
(٤) يلوب: يتحرك خارج فمه ولا يستقر - الكوسج: نوع من الأسماك المفترسة التي تكثر في المناطق الحارة.
(٥) الزغاريات: نوع من الكلاب البلدية التي تقصر أذنابها وآذانها لتصبح أقوى وأشرس.

فـاستـدرت أجنحـة السهـام … صـائبـة الأغـراض والمـرامي
تـجـرح كـل سـانـح نفـور … كـأنـه بـعض شـهـود الـزور
كـأن أقطار الفلاة مجـزره … أو روضـة من الدمـاء مزهـره
كـأن صـرعى وحشـها كفـار … المـوت عقبى أمـرها والنـار
للمـرء فيهـا منظر أحبـه … يمـلأ من لحم وشحم قلبـه
لله ذاك المـنظر المـهنـا … أي معـاد عـن ذراه عـدنـا
قـد ملئت من ظَفَرٍ أيـدينـا … وقـد شكـرنـا فضل مـا حبينا
نسيـر حـول الملك المنصـور … كـالشهب حـول القمـر المنيـر
محمـد نـاصـر ديـن أحمـد … الملك ابـن المـلك المـؤيـد
يـا حبذا من والـد ومن ولـد … وحبـذا من شبـل ملك وأسـد(١)
فـرع زهـا بـأصـلـه أيـوب … فـأثـمـرت بحبـه القـلوب
قـال الأنـام حـظه جـليّ … قـلت نـعـم وجـده علـيُّ
ذاك الـذي سام العـلا صبيـا … وجـاءهـا من مهـده مهـديـا
محكم السطوة سحاح الـديم … يأخذ بالسيف ويعطي بالقلم
لـو لمس الصخـر لفـاض نهرا … أو صـحب النجـم لعـاد بـدرا
لا ظلم يلفى في حماه العالي … إلا عـلى العـداة والأمـوال
أمـا تـرى الدينار منه خـائفـا … أصفـر من كف الهبات نـاشفـا
كـالبـدر في سنـائـه وتمـه … والطـود فـي وقـاره وحـلمـه
مـرأى يشف عن فخـار أصـل … ونسخـة قـد قـوبلت بالأصـل
مـا ضـر من خيَّم في جنـابـه … أن لا تكـون الشهب من أطنابـه
جناب عزٍ جـاره لا ينـكـب … وبـاب نجـح للغنى مجـرب(٢)
غنيت في ظـلالـه عن الـورى … غنى نزيل المدن عن قصد القرى
ورحت من نـعمـاه بـالتـواتـر … أروي أحـاديث عـطا عن جـابـر
يـزداد لفـظي بهجـة ورونقـا … كـأنـه الخمـر إذا تـعتـقـا
إن لم أرم ذاك الحمى العالي فمن … ينصـرني على تصـاريف الـزمن
يـا نـاصـر الـدين دعـاء مـادح … مـا بين روضـات السطور صادح
حسبـك مثلي في الأنام شـاعـرا … وحسب شعـري قـوة ونـاصـرا

---

(١) الشبل: ابن الأسد.

(٢) لاينكب: لايصاب بنكبة وهي الكارثة والمصيبة ـ النجح: النجاح، والغنى.

ومن الأراجيز المرتجلة، التي سارت الركبان ببلاغة ارتجالها ولطف انسجامها، أرجوزة الشيخ زين الدين عمر بن المظفر الوردي، سقى الله ثراه، التي ارتجلها بدمشق المحروسة عند الامتحان المفحم. [فقد] ذكر الشيخ الإمام العلامة إمام المحدثين، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، أن الشيخ زين الدين المشار إليه قدم دمشق المحروسة، في أيام القاضي نجم الدين بن صصري تغمده الله برحمته ورضوانه، فأجلسه في الصفة المعروفة بالشباك في جملة الشهود، وكان يومئذ زري[1] الحال، فاستخف به الشهود. فحضر يوماً كتابة مشترى ملك، فقال بعضهم: أعطوا المعري يكتبه على سبيل الاستهزاء. فقال الشيخ: ارسموا لي أكتبه، نظماً أو نثراً. فزاد استهزاؤهم به فقالوا: بل نظماً. فأخذ الطرس وكتب ارتجالاً ما صورته:

باسم إله الخلق هذا ما اشترى	محمد بن يونس بن سنقرا
من مالك بن أحمد بن الأزرق	كلاهما قد عرفا من جلق
فباعه قطعة أرض واقعة	بكورة الغوطة وهي جامعه[2]
لشجر مختلف الأجناس	والأرض في البيع مع الغِراس
وذرع هذي الأرض بالذراع	عشرون في الطول بلا نزاع
وذرعها في العرض أيضاً عشره	وهو ذراع باليد المعتبره
وحدها من قبلة ملك التقي	وحائز الرومي حدّ المشرق[3]
ومن شمال ملك أولاد علي	والغرب ملك عامر بن جهبل
وهذه تعرف من قديم	بأنها قطعة بنت الرومي
بيعت صحيحاً لازماً شرعيا	ثم شراء قاطعاً مرعيا
بثمن مبلغه من فضه	وازنة جيدة مبيضه
جارية للناس في المعامله	ألفان منها النصف ألف كاملة
قبضها البائع منه وافيه	فعادت الذمة منها خاليه
وسلم الأرض إلى من اشترى	فقبض القطعة منه وجرى
بينهما بالبدن التفرق	طوعاً فما لأحد تعلق

(١) زري الحال: سيء الحال، أزرى به الفقر وضايقه.

(٢) الكورة: الناحية.

(٣) قُبلة: الجهة الجنوبية. وسميت القبلة لأنها الجهة التي فيها القبلة التي نولي إليها وجوهنا في الصلاة.

ثم ضمان الدرك المشهور فيه على بائعه المذكور
وأشهدا عليهما بذاك في رابع عشر رمضان الأشرف
من عام سبعمائة وعشره من بعد خمسة تليها الهجره
والحمد لله وصلى ربي على النبي وآله والصحب
يشهد بالمضمون من هذا عمر ابن المظفر المعري إذ حضر

فلما فرغ الشيخ من نظمه، وتأمل الجماعة ارتجاله وسرعة بديهته، اتفق أنه لم يكن فيهم من يحسن النظم: فقالوا، وقد اعترفوا بفضل الشيخ وعجزوا عن رسم الشهادة: لعل الشيخ يسد عن أحدٍ منا برسم شهادته. فكتب عن شخص منهم إلى جانبه يدعى ابن رسول:

وقد حضر العقد الصحيح أحمد ابن رسول وبذاك يشهد

ومما استعذب، من انسجامات الشيخ برهان الدين القيراطي قوله، من قصيدة تائية:

أخذت بابل عنه بعض تلك النفثات(١)
فهو غصن في انعطاف وغزال في التفات
حسنات الخد منه قد أطالت حسراتي
كلما ساء فعالا قلت إن الحسنات
ولسوء الحظ صارت حسناتي سيئاتي
أعشق الشامات منه وهي أسباب مماتي

ويعجبني قوله منها:

بأبي لحظ غزال قائل في الخلوات
إن للموت بأقدا ح جفوني سكرات
قلت قَدْ مِتُّ غراماً قال لي مت بحياتي

ومنها:

قلت إذ حرك عودا عازفاً بالنغمات
أنت مفتاح سروري يا سعيد الحركات

ومن انسجاماتي الغرامية المرجزة، التي تقدمني فيها الشيخ جمال الدين بن نباتة، والشيخ زين الدين بن الوردي، قصيدتي الدالية التي كتبت بها قديماً من حماة المحروسة، إلى

---

(١) النفثات: واحدتها نفثه وهي المناجاة. أو السِّحْر.

القاضي فخر الدين بن مكانس وولده القاضي مجد الدين، تغمدهما الله برحمته، وهي:

ما لمعت بارقة من نجد ... إلا وهزّتني وعود وجدي
ولا سرت سحابة مغدقة ... إلا وكان مثلها في خدي[1]
فيا رعى الله زماناً بالحمى ... فإن لي فيه بقايا عهد
ويا رُبى مصر مراضع الحيا ... يرضعك الغيث بذاك المهد
كم ليلة قضيتها وأنجم الـ ... ـجوزاء فوق صدرها كالعقد
والأرض قد حاكت برود وشيها ... يحار في صفاتها ابن برد
وكوثر النيل يروق منظراً ... حتى كأني في جنان الخلد
وهند ما تخطر في برودها ... إلا أمالت عذبات الرند[2]
مضرية لكن يماني لحظها ... منتسب في فتكه للهند
آه له من سيف لحظ باتر ... زاد على عشاقه في الحد
عبد مناف جدها وإنما ... قلبي لها قد صار عبد ود
يا لأمير النحل قرص وجهها ... يشهد أن ريقها من شهد
وثغرها يقول في نظامه ... يا يتم أبكار اللآلي بعدي
وشعرها الطائل قد قلنا له ... أنت لنا نابغة يا جعدي
وريقها قال النباتيُّ أنا ... وخدها قال أنا ابن الوردي
والغصن حاكى قدَّها قالت له ... ما أنت يا غصن الرياد قدّي[3]
يا قدُّها وردفها لولاكما ... ما اشتقت بانات الكثيب الفرد
سألتها لم صرفت عن ناظري ... وكلفت قلبي بطول النقد
قالت تركت الفخر من بين الورى ... وقد قعدت عن طلاب المجد

لعمري إن الشرح قد طال في نوع الانسجام، ولكن ما استطردت بخيوله إلا إلى كل مهيع[4] بديع وغريب. فبيت الشيخ صفي الدين الحلي، في بديعيته على نوع الانسجام، يقول فيه عن النبي ﷺ:

فذكره قد أتى في هل أتى وسبا ... وفضله ظاهر في نون والقلم[5]

---

(١) مغدقة: ممطرة.

(٢) الرند: نبات من شجر البادية طيب الرائحة يشبه الآس.

(٣) حاكى: شابه ـ الرياد: التمايل.

(٤) المهيع: من كل شيء: البيِّن الواضح.

(٥) هل أتى، وسبأ، ونون والقلم: بدايات سور من القرآن الكريم، وهي على التوالي: الإنسان، سبأ والقلم.

انسجام الشيخ صفي الدين في بيته ظاهر. والعميان ما نظموا هذا النوع في بديعيتهم. وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعيته:

بان انسجام كلام منزل عجب يهدي ويخبرنا عن سالف الأمم

بيت الشيخ عز الدين لم يكن له تعلق بما قبله من المديح النبوي، والذي يظهر لي منه أنه أشار به إلى القرآن بأنه كلام منزل، وانسجامه عجب يهدي ويخبرنا عن سالف الأمم. وبيت بديعيتي أقول فيه، عن النبي ﷺ:

له انسجام دموعي في مدائحه بالله شنف بها يا طيب الكلم

ولقد عجبت من الشيخ عز الدين، كيف عقد بيت انسجامه مع سهولة هذا النوع وقرب مأخذه ولطف تسميته وقبولها للاشتراك. انتهى.

ذكر التفصيل

وإن ذكرت زماناً ضاع من عمري ... في غير تفصيل مدح صحت يا ندمي

التفصيل: بصاد مهملة، نوع رخيص بالنسبة إلى فن البديع، والمغالاة في نظمه. وقد نبهت قبله على عدة أنواع سافلة، ولكن المعارضة أوجبت الشروع في نظمه، كالتصدير، وعتاب المرء نفسه، وتشابه الأطراف وما أشبه ذلك.

والتفصيل هو أن يأتي الشاعر بشطر بيت له متقدم، صدراً كان أو عجزاً، ليفصل به كلامه بعد حسن التصريف في التوطئة الملايمة.

والعميان لم ينظموا هذا النوع في بديعيتهم، وغالب علماء البديع لم يذكروه في مصنفاتهم، غير أن الشيخ صفي الدين الحلي أورده في بديعيته، فدعت المعارضة إلى نظمه. وبيته في بديعيته:

صلى عليه إله العرش ما طلعت ... شمس النهار ولاحت أنجم الظُلَم

فصدر هذا البيت ذكر أنه تقدم له في قصيدة قافية، امتدح بها النبي ﷺ، مطلعها:

فيروزج الصبح أم ياقوتة الشفق ... بدت فهيجت الورقاء في الورق

والبيت الذي أتى بصدره منها وأثبته في بديعيته على حاله لأجل نوع التفصيل [هو]:

صلى عليه إله العرش ما طلعت ... شمس النهار ولاحت أنجم الغسق[1]

وبيت الشيخ عز الدين الموصلي في بديعيته:

تفصيل مدحك تجميل لذي أدب ... أوصاله كفت البلوى من الرُّقِم

فصدر بيت الشيخ عز الدين كان عجزاً في قصيدة تقدمت له بائية، مطلعها:

لو أن وجه رضائي غير منتقب ... ما سر قلبي بلوغي غاية الأرب[2]

---

(١) الغسق: الليل.

(٢) منتقب: مغطى بالنقاب وهو الحجاب أو كل ما يستر الوجه ـ الأرب: الحاجة.

الذي جعل صدره عجزاً وأبقاه على حاله في بديعيته، لأجل نوع التفصيل:

كسوتني حللاً بين الأنام بها ... تفصيل مدحك تجميل لذي أدب

هذا البيت كان تفصيل حلله كاملاً في موضعه. ولما نقل الشيخ عز الدين عجزه، وجعله صدراً في بديعيته، ظهر في تفصيله نقص بقوله مع العقادة في العجز، كفت البلوى من الرقم. فإن الرقم بفتح الراء وكسر القاف الداهية. قلت: والداهية إذا دخلت بيتاً تركته خراباً. وبيت بذيعيتي أقول فيه، عن النبي ﷺ:

وإن ذكرت زماناً ضاع من عمري ... في غير تفصيل مدح صحت يا ندمي

فصدر هذا البيت تقدم لي، في قصيدة فائية مطلعها:

قد مال غصن النقا عن صبه هيفا ... يا ليته بنسيم العتب لو عطفا

والبيت الذي نقلت صدره منها وأثبته في بديعيتي، وأبقيته على حاله، لأجل نوع التفصيل [هو]:

وإن ذكرت زماناً ضاع من عمري ... ولم أهاجر إليه صحت يا أسفا

وهذه القصيدة من غرر قصائدي، بل من غرر القصائد، منها:

مزاج خمرة فيه جاء معتدلا ... فراح منه مزاج الراح منحرفا
ومذ غدا جسمه ماء برقته ... علمت والله أن القلب منه صفا
منه الغزالة غارت عينها حسداً ... والبدر قد لازم التسهيد والكلفا(١)
والظبي قال أنا أحكي لواحظه ... فصح عندي أن الظبي قد خرفا(٢)

ومنها: مذ صار لي قبلة محراب حاجبه ... صيرت عابد طرفي فيه معتكفا(٣)
ولام فيه عذول قلت من كلفي ... قلبي رأى منه قداً في الهوى ألفا
ما ضره لو عفا عني وأظهر لي ... عطفاً وعاين ربع الصبر كيف عفا
أراد مني وَكْفَ الدمع قلت له ... حسيبك الله يا بدر الدجى وكفى(٤)

لم أستطرد إلى ذكر هذه الأبيات هنا إلا لأن نوع التفصيل لم يحتمل إطلاق عنان القلم في الكلام عليه إلى أكثر من ذلك.

الغزالة: : الشمس ـ الكلف: الحمرة الكَدِرة التي تعلو وجه القمر أحياناً.

(٢) الخرف: مرض يصيب العقل فيفسده.

(٣) المحراب: مقام الإمام من المسجد ـ والاعتكاف: الإقتصار على البيت أو المكان وعدم الخروج منه.

(٤) وَكْفَ الدمع: انصبابه وانهماره.

فهرس الموضوعات